وفيات الأعيان

وأنباء أبناء الزمان

لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان
(٦٠٨ - ٦٨١ هـ)

حققه

الدكتور إحسان عباس

المجلد الخامس

دار صادر
بيروت

١٣٩٧هـ ١٩٧٧م

وفيات الأعيان

٥

٦٨١

ابن المعلم الشاعر

أبو الغنائم محمد بن علي بن فارس بن علي بن عبد الله بن الحسين بن القاسم ، المعروف بابن المعلم الواسطي الهُرثي ، الملقب نجم الدين ، الشاعر المشهور ؛ كان شاعراً رقيق الشعر لطيف حاشية الطبع ، يكاد شعره يذوب من رقته ، وهو أحد من سار[1] شعره وانتشر ذكره ونَبُه بالشعر قدره وحسن به حاله وأمره وطال في نَظْم القريض عمره وساعده على قوله زمانه ودهره ، وأكثر القول في الغزل والمدح وفنون المقاصد ، وكان سهل الألفاظ صحيح المعاني يغلب على شعره وصف الشوق والحب وذكر الصبابة والغرام ، فعلق بالقلوب ولطف مكانه عند أكثر الناس ومالوا إليه وحفظوه[2] وتداولوه بينهم واستشهد به الوعاظ واستحلاه السامعون .

سمعت جماعة من مشايخ البطائح يقولون : ما سبب لطافة شعر ابن المعلم إلا أنه كان إذا نظم قصيدة حفظها الفقراء[3] المنتسبون إلى الشيخ أحمد بن الرفاعي – المقدم ذكره في حرف الهمزة[4] – وغنوا بها في سماعاتهم وطابوا عليها، فعادت عليه بركة أنفاسهم، ورأيتهم يعتقدون ذلك اعتقاداً لا شك[5] عندهم فيه ، وبالجملة

---

٦٨١ – ترجمته في مرآة الزمان : ٤٥١ وذيل الروضتين : ٩ والوافي ٤ : ١٦٥ وعبر الذهبي ٤ : ٢٧٩ والشذرات ٤ : ٣١٠ والنجوم الزاهرة ٦ : ١٠٢ .

١ بر : شاع .

٢ ر بر : وتحفظوه .

٣ ر والمختار : الشعراء .

٤ انظر ج ١ : ١٧١ .

٥ بر من : اعتقاد من لا شك .

فشعره يشبه النوح ، ولا يسمعه مَنْ عنده أدنى هوًى إلا فتنه[1] وهاج غرامه .

وكان بين ابن المعلم المذكور وبين ابن التعاويذي المذكور قبله تنافس، وهجاه ابن التعاويذي بأبيات جيمية أجاد فيها ولا حاجة إلى ذكرها[2] .

ولابن المعلم قصيدة طويلة أولها :

ردوا عليّ شواردَ الأظعان ... ما الدار إن لم تَغْنَ من أوطاني

منها :

ولكم بذاك الجزع من متمنع ... هَزَأت معاطِفُه بغصن البان

أبدى تلونه بأولِ موعدٍ ... فَمَنِ الوفيُّ لنا بوعد ثاني

فمتى اللقاءُ ودونه من قومه ... أبناءُ معركةٍ وأُسْدُ طِعانِ

نقلوا الرماحَ وما أظنُّ أكفَّهم ... خُلقت لغير ذوابلِ المران

وتقلّدوا بيضَ السيوفِ فما ترى ... في الحيّ غيرَ مُهَنّدٍ وسِنان

ولئن صددت فمن مراقبة العدا ... ما الصدُّ عن ملَلٍ ولا سلوان

يا ساكني نعمانَ أين زمانُنا ... بطُوَيلعٍ يا ساكني نعمان

وله من أخرى[3] :

كم قلت إياك العقيق فإنه ... ضَرِيَت جآذره بصيد أسوده

وأردتَ صيدَ مَهَا الحجاز فلم يسا ... عدك القضاء فرُحْتَ بعض صيوده

وله من أخرى :

أجيرانَنا إن الدموع التي جرت ... رخاصاً على أيدي النوى لَغَوالي

أقيموا على الوادي ولو عمر ساعة ... كلَوْثِ إزار أو كحلِّ عقال

---

١ ر ق مج بر : افتتنه ، وأثبتنا ما في بر والمختار .

٢ ديوان ابن التعاويذي : ٧٥ .

٣ سقط البيتان من بر ت س ، وقد أوردهما المؤلف من قبل في ترجمة التهامي ٣ : ٣٨٠ ونسبهما هناك للتهامي ، وهما ثابتان في ترجمة ابن المعلم في « المختار » أيضاً .

فكم ثمَّ لي من وَقفةٍ لو شَرَيتُها   بنفسيَ لم أُغبن فكيف بمـــالي

[وله من أخرى :

كيف يخفي سر الهوى المستهام   هي حزوى ومـا الخيام الخيام
ولئن كانت الخيام ومـــا النا   س بها الناس ، فالغرام الغرام][1]

وله من أخرى :

قسماً بما ضُمّتْ عليه شفاههم   من قَرْقَفٍ في لؤلؤٍ مكنونِ
إن شارف الحادي العُذَيبَ لأقضيَنْ   نحبي ومن لي أن تَبَرّ يميـني
لو لم يكنْ آثارُ ليلى والهوى   بتِلاعِــه مـــا رحت كالمجنون

وكان سبب عمل هذه القصيدة أن ابن المعلم المذكور والأبله وابن التعاويذي المذكورين قبله لما وقفوا على قصيدة صرّدُرٌ – المقدم ذكره في حرف العين[2] – التي أولها[3] :

أكذا يُجازى ود كل قرينِ   أم هذه شيم الظباء العِينِ

وهي من نُخَب القصائد [وسأذكرها في ترجمة عميد الملك محمد ان شاء الله تعالى][4] أعجبتهم ، فعمل ابن المعلم من وزنها هـذه القصيدة وعمل ابن التعاويذي من وزنها قصيدة أبدع فيها ، وأرسلها إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي ، رحمه الله تعالى ، وهو بالشام يمدحه بها ، وأولها :

إن كان دينك في الصبابة ديني   فقِفِ المطيَّ برملتَيْ يَبْرِينِ

وعمل الأبله قصيدة أخرى ، وأحسنُ الكل قصيدة ابن التعاويذي .

---

١ زيادة من مج .
٢ انظر ج ٣ : ٣٨٥ .
٣ ديوان صردر : ٥٣ .
٤ زيادة من ر ق .

وحكي عن ابن المعلم المذكور أنه قال : كنت ببغداد ، فاجتزت يوماً بالموضع الذي يجلس فيه أبو الفرج ابن الجوزي للوعظ ، فرأيت الخلق مزدحمين، فسألت بعضهم عن سبب الزحام فقال : هذا ابن الجوزي الواعظ جالس ، ولم أكن علمت بجلوسه ، فزاحمت وتقدمت حتى شاهدته وسمعت كلامه وهو يعظ حتى قال مستشهداً على بعض إشاراته : ولقد أحسن ابن المعلم حيث يقول :

يزدادُ في مسمعي تَكْرارُ ذكركمُ طيباً ، ويحسنُ في عيني تكرُّرُهُ

فعجبت من اتفاق حضوري واستشهاده بهذا البيت من شعري ، ولم يعلم بحضوري لا هو ولا غيره من الحاضرين .

وهذا البيت من جملة قصيدة له مشهورة .

ولابن المعلم في أثناء قصيدة أيضاً :

يوهي قُوَى جَلَدي مَنْ لا أبوح به ويستبيح دمي من لا أسميه
قسا فما في لساني ما يعاتبه ضعفاً ، بلى في فؤادي ما يقاسيه

وفي يوم وقعة الجمل على البصرة ، قبل مباشرة الحرب ، أرسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ابن عمه عبد الله بن العباس ، رضي الله عنهما ، إلى طلحة والزبير رضي الله عنهما برسالة يكفهما عن الشروع في القتال ، ثم قال له : لا تلقين طلحة فانك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً أنفه يركب الصعب ، ويقول : هو الذلول ، ولكن الق الزبير ، فإنه ألين عريكة منه ، وقل له : يقول لك ابن خالك : عرفْتَني بالحجاز ، وأنكرتني بالعراق ، فما عدا مما بدا ؟ وعلي ، رضي الله عنه ، أول من نطق بهذه الكلمة ، فأخذ ابن المعلم المذكور هذا الكلام وقال :

منحوه بالجزع السلام وأعرضوا بالغَوْر عنه ، فما عدا مما بدا

وهذا البيت من جملة قصيدة طويلة .

ورسالة عليّ نقلتها من كتاب « نهج البلاغة »[1] .

---

[1] وفي يوم وقعة ... البلاغة : لم يرد في بر من س ت مج .

ولا حاجة إلى الإطالة بذكر فرائده مع شهرة ديوانه وكثرة وجوده بأيدي الناس .

وكانت ولادته في ليلة سابع عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسمائة . وتوفي رابع رجب سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة بالهُرْث ، رحمه الله تعالى .

والهُرْثُ : بضم الهاء وسكون الراء وبعدها ثاء مثلثة ، وهي قريــة من أعمال نهر جعفر ، بينها وبين واسط نحو عشرة فراسخ ، وكانت وطنه ومسكنه إلى أن توفي بها ، رحمه الله تعالى .

٦٨٢

البحراني الشاعر

أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن قائد ، الملقب موفق الدين الإربلي أصلاً ومنشأ البحراني مولداً الشاعر المشهور ؛ كان إماماً مقدماً في عــلم العربية ، مفنناً [١] في أنواع الشعر ، ومن أعلم الناس بالعروض والقوافي وأحذقهم بنقد الشعر وأعرفهم بجيده من رديئه وأدقهم نظراً في اختياره . واشتغل بشيء من علوم الأوائل ، وحل كتاب إقليدس [٢] ، وبدأ ينظم الشعر وهو صبي صغير بالبحرين جرياً على عادة العرب قبل أن ينظر في الأدب .

وهو شيخ أبي البركات ابن المستوفي صاحب « تاريخ إربل » — المقدم ذكره [٣] — وعليه اشتغل بعلوم الشعر وبه تخرج ، وقد ذكره في تاريخه وعدد فضائله ، وقال : كان شيخنا أبو الحرم مكي الماكسيني [٤] النحوي — وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى —

---

٦٨٢ — لم ترد ترجمته في القطعة التي بقيت من تاريخ ابن المستوفي .

١ ر ن من : متفنناً .

٢ س ت بر من : أوقليدس .

٣ ج ٤ : ١٤٧ .

٤ ت س مج بر من : الماكساني .

يراجعه في كثير من المسائل المشكلة في النحو وكان يرجع إليه في أجوبة ما يورد عليه . وكان قد رحل إلى شَهْرزُورَ وأقام بها مدة ، ثم رحل إلى دمشق ومدح السلطان صلاح الدين ، رحمه الله تعالى ، بقصيدة طويلة ، وله ديوان شعر جيد ورسائل حسنة ، وكان في الشعر في طبقة معاصريه ممن تقدم ذكرهم .
ومن شعره قصيدة يمدح بها زين الدين أبا المظفر يوسف بن زين الدين صاحب إربل – وقد تقدم ذكره في ترجمة أخيه مظفر الدين في حرف الكاف[1] – :

رُبَّ دارٍ بالغضا طال بلاهَا ... عكف الركب عليها فبكاها
دَرَسَت إلا بقايا أسطر ... سَمَحَ الدهر بها ثم محاها
كان لي فيها زمانٌ وانقضى ... فسقى الله زماني وسقاها
وقَفَتْ فيها الفوادي وقفةً ... ألصقت حرَّ ثراها بحشاها[2]
وبكت أطلالها نائبةً ... عن جفوني ، أحسن الله جزاها
قل لجيرانٍ مَوَاثيقهمُ ... كلما أحكمتُهَا رَثّتْ قواها
كنت مشغوفاً بكم إذ كنتمُ ... شجراً لا يبلغ الطير ذُرَاها
لا تبيت الليلَ إلا حولها ... حرس ترشح بالموت ظُبَاها
وإذا مُدَّتْ إلى أغصانها ... كفُّ جانٍ قطعت دون جناها
فتراخى الأمرُ حتى أصبحت ... هَمَلاً يطمع فيها من رآها[3]
تخصبُ الأرض فلا أقربها ... رائداً إلا إذا عز حماها
لا يراني الله أرعى روضةً ... سهلة الأكناف من شاء رعاها
وإذا ما طمعٌ أغرى بكم ... عرض اليأس لنفسي فثناها
فصبابات الهوى أولها ... طمعُ النفسِ وهذا منتهاها
لا تظنّوا لي إليكم رجعةً ... كشف التجريبُ عن عيني عَمَاها

[1] ج ٤ : ١١٣ .
[2] المختار وبعض النسخ : الفواني ؛ ووقع البيت ثالثاً في ت س مج .
[3] بهامش س : يراها ، وكذلك في ق بر .

إن زَيْنَ الدين أولاني يداً لم تدع لي رغبة فيما سواها

وهي طويلة أجاد في مدحها[1] .

وكان أبوه من أهل إربل وصنعته التجارة، وكان يتردد من إربل إلى البحرين ويقيم بهـا مدة لتحصيل اللآلىء من المغاصات أسوة التجار ، فاتفق أن ولد له هناك الموفق أبو عبد الله المذكور ، ثم انتقل إلى إربل فنسب إلى البحرين لهذا السبب[2] .

وله معنى مليح في غلام اسمه السهم وقد التحى :

قالوا التحى السهمُ قلت حصّنْ حشــاك فـالآن لا يطيشْ

فالسهم لا ينفــذ الرمــايا إلا إذا كانَ فيه ريش

وتوفي ليلة الأحد ثالث شهر ربيع الآخر[3] سنة خمس وثمانين وخمسمائة بإربل، ودفن بمقبرة أهله قبلي البَسْت، رحمه الله تعالى. قال المطرزي في كتاب «المغرب»: البست كلمة فارسية وهو مفتح الماء في فم النهر[4] .

والبَحراني: بفتح الباء الموحدة وسكون الحاء المهملة وفتح الراء وبعد الألف نون ، هذه النسبة إلى البحرين المقدم ذكرها ، وهي بُليدة بالقرب من هَجَر ، قال الأزهري : وإنما سميت البحرين لأن في ناحية قراها بحيرة على باب الأحساء وقرى ، هجر بينها وبين البحر الأخضر عشرة فراسخ ، وقدرت البحيرة ثلاثة أميال في مثلها ، ولا يغيض ماؤها ، وهو راكد زُعاق . وحدث أبو عبيد عن أبي محمد اليزيدي قال: سألني المهدي وسأل الكسائي عن النسبة إلى البحرين وعن الحصنين ، لم قالوا : حصني ، وبحراني ؟ فقال الكسائي : كرهوا أن يقولوا

---

١ ن : أجاد فيها ؛ بر من : فيها وفي مدحها .

٢ زاد في مج س ت : وتردد إلى البلاد ورحل في آخر عمره إلى الموصل، وتوفي بها ليلة الأحد... الخ ، وقد سقط البيتان التاليان من النسخ المذكورة ومن بر من .

٣ ت : الأول .

٤ قال المطرزي ... النهر : زيادة من ن ر ق ؛ وانظر المغرب ١ : ٣٧ .

حصناني لاجتماع النونين ، قال : وقلت أنا : كرهوا أن يقولوا بحري فتشبه النسبة إلى البحر .

والبَسْت : بفتح الباء الموحدة وسكون السين المهملة وبعدها تاء مثناة من فوقها ، واد عريض في وسط إربل تجري فيه مياه السيول في الشتاء والربيع وفيه شيء كثير من الحجارة الصغار ، والله أعلم .

٦٨٣

أبو شجاع الفرضي

أبو شجاع محمد بن علي بن شعيب ، المعروف بابن الدهان ، الملقب فخر الدين ، البغدادي الفرضي الحاسب الأديب ؛ هو من أهل بغداد ، وانتقل إلى الموصل وصحب جمال الدين الأصبهاني الوزير بها ، ثم تحول إلى خدمة السلطان صلاح الدين فولاه ديوان ميَّافارقين ، فلم يعش له بها حال مع واليها ، فدخل[1] إلى دمشق فأجريَ له بها رزق لم يكن كافياً وكان يزجي به الوقت ، ثم ارتحل إلى مصر في سنة ست وثمانين وخمسمائة ثم عاد منها إلى دمشق وجعلها دار إقامة . وله أوضاع الجداول في الفرائض وغيرها ، وصنف « غريب الحديث » في ستة عشر مجلداً لطافاً ، ورمز فيه حروفاً يستدل بها على أماكن الكلمات المطلوبة منه ، وكان قلمه أبلغ من لسانه ، وجمع تاريخاً وغير ذلك .

وذكره أبو البركات ابن المستوفي في «تاريخ إربل» وعده في زمرة الوافدين عليها ، وقال في حقه : عالم فاضل متفنن[2] ، وله شعر جيد ، وذكر الأبيات التي

---

٦٨٣ – ترجمته في ذيل الروضتين : ٩ والوافي ٤ : ١٦٤ والنجوم الزاهرة ٦ : ١٣٦ ، ١٣٩ وعبر الذهبي ٤ : ٢٧٤ والشذرات ٤ : ٣٠٤ وبغية الوعاة : ٧٦ واقتصر من هذه الترجمة في المختار على ثلاثة أبيات من شعره .

١ ن : فرحل .

٢ بر من : متقن .

مدح بها الشيخ تاج الدين أبا اليمن زيد بن الحسن الكندي ، وقد ذكرتها في ترجمة الكندي[1] .

وذكره أيضاً العماد الكاتب في «الخريدة»[2] وأثنى عليه ، وأورد له مقاطيع أحسن فيها ، فمن ذلك قوله في ابن الدهان المعروف بالناصح أبي محمد سعيد بن المبارك النحوي – وقد سبق ذكره[3] – وكان مخلاً باحدى عينيه :

لا يبعد الدهان إن ابنه أدهنُ منه بطريقين
في عجبِ البحر[4] فحدث به بفردِ عَيْنٍ وبوجهين

ومنه ما كتبه إلى بعض الرؤساء وقد عوفي من مرضه :

نَذَرَ الناسُ يومَ برئك صوماً غير أني نذرتُ وحديَ فطرا
عالماً أن يوم بُرْئِكَ عيدٌ لا أرى صومه ولو كان نذرا

وله غير ذلك أناشيد حسان . وكانت له اليد الطولى في النجوم وحَلّ الأزياج . وتوفي في صفر سنة تسعين وخمسمائة بالحلة السيفية ، وكان سبب موته أنه حج من دمشق وعاد على طريق العراق ، ولما وصل إلى الحلة عثر جمله هناك فأصاب وجهه بعض خشب المحمل فمات لوقته . وكان شيخاً دميم الخلقة مسنون الوجه مسترسل اللحية خفيفها ، أبيض تعلوه صفرة ، رحمه الله تعالى . وقيل إنه كان يلقب برهان الدين ، والله أعلم أي ذلك كان .

وقد تقدم الكلام على الحلة فلا حاجة إلى إعادته .

---

١ انظر ما تقدم ٢ : ٣٤١ .

٢ الخريدة (قسم العراق) ٢ : ٣١٢ .

٣ ج ٢ : ٣٨٢ .

٤ بر من : من عجب الدهر .

٦٨٤

ابن عنين الشاعر

أبو المحاسن محمد بن نصر[١] بن الحسين بن عُنَيْن الأنصاري ، الملقب شرف الدين ، الكوفي الأصل الدمشقي المولد الشاعر المشهور ؛ كان خاتمة الشعراء لم يأت بعده مثله ، ولا كان في أواخر عصره من يقاس به ، ولم يكن شعره مع جودته مقصوراً على أسلوب واحد بل تفنن فيه ، وكان غزير المادة من الأدب مطلعاً على معظم أشعار العرب ، وبلغني أنه كان يستحضر نقل[٢] كتاب «الجمهرة» لابن دريد في اللغة ، وكان مولعاً بالهجاء وثَلب أعراض الناس ، وله قصيدة طويلة جمع فيها خلقاً من رؤساء دمشق[٣] سماها «مقراض الأعراض» . وكان السلطان صلاح الدين ، رحمه الله تعالى ، قد نفاه من دمشق بسبب وقوعه في الناس ، فلما خرج منها عمل[٤] :

فعلامَ أبعدتمْ أخا ثقة لم يجترمْ[٥] ذنباً ولا سرقا ؟
انفوا المؤذّنَ من بلادكمُ[٦] إن كان يُنْفَى كل من صدقا

وطاف البلاد من الشام والعراق والجزيرة[٧] وأذربيجان وخراسان وغَزْنَة

---

٦٨٤ – انظر مقدمة ديوانه ، ففيها إشارات إلى أهم مصادر ترجمته ، وراجع البدر السافر ، الورقة : ١٧٠ .

١ ن ق : محمد بن نصر الله .

٢ نقل : سقطت من ق بر من .

٣ بر من : مصر .

٤ زاد في المختار : عمل هذين البيتين وأنفذهما إلى بعض أصحابه بها وهما ، وانظر ديوانه : ٩٤ .

٥ بر من : يقترف .

٦ ر : دياركم .

٧ ت س مج : والشرق ، وبهامش س : خ : والجزيرة ؛ وسقطت اللفظة من المختار .

وخوارزم وما وراء النهر ، ثم دخل الهند واليمن وملكَهُا يومئذ سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين ، رحمه الله تعالى – المذكور في حرف الطاء[1] – وأقام بها مدة ، ثم رجع الى الحجاز والديار المصرية، وعاد إلى دمشق ، وكان يتردد منها إلى البلاد ويعود إليها . ولقد رأيته بمدينة إربل في سنة ثلاث وعشرين وستمائة ولم آخذ عنه شيئاً ، وكان قد وصل إليها رسولاً عن الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق ، وأقام بها قليلاً، ثم سافر وكتب من بلاد الهند إلى أخيه وهو بدمشق هذين البيتين، والثاني منهما لأبي العلاء المعري استعمله مضمناً فكان أحق به ، وهما[2] :

ساءت كُتُبَكَ في القطيعة عالماً ... أن الصحيفةَ لم تجدْ من حامل

«وعَذَرْتُ طيفك في الجفاء لأنه ... يسري فيصبح دوننا بمراحل»[3]

لله دره فما أحسن ما وقع له هذا التضمين . وقد كرر هذا المعنى في مواضع من شعره : فمن ذلك قوله من جملة قصيدة طويلة[4] :

ألا يا نسيم الريح من تل راهط ... وروض الحمى، كيف اهتديتَ إلى الهند

وقوله من أبيات وهو في عدن اليمن :

أأحبابنا لا أسأل الطيف زورة ... وهيهات ، أين الديلميات من عدن ؟

الديلميات وتل راهط والحمى : أسماء مواضع من ضواحي دمشق ، والبيت الذي للمعري قبله[5] :

وسألتُ كم بين العقيقِ إلى الحمى ... فعجبت من بُعْدِ المدى المتطاولِ

---

١ ج ٢ : ٥٢٣ .

٢ ديوانه : ٨٦ .

٣ علق صاحب المختار بعد هذا بقوله : « قلت أعني كاتبها موسى بن أحمد لطف الله به : كونه لم ينبه على أنه مضمن عيب عند أهل الأدب ، والله أعلم » .

٤ ديوانه : ٧٣ .

٥ شروح السقط : ٧٣٤ .

والمعري أخذ هذا المعنى من دِعْبل بن علي الخُزَاعي الشاعر – المقدم ذكره[1] – فإنه كان قد هجا الخليفة المعتصم بالله بن هارون الرشيد ، فطلبه ، فهرب من العراق إلى الديار المصرية وسكن [بأسوان][2] في آخر بلادها ، وقال في ذلك[3] :

وإن امرءاً أضحَت مَطارح سَهْمه   بأسْوَانَ لم يترك من الحزم معلما
حَلَلْتُ مَحَلاً يحسرُ الطرفُ دونه   ويعجز عنه الطيفُ أن يتجشّما

وقد خرجنا عن المقصود ولكن ساق الكلام بعضه بعضاً[4] .

ولما مات السلطان صلاح الدين وملك الملك العادل دمشق كان غائباً في السفرة التي نفي فيها ، فسار متوجهاً إلى دمشق ، وكتب إلى الملك العادل قصيدته الرائية يستأذنه في الدخول إليها ويصف دمشق ويذكر ما قاساه في الغربة ، ولقد أحسن فيها كل الإحسان واستعطفه أبلغ استعطاف[5] ، وأولها[6] :

ماذا على طيف الأحبة لو سَرى   وعليهمُ لو ساعوني بالكرى

ووصف في أوائلها دمشق وبساتينها وأنهارها ومستنزهاتها[7] ، ولما فرغ من وصف دمشق قال مشيراً إلى النفي منها :

فارقْتُها لا عن رِضاً ، وهَجَرْتُها   لا عن قِلًى ، ورحلْتُ لا متخيرا
أسعى لرزقٍ في البلاد مشتّتٍ   ومن العجائب أن يكون مُقَتّرا
وأصون وَجْهَ مدائحي متقنّعاً   وأكفُّ ذيل مطامعي متسترا

---

١ ج ٢ : ٢٦٦ .
٢ زيادة من المختار .
٣ ديوان دعبل : ١٣٩ .
٤ وقد كرر ... بعضاً : سقط من بر ت س من .
٥ من ر ق بر : الاستعطاف .
٦ ديوانه : ٣ .
٧ بر : وموضع مستنزهاتها .

ومنها يشكو الغربة وما قاساه فيها :

أشكو إليك نوًى تمادى عُمْرُها حتى حَسِبْتُ اليومَ منها أشهرا
لا عيشتي تصفُو ، ولا رَسْمُ الهوى يعفو ، ولا جَفْني يصافحه الكرى
أضحي عن الأحوى المَريع محلأً[١] وأبيت عن ورد النمير مُنفَّرا
ومن العجائب أن يُقيِّلَ ظلكم[٢] كل الورى ، ونبذت وحدي بالعَرا

وهذه القصيدة من أحسن الشعر ، وعندي هي خير من قصيدة أبي بكر ابن عمار الأندلسي التي أولها – وهي على وزنها ورويها وقد تقدم ذكر شيء منها في ترجمته – :

أدرِ الزجاجةَ فالنسيم قد انبَرى

فلما وقف عليها الملك العادل أذن له في الدخول إلى دمشق ، فلما دخلها قال[٣]:

هجوتُ الأكابرَ في جِلّقٍ ورُعْتُ الوضيعَ بسبِّ الرفيعِ
وأخرجتُ منها ولكنني رجَعْتُ على رغم أنف الجميع

وكان له في عمل الألغاز وحلها اليد الطولى ، فمتى كتب إليه بشيء منها حله في وقته وكتب الجواب أحسن من السؤال[٤] نظماً . ولم يكن له غرض في جمع شعره ، فلذلك لم يدونه ، فهو يوجد مقاطيع في أيدي الناس ، وقد جمع له بعض أهل دمشق ديواناً صغيراً لا يبلغ عُشْر ما له من النظم ، ومع هذا ففيه أشياء ليست له .

وكان من أظرف الناس وأخفهم روحاً وأحسنهم مجوناً ، وله بيت عجيب من جملة قصيدة يذكر فيها أسفاره ويصف توجهه إلى جهة الشرق ، وهو[٥] :

---

١ ق ن : محولا ، ر : محللا .
٢ ق : يقيل بظلكم .
٣ ديوانه : ٩٤ .
٤ ر : أحسن ما يكون .
٥ ر : وهو قوله ، انظر ديوانه : ٢٩ .

أُشقّقُ قلبَ الشرق حتى كأنني   أفتّش في سَوْدائه عن سَنا الفجر

وبالجملة فمحاسن شعره كثيرة .

وكنت قد رأيته في المنام في بعض شهور سنة تسع وأربعين وستمائة ، وأنا يوم ذاك بالقاهرة المحروسة ، وفي يده ورقة حمراء ، وهي عريضة ، وفيها مقدار خمسة عشر بيتاً تقريباً ، وهو يقول : عملت هذه الأبيات في الملك المظفر صاحب حَمَاة، وكان الملك المظفر في ذلك الوقت ميتاً أيضاً ، وكان في المجلس جماعة حاضرون ، فقرأ علينا الأبيات ، فأعجبني منها بيت فرددته في النوم ، واستيقظت من المنام وقد علق بخاطري ، وهو :

والبيت لا يَحْسُنُ[1] إنشاده   إلا إذا أحْسَنَ مَنْ شادَهُ

وهذا البيت غير موجود في شعره .

وقد تقدم ذكره في ترجمة الإمام فخر الدين الرازي وأبياته الفائية وكذلك في ترجمة سيف الإسلام .

وكان وافر الحرمة عند الملوك ، وتولى الوزارة بدمشق في آخر دولة الملك المعظم ومدة ولاية الملك الناصر ابن المعظم ، وانفصل عنها لما ملكها الملك الأشرف وأقام في بيته ، ولم يباشر بعدها خدمة . وكانت ولادته بدمشق يوم الاثنين تاسع شعبان سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وتوفي عشية نهار الاثنين لعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثلاثين وستمائة بدمشق أيضاً ، ودفن من الغد بمسجده الذي أنشأه بأرض المزة ، وهي – بكسر الميم وتشديد الزاي – قرية على باب دمشق ، رحمه الله تعالى .

قال ابن الدبيثي : سمعته يقول : إن أصلنا من الكوفة من موضع يعرف بمسجد بني النجار ، ونحن من الأنصار ؛ قلت : هكذا نقلته أولاً ، ثم إني زرت قبر بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقابر باب الصغير ظاهر دمشق ، فلما خرجت من تربته وجدت على الباب قبراً كبيراً فقيل لي : هذا قبر ابن عُنَين ، فوقفت وترحمتُ عليه .

---

[1] ق : يصلح .

وعُنَيْن : بضم العين المهملة وفتح النون وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون ، والله أعلم .

٦٨٥

القائم ابن المهدي

أبو القاسم محمد ، ويدعى نزار ، ابن المهدي أبي محمد عبيد الله القائم بالمغرب، كان أبو القاسم المذكور يلقب بالقائم – وقد تقدم ذكر والده المهدي في حرف العين وذكر ولده المنصور إسماعيل في حرف الهمزة[1] – وكان أبوه المهدي قد بايع له بولاية العهد في حياته بإفريقية وما معها ، وكانت الكتب تكتب باسمه، والمظلة تحمل على رأسه ، ولما توفي أبوه في التاريخ المذكور في ترجمته جُدّدت له البيعة . وكان جهزه أبوه إلى مصر ليأخذها مرتين : المرة الأولى في الثامن عشر من ذي الحجة سنة إحدى وثلثمائة ، فوصل إلى الإسكندرية وملكها[2] والفيوم ، وصار في يده أكثر خراج مصر ، وضيق على أهلها ، والمرة الثانية وصل إلى الإسكندرية في شهر ربيع الأول سنة سبع وثلثمائة في عسكر عظيم ، فخرج عامل الإمام المقتدر عنها ودخلها القائم المذكور ، ثم خرج إلى الجيزة في خلق عظيم ووردت الأخبار بذلك إلى بغداد ، فجهز المقتدر مؤنساً الخادم إلى محاربته بالرجال والأموال ، فجدّ في السير ، فلما وصل إلى مصر كان القائم قد ملك الجيزة والأشمونين وأكثر بلاد الصعيد ، فتلاقيا ، وجرت[3] بين العسكرين

---

٦٨٥ – أخباره في تاريخ ابن الأثير (ج : ٨) والبيان المغرب (ج : ١) وأعمال الأعلام ٣ : ٥٣ والدرة المضية : ١١٠ واتعاظ الحنفا ورسالة افتتاح الدعوة وعيون الأخبار للداعي إسماعيل وغير ذلك ؛ وسقطت هذه الترجمة من المختار .

١ انظر ج ٣ : ١١٧ ، ج ١ : ٢٣٤ .

٢ ر : وتملكها ؛ ق : فملكها .

٣ ن ر ق : وجرى .

حروب لا توصف ، ووقع في عسكر القائم الوباء والغلاء فمات الناسُ والخيل ، فرجع إلى إفريقية وتبعه عسكر مصر إلى أن تباعد عنهم[1] ، وكان وصوله إلى المهدية يوم الثلاثاء الثالث من رجب من السنة المذكورة ، وفي أيامه خرج أبو يزيد مخلد بن كيداد[2] الخارجي – وقد تقدم ذكره وما جرى له وكيف مات في الأسر في ترجمة المنصور – والشرح في ذلك يطول .

وكانت ولادة القائم بمدينة سلمية – المذكورة في ترجمة والده المهدي – في المحرم سنة ثمانين ، وقيل سنة اثنتين وثمانين ، وقيل سبع وسبعين ومائتين ، واستصحبه والده معه عند توجهه إلى بلاد المغرب ؛ وتوفي يوم الأحد ثالث عشر شوّال سنة أربع وثلاثين وثلثمائة ، رحمه الله تعالى بالمهدية وأبو يزيد الخارجي محاصر له ، فقام بالأمر ولده المنصور إسماعيل ، وكتم خبر موته خوفاً من الخارجي أن يطلع عليه فيطمع فيه ، وكان بالقرب منه على مدينة سوسة ، فأبقى الأمور على حالها وأكثر من العطايا والصلات ولم يتسمّ بالخليفة ، وكانت كتبه تنفذ من الأمير إسماعيل ولي عهد المسلمين ، والله أعلم .

---

١ بدله في مج : فلقيه بالفيوم فهزمه وقتل عسكره وقيل ان عدد القتلى كان خمسين ألفاً ، والأرض التي كانت الوقعة فيها تعرف إلى الآن بأرض الخمسين ، فرجع إلى إفريقية وتبعه عسكر مصر إلى أن تباعد عنهم .

٢ بر من : كنداد ؛ ر : كيدار ؛ ن : كندار .

٦٨٦

المعتمد بن عباد ملك الأندلس وأبوه وجده

المعتمد على الله أبو القاسم محمد بن المعتضد بالله أبي عمرو عَبّاد بن الظافر المؤيد بالله أبي القاسم محمد قاضي إشبيلية بن أبي الوليد إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم ، اللخمي ، من ولد النعمان ابن المنذر اللخمي آخر[1] ملوك الحيرة ؛ كان المعتمد المذكور صاحب قرطبة وإشبيلية وما والاهما من جزيرة الأندلس وفيه وفي أبيه المعتضد يقول بعض الشعراء[2] :

من بني المنذرين وَهْوَ انتساب ... زاد في فخره بنو عَبّادِ
فتيةٌ لم تَلِدْ سواها المعالي ... والمعالي قليلةُ الأولاد

وكان بدء أمرهم في بلاد الأندلس أن نعيماً وابنه عطافاً أول من دخل إليها من بلاد المشرق ، وهما من أهل العريش ، المدينة القديمة الفاصلة بين الشام والديار المصرية في أول الرمل من جهة الشام ، وأقاما بها مستوطنين بقرية بقرب يومين[3] من إقليم طشانه[4] من أرض إشبيلية .

---

٦٨٦ – ترجمته في الذخيرة (القسم الثالث) : ١٤ والمعجب : ١٥٨ والقلائد : ٤٠ والحلة السيراء ٢ : ٥٢ وأعمال الأعلام : ١٥٧ والبيان المغرب ٣ : ٢٥٧ والوافي ٣ : ١٨٣ والشذرات ٣ : ٢٨٦ وعبر الذهبي ٣ : ٣٢١ ونفح الطيب (صفحات متفرقة) وقد جمع دوزي كثيراً مما ورد في المصادر في مجموع سماه « تاريخ بني عباد Historia Abbadidorum » (ليدن : ١٨٤٦) .

١ ن ر ق : أحد .

٢ نسب ابن الأبار هذين البيتين لابن اللبانة (الحلة ٢ : ٣٥) .

٣ يرجح دوزي أن هناك قرية تسمى Toriomina وأن اسمها الكامل بالعربية طور يومين ؛ وفي بعض النسخ : تومين ؛ وفي مج غير معجمة .

٤ طشانة Tocina لا تزال معروفة بمنطقة اشبيلية .

(204) وامتد لعطاف عمود النسب في الولد إلى الظافر محمد بن إسماعيل القاضي، فهو أول من نبغ منهم في تلك البلاد وتقدم باشبيلية إلى أن ولي القضاء بها فأحسن السياسة مع الرعية والملاطفة بهم، فرمقته القلوب، وكان يحيى بن علي بن حمُّود الحسني المنعوت[1] بالمعتلي صاحب قرطبة، وكان مذموم السيرة، فتوجه إلى إشبيلية محاصراً لها، فلما نزل عليها اجتمع رؤساء إشبيلية وأعيانها وأتوا القاضي محمداً المذكور وقالوا له: أما ترى ما حل بنا من هذا الظالم وما أفسد من أموال الناس؟ فقم بنا نخرج إليه ونملّكك ونجعل الأمر إليك، ففعل، ووثبوا على يحيى، فركب إليهم وهو سكران فقتل.

وتم له الأمر ثم ملك بعد ذلك قرطبة وغيرها من البلاد. وقصته مشهورة مع الذي زعم أنه هشام بن الحكم آخر ملوك بني أمية بالأندلس الذي كان المنصور ابن أبي عامر قد استولى عليه وحَجَبه عن الناس، وكان يصدر الأمور عن إشارته، ولا يمكنه من التصرف، وليس له سوى الاسم والخطبة على المنابر، فإنه كان قد انقطع خبره مدة نيف وعشرين سنة، وجرت أحوال مختلفة في هذه المدة، ثم قيل للقاضي محمد المذكور بعد تملكه واستيلائه على البلاد: إن هشام بن الحكم في مسجد بقلعة رباح، فأرسل إليه من أحضره، وفوّض الأمر إليه، وجعل نفسه كالوزير بين يديه، وفي هذه الواقعة يقول الحافظ أبو محمد ابن حزم الظاهري في كتاب «نقط العروس»: أخلوقة لم يقع في الدهر مثلها فإنه ظهر رجل يقال له خلف الحصري[2] بعد نيف وعشرين سنة من موت هشام ابن الحكم المنعوت بالمؤيد وادعى أنه هشام، فبويع وخطب له على جميع منابر الأندلس في أوقات شتى، وسفك الدماء وتصادمت الجيوش في أمره، وأقام المدّعي أنه هشام نيفاً وعشرين سنة، والقاضي محمد بن إسماعيل في رتبة الوزير بين يديه، والأمر إليه، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن توفي المدعو هشاماً، فاستبد القاضي محمد بالأمر بعده. وكان من أهل العلم والأدب والمعرفة التامة بتدبير الدول، ولم يزل ملكاً مستقلاً إلى ان توفي ليلة الأحد لليلة بقيت من جمادى

---

١ ن ر ق: المعروف.

٢ ق ر ن: الخضري.

الأولى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة؛ وقيل إنه عاش إلى قريب الخمسين وأربعمائة ودفن بقصر إشبيلية، واختلفوا أيضاً في مبدإ استيلائه: فقيل سنة أربع عشرة وأربعمائة، وهو الذي ذكره العماد الكاتب في «الخريدة»، وقيل أربع وعشرين، والله أعلم بالصواب في ذلك كله.

(205) ولما مات محمد القاضي قام مقامه ولده المعتضد بالله أبو عمرو عَبّاد، قال أبو الحسن علي بن بَسّام صاحب كتاب «الذخيرة» في حقه: ثم أفضى الأمر إلى عبّاد سنة ثلاث وثلاثين، وتسمى أولاً بفخر الدولة ثم بالمعتضد، قطب رَحى الفتنة، ومنتهى غاية المحنة، من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد، ولا سلم منه قريب ولا بعيد، جبار أبرم الأمر وهو متناقض، وأسدٌ فَرسَ الطلا وهو رابض، متهور تتحاماه الدهاة، وجَبان لا تأمنه الكُماة، متعسّف اهتدى، ومُنبَتّ قطع فما أبقى، ثار والناس حرب وضبط شأنه بين قائم وقاعد، حتى طالت يده واتسع بلده وكثر عديده وعدده، وكان قد أوتي أيضاً من جمال الصورة وتمام الخلقة وفخامة الهيئة وسَباطة البنان وثقوب الذهن وحضور الخاطر وصدق الحس، ما فاق على نظرائه، ونظر مع ذلك في الأدب قبل ميل الهوى به إلى طلب السلطان أدنى نظر بأزكى طبع حصل منه لثقوب ذهنه على قطعة وافرة علقها من غير تعمُّد لها ولا إمعان في غمارها ولا إكثار من مُطالعتها ولا منافسة في اقتناء صحائفها، أعطته سجيته على ذلك ما شاء من تحبير الكلام وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة في معان أمدته فيها الطبيعة، وبلغ فيها الإرادة، واكتتبها الأدباء للبراعة، جمع هذه الخلال الظاهرة إلى جود كفّ بارى السحاب بها. وأخبار المعتضد في جميع أفعاله وضروب أنحائه غريبة بديعة. وكان ذا كلف بالنساء فاستوسع في اتخاذهن وخلط في جنوسهنّ، فانتهى في ذلك إلى مَدًى لم يبلغه أحد من نظرائه، ففشا نسله لتوسعه في النكاح وقوته عليه، فذكر أنه كان له من الولد نحو العشرين ذكوراً، ومن الإناث مثلهم. وأورد له عدة مقاطيع، فمن ذلك قوله:

شربنا وجفن الليل يغسل كحله ... بماءِ صباحٍ والنسيمُ رقيقُ

مُعتّقة كالتبر أما نجارها ... فضَخْم وأما جِسْمُها فدقيقُ

– وقد تقدم في ترجمة أبي بكر محمد بن عمار الأندلسي ذكر شيء من قصيدتيه اللتين مدح المعتضد المذكور بهما : إحداهما رائية والأخرى ميمية[1] –.
ولولده المعتمد فيه من جملة أبيات :

سَمَيْدَعٌ يَهَبُ الآلاف مبتدئاً ... ويَسْتَقِلُّ عطـاياه ويعتذرُ
له يدٌ كلُّ جبـارٍ يُقَبِّلها ... لولا نَداها لقلنا إنها الحَجَرُ

ولم يزل في عز سلطانه واغتنام مَساره ، حتى أصابته علة الذبحة ، فلم تطل مدتها ، ولما أحس بتداني حِمامه استدعى مغنياً يغنيه ليجعل ما يبدأ به فألاً فأول ما غنى :

نَطْوي الليالي علماً أنْ سَتَطوينا ... فشَعْشعيها بماءِ المزن واسقينـا

فتطيّر من ذلك ولم يعش بعده سوى خمسة أيام [وقيل إنه مـا غنى منها إلا بخمسة أبيات][2] وتوفي يوم الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة إحدى وستين واربعمائة ، ودفن ثاني يوم بمدينة إشبيلية ، رحمه الله تعالى .
وقام بالمملكة بعده ولده **المعتمد على الله أبو القاسم محمد** .
قال أبو الحسن علي بن القطّاع السعدي – المقدم ذكره[3] – في كتاب « لمح الملح » في حق المعتمد المذكور[4] : أندى[5] ملوك الأندلس راحة ، وأرحبهم ساحة ، وأعظمهم تماداً ، وأرفعهم عماداً ، ولذلك كانت حَضْرته مَلقى الرحال ، وموسم الشعراء ، وقِبلة الآمال ، ومألف الفضلاء ، حتى إنه لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه ، وتشتمل عليه حاشيتا جنابه .

---

١ انظر ٤ : ٤٢٦ – ٤٢٧ .
٢ لم يرد في النسخ الخطية .
٣ ج ٣ : ٣٢٢ .
٤ انظر النفح ٤ : ٣٧٢ .
٥ ر ن : هو أسمح .

وقال ابن بسام في « الذخيرة »: وللمعتمد بن عَبّاد شعر كما انشق الكِمام عن الزهر، لو صدر[1] مثله عمن جعل الشعر صناعة واتخذه بضاعة، لكان رائقاً معجباً ونادراً مستغرباً ، فمن ذلك قوله[2] :

أكْثَرْتَ هجرَكَ غير أنك ربما عطَفَتْكَ أحياناً عليَّ أمورُ
فكأنما زَمَنُ التَّهاجر بيننا ليلٌ وساعاتُ الوصالِ بدورُ

وهذا المعنى ينظر إلى قول بعضهم من جملة أبيات :

أسْفَرَ ضوءُ الصبح عن وَجْهِه فقام خالُ الخدّ فيه بلال
كأنما الخالُ على خَدّه ساعةُ هجرٍ في زمان الوصال

وعزم المعتمد على إرسال حظاياه من قرطبة إلى إشبيلية ، فخرج معهن يشيعهن[3] فسايرهن من أول الليل إلى الصبح ، فودعهن ورجع وأنشد أبياتاً من جملتها[4] :

سايرتهم والليل غُفْلٌ ثوبه حتى تبدى للنواظر معلما
فوقفت ثَمَّ مودعاً وتسلمَتْ مني يد الإصباح تلك الأنجما

وهذا المعنى في نهاية الحسن . وله في وداعهن أيضاً[5] :

ولما وَقفنا للوَداع غُدَيَّةً وقد خَفَقَتْ في ساحة القصر راياتُ
بكينا دماً حتى كأن عيوننا بِجرْي الدموعِ الحمرِ منها جراحات

وهذا ينظر إلى قول القائل :

بكيت دماً حتى لقد قال قائلٌ أهذا الفتى من جفن عينيه يُرْعَفُ

---

١ بر من : صار .

٢ ديوانه : ١٣ .

٣ ن : ليشيعهن ؛ المختار : يودعهن .

٤ هذه القطعة في ديوانه : ٢٦ والمسالك ١٠ : ٣٩٧ .

٥ ديوانه : ٤ .

وقد سبق في شعر الأبيوردي نظيره .

ومن شعره أيضاً[1] :

لولا عيونٌ من الواشين ترمقني ... وما أحاذره من قول حراسِ
لزرتكم لا أكافيكم بجفوتكم ... مشياً على الوجه أو سعياً على الراس

وكتب إلى ندماه من قصره بقرطبة وقد اصطبحوا بالزهراء يدعوهم إلى الاغتباق عنده[2] :

حسد القصرُ فيكم الزهراءَ ... ولعمري وعَمْركم ما أساءَ
قد طلعتمْ بها شموساً نهاراً ... فاطلعوا عندنا بدوراً مساءَ

وهذا من بديع المعاني العجيبة .

والزهراء : بفتح الزاي وسكون الهاء وفتح الراء وبعدها همزة ممدودة، وهي من عجائب أبنية الدنيا ، أنشأها أبو المطرّف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الملقب الناصر أحد ملوك بني أمية بالأندلس ، بالقرب من قرطبة ، في أول سنة خمس وعشرين وثلثمائة ، ومسافة ما بينهما أربعة أميال وثلثا ميل ، وطول الزهراء من الشرق إلى الغرب ألفان وسبعمائة ذراع ، وعرضها من القبلة إلى الجنوب ألف وخمسمائة ذراع ، وعدد السواري التي فيها أربعة آلاف سارية وثلثمائة سارية ، وعدد أبوابها يزيد على خمسة عشر ألف باب[3] . وكان الناصر يقسم جباية البلاد أثلاثاً ، فثلث للجند وثلث مدخر وثلث ينفقه على عمارة الزهراء ، وكانت جباية الأندلس يومئذ خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستون ألف دينار ، وهي من أهول ما بناه الإنس وأجله خطراً وأعظمه شأناً ، ذكر ذلك كله ابن بَشْكُوال – المقدم ذكره في حرف الخاء[4] – في « تاريخ الأندلس » .

---

١ ديوانه : ٥٨ والمسالك ١٠ : ٣٩٧ .
٢ ديوانه : ٤٩ .
٣ كذا في جميع النسخ .
٤ ج ٢ : ٢٤٠ .

وكان أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني الشاعر المشهور مائلاً إلى بني عباد بطبعه ، إذ كان المعتمد الذي جذب بضَبْعه ، وله فيه المدائح الأنيقة ، فمن ذلك قصيدة يمدحه بها ويذكر أولاده الأربعة وهم : الرشيد عبيد الله ، والراضي يزيد والمأمون والمؤتمن[1] ، ومن جملتها قوله ، ولقد أجاد فيه كل الإجادة وأبدع فيه[2] :

يَغيثك في محل ، يُغنيك في ردًى　　يروعك في درع ، يروقك في بردِ

جمالٌ وإجمالٌ وسبق وصَولة　　كشمس الضحى كالمزن كالبرق كالرعد

بهجته شاد العلا ثم زادها　　بناءً بأبناءٍ جحاجحة لدٌّ

بأربعةٍ مثلِ الطباع تركبوا　　لتعديل جسم المجد والشرف العِدّ

ومع هذه المكارم والإحسان العام لم يسلموا من لسان طاعن ، وفيهم يقول أبو الحسن جعفر بن إبراهيم بن الحاج اللورقي[3] :

تعزّ عن الدنيا ومعروف أهلها　　إذا عدم المعروف في آل عَبّادِ

حللتُ بهم ضيفاً ثلاثة أشهر　　بغير قرى ثم ارتحلت بلا زاد

وكان الأذفونش فرذلند ملك الإفرنج بالأندلس قد قوي أمره في ذلك الوقت ، وكانت ملوك الطوائف من المسلمين هنالك يصالحونه ، ويؤدون إليه ضريبة ، ثم إنه أخذ طليطلة في يوم الثلاثاء مستهلّ صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة بعد حصار شديد ، وكانت للقادر بالله بن ذي النون ، وفي أخذها يقول أبو محمد عبد الله بن فرج بن غزلون اليحصبي ، يعرف بابن العسال الطليطلي ، وهو مذكور في « الصلة » لابن بشكوال[4] :

---

١ ن : والمأمول والمؤمل ؛ ق ر : والمأمون والمؤمل .

٢ كل الاجادة وابدع فيه : سقط من ت س بر من .

٣ النفح ٤ : ٢٢٦ ؛ وفي ن : جعفر بن محمد بن إبراهيم .

٤ الصلة : ٢٧٦ (وتوفي سنة ٤٨٧) ؛ س بر : عزلون ؛ ق: غزنون ؛ المختار : غرنون ، ن: عرنون ، دون اعجام ؛ وفي س : الغسال . وقد وردت هذه الأبيات في عدة مصادر أندلسية ، انظر النفح ٤ : ٣٥٢ .

حثوا رَواحلكم يا أهل أندلس   فما المقـام بها إلا من الغلطِ

السلك ينثر من أطرافه وأرى   سلك الجزيرة منثوراً من الوسط

من جاور الشر لم يأمنْ عواقبه   كيف الحياة مع الحيات في سَفَط

وكان المعتمد بن عباد أكبر ملوك الطوائف وأكثرهم بلاداً . وكان يؤدي الضريبة للأذفونش، فلما ملك طليطلة لم يقبل ضريبة المعتمد طمعاً في أخذ بلاده، وأرسل إليه يتهدده ويقول له : تنزل عن الحصون التي بيدك ويكون لك السهل[1]، فضرب المعتمد الرسول وقتل من كان معه ، فبلغ الخبر للأذفونش وهو متوجه لحصار قرطبة فرجع إلى طليطلة لأخذ آلات الحصار .

فلما سمع مشايخ الإسلام وفقهاؤها بذلك اجتمعوا وقالوا : هذه مدن الإسلام قد تغلب عليها الفرنج ، وملوكنا مشتغلون بمقاتلة بعضهم بعضاً ، وإن استمرت الحال ملك الفرنج جميع البلاد ، وجاءوا إلى القاضي عبيد الله بن محمد بن أدهم[2] وفاوضوه فيما نزل بالمسلمين وتشاوروا فيما يفعلونه ، فقال كل واحد منهم شيئاً ، وآخر ما اجتمع[3] رأيهم عليه أن يكتبوا إلى أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ملك الملثمين[4] صاحب مراكش يستنجدونه — وسيأتي ذكره في حرف الياء إن شاء الله تعالى . فاجتمع القاضي بالمعتمد وأخبره بما جرى ، فوافقهم على أنه مصلحة وقال له تمضي إليه بنفسك ، فامتنع فألزمه بذلك ، فقال : أستخير الله سبحانه، وخرج من عنده، وكتب للوقت كتاباً إلى يوسف بن تاشفين يخبره بصورة الحال، وسيره مع بعض عبيده إليه ، فلما وصله خرج مسرعاً إلى مدينة سَبْتَة ، وخرج القاضي ومعه جماعة إلى سبتة للقائه وإعلامه بحال المسلمين فأمر بعبور عسكره

---

١ مج : وتكون ملك السهل .

٢ فيما عدا ن ق : عبد الله ، وانظر الصلة : ٢٩٣ ؛ وكنيته أبو بكر ، كان قاضي الجماعة بقرطبة استقضاه المعتمد سنة ٤٦٨ وكان قد نظر قبل ذلك في أحكام المظالم وشورو في الأحكام وتوفي سنة ٤٨٦ ؛ قلت : وفي مج فوق لفظة أدهم : (خ : ابراهيم) .

٣ بر ن من : أجمع ؛ ت : أجمعوا .

٤ ر : المسلمين .

إلى الجزيرة الخضراء ، وهي مدينة في بر الأندلس ، وأقام بسبتة ، وهي في بر مراكش مقابلة الجزيرة الخضراء ، وسيَّر إلى مراكش يستدعي من تخلف بها من جيشه ، فلما تكاملوا عنده أمرهم بالعبور ، وعبر آخِرَهم وهو في عشرة آلاف مقاتل ، واجتمع بالمعتمد وقد جمع أيضاً عساكره ، وتسامع المسلمون بذلك ، فخرجوا من كل البلاد طلباً للجهاد ، وبلغ الأذفونش الخبر وهو بطليطلة ، فخرج في أربعين ألف فارس غير ما انضم إليه ، وكتب الأذفونش إلى الأمير يوسف كتاباً يتهدده ، وأطال الكتاب ، فكتب يوسف الجواب في ظهره : « الذي يكون ستراه » ورده إليه . فلما وقف عليه ارتاع لذلك وقال : هـذا رجل عـازم .

ثم سار الجيشان والتقيا في مكان يقال له الزَّلاَّقة من بلد بَطَلْيَوسَ وتصافا[1]، وانتصر المسلمون وهرب الأذفونش بعد استئصال عساكره ولم يسلم معه سوى نفر يسير ، وذلك يوم الجمعة في العشر الأول من شهر رمضان المعظم سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، كذا قـال بعضهم ، والصحيح أن هـذه الوقعة[2] كانت في منتصف رجب من السنة المذكورة ، وهذا العام يؤرخ به في بلاد الأندلس كلها فيقال عام الزلاقة ، وهـذه الواقعة من أشهر الوقائع . وثبت المعتمد في ذلك اليوم ثباتاً عظيماً ، وأصابه عدة جراحات في وجهه وبدنه ، وشُهد له بالشجاعة ، وغنم المسلمون دوابهم وسلاحهم ، ورجع الأمير يوسف إلى بلاده والمعتمد إلى بـلاده .

ثم إن الأمير يوسف عاد إلى الأندلس في العام الثاني وخرج إليه المعتمد ، وحاصرا بعض حصون الفرنج[3] ، فلم يقدرا عليه ، فرحلا عنه وعبر يوسف على[4] غَرْناطة ، فخرج إليه صاحبها عبد الله بن بُلُكّين ثم دخل البلد ليخرج إليه التقادم ، فغدر به يوسف ودخل البلد وأخرج عبد الله ودخل قصره فوجد فيه

---

١ ق : فتصافا فانتصر .

٢ ق : الواقعة .

٣ هو حصن لييط .

٤ ق : ودخل إلى .

من الأموال والذخائر ما لا يحد ولا يحصى . ثم رجع إلى مراكش وقد أعجبه حسن بلاد الأندلس وبهجتها وما بها من المباني والبساتين والمطاعم وسائر أصناف الأموال التي لا توجد في مراكش ، فإنها بلاد بربر وأجلاف العربان[1] ، وجعل خواص الأمير يوسف يعظمون عنده بلاد الأندلس ويحسنون له أخذها ، ويغرون قلبه على المعتمد بأشياء نقلوها عنه فتغير عليه وقصده ، فلما انتهى إلى سَبْتة جهز إليه العساكر وقدم عليها سير[2] بن أبي بكر الأندلسي ، فوصل إلى إشبيلية وبها المعتمد فحاصره أشد محاصرة ، وظهر من مصابرة المعتمد وشدة بأسه وترامیه على الموت بنفسه ما لم يسمع بمثله ، والناس بالبلد قد استولى عليهم الفزع وخامرهم الجزع يقطعون سبلها سباحة ويخوضون نهرها سباحة ويترامون من شرفات الأسوار . فلما كان يوم الأحد العشرين من رجب سنة أربع وثمانين وأربعمائة هجم عسكر الأمير يوسف البلد وشنوا فيه الغارات ، ولم يتركوا لأحد شيئاً ، وخرج الناس من منازلهم يسترون عوراتهم بأيديهم ، وقبض على المعتمد وأهله ، وكان قد قتل له ولدان قبل ذلك ، أحدهما : المأمون ، وكان ينوب عن والده في قرطبة فحصروه بها إلى أن أخذوه وقتلوه ، والثاني الراضي ، كان أيضاً نائباً عن أبيه في رُندة[3] ، وهي من الحصون المنيعة فنازلوها وأخذوها وقتلوا الراضي ، ولأبيهما المعتمد فيهما مراث كثيرة[4] .

وبعد ذلك جرى بإشبيلية على المعتمد ما ذكرناه . ولما أخذ المعتمد قيدوه من ساعته ، وجعل مع أهله في سفينة ، قال ابن خاقان في « قلائد العقيان » في هذا الموضع[5] : ثم جمع هو وأهله وحملتهم الجواري المنشآت ، وضمتهم[6] كأنهم أموات ، بعدما ضاق عنهم القصر ، وراق منهم العصر ، والناس قد حشروا

---

١ المختار : وأحلاف الغربان .

٢ ن ر والمختار : شير .

٣ بر س ن ت ق من : روندة ؛ ر : رنوذة ، مج : رويله .

٤ س ت بر من : مرات عديدة ، وسقطت « عديدة » من ر .

٥ قلائد العقيان : ٢٣ .

٦ القلائد : وضمنتهم جوانحها .

بضفتي الوادي ، يبكون بدموع الغوادي[1] ، فساروا والنوح يحدوهم ، والبوح باللوعة لا يعدوهم ، وفي ذلك يقول أبو بكر محمد بن عيسى الداني المعروف بابن اللبانة :

تبكي السماء بدمع رائح غادي ··· على البهاليل من أبناء عباد

ومن جملتها :

يا ضيف أقفر بيتُ المكرمات فخذ ··· في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد

وهي قصيدة طويلة لا حاجة إلى ذكرها . وفي هذه الحال وصفتها يقول أبو محمد عبد الجبار بن حمديس الصقلي الشاعر المشهور – المقدم ذكره[2] :

ولما رحلتم بالندى في أكفكم ··· وقُلْقل رَضْوى منكم وثَبيرُ
رفعت لساني بالقيامة قد دنت ··· فهذي الجبال الراسيات تسير

وهي أبيات كثيرة ، وهذا المعنى مأخوذ من قول عبد الله بن المعتز في أبي العباس أحمد بن محمد بن الفرات الوزير وقد مات[3] :

قد استوى الناس ومات الكمالْ ··· وصاح[4] صرف الدهر أين الرجالْ
هذا أبو العبـــاس في نعشه ··· قوموا انظروا كيف تسير الجبالْ

وقيل إنه أنشدها لما مات الوزير أبو القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب ، والله أعلم بالصواب ، ثم وجدت القول الثاني هو الصحيح ، والله أعلم .

وتألم المعتمد يوماً من قيده وضيقه وثقله فأنشد[5] :

---

١ القلائد : كالغوادي .

٢ انظر ج ٣ : ٢١٢ وديوانه : ٢٦٨ .

٣ ورد هذا من قبل في ترجمة ابن حمديس ٣ : ٢١٤ وذكر هنالك أن ابن المعتز رثى الوزير أبا القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب .

٤ ن ق : وقال .

٥ ديوان المعتمد : ٩٤ .

تبدلت من ظل عزّ البنودِ بذل الحديد وثقــل القيودِ
وكان حديدي سناناً ذليقاً وعضباً رقيقاً صقيل الحديد
وقد صار ذاك وذا أدهمــا يعض بساقَـيّ عض الأسود

ثم إنهم حُملوا إلى الأمير يوسف بمراكش ، فأمر بإرسال المعتمد إلى مدينة أغمات ، واعتقله بها ولم يخرج منها إلى المات ، قال ابن خاقان[1] : ولما أجلي[2] عن بلاده ، وأعري من طارفه وتلاده ، وحمل في السفين ، وأحل في العُدْوة محل الدفين ، تندبه منابره وأعواده ، ولا يدنو منه زُوّاره ولا عُوّاده ، بقي آسفاً تتصعد زفراته، وتطرد اطراد المذانب عبراته، ولا يخلو بمؤانس، ولا يَرى إلا عريناً[3] بدلاً من تلك المكانس، ولما لم يجد سلوّاً ولم يؤمل دنوّاً ، ولم ير وجه مسَرّة مجلوّاً ، تذكر منازله فشاقته، وتصور بهجتها فراقته ، وتخيل استيحاش أوطانه ، وإجهاش قصره إلى قُطّانه ، وإظلام جوه[4] من أقماره ، وخلوه من حراسه وسماره . وفي اعتقاله يقول أبو بكر الداني المذكور قصيدته المشهورة التي أولها :

لكلّ شيءٍ من الأشياء ميقاتُ وللمنى من منـــاياهنّ غاياتُ
والدهر في صبغة الحرباء منغمسٌ ألوانُ حالاته فيهـا استحالات
ونحن من لُعَب الشطرنج في يده وربمـــا قُمرت بالبيدقِ الشاة

قلت : هذا غلط ، فإن الشاه بالهاء الملك بالعجمي ، وإذا كان كذلك فلا تسلم له القافية ، لأنها على حرف التاء ، ثم قال :

انفُضْ يديك من الدنيا وساكنها فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقل لِعالمها الأرضي : قد كتمت سريرة العـــالم العلوي أغماتُ

---

١ القلائد : ٢٣ .
٢ القلائد : نقل ؛ ر : أخلي .
٣ في النسخ : غريباً ، والتصويب عن القلائد .
٤ ث : الوجوه .

وهي طويلة تقارب خمسين بيتاً .

وله أيضاً في حبسه قصيدة عملها بأغمات ، سنة ست وثمانين وأربعمائة :

تنَشَّقْ رَياحِينَ السلامِ فإنَّما أفضُّ بها مِسْكاً عَليكَ مُخَتَّما
وقُلْ لي مَجازاً إن عَدِمتَ حَقيقةً لعلكَ في نُعْمى وقد كنتَ مُنعما
أفكرُ في عَصْرٍ مضى لك مُشرقاً فيرجع ضوء الصبح عنديَ مُظلما
وأعجبُ من أفْقِ المجرّةِ إذ رأى كسوفك شمساً كيف أطلع أنجما
لئن عَظمت فيكَ الرّزية اننا وجَدناكَ منها في المَزيةِ[1] أعظما
قناةٌ سعت للطعنِ حتى تقصدتْ وسَيْفٌ أطالَ الضرْبَ حتى تثلما

ومنها :

بكى آل عباد ولا كمحمد وأبنائهِ صَوْبُ الغمامةِ إذ هَمى
حبيبٌ إلى قلبي ، حبيبٌ لقولهِ عسى طَلل يَدنو بهمْ ولعلما
صباحهمُ كنا بهم نحمد السرَى فلما عدمناهم سرينا على عَمى
وكنا رعينا العز حولَ حماهُم فقد أجْدَبَ المرعى وقد أقفرَ الحمى
وقد ألبست أيدي الليالي محلَّهم مناسج سَدّى الغيثُ فيها وألحما
قصورٌ خلت من ساكنيها فما بها سوى الأدم تمشي حول واقفة الدمى
يجيب بها الهام الصدى ولطالما أجاب القيانَ الطائر المترنما
كأن لم يكن فيها أنيس ولا التقى بها الوفد جمعاً والخميس عرمرما

ومنها[2] :

حكيتَ وقد فارقت مُلكك مالكا ومن ولَهي أحكي عليك متمما
مصابٌ هوى بالنيراتِ من العلا ولم يُبْقِ في أرضِ المكارم معلما
تضيقُ عليّ الأرضُ حتى كأنما خلقت وإياها سواراً ومعصما

---

١ ر ن ق : الرزية .

٢ ومنها : زيادة من ن ر ق بر .

ندبتك حتى لم يخلّ لي الأسى دموعاً بها أبكي عليك ولا دَما
وإني على رسمي مقيمٌ فإن أمت سأجعلُ للباكين رسميَ موسما
بكاك الحيا والريح شَقّتْ جيوبَها عليك ، وناح الرعد باسمك معْلِما
ومزّقَ ثوبُ البرقِ واكتست الضحى حداداً ، وقامَتْ أنجم الجوّ مأتما
وحار ابنُكَ الإصباحُ وَجداً فما اهتدى وغاضَ أخوكَ البَحرُ غيضاً فما طَما
وما حلّ بَدْر التّمّ بعدَك دارةً ولا أظهرتْ شمْسُ الظّهيرةِ مبسما
قضى الله أن حطّوكَ عن ظَهْر أشقرٍ أشمَّ وأن أمْطَوْكَ أشأم أدهَما

وكان قد انفكت عنه القيود فأشار إلى ذلك بقوله منها :

قيُودك ذابتْ فانطلَقتَ لقد غدَتْ قيُودُكَ منهُمْ بالمكارم أرحما
عجبتُ لأن لان الحديدُ وقد قسوْا لقد كان منهم بالسّريرة أعلما
سيُنجيكَ مَنْ نجّى من الجبّ يوسفا ويُؤويكَ من آوى المسيح بن مَريما

وله في البكاء على أيامهم وانتثار نظامهم عدة مقاطيع[1] وقصائد مطولات يشتمل عليها جزء لطيف صدر عنه في صورة[2] تأليف وهيئة تصنيف سماه « نظم السلوك في وعظ الملوك » . ووفد على المعتمد وهو بأغمات وفادة وفاء ، لا وفادة استجداء ، وحكي أنه لما عزم على الانفصال عنه بعث إليه المعتمدُ عشرين ديناراً وشُقّة بغدادية ، وكتب معها :

إليك النزْر من كف الأسيرِ فإن تَقبل يكُنْ عينَ الشكور
تقبّل ما يذوب له حياء وإن عَذرتهُ أحوال[3] الفقير

وهي عدّة أبيات ، قال أبو بكر المذكور : فرددتها إليه ، لعلمي بحاله وأنه لم يترك عنده شيئاً ، وكتبت إليه جوابها ، وهو :

---

١ ق بر ر ن : مقطوعات .
٢ صورة : سقطت من ق بر من .
٣ بر من ق مج : حالات .

سَقطْتَ من الوفاء على خَبير   فذَرْني والذي لكَ في ضميري
تركتُ هواكَ وهو شقيقُ نفسي[1]   لئن شقت برُودي عن غدور
ولا كنتُ الطّليقَ من الرزايا   لئن أصبحْتُ أجْحِفُ بالأسير
جَذِيمةُ أنت والزباء خانت[2]   وما أنا من يُقصِّر عن قصير
أسيرُ ولا أسيرُ إلى اغتنامٍ   معاذ الله من سوء المصير
أنا أدرى بفضلك منك ، إني   لبست الظلّ منه في الحرُور

ومنها أيضاً قوله :

تصرّفُ في الندى خيْلَ[3] المعالي   فتسمحُ من قليل بالكثير[4]
وأعجبُ منك أنك في ظلام   وترفع للعفاة منار نور
رُوَيْدَكَ سوف توسعني سروراً   إذا عاد ارتقاؤكَ للسرير
وسوْف تـُحلـّني رتبَ المعالي   غَداةَ تَحُلُّ في تلك القصور
تزيدُ على ابن مروانٍ عطاءً   بها وأزيدُ ثمّ على جَرير
تأهّبْ أن تعودَ إلى طـُلوعٍ   فليسَ الخسفُ ملتزمَ البدور

ودخل عليه يوماً بناته للسجن، وكان يوم عيد ، وكن يغزلن للناس بالأجرة في أغمات ، حتى إن إحداهن غزلت لبيت صاحب الشرطة الذي كان في خدمة أبيها وهو في سلطانه، فرآهن في أطمار رَثـّة وحالة سيئة، فصدعْنَ قلبه وأنشد[5] :

فيما مضى كنتَ بالأعيادِ مسرورا   فساءَكَ العيدُ في أغماتَ مأسورا
ترى بناتِكَ في الأطمار جائعةً   يَغْزِلنَ للناس لا يملكن قِطمِيرا

---

١ ن ر : قلبي .
٢ ق : يوماً .
٣ ن : حيل ، مج : جيد .
٤ ق : بالقليل وبالكثير .
٥ ديوانه : ١٠٠ والقلائد : ٢٥ .

بَرَزْنَ نحوك للتّسليم خاشعةً أبصارهُنَّ حسيراتٍ مكاسيرا
يطأْنَ في الطين والأقدامُ حافيةٌ كأنها لمْ تطأ مسكاً وكافورا

ومنها أيضاً :

لا خدّ إلا ويشكو[1] الجدب ظاهره وليس إلا مع الأنفاسِ ممطورا
قد كان دهركَ إن تأمُرهُ ممتثلاً فردَّكَ الدَّهرُ مَنْهيّاً ومأمورا
مَنْ بات بعْدَكَ في مُلكٍ يُسرُّ به فإنمـــا باتَ بالأحلام مغرورا

ودخل عليه وهو في تلك الحال ولده أبو هاشم والقيود قد عضّتْ بساقيه عض الأسود ، والتوت عليه التواء الأساود السود ، وهو لا يطيق إعمال قدم ، ولا يُريق دمعاً إلا ممتزجاً بدم، بعد ما عهد نفسه فوق منبر وسرير، وفي وسط جنة وحرير، تَخفِق عليه الألوية، وتشرق منه الأندية ، فلما رآه بكى وعمل[2]:

قَيْدي أما تعلمني مسلـــا أبَيتَ أن تشفق أو ترحما
دمي شرابٌ لك، واللحمُ قد أكلتَهُ ، لا تهشم الأعظما
يبصرني فيـــك أبو هاشمٍ فينثني والقلبُ قـــد هشّما
ارحمْ طُفَيلاً طائشاً لُبُّه لم يخشَ أن يأتيك مسترحما
وارحم أُخَيّـــاتٍ له مثله جرعتهُنَّ السمَّ والعلقـــما
منهنَّ من يفهمُ شيئاً فقد خِفْنا عليه للبكاء العمى
والغير لا يفهم شيئاً فـــما يفتح إلا لرضاعٍ فـــما

وكان قد اجتمع عنده جماعة من الشعراء[3] وألحوا عليه في السؤال ، وهو على تلك الحال ، فأنشد :

سألوا اليسير من الأسير وإنه بسؤالهم لأحقُّ منهم فاعجَبِ

---

١ بر ر ق من : تشكى .
٢ ديوانه : ١١٢ .
٣ بر من : السؤال .

لولا الحيــــاء وعزةٌ لخميَّةٌ   طيُّ الحشا لحكاهمُ في المطلب

وأشعار المعتمد وأشعار الناس فيــه كثيرة ، وقــد جاوزنا الحد في تطويل ترجمته ، وسببه أن قضيته[1] غريبة لم يعهــد مثلها ، ودخل فيها حديث أبيــه وجده فطالت .

وكانت ولادته في شهر ربيع الأول سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة بمدينــة باجة من بــلاد الأندلس ، وملك بعد وفاة أبيــه في التاريخ المذكور هناك ، وخلع في التاريخ المقدم ذكره. وتوفي في السجن بأغمات لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال ، وقيل في ذي-الحجة ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، رحمه الله تعالى ؛ ومن النادر الغريب أنه نودي في جنازته بالصلاة على الغريب ، بعد عظم سلطانه وجلالة شانه ، فتبارك من له البقاء والعزة والكبرياء . واجتمع عند قبره جماعة من الشعراء الذين كانوا يقصدونه بالمدائح ، ويجزل لهم المنائــح ، فرثوه بقصائد مطولات ، وأنشدوها عند قبره وبكوا عليه ، فمنهم أبو بحر عبد الصمد شاعره المختص به ، رثاه بقصيدة طويلة أجاد فيها ، وأولها[2] :

ملكَ الملوك ، أسامع فأنادي   أم قد عدتك عن السماع عَوادي

لما نقلت عن القصور ولم تكن   فيها كما قــد كنت في الأعياد

أقبلت في هذا الثرى لك خاضعاً   وجعلت قــبرك موضع الإنشاد

ولما فرغ من إنشادها قبل الثرى ، ومرغ جسمه وعفر خده ، فأبكى كل من حضر .

ويحكى[3] أن رجلاً رأى في منامه إثر الكائنة عليه كأن رجلاً صعد منبر جامع قرطبة واستقبل الناس وأنشد :

ربَّ ركبٍ قد أناخوا عِيسَهُمْ   في ذرى مجدهمُ حين بسَقْ

---

[1] ق بر من : قصته .

[2] انظر القلائد : ٣١ .

[3] ق : ويروى .

سكت الدهرُ زمـــاناً عنهمُ ثم أبكاهم دمـــاً حين نطق

ورأى أبو بكر الداني حفيد المعتمد وهو غلام وسيم قد اتخذ الصياغة صناعة وكان يلقب في أيام دولتهم « فخر الدولة » وهو من الألقاب السلطانية عندهم ، فنظر إليه وهو ينفخ الفحم بقصبة الصائغ ، فقال من جملة قصيدة :

شكاتنا فيك يا فخر العلا عظمتْ والرزءُ يعظم فيمن قدره عظما
طوقت من نائبات الدهر مخنقة ضاقت عليك وكم طوّقتَنا نعما
وعاد طوقُكَ في دكانِ قارعةٍ من بعدما كنت في قصر حكى إرَما
صرّفتَ في آلةِ الصوّاغ أنملةً لم تدْرِ إلا الندى والسيف والقلما
يدٌ عهدتُكَ للتقبيل تبسطهـــا فتستقلُّ الثريا أن تكون فمـــا
يا صائغاً كانت العليا تُصاغُ له حَلْياً وكان عليه الحلي منتظما
للنفخ في الصور هولٌ ما حكاه سوى أني رأيتك فيـــه تنفخ الفحَما
وددت إذ نَظَرت عيني عليك به لو أن عينيَ تشكو قبل ذاكِ عمى
ما حطّكَ الدهر لما حطّ من شرفٍ ولا تحيّفَ من أخلاقك الكرما
لُحْ في العلا كوكباً إن لم تَلُحْ قمرا وقمْ بها ربوةً إن لم تقم علما
والله لو أنصفتك الشهبُ لانكسفت ولو وفى لك دمع العين لانسجما
أبكى حديثُكَ حتى الدهرَ حين غدا يحكيك رهطاً وألفاظاً ومبتسما

ولا حاجة إلى الزيادة على ما أودعناه[1] هذه الترجمة .

واللُّوْرقي : بضم اللام وسكون الواو والراء وبعدها قاف ، هـذه النسبة إلى لورقة ، وهي مدينة بالأندلس ، وهذا الشاعر ذكره في « الخريدة » وقال : عاش بعد الخمسمائة[2] طويلا ، وأورد كثيراً من شعره .

وأغمات : بفتح الهمزة وسكون الغين المعجمة وفتح الميم وبعد الألف تاء مثناة

---

١ بر : أوردناه في .
٢ ق : المائة .

من فوقها ، وهي بُليـدة وراء مراكش ، بينهما مسافـة يوم ، وخرج منهما جماعة مشاهير[1] .

(206) وأما أبو بكر ابن اللـبّانة المذكور فما رأيت تاريخ وفاته في شيء من الكتب ولا رأيت من يعلم ذلك ، لكن رأيت في كتاب الحماسة التي صنفها أبو الحجاج يوسف البياسي المذكور بعد هذا أن ابن اللبانة قدم مَيُورْقَـة في آخر شعبان سنة تسع وثمانين وأربعمائة، ومدح ملكها مبشر بن سليمان بأبيات أولها :

ملك يروعك في حُلى ريعانه   راقت برونقه صفات زمانه

وكنت أظن أنه مات قبل المعتمد ، لأني ما رأيت له فيه مرثية ، إلى أن رأيت ما قاله البياسي ، والله تعالى أعلم .

٦٨٧

المعتصم ابن صمادح الأندلسي

أبو يحيى محمـد بن معن بن محمد بن أحمـد بن صُمادح ، المنعوت بالمعتصم التجيبي ، صاحب المريَّةِ وبَجايَةَ والصُّمادحية من بلاد الأندلس .

(207) كان جده محمد بن أحمد بن صمادح صاحب مدينة وَشْقَةَ وأعمالها ، وذلك في أيام المؤيد هشام بن الحكم الأموي – المذكور في ترجمة المعتمد بن عباد –

---

١ هنا تنتهي الترجمة في بر من وينتهي الجزء الثاني من النسخة س، والثالث مفقود، ولهذا تتوقف الإشارة إلى س حتى بداية الجزء الرابع ، وكنا اعتمدنا في عناوين التراجم على هذه النسخة بعد توقف المسودة ؛ ولما كان الجزء الثالث مفقوداً وكذلك القسم الموازي له من المسودة ، فان صيغة العناوين ستصبح تقديرية بالاستئناس إلى مختلف النسخ .

٦٨٧ – ترجمته في الذخيرة ٢/١ : ٢٣٦ والقلائد : ٤٧ والمغرب ٢ : ١٩٥ والبيان المغرب ٣ : ١٦٧ ، ١٧٣ والمطرب : ٣٤ – ٣٨ والوافي ٥ : ٤٥ والمعجب : ١٩٦ والحلة السيراء ٢ : ٧٨ – ٨٨ وأعمال الأعلام : ١٩٠ وعبر الذهبي ٣ : ٣٠٦ .

فحاربه ابن عمه منذر بن يحيى التُّجيبي ، فاستظهر عليه وعجز عن دفعه لكثرة رجاله ، وترك له مدينة وَشْقة ، وفر بنفسه ولم يبق له بالبلد علقة ، وكان صاحب رأي ودهاء ولسان وعارضة لم يكن في أصحاب السيوف من يعدله في هذه الخلال في ذلك العصر .

(208) وكان ولده معن والد المعتصم مصاهراً لعبد العزيز بن أبي عامر صاحب بَلَنْسِيَة ، فلما قتل زهير مولى أبيه – وكان صاحب المرِيَّة – وثب عبد العزيز على المرِيَّة فملكها لكونها كانت لمولاه ، فحسده على ذلك مجاهد بن عبد الله العامري المكني أبا الجيش صاحب دانيَةَ ، فخرج قاصداً بلاد عبد العزيز وهو بالمرية مشتغل في تركة زهير ، فلما سمع بخروج مجاهد خرج من المرية مبادراً لاستصلاحه واستخلف بها صهره ووزيره معن بن صمادح والد المعتصم فخانه في الأمانة وغدر به ، وطرده عن الإمارة ، فلم يبق في ملوك الطوائف بالأندلس أحد إلا ذمه على هذه الفعلة ، إلا أنه تم له الأمر واستتب .

فلما مات انتقل الملك إلى ولده المعتصم وتسمى بأسماء الخلفاء ، وكان رحب الفناء ، جزل[1] العطاء ، حليماً عن الدماء ، طافت به الآمال ، واتسع في مدحه المقال ، وأعملت إلى حضرته الرحال ، ولزمه جماعة من فحول الشعراء كأبي عبد الله ابن الحداد وغيره ، وله أشعار حسنة ، فمن ذلك ما كتبه إلى أبي بكر ابن عمار الأندلسي – المقدم ذكره – يعاتبه :

وزهدني في النـــاس معرفتي بهم وطول اختباري صاحباً بعد صاحب
فلم تُرِني الأيام خلاًّ تسرني بَواديه إلا ساءني في العواقب
ولا صرت أرجوه لدفــع ملمة من الدهر إلا كان إحدى النوائب

فكتب إليه ابن عمار جوابها ، وهي أبيات كثيرة فلا حاجة إلى ذكرها .
ومن شعره أيضاً :

يا من يجسمني لبعده سقم ما منه غير الدنوّ يبريني

---

١ ن : جزلا في .

بين جفوني والنوم معترك   تصغر عنه حروب صِفّين
إن كان صرف الزمان أبعدني   عنك فطيف الخيال يدنيني

ومن هنا أنشد بهاء الدين زهير بن محمد – الكاتب المقدم ذكره[1] – قوله من جملة قصيدة :

بين جفوني والكرى   مذ غبت عني معترك

وله غير ذلك مقاطيع كثيرة .

ولأبي عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن أحمد بن عثمان بن إبراهيم المعروف بالحداد القيسي[2] من أهل المريّة في مديحه قصائد بديعة ، فمن ذلك قصيدته التي أولهـا :

لعلك بالوادي المقدس شاطىء   فكالعنبر الهندي ما أنا واطىء
وإنيَ من ريّاك واجد ريحهم   فرَوحُ الهوى بين الجوانح ناشىء
ولي في السُّرى من نارهم ومَنارهم   حُداة هُداة والنجوم طوافىء
لذلك ما حَنَّت ركابي وحمحمت   عِرابي وأوحى سيرها المتباطىء
فهل هاجها مـا هاجني ولعلها   إلى الوجد من نيران قلبي لواجىء[3]
رويداً فذا وادي لُبَينى وإنه   لَوِرْدُ لُباناتي وإني لظامىء
ويا حبذا من آل لُبْنى مواطنٌ   ويا حبذا في أرض لبنى مواطىء
ميادينُ تهيامي ومسرحُ خاطري   فللشوق غاياتٌ بهـا ومبادىء
ولا تحسبوا غيداً حوتها مقاصرٌ   فتلك قلوبٌ ضُمِّنتها جآجىء

---

١ انظر ج ٢ : ٣٣٢ ، وديوان البها زهير : ١٣٠ .
٢ ترجمة ابن الحداد في الذخيرة ١/٢ : ٢٠١ والمطمح : ٨٠ والاحاطة ٢ : ٢٥٠ والفوات ٢ : ٣٤١ والمحمدون : ٩٩ والمغرب ٢ : ١٤٣ والمسالك ١١ : ٤٠٠ والوافي ٢ : ٨٦ وصفحات متفرقة في نفح الطيب ، وقصيدته الهمزية في الذخيرة .
٣ ق ن ر : نواجىء .

وفي الكِلّة الزرقاء مكلوءُ عزة[1] ... تَحُفُّ به زرق العوالي الكوالىء
مَحا ملة السلوان مبعثُ حسنه ... فكل إلى دين الصبابة صابىء

ومنها أيضاً :

تمنّى مدى قُرْطيه عُفْرٌ تَوالع ... وتَهْوى ضيا عَيْنيهِ عِينٌ جوازىء
وفي ملعب الصدغين أبيض ناصع ... تخلّله للحسن أحمر قانىء
أفاتكة الألحاظ ناسكة الهوى ... ورعت ولكن لحظ عينك[2] خاطىء
وآل الهوى جرحى ولكن دماؤهم ... دموع هَوَامٍ والجروح مآقىء
وكيف أعاني كَلْم طرفك في الحشا ... وليس لتمزيق المهنـد راقىء
ومن أين أرجو برء نفسي من الجوى ... وما كل ذي سقم من السقم بارىء

ويخرج من هذا إلى المدح ، وهذه القصيدة طنانة طويلة .

وقَصده أيضاً من شعراء الأندلس أبو القاسم الأسعد بن بِلـيّطة[3] ، وهو من فحول شعرائهم ، ومدحه بقصيدته الطائية التي أولها :

برامَةَ ريم زارني بعدمـا شَطّا ... تقنّصتـُه في الحلم بالشط فاشتطا
رَعى من أناس في الحشا ثمر الهَوى ... جنياً ولم يرعَ العرارَ ولا الخَمْطا

ومنها :

وقد ذاب كحل الليل في دمع فجره ... إلى أن تبدى الصبح كاللمة الشمطا
كأن الدجى جيش من الزنج نافر ... وقد أرسل الإصبـاح في إثره القبطا

ومنها في صفة الديك :

---

١ ق ر مج : غرة .

٢ مج : عينيك .

٣ ترجمة الأسعد بن بليطة في الذخيرة ١/٢ : ٢٩٠ والمطمح ٨٣ وبغية الملتمس : ٢٢٨ والمطرب : ١٢٦ والمغرب ٢ : ١٧ .

كأنَّ أنو شروانَ أعلاهُ تاجَهُ وناطَتْ عليه كفُّ مارية القُرْطا

سبى حلَّةَ الطاوس[1] حسنُ لباسه ولم يكفه حتى سبى المشية البطا

ومنها أيضاً :

توهمُ عطفَ الصدغ نوناً بخدها فباتتْ بمسك الخالِ تنقطه نقطا

غلامية جاءت وقد جعل الدجى لخاتم فيها فصُّ غالية خطا

غدت تنقع المسواك في برد ثغرها وقد ضمخت مسكا غدائرها المشطا

فقلت أحاجيها بما في جفونها وما في الشفاه اللُّعْس من حسنها المعطى

محيِّرَة[2] الألحاظ من غير سكرةٍ متى شربت ألحاظُ عينيك إسفنطا

أري صفرة المسواك في حمرة[3] اللَّمَى وشاربك المخضر بالمسك قد خطا

عسى قُزح قبلته فاخاله على الشُّفَة اللمياء قد جاء مختطا

ومنها في المدح قوله[4] :

كأن أبا يحيى بن معن أجادها فعلَّمها من كفه الوَكْفَ والبسطا

تألف من در وشذرٍ نجاره فجاءت به العليا على جيدها سمطا

إذا سار سار المجد تحت لوائه فليس يحط المجد إلا إذا حطا

رفيع عماد النار في الليلِ للسرى فما يخبط العَشواء طارقُه خبطا

ومنها أيضاً :

أقول لركب يمموا مسقط الندى وقد جاوز الركبانُ من دونك السقطا

أفي المجد تبغي لابن معنٍ مناقضاً ومن يوقدُ المصباحَ في الشمس قد أخْطا

وهي قصيدة طويلة مقدار تسعين بيتاً ، أحسن فيها ناظمها مع وعورة

---

١ ر بر من : يساجله الطاوس .

٢ ق ر مج : مخترة ؛ ن : مخترة .

٣ الذخيرة : حوة ؛ وهو أدق .

٤ ق : ومنها أيضاً في المدح .

مسلك حرف رويها .

وكان المعتصم المذكور قد اختص بمؤانسة الأمير يوسف بن تاشفين عند عبوره إلى جزيرة الأندلس حسبما شرحناه في ترجمة المعتمد بن عباد المذكور قبله وأقبل عليه أكثر من بقية ملوك الطوائف ، فلما تغيرت نية الأمير يوسف على المعتمد وجاهره المعتمد بالعصيان شاركه في ذلك المعتصم ، ووافقه على الخروج عن طاعته وعدم الانقياد لأمره ، فلما قصد الأمير يوسف بلاد الأندلس عزم على خلعها وقبضها .

قال ابن بسام في « الذخيرة »[1] : وكان بين المعتصم وبين الله سريرة ، أسلفت له عند الحمام يداً مشكورة ، فمات وليس بينه وبين حلول الفاقرة به إلا أيام يسيرة ، في سلطانه وبلده ، وبين أهله وولده . حدثني من لا أرد خبره عن أروى بعض مسانّ حظايا أبيه قالت : إني لعنده وهو يوصي بشانه ، وقد غُلب على أكثر يده ولسانه ، ومعسكر أمير المسلمين[2] — تعني يوسف بن تاشفين — يومئذ بحيث نعد خيامهم ونسمع اختلاط أصواتهم إذ سمع وَجْبَة من وجباتهم ، فقال : لا إله إلا الله ، نُغـّص علينا كل شيء حتى الموت ! قالت أروى : فدمعت عيني ، فلا أنسى طرفاً إلي يرفعه ، وإنشاده لي بصوت لا أكاد أسمعه :

ترفـّقْ بدمعك لا تُفْنِـهِ فبين يديك بـكاءٌ طويل

انتهى كلام ابن بسام .

وقال محمد بن أيوب الأنصاري في كتابه الذي صنفه للسلطان الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله تعالى في سنة ثمان وستين وخمسمائة في ترجمة المعتصم بن صمادح المذكور ، بعد أن ذكر طرفاً من أخباره ، وشيئاً من اشعاره ، وحكى صورة حصاره ، وقوله في مرضه نغص علينا كل شيء حتى الموت : ومات — يعني المعتصم — في أثر ذلك عند طلوع الشمس يوم الخميس لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وأربعمائة بالمريّة ، رحمه الله تعالى ، ودفن في تربة له عند باب الخوخة .

---

١ الذخيرة ١/٢ : ٢٤٠ .

٢ ق ر بر : المؤمنين ؛ وهو غير دقيق ، لأن يوسف لم يتخذ لقب خليفة .

وصُمادح : بضم الصاد المهملة وفتح الميم وبعد الألف دال مكسورة ثم حاء مهملة ، وهو الشديد .

وبِلِـنّيطة : والد أبي القاسم الأسعد الشاعر المذكور ، بكسر الباء الموحدة واللام المشددة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الطاء المهملة وبعدها هاء ساكنة ، ولا أعرف معناه ، وهو بلغة أعاجم الأندلس .

والتجيبي : قد تقدم الكلام عليه .

وبَجَاية : بفتح الباء الموحدة والجيم[1] وبعد الألف ياء[2] ثم هاء ساكنة ، وهي مدينة بالأندلس .

والمرية قد تقدم الكلام عليها ؛ والصُّمادحية منسوبة إلى صُمادح المذكور .

ووَشْقة : بفتح الواو وسكون الشين المعجمة وفتح القاف وبعدها هاء ساكنة ، بلدة بالأندلس أيضاً ، والله أعلم .

٦٨٨

المهدي ابن تومرت

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت ، المنعوت بالمهدي الهرغي ، صاحب دعوة عبد المؤمن بن علي بالمغرب – وقد تقدم في ترجمة عبد المؤمن طرف من خبره[3] – وكان ينتسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ؛ وجدت على

---

١ ق ر ن بر من : وتشديد الجيم .

٢ ق ر بر من : نون .

٦٨٨ – ترجمته في المعجب : ٢٤٥ وطبقات السبكي ٤ : ٧١ وابن خلدون ٦ : ٢٢٥ والحلل الموشية : ٨٤ وجذوة الاقتباس : ١٢٨ والوافي ٣ : ٣٢٣ وعبر الذهبي ٤ : ٥٧ والشذرات ٤ : ٧٠ والاستقصا ٢ : ٧٨ وراجع تاريخ البيذق وابن القطان وروض القرطاس وكل المصادر التاريخية المتعلقة بنشأة دولة الموحدين .

٣ انظر ج ٣ : ٢٣٧ .

ظهر كتاب النسب للشريف العابد[1] بخط بعض أهل الأدب من عصرنا نسب ابن تومرت المذكور فنقلته كما وجدته وهو : محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود ابن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهما ، والله أعلم .

وهو من جبل السوس في أقصى بلاد المغرب ، ونشأ هناك ثم رحل إلى المشرق في شبيبته طالباً للعلم ، فانتهى إلى العراق ، واجتمع بأبي حامد الغزالي والكيا الهراسي والطُّرْطوشي وغيرهم ، وحج وأقام بمكة مُدَيْدَةً وحصل طرفاً صالحاً من علم الشريعة والحديث النبوي وأصول الفقه والدين .

وكان ورعاً ناسكاً متقشفاً مخشوشناً مخلولقاً كثير الإطراق ، بساماً في وجوه الناس ، مقبلاً على العبادة ، لا يصحبه من متاع الدنيا إلا عصا وركوة . وكان شجاعاً فصيحاً في لسان العربي والمغربي ، شديد الإنكار على الناس فيما يخالف الشرع ، لا يقنع في أمر الله بغير إظهاره . وكان مطبوعاً على الالتذاذ بذلك متحملاً للأذى من الناس بسببه ، وناله بمكة ، شرفها الله تعالى ، شيء من المكروه من أجل ذلك ، فخرج منها إلى مصر وبالغ في الإنكار ، فزادوا في أذاه ، وطردته الدولة ، وكان إذا خاف من البطش وإيقاع الفعل به خلط في كلامه فينسب إلى الجنون ؛ فخرج من مصر إلى الإسكندرية ، وركب البحر متوجهاً إلى بلاده . وكان قد رأى في منامه وهو في بلاد المشرق كأنه شرب ماء البحر جميعه كرتين ، فلما ركب في السفينة شرع في تغيير المنكر على أهل السفينة ، وألزمهم بإقامة الصلوات وقراءة أحزاب من القرآن العظيم ، ولم يزل على ذلك حتى انتهى إلى المهدية إحدى مدن[2] إفريقية ، وكان ملكها يومئذ الأمير يحيى بن تميم بن المعز ابن باديس الصنهاجي ، وذلك في سنة خمس وخمسمائة .

هكذا وجدته في «تاريخ القيروان» ، وقد تقدم في ترجمة الأمير تميم والد يحيى المذكور أن محمد بن تومرت المذكور اجتاز في أيام ولايته بإفريقية عند عوده من

---

١ في بعض النسخ : في كتاب النسب الشريف العابد وأثبتنا ما في ن ؛ وقد سقط هذا النسب من بر من .

٢ ر ق ن : قرى .

المشرق ، وكنت وجدته كذا أيضاً والله أعلم بالصواب ، ولم يرحل إلى المشرق مرتين حتى يحمل[1] ذلك على دفعتين ، فان كان عوده في سنة خمس كما ذكرناه فهو في ولاية الأمير يحيى ، لأن أباه الأمير تميماً توفي سنة إحدى وخمسمائة كما تقدم في ترجمته ، وإنما نبهت عليه لئلا يتوهم الواقف عليه أنه فاتني ذلك ، وهو متناقض.

ورأيت في تاريخ القاضي الأكرم ابن القفطي وزير حلب وهو مرتب على السنين ما صورته : في هذه السنة — وكان آخر[2] سنة إحدى عشرة وخمسمائة — خرج محمد بن تومرت من مصر في زي الفقهاء بعد الطلب[3] بها وبغيرها ووصل[4] إلى بَجَاية ، والله أعلم بالصواب ؛ ولما وصل إلى المهدية نزل في مسجد معلق ، وهو على الطريق ، وجلس في طاق شارع إلى المحجّة ينظر إلى المارة فلا يرى منكراً من آلة الملاهي او أواني الخمر إلا نزل إليها وكسرها ، فتسامع به الناس في البلد[5] ، فجاءوا إليه ، وقرأوا عليه كتباً من أصول الدين[6] ، وبلغ خبره الأمير يحيى ، فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء ، فلما رأى سَمْته وسمع كلامه أكرمه وأجله وسأله الدعاء ، فقال له : أصلحك الله لرعيتك ، ولم يقم بعد ذلك بالمهدية إلا أياماً يسيرة ، ثم انتقل الى بَجاية ، وأقام بها مدة وهو على حاله في الإنكار ، فأخرج منها إلى بعض قراها واسمها ملالة ، فوجد بها[7] عبد المؤمن بن علي القيسي المقدم ذكره .

ورأيت في كتاب «المغرب[8] عن سيرة ملوك المغرب» أن محمد بن تومرت كان

---

١ مج : نحمل ؛ ر : تحمل .
٢ ق ن ر : في .
٣ ر ق ن : الطلبة .
٤ ووصل : سقطت من ق ر ن .
٥ مج : فتسامع به أهل البلد .
٦ مج : فقصدوه يقرءون عليه أنواع العلوم وكان إذا مر به المنكر غيره وأزاله فلما كثر ذلك منه أحضره الأمير يحيى مع جماعة ..الخ .
٧ مج : ورحل عن المهدية وأقام بالمنستير مع جماعة من الصالحين مدة ، وسار إلى بجاية ففعل بها مثل ذلك فأخرج منها إلى قرية بالقرب منها اسمها ملاية ، فلقيه بها عبد المؤمن... الخ .
٨ يتردد اسم هذا الكتاب في النسخ بين المعرب والمغرب .

قد اطلع من علوم أهل البيت على كتاب يسمى الجفر وأنه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى بمكان يسمى السوس ، وهو من ذرية رسول الله صلى عليه وسلم ، يدعو إلى الله ، يكون مقامه ومدفنه بموضع من المغرب يسمى باسم هجاء حروفه (ت ي ن م ل) ورأى فيه أيضاً أن استقامة ذلك الأمر واستيلاءه وتمكنه يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه (ع ب د م و م ن) ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة ، فأوقع الله سبحانه وتعالى في نفسه أنه القائم بأول الأمر ، وأن أوانه قد أزف ، فما كان محمد يمر بموضع إلا سأل عنه ، ولا يرى أحداً إلا أخذ اسمه وتفقد حليته ، وكانت حلية عبد المؤمن معه ، فبينما هو في الطريق رأى شاباً قد بلغ أشده[1] على الصفة التي معه. فقال له محمد وقد تجاوزه: ما اسمك يا شاب ؟ فقال : عبد المؤمن ، فرجع إليه وقال له : الله أكبر ، أنت بغيتي ، فنظر في حليته فوافقت ما عنده ، فقال له : ممن أنت ، فقال : من كومية ، قال : أين مقصدك ؟ فقال : الشرق ، فقال : ما تبغي ؟ قال : أطلب علماً وشرفاً ، قال : وجدت علماً وشرفاً وذكراً ، اصحبني تنله فوافقه على ذلك ، فألقى محمد إليه أمره وأودعه سره .

وكان محمد قد صحب رجلاً يسمى عبد الله الونشريسي ففاوضه فيما عزم عليه من القيام ، فوافقه على ذلك أتم موافقة[2] ، وكان الونشريسي ممن تهذب وقرأ فقهاً ، وكان جميلاً فصيحاً في لغة العرب وأهل المغرب ، فتحدثا يوماً في كيفية الوصول إلى الأمر المطلوب ، فقال محمد لعبد الله : أرى أن تستر ما أنت عليه من العلم والفصاحة عن الناس وتظهر من العجز واللَّكَن والحَصَر والتعري عن الفضائل ما تشتهر به عند الناس ، لنتخذ الخروج عن ذلك واكتساب العلم والفصاحة دفعة واحدة ليقوم ذلك مقام المعجزة عند حاجتنا إليه ، فنصدق فيما نقوله ، ففعل عبد الله ذلك .

ثم إن محمداً استدنى أشخاصاً من أهل الغرب أجلاداً في القوى الجسمانية أغماراً ، وكان أميلَ إلى الأغمار من أولي الفطن والاستبصار ، فاجتمع له منهم

---

١ زاد في ق : وبلغ أربعين سنة .

٢ ق : فوافقه على ذلك وكانت موافقته أتم موافقة .

ستة سوى عبد الله الونشريسي ، ثم إنه رحل إلى أقصى المغرب ، واجتمع بعبد المؤمن بعد ذلك ، وتوجهوا جميعاً إلى مراكش وملكها يومئذ أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين – وقد سبق ذكر والده في ترجمة المعتمد بن عباد والمعتصم بن صمادح – وكان ملكاً عظيماً حليماً ورعاً عادلاً متواضعاً ، وكان بحضرته رجل يقال له مالك بن وهيب الأندلسي ، وكان عالماً صالحاً ، فشرع محمد في الإنكار على جاري عادته ، حتى أنكر على ابنة الملك ، وله في ذلك قصة يطول شرحها[1] .

وبلغ الملك خبره وأنه يتحدث[2] في تغيير الدولة ، فتحدث مالك بن وهيب في أمره ، وقال : نخاف من فتح باب يعسر علينا سده ، والرأي أن يحضر هذا الشخص وأصحابه لنسمع كلامهم بحضور جماعة من علماء البلد ، فأجاب الملك إلى ذلك ، وكان محمد وأصحابه مقيمين في مسجد خَراب خارج البلد ، فطلبوهم ، فلما ضمهم المجلس قال الملك لعلماء بلده : سلوا هذا الرجل ما يبغي منا ، فانتدب له قاضي المريَّة واسمه محمد بن أسود[3] فقال : ما هذا الذي يذكر عنك من الأقوال في حق الملك العادل الحليم المنقاد إلى الحق المؤثر طاعة الله تعالى على هواه ؟ فقال له محمد : أما ما نقل عني فقد قلته ولي من ورائه أقوال ، وأما قولك إنه يؤثر طاعة الله تعالى على هواه وينقاد إلى الحق فقد حضر اعتبار

---

١ لعلها القضية التي وردت في مج إذ جاء النص فيها كالآتي : « وتوجهوا جميعاً إلى مراكش دار مملكة أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين وقد سبق ذكر والده في ترجمة المعتمد بن عباد والمعتصم بن صمادح فرأى فيها من المنكرات أكثر مما عاينه في طريقه ، فزاد في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فكثر اتباعه وحسنت ظنون الناس فيه ، فبينما هو في بعض الأيام في طريقه إذ رأى أخت أمير المسلمين في موكبها ومعها من الجواري الحسان كثير وهن مسفرات ، وكانت هذه عادة الملثمين ، تسفر نساؤهم وجوههن وتتلثم الرجال ، فأنكر على النساء وأمرهن بستر وجوههن وضرب هو وأصحابه دوابهن ، فسقطت أخت أمير المسلمين عن دابتها فرفع أمره إلى أمير المسلمين فأحضره وأحضر الفقهاء ليناظروه فأخذ يعظه ويذكره ويخوفه فبكى أمير المسلمين ، وأمر أن يناظره الفقهاء فلم يكن فيهم من يقوم له لقوة ايمانه في الذي فعله ، وكان عند أمير المسلمين مالك ابن وهيب وكان كثير الاجتراء على الملك ... الخ .

٢ ن ر ق بر من : تحدث .

٣ المختار : محمد بن سواد .

صحة هذا القول عنه ، ليعلم بتعرّيه عن هذه الصفة أنه مغرور بما تقولون له وتضرونه[1] به ، مع علمكم أن الحجة عليه متوجهة ، فهل بلغك يا قاضي أن الخمرة تباع جهاراً ، وتمشي الخنازير بين المسلمين ، وتؤخذ أموال اليتامى ؟ وعدّد من ذلك شيئاً كثيراً .

فلما سمع الملك كلامه ذرفت عيناه وأطرق حياء ، ففهم الحاضرون من فحوى كلامه أنه طامع في المملكة لنفسه ، ولما رأوا سكوت الملك وانخداعه لكلامه لم يتكلم أحد منهم ، فقال مالك بن وهيب ، وكان كثير الاجتراء على الملك : أيها الملك ، إن عندي لنصيحة إن قبلتها حمدت عاقبتها ، وإن تركتها لم تأمن غائلتها ، فقال الملك : ما هي ؟ قال : إني خائف عليك من هذا الرجل ، وأرى أنك تعتقله وأصحابه ، وتنفق عليهم كل يوم ديناراً لتكتفي شره ، وإن لم تفعل ذلك لتنفقن عليه[2] خزائنك كلها ، ثم لا ينفعك ذلك . فوافقه الملك على ذلك ، فقال له وزيره : يقبح منك أن تبكي من موعظة هذا الرجل ثم تسيء إليه في مجلس واحد ، وأن يظهر منك الخوف منه مع عظم ملكك ، وهو رجل فقير لا يملك سد جوعه ، فلما سمع الملك كلامه أخذته عزة النفس واستهون أمره وصرفه ، وسأله الدعاء .

وحكى صاحب كتاب « المغرب في أخبار أهل المغرب » أنه لما خرج من عند الملك لم يزل وجهه تلقاء وجهه إلى أن فارقه ، فقيل له : نراك قد تأدبت مع الملك إذ لم توله ظهرك ، فقال : أردت أن لا يفارق وجهي الباطل حتى أغيره ما استطعت[3] ؛ انتهى كلامه .

فلما خرج محمد وأصحابه من عند الملك قال لهم : لا مقام لنا بمراكش مع وجود مالك بن وهيب ، فما نأمن من أن يعاود الملك في أمرنا فينالنا منه مكروه ، وإن لنا بمدينة أغمات أخاً في الله ، فنقصد المرور به فلن نعدم منه رأياً ودعاء صالحاً ، واسم هذا الشخص عبد الحق بن إبراهيم ، وهو من فقهاء

---

١ ق بر من : وتطرونه .

٢ مج بر من والمختار : لتنفقن عليك .

٣ ت مج بر من : ما استطعت حتى أغيره .

المصامدة ، فخرجوا إليه ونزلوا عليه ، وأخبره محمد خبرهم وأطلعه على مقصدهم وما جرى لهم عند الملك ، فقال عبد الحق : هذا الموضع لا يحميكم ، وإن أحصن المواضع المجاورة لهذا البلد تين مل ، وبيننا وبينها مسافة يوم في هذا الجبل ، فانقطعوا فيه برهة ريثما ينسى ذكركم ، فلما سمع محمد بهذا الاسم تجدد[1] له ذكر اسم الموضع الذي رآه في كتاب الجفر ، فقصده مع أصحابه ، فلما أتوه رآهم أهله على تلك الصورة فعلموا أنهم طلاب العلم ، فقاموا إليهم وأكرموهم وتلقوهم بالترحاب وأنزلوهم في أكرم منازلهم ، وسأل الملك عنهم بعد خروجهم من مجلسه فقيل له : إنهم سافروا ، فسره ذلك وقال : تخلصنا من الإثم بحبسهم.

ثم إن أهل الجبل تسامعوا بوصول محمد إليهم ، وكان قد سار فيهم ذكره ، فجاءوه من كل فج عميق وتبركوا بزيارته ، وكان كل من أتاه استدناه وعرض عليه ما في نفسه من الخروج على الملك ، فإن أجابه أضافه إلى خواصه ، وإن خالفه أعرض عنه . وكان يستميل الأحداث وذوي الغرة[2] ، وكان ذوو العقل والعلم والحلم من أهاليهم ينْهَوْنهم ويحذرونهم من اتباعه ويخوفونهم[3] من سطوة الملك ، فكان لا يتم له مع ذلك حال . وطالت المدة وخاف محمد من مفاجأة الأجل قبل بلوغ الأمل ، وخشي أن يطرأ على أهل الجبل من جهة الملك ما يحوجهم إلى تسليمه إليه والتخلي عنه ، فشرع في إعمال الحيلة فيما يشاركونه فيه ليعصوا على الملك بسببه ، فرأى بعض أولاد القوم شُقراً زرقاً ، وألوان آبائهم السمرة والكحل ، فسألهم عن سبب ذلك فلم يجيبوه ، فألزمهم بالإجابة فقالوا: نحن من رعية الملك وله علينا خراج ، وفي كل سنة تصعد مماليكه إلينا ينزلون في بيوتنا ويخرجونا عنها ويخلون بمن فيها من النساء ، فتأتي الأولاد على هذه الصفة ، وما لنا قدرة على دفع ذلك عنا ، فقال محمد : والله إن الموت خير من هذه الحياة، وكيف رضيتم بهذا وأنتم أضرب خلق الله بالسيف وأطعنهم بالرمح والحربة ؟ فقالوا : بالرغم لا بالرضا ، فقال : أرأيتم لو أن ناصراً نصركم على

---

[1] ق و المختار : تحدد .

[2] وكان يستميل ... الغرة : سقط من ر ق والمختار ؛ بر من : الغرارة .

[3] ت مج بر من : ويخيفونهم .

أعدائكم ما كنتم تصنعون ؟ قالوا : كنا نقدم أنفسنا بين يديه للموت ، قالوا : من هو ؟ قال : ضيفكم – يعني نفسه – فقالوا : السمع والطاعة ، وكانوا يغالون في تعظيمه ؛ فأخذ عليهم العهود والمواثيق واطمأن قلبه ، ثم قال لهم : استعدوا لحضور هؤلاء بالسلاح ، فإذا جاءوكم فأجروهم على عاداتهم وخلّوا بينهم وبين النساء وميلوا عليهم بالخمور ، فإذا سكروا فأذنوني بهم ، فلما حضر[1] المماليك وفعل بهم أهل الجبل ما أشار به محمد ، وكان ليلاً ، فأعلموه بذلك ، فأمر بقتلهم بأسرهم ، فلم يمض من الليل سوى ساعة حتى أتوا على آخرهم ، ولم يفلت منهم سوى مملوك واحد كان خارج المنازل لحاجة له ، فسمع التكبير عليهم والوقع بهم فهرب من غير الطريق حتى خلص من الجبل ولحق بمراكش وأخبر الملك بما جرى ، فندم على فوات محمد من يده ، وعلم أن الحزم كان مع مالك ابن وهيب فيما أشار به ؛ فجهز من وقته خيلاً بمقدار ما يسع وادي تين مل فإنه ضيق المسلك ، وعلم محمد أنه لا بد من عسكر يخرج إليهم ، فأمر أهل الجبل بالقعود على أنقاب الوادي ومراصده[2] ، واستنجد لهم بعض المجاورين ، فلما وصلت الخيل إليهم أقبلت عليهم الحجارة من جانبي الوادي مثل المطر ، وكان ذلك من أول النهار إلى آخره ، وحال بينهم الليل ، فرجع العسكر إلى الملك وأعلموه بما تم لهم ، فعلم أنه لا طاقة له بأهل الجبل لتحصنهم ، فأعرض عنهم .

وتحقق محمد ذلك منه ، وصفت له مودة أهل الجبل ، فعند ذلك استدعى الونشريسي المذكور وقال له : هذا أوان إظهار فضائلك دفعة واحدة ليقوم لك مقام المعجزة لنستميل بك قلوب من لا يدخل في الطاعة ، ثم اتفقا على أنه يصلي الصبح ويقول بلسان فصيح بعد استعمال العجمة واللكنة في تلك المدة : إني رأيت البارحة في منامي وقد نزل بي مَلَكان من السماء وشقّا فؤادي وغَسلاه وحَشياه علماً وحكمة وقرآناً ، فلما أصبح فعل ذلك ، وهو فصل يطول شرحه ، فانقاد له كل صَعْب القياد ، وعجبوا من حاله وحفظه القرآن

---

١ المختار ، ر ن : حضروا .

٢ ن : ومراصدة من يحضر .

في النوم ، فقال له محمد فعجل لنا البُشرى في أنفسنا وعرفنا أسُعَداء نحن أم أشقياء ؟ فقال له : أما أنت فانك المهدي القائم بأمر الله ، ومن تبعك سعد ومن خالفك هلك ؛ ثم قال : اعرض أصحابَكَ عليّ حتى أميز أهل الجنة من أهل النار ، وعمل في ذلك حيلة قتل بها مَنْ خالف أمر محمد ، وأبقى من أطاعه ، وشرح ذلك يطول ، وكان غرضه أن لا يبقى في الجبل مخالف لمحمد ، فلما قتل من قتل علم محمد أن في الباقين من له أهل وأقارب قتلوا وأنهم لا تطيبُ قلوبهم بذلك فجمعهم وبشرهم بانتقال ملك[1] مراكش إليهم ، واغتنام أموالهم ، فسرهم ذلك وسلاّهم عن أهلهم ، وبالجملة فإن تفصيل هذه الواقعة يطول شرحه ولسنا بصدد ذلك .

وخلاصة الأمر أن محمداً لم يزل حتى جهز جيشاً عددُ رجاله عشرة آلاف بين فارس وراجل ، وفيهم عبد المؤمن والونشريسي وأصحابه كلهم ، وأقام هو بالجبل ، فنزل القومُ لحصار مراكش ، وأقاموا عليها شهراً ، ثم كسروا كسرة شنيعة ، وهرب مَنْ سلم من القتل ، وكان فيمن سلم عبد المؤمن ، وقتل الونشريسي ، وبلغ محمداً الخبر وهو بالجبل وحضرته الوفاة قبل عود أصحابه إليه ، فأوصى من حضر أن يبلغ الغائبين أن النصر لهم ، وأن العاقبة حميدة فلا يضجروا وليعاودوا القتال، وان الله سبحانه وتعالى سيفتح على أيديهم والحرب سِجال ، وإنكم ستقوون ويضعفون ويقلون وتكثرون ، وأنتم في مبدإ أمرٍ وهم في آخره ، ومثل هذه الوصايا وأشباهها ، وهي وصية طويلة .

ثم إنه توفي إلى رحمة الله تعالى في سنة أربع[2] وعشرين وخمسمائة ، ودفن في الجبل ، وقبره هناك مشهور يزار ، وهذه السنة تسمى عندهم عام البحيرة ؛ وكانت ولادته يوم عاشوراء سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وأول ظهوره ودعائه إلى هذا الأمر سنة أربع عشرة وخمسمائة .

وكان رجلا رَبْعَة قضيفاً أسمر عظيم الهامة حديد النظر ، وقال صاحب كتاب « المغرب في أخبار أهل المغرب » في حقه :

---

١ المختار : وبشرهم بالقتال وأن ملك صاحب .

٢ ق : خمس .

آثاره تُنْبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيـــان تراه ُ

قدم في الثرى وهمة في الثريا ، ونفس ترى إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيّا، أغفل المرابطون حله وربطه ، حتى دبّ دبيبَ الفلــق في الغسق ، وترك في الدنيا دَوياً ، أنشأ دولة لو شاهدها أبو مسلم ، لما كان لعزمه فيها بمسلم ، وكان قوته من غزل أخت له رغيفــاً في كل يوم بقليل سمن او زيت ، ولم ينتقل عن هذا حين كثرت عليه الدنيا ، ورأى أصحابه يوماً وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه ، فأمر بضم ذلك جميعه وأحرقــه وقال : من كان يتبعني للدنيا فما له عندي إلا ما رأى ، ومن تبعني للآخرة فجزاؤه عند الله تعالى . وكان على خمول زيه وبسط وجهه مَهيباً منيــع الحجاب ، إلا عند مظلمة ، وله رجــل مختص بخدمته والإذن عليه ، وكان له شعر فمن ذلك قوله :

أخذت بأعضادهم إذ نأوا وخَلـّفك القوم إذ ودعوا
فكم أنت تنهى ولا تنتهي وتـُسْمع وعظاً ولا تَـسْمع
فيا حجر الشـّحْذِ حتى متى تسن الحديد ولا تقطـــع

وكان كثيراً ما ينشد :

تجرد من الدنيا فإنك إنمــا خرجت إلى الدنيا وأنت مجردُ

وكان أيضاً يتمثل بقول المتنبي :

إذا غامرت في شرف مَرُوم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم

وبقوله أيضاً :

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس،رَوّى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا بـــه ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

وبقوله أيضاً :

وما أنا منهمُ بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغامُ

ولم يفتح شيئاً من البلاد ، وإنما قرر القواعد ومهدها ، ورتب الأحوال ووطدها ، وكانت الفتوحات على يد عبد المؤمن كما تقدم ذكره في ترجمته .

والهَرْغي : بفتح الهاء وسكون الراء وبعدها غين معجمة ، هذه النسبة إلى هَرْغة وهي قبيلة كبيرة من المصامدة في جبل السوس في أقصى المغرب تنسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، يقال إنها نزلت في ذلك المكان عندما فتح المسلمون البلاد على يد موسى بن نُصير – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى .

وتُومَرْت : بضم التاء المثناة من فوقها وسكون الواو وفتح الميم وسكون الراء بعدها تاء مثناة من فوقها أيضاً ، وهو اسم بربري .

والونشريسي : بفتح الواو وسكون النون وفتح الشين المعجمة وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها سين مهملة ، هذه النسبة إلى ونشريس ، وهي بليدة[1] بإفريقية من أعمال بجاية بين باجة وقسطنطينة المغرب .

وتين مل : بكسر التاء المثناة من فوقها وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون ثم ميم مفتوحة ولام مشددة[2] .

وقد تقدم الكلام على الجفر في ترجمة عبد المؤمن فليكشف من هناك ؛ والله أعلم .

---

١ ونشريس : جبل يقع في الجزائر .

٢ تكتب في المصادر المغربية تين ملل ، وهو أصح .

٦٨٩

أبو بكر الاخشيد

أبو بكر محمد بن أبي محمد طُغْج – وتفسيره عبد الرحمن – ابن جُفّ بن يَلْتِكِين بن فُوران بن فُوري[1] ابن خاقان ، الفرغاني الأصل ، صاحب سرير الذهب المنعوت بالإخشيد ، صاحب مصر والشام والحجاز ؛ أصله من أولاد ملوك فَرْغانة[2] .

(209) وكان المعتصم بالله بن هارون الرشيد قد جلبوا إليه من فرغانة جماعة كثيرة ، فوصفوا له جفّ وغيره بالشجاعة والتقدم في الحروب فوجه المعتصم من أحضرهم ، فلما وصلوا إليه بالغ في إكرامهم وأقطعهم قطائع بسُر من رأى ، وقطائع جُفّ إلى الآن معروفة هناك ولم يزل مقيماً بها ، وجاءته الأولاد، وتوفي جُفّ ببغداد في الليلة التي قتل فيها المتوكل ، وكانت ليلة الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين .

٦٨٩ – أخباره في تاريخ ابن الأثير (صفحات متفرقة من ج : ٨) والمغرب (قسم مصر) ١ : ١٤٨ والنجوم الزاهرة ٣ : ٢٥١ والكندي : ٢٨١ ، ٢٨٦ والوافي ٣ : ١٧١ وعبر الذهبي ٢ : ٢٣٩ والشذرات ٢ : ٣٣٧ .

١ مج : قوران بن قوري .

٢ وردت هذه الترجمة في مج ت موجزة كثيراً مختلفة في سياقها كالآتي : أصله من أولاد ملوك فرغانة وكان أبوه طغج ينوب عن خمارويه أحمد بن طولون المقدم ذكره في ولاية دمشق والشام ، وكان ولده محمد المذكور حازماً شديد التيقظ في حروبه حسن التدبير مكرماً للأجناد شديد القوى لا يكاد يجر قوسه غيره ، حسن السيرة في الرعية ، فلما رأى الإمام القاهر بالله نجابته وشهامته ولاه مصر في سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة ولقبه الإخشيد لكونه من أولاد ملوك فرغانة وهذا اللقب وضع لكل من ملك تلك الجهة كما لقبوا ملك الترك... الخ ؛ فلما مات الراضي وتولى ولده المتقي ضم إليه الشام والحجاز فاتسعت مملكته وعظم شأنه ، وهو أستاذ كافور وفاتك... الخ وهو عم أبي محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج صاحب الرملة الذي مدحه المتنبي (ثم قصيدة المتنبي وذكر الولادة والوفاة وضبط بعض الأسماء) .

(210) فخرج[1] أولاده إلى البلاد يتصرفون ويطلبون لهم معايش ، فاتصل طُغْجُ بن جُفّ بلؤلؤ غلام ابن طولون وهو إذ ذاك مقيم بديار مصر ، فاستخدمه على ديار مصر ، ثم انحاز طُغْجُ إلى جملة أصحاب إسحاق بن كنداج ، فلم يزل معه إلى أن مات أحمد بن طولون ، وجرى الصلح بين ولده أبي الجيش خمارويه ابن أحمد بن طولون – المقدم ذكره[2] – وبين إسحاق بن كنداج ، ونظر أبو الجيش إلى طغج بن جف في جملة أصحاب إسحاق فأعجب به وأخذه من إسحاق وقدمه على جميع من معه ، وقلده دمشق وطبرية ، ولم يزل معه إلى أن قتل أبو الجيش – في تاريخه المقدم ذكره – فرجع طُغْجُ إلى الخليفة المكتفي بالله ، فخلع عليه وعرف له ذلك ، وكان وزير الخليفة يومئذ العباس بن الحسن ، فسام طغج أن يجري في التذلل له مجرى غيره ، فكبرت نفس طغج عن ذلك ، فأغرى به المكتفي ، فقبض عليه وحبسه وابنه أبا بكر محمد بن طُغْجَ المذكور ، فتوفي طغج في السجن .

وبقي ولده أبو بكر بعده محبوساً مدة ، ثم أطلق وخلع عليه ، ولم يزل يراصد العباس بن الحسن الوزير المذكور حتى أخذ بثأر أبيه هو وأخوه عبيد الله في الوقت الذي قتله فيه الحسين بن حمدان . ثم خرج أبو بكر وأخوه عبيد الله في سنة ست وتسعين ومائتين ، وهرب عبيد الله إلى ابن أبي الساج ، وهرب أبو بكر إلى الشام ، وأقام متغرباً في البادية سنة ، ثم اتصل بأبي منصور تكين الخزري ، فكان أكبر أركانه .

ومما كبر به اسمه سَرِيّتُه إلى النقيب على الجمع الذين تجمعوا على الحجاج لقطع الطريق عليهم ، وذلك سنة ست[3] وثلثمائة ، وهو يومئذ يتقلد عمّان وجبال الشراة من قبل تكين المذكور ، وظفره بهم ، ومجيء الحاجّ وقد فرغ من أمرهم بأسر من أسره وقتل من قتله وشرد الباقين . وكان قد حج في هذه السنة من دار الخليفة المقتدر بالله امرأة تعرف بعجوز ، فحدثت المقتدر بالله بما شاهدت

---

١ ق بر من : فنجع .

٢ ج ٢ : ٢٢١ .

٣ ق : ثمان .

منه ، فأنفذ إليه خلعاً وزيادة في رزقه .

ولم يزل أبو بكر في صحبة تكين إلى سنة ست عشرة وثلثمائة ، ثم فارقه بسبب اقتضى ذلك ولا حاجة بنا إلى التطويل بذكره ، وسار إلى الرملة فوردت كتب المقتدر إليه بولاية الرملة ، فأقام بها إلى سنة ثماني عشرة ، فوردت كتب المقتدر إليه بولاية دمشق فسار إليها ، ولم يزل بها إلى أن ولاه القاهر بالله ولاية مصر في شهر رمضان سنة إحدى وعشرين وثلثمائة ، ودعي له بهما مدة اثنتين وثلاثين يوماً ولم يدخلها ، ثم ولي أبو العباس أحمد بن كَيَغْلَغ الولاية الثانية من قبل القاهر أيضاً لتسع خلون من شوال سنة إحدى وعشرين وثلثمائة ، ثم أعيد إليها أبو بكر محمد بن الإخشيد من جهة الخليفة الراضي بالله بن المقتدر بعد خلع عمه القاهر عن الخلافة ، وضم إليه البلاد الشامية والجزرية والحرمين وغير ذلك ، ودخل مصر يوم الأربعاء لسبع[1] بقين من شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة وقيل إنه لم يزل على مصر فقط إلى أن توفي الراضي بالله في سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، وتولى أخوه المقتفي لأمر الله فضم إليه الشام والحجاز وغير ذلك ، والله أعلم .

ثم إن الراضي لقبه بالإخشيد في شهر رمضان المعظم سنة سبع وعشرين وثلثمائة وإنما لقبه بذلك لأنه لقب ملوك فَرْغانة ، وهو من أولادهم — كما سبق ذكره في أول هذه الترجمة — وتفسيره بالعربي ملك الملوك ، وكل من ملك تلك الناحية لقبوه بهذا اللقب ، كما لقبوا كل من ملك بلاد فارس كسرى[2] ، وملك الترك خاقان ، وملك الروم قيصر ، وملك الشام هرقل ، وملك اليمن تبع ، وملك الحبشة النجاشي ، وغير ذلك . وقيصر كلمة فرنجية تفسيرها بالعربية شُقّ عنه وسببه أن أمه ماتت في المخاض فشق بطنها وأخرج ، فسمي قيصر ، وكان يفتخر بذلك على غيره من الملوك ، لأنه لم يخرج من الرحم ، واسمه أغسطس ، وهو أول ملوك الروم ، وقد قيل إنه في السنة الثالثة والأربعين من ملكه ولد المسيح

---

١ ق : لتسع .

٢ ق : كل من ملك بلاد بهذا اللقب — يعني فارس — كسرى .

عيسى عليه السلام وقيل في السنة السابعة عشرة من ملكه ، فسموا ملوك الروم باسمه ، والله أعلم[1] .

ودعي له إخشيد على المنابر بهذا اللقب واشتهر به وصار كالعلم عليه ؛ وكان ملكاً حازماً كثير التيقظ في حروبه ومصالح دولته ، حسن التدبير ، مكرماً للجنود شديد القوى لا يكاد يجر قوسه غيره ؛ وذكر محمد بن عبد الملك الهمداني في تاريخه الصغير الذي سماه « عيون السير » ان جيشه كان يحتوي على أربعمائة ألف رجل ، وأنه كان جباناً ، وكان له ثمانية آلاف مملوك يحرسه في كل ليلة ألفان منهم ، ويوكل بجانب خيمته الخدم إذا سافر ، ثم لا يثق حتى يمضي إلى خيم الفراشين فينام فيها .

ولم يزل على مملكته وسعادته إلى أن توفي في الساعة الرابعة من يوم الجمعة لثمان بقين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة بدمشق ، وحمل تابوته إلى بيت المقدس فدفن به ؛ وقال أبو الحسين الرازي : توفي في سنة خمس وثلاثين ، والله أعلم ؛ وكانت ولادته يوم الاثنين منتصف شهر رجب من سنة ثمان وستين ومائتين ببغداد ، بشارع باب الكوفة ، رحمه الله تعالى .

وهو أستاذ كافور الإخشيدي وفاتك المجنون – وقد تقدم ذكر كل واحد منهما في ترجمة مستقلة في هذا الكتاب[2] .

ثم قام كافور المذكور بتربية ابني مخدومه أحسن قيام ، وهما أبو القاسم أنوجور وأبو الحسن علي، كما تقدم شرحه في ترجمة كافور فأغنى عن إعادته هاهنا، فقد ذكرت هناك تاريخ مولد كل واحد منهما ، ومدة ولايته وتاريخ وفاته ، على سبيل الاختصار ، واستوفيت حديث كافور وما كان منه إلى حين وفاته ، وأن الجند أقاموا بعده أبا الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد المذكور ، وأحلت بقية الكلام في ذلك على ذكره في هذه الترجمة ؛ وكان عمر أبي الفوارس أحمد يوم ذاك إحدى عشرة سنة .

---

١ زاد هنا في المختار : « قلت ، أعني كاتبها موسى بن أحمد لطف الله به : وكذلك يزملك اسم لكل من يلي النوبهار الذي كان ببلخ وهو بيت النار الذي كان ألهة المجوس » .

٢ انظر ج ٤ : ٢١ ، ٩٤ .

(211) وجعلوا خليفته في تدبير أموره أبا محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج ابن جف ، وهو ابن عم أبيه ، وكان صاحب الرملة من بلاد الشام ، وهو الذي مدحه المتنبي بقصيدته التي أولها[1] :

أنا لائمي إن كنتُ وقتَ اللوائم ... علمتُ بما بي بين تلك المعالِمِ

وقال في مخلصها :

إذا صُلتُ لم أترك مَصالا لفاتكٍ ... وإن قلتُ لم أترك مقالا لعالم
وإلا فخانتني القوافي وعاقني ... عن ابن عبيد الله ضعف العزائم

وما أحسن قوله فيها :

أرى دون ما بين الفرات وبرقة ... ضراباً يمشّي الخيل فوق الجماجم
وطعن غطاريف كأن أكفهم ... عرفن الردَيْنِيَّاتِ قبلَ المعاصم
حمته على الأعداء من كل جانب ... سُيوفُ بني طُغْجَ بن جُفٍّ القماقم
همُ المحسنونَ الكر في حومة الوغي ... وأحسنُ منه كرُّهم في المكارم
وهم يُحْسنون العفو عن كل مُذْنب ... ويَحتملون الغرم عن كل غارم
حَيِيُّون إلا أنهم في نزالهم ... أقل حياء من شفار الصوارم
ولولا احتقارُ الأسد شبهتها بهم ... ولكنها معدودة في البهائم

ومنها :

كريم نفضت الناس لما بلغته ... كأنهمُ ما جَفَّ من زاد قادم
وكاد سروري لا يفي بندامتي ... على تركه في عُمريَ المتقادم

وهي قصيدة طويلة من غرر القصائد .

ولما تقرر الأمر على هذه القاعدة تزوج الحسن بن عبيد الله ابنة عمه الإخشيد ، ودعوا له على المنابر بعد أبي الفوارس أحمد بن علي وهو بالشام ، واستمر الحال

---

١ ديوان المتنبي : ١٩٥ .

على ذلك إلى يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شعبان من سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، ودخل إلى مصر رايات المغاربة الواصلين صحبة القائد جوهر المغربي – المقدم ذكره[1] – وانقرضت الدولة الإخشيدية ، وكانت مدتها أربعاً وثلاثين سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً .

وكان قد قدم ابن عبيد الله من الشام منهزماً من القرامطة لما استولوا على الشام ودخل على ابنة عمه التي تزوجها وحكم وتصرف ، وقبض على الوزير جعفر ابن الفرات وصادره وعذبه ، ثم سار إلى الشام في مستهل شهر ربيع الآخر من سنة ثمان وخمسين وثلثمائة . ولما سير القائد جوهر المغربي جعفر بن فَلاح إلى الشام ، وملك البلاد حسبما شرحته في ترجمته ، أسر جعفر بن فلاح أبا محمد ابن عبيد الله ، وسيره إلى مصر مع جماعة من أمراء الشام إلى القائد جوهر ، ودخلوا مصر في جمادى الأولى سنة تسع وخمسين ، وكان ابن عبيد الله قد أساء إلى أهل مصر في مدة ولايته عليهم فلما وصلوا إلى مصر تركوهم وقوفاً مشهورين مقدار سبع[2] ساعات ، والناس ينظرون إليهم ، وشمت بهم من في نفسه منهم شيء ، ثم أنزلوا في مضرب القائد جوهر وجعلوا مع المعتقلين . وفي السابع عشر من جمادى الأولى أرسل القائد جوهر ولده جعفراً إلى مولاه المعز ، ومعه هدايا عظيمة تجل عن الوصف ، وأرسل معه المأسورين الواصلين من الشام ، وفيهم ابن عبيد الله ، وحملوا في مركب بالنيل ، وجوهر واقف ينظر إليهم ، فانقلب المركب ، فصاح ابن عبيد الله على القائد[3] جوهر : يا أبا الحسن ، أتريد أن تغرقنا ؟ فاعتذر إليه وأظهر التوجع له ، ثم نقلوا إلى مركب آخر ، وكانوا مقيدين ، فلم أقف لهم بعدها على خبر ، والله أعلم .

ثم وجدت بعدها في تاريخ العتقي أن الحسن المذكور توفي ليلة الجمعة لعشر بقين من شهر رجب سنة إحدى وسبعين وثلثمائة ، وصلى عليه العزيز نزار بن المعز المذكور في القصر بالقاهرة .

---

١ ج ١ : ٣٧٥ .

٢ ر ق بر من : خمس .

٣ ر ق بر من : للقائد .

وذكر الفرغاني في تاريخه أن ولادة الحسن المذكور في سنة اثنتي عشرة وثلثمائة ، وأنه توفي في التاريخ المذكور ، وأن أبا الفوارس أحمد بن علي المذكور توفي لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة سبع وسبعين وثلثمائة ، والله أعلم .

والإخشيد : بكسر الهمزة وسكون الخاء المعجمة وكسر الشين المعجمة وبعدها ياء ساكنة مثناة من تحتها ثم دال مهملة[1] – وقد تقدم الكلام على تفسير هذه الكلمة .

وطغج : بضم الطاء المهملة وسكون الغين المعجمة وبعدها جيم .

وجُفّ : بضم الجيم وفتحها وبعدها فاء مشددة .

ويَلْتَكِينُ : بفتح الياء المثناة من تحتها وسكون اللام وكسر التاء المثناة من فوقها وبعدها كاف مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها ثم نون .

وفُوران بضم الفاء ، وفوري بضم الفاء[2] .

(212) وأما تكين المذكور فإنه ولي مصر ثلاث مرات ، وتوفي بها في المرة الثالثة يوم السبت لست عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلثمائة وتولاها بعده أبو بكر الإخشيد كما تقدم ذكره .

(213) وأما أحمد بن كَيَغْلَغ فقد ذكره الحافظ ابن عساكر في « تاريخ دمشق » في ترجمة مستقلة[3] وذكر ولايته مصر وقال : وجرت بينه وبين محمد بن تكين الخاصة حروب إلى أن خلص الأمر له ، ثم قدم محمد بن طُغْج أميراً على مصر من قبل الراضي فسلم إليه مصر ، وكان أحمد أديباً شاعراً ، ومن شعره :

لا يكن للكاس في كفـ ـك يوم الغيث لبثُ
أوما تعلم أن الـ ـغيث ساق مستحث

ومن شعره أيضاً :

---

١ ق ر ن بر من : ثم ذال معجمة .

٢ مج : وقوران وقوري بالغت في الكشف عنهما فلم أجد من يحقق ضبطهما .

٣ تهذيب ابن عساكر ١ : ٤٤٠ .

واعطشا إلى فم يمج خمراً من بردْ
إن قسم الناس فحسـ ـبي بك من كل أحد

(214) ثم قال : ومات أخوه إبراهيم بن كيَغْلغ في مستهل ذي القعدة سنة ثلاث وثلثمائة .

(215) وابنه إسحاق بن إبراهيم هو الذي كان بطرابلس ، وعاق بها أبا الطيب المتنبي لما قدمها من الرملة يريد أنطاكية ليمدحه فلم يفعل ، وهجاه بقصيدته التي أولها[1] :

لهوى القلوب سريرة لا تعلم   عرضاً نظرتُ وخلت أني أسلمُ

ثم راح من عنده فبلغه موته بجبلة فقال[2] :

قالوا لنا مات إسحاق فقلت لهم   هذا الدواء الذي يشفي من الحمقِ

وهذه القصيدة والتي قبلها موجودتان في ديوانه ، فلذلك تركنا ذكرهما ، وله فيه أيضاً غير ذلك من الهجاء ، تجاوز الله عنا وعنهم أجمعين .

٦٩٠
طغرلبك

أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق بن دُقاق، الملقب ركن الدين طغرلْبَك أول ملوك السلجوقية ؛ كان هؤلاء القوم قبل استيلائهم على الممالك يسكنون فيما

١ ديوان المتنبي : ٢١٧ .
٢ ديوان المتنبي : ٢٢١ .
٦٩٠ – أخباره في تاريخ ابن الأثير وأخبار الدولة السلجوقية ونصرة الفترة والنجوم الزاهرة وانظر المنتظم ٨ : ٢٣٣ والوافي ٥ : ٢٥ وعبر الذهبي ٣ : ٢٣٥ والشذرات ٣ : ٢٩٤ .

وراء النهر في موضع بينه وبين بخارى مسافة عشرين فرسخاً ، وهم أتراك[1] ، وكانوا عدداً يجل عن الحصر والإحصاء ، وكانوا لا يدخلون تحت طاعة سلطان ، وإذا قصدهم جمع لا طاقة لهم به دخلوا المفاوز وتحصنوا بالرمال فلا يصل إليهم أحد ، فلما عبر السلطان محمود بن سبكتكين إلى ما وراء النهر – وكان سلطان خراسان وغَزْنَة وتلك النواحي وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى – وجد[2] زعيم بني سلجوق قوي الشوكة كثير العدة ، يتصرف في أمره على المخاتلة والمراوغة وينتقل من أرض إلى غيرها ويغير في أثناء ذلك على تلك البلاد ، فاستماله وجذبه ، ولم يزل يخدعه حتى أقدمه إليه ، فأمسكه وحمله إلى بعض القلاع واعتقله[3] ، وخرج في إعمال الحيلة في تدبير أمر أصحابه ، واستشار أعيان دولته في شأنهم ، فمنهم من أشار بإغراقهم في نهر جيحون ، وأشار آخرون بقطع إبهام كل رجل منهم ليتعذر عليهم الرمي والعمل بالسلاح ، واختلفت الآراء في ذلك ، وآخر ما وقع الاتفاق عليه أن يعبر بهم جيحون إلى أرض خراسان ويفرقهم في النواحي ، ويضع عليهم الخراج ، ففعل ذلك ، فدخلوا في الطاعة واستقاموا ، وأقاموا على تلك الحالة مدة ، فطمع فيهم العمال وظلموهم وامتدت إليهم أيدي الناس وتهضموا جانبهم وأخذوا من أموالهم ومواشيهم ، فانفصل منهم ألفا بيت ، ومضوا إلى بلاد كَرْمان ، وملكها يومئذ الأمير أبو الفوارس ابن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه ، فأقبل عليهم وخلع على وجوههم ، وعزم على استخدامهم فلم يستتموا عشرة أيام حتى مات أبو الفوارس ، وخافوا من الدَّيْلم ، وهم أهل ذلك الإقليم ، فبادروا إلى قصد أصبهان ونزلوا بظاهرها ، وصاحبها علاء الدولة أبو جعفر بن كاكويه ، فرغب في استخدامهم ، فكتب إليه السلطان محمود يأمره بالإيقاع بهم ونهبهم، فتواقعوا

---

١ وهم اتراك : سقطت من أكثر النسخ .

٢ اختلف النص هنا في مج ، إذ جاء فيه : « فمر على أحياء هذه القبيلة وخركاواتها فاستكثر حاشيتها واستعظم ماشيتها وتخوف معرتها وخشي مضرتها ، فاستدعى مقدمها واستماله ولم يزل يخدعه حتى أقدمه عليه وأمسكه وحمله .

٣ واعتقله : سقطت من ق ر ن بر من .

وقتل من الطائفتين جماعة ، وقصد الباقون أذربيجان وانحاز الذين بخراسان إلى جبل قريب من خوارزم ، فجرد السلطان محمود جيشاً وأرسله في طلبهم ، فتتبعوهم في تلك المفاوز مقدار سنتين، ثم قصدهم محمود بنفسه ولم يزل في أثرهم حتى شردهم وشتتهم .

ثم توفي محمود عقيب ذلك – في التاريخ الآتي ذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى – وقام بالأمر بعده ولده مسعود ، فاحتاج إلى الاستظهار بالجيوش ، فكتب إلى الطائفة التي بأذربيجان لتتوجه إليه ، فجاءه منهم ألف فارس ، فاستخدمهم ومضى بهم إلى خراسان ، فسألوه في أمر الباقين الذين شتتهم والده محمود ، فراسلهم وشرط عليهم لزوم الطاعة ، فأجابوه إلى ذلك وأمنهم ، وحضروا إليه ورتبهم على ما كان والده قد رتبهم أولاً ، ثم دخل مسعود بلاد الهند لاضطراب أحوالها عليه ، فخلت لهم البلاد وعادوا إلى الفساد ، وبالجملة فإن الشرح في هذا يطول .

وجرى هذا كله والسلطان طغرلبك المذكور وأخوه داود ليسا معهم ، بل كانا في موضعهم من نواحي ما وراء النهر ، وجرت بينهما وبين ملكشاه صاحب بخارى وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من أصحابهما ، ودعت حاجتهما إلى اللحاق بأصحابهما الذين بخراسان فكاتبوا مسعوداً وسألوه الأمان والاستخدام ، فحبس الرسل وجرد جيوشاً لمواقعة من بخراسان منهم ، فكانت مقتلة عظيمة ، ثم إنهم اعتذروا إلى مسعود وبذلوا له الطاعة وضمنوا له أخذ خوارزم من صاحبها ، فطيب قلوبهم وأفرج عن الرسل الواصلين من جهة ما وراء النهر وسألوه أن يفرج عن زعيمهم الذي اعتقله أبوه محمود في أول الأمر ، فأجابهم إلى سؤالهم وأنزله من تلك القلعة ، وحمل إلى بلخ مقيداً فاستأذن مسعوداً في مراسلة ابني أخيه طغرلبك وداود – المقدم ذكرهما – فأذن له ، فراسلهما . وحاصل الأمر أنهما وصلا إلى خرسان ومعهما أيضاً جيش كبير ، فاجتمع الجميع ، وجرت لهم مع ولاة خراسان ونواب مسعود في البلاد أسباب يطول شرحها .

وخلاصة الأمر أنهم استظهروا عليهم وظفروا بهم ، وأول شيء ملكوه من البلاد طوس ، وقيل الري ، وكان تملكهم في سنة تسع وعشرين وأربعمائة ، ثم

بعد ذلك بقليل ملكوا نيسابور ، إحدى قواعد خراسان ، في شهر رمضان من السنة المذكورة ، وكان السلطان طغرلبك المذكور كبيرهم ، وإليه الأمر والنهي في السلطنة ، وأخذ أخوه داود المذكور مدينة بلخ ، وهو والد ألب أرسلان – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – واتسع لهم الملك واقتسموا البلاد ، وانحاز مسعود إلى غَـزْنَـة وتلك النواحي ، وكانوا يخطبون له في أول الأمر ، وعظم شأنهم إلى أن راسلهم الإمام القائم بأمر الله ، وكان الرسول الذي أرسله إليهم القاضي أبا الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي ، مصنف « الحاوي » في الفقه – وقد تقدم ذكره[1] – ثم ملك بغداد والعراق ، في سادس عشر شهر رمضان المعظم ، سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، وأوصاهم بتقوى الله تعالى والعدل في الرّعية والرفق بهم وبثّ الإحسان إلى الناس .

وكان طغرلبك حليماً كريماً محافظاً على الصلوات الخمس في أوقاتها جماعة ، وكان يصوم الاثنين والخميس ويكثر الصدقات ويبني المساجد ، ويقول : أستحيي من الله سبحانه وتعالى أن أبني لي داراً ولا أبني إلى جانبها مسجداً . ومن محاسنه المسطورة أنه سير الشريف ناصر بن إسماعيل رسولاً إلى ملكة الروم ، وكانت إذ ذاك امرأة كافرة، فاستأذنها الشريف في الصلاة بجامع القسطنطينية جماعة يوم الجمعة ، فأذنت له في ذلك ، فصلى وخطب للإمام القائم ، وكان رسول المستنصر العبيدي صاحب مصر حاضراً فأنكر ذلك ، وكان من أكبر الأسباب في فساد الحال بين المصريين والروم .

ولما تمهدت له البلاد وملك العراق وبغداد ، سير إلى الإمام القائم وخطب ابنته ، فشق على القائم ذلك واستعفى منه ، وترددت الرسل بينهما ، ذكر ذلك في « الشذور » سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ، فلم يجد من ذلك بداً فزوجه بها ، وعقد العقد بظاهر مدينة تبريز ، ثم توجه إلى بغداد في سنة خمس وخمسين وأربعمائة ، ولما دخلها سير طلب الزفاف وحمل مائة ألف دينار برسم حمل القماش ونقله ، فزفت إليه ليلة الاثنين خامس عشر صفر بدار المملكة ، وجلست على سرير ملبس بالذهب ، ودخل إليها السلطان فقبل الأرض بين يديها ولم يكشف

---

[1] انظر ج ٣ : ٢٨٢ .

البرقع عن وجهها في ذلك الوقت ، وقدم لها تحفاً يقصر الوصف عن ضبطها ، وقبل الأرض وخدم وانصرف وظهر عليه سرور عظيم[1] .

وبالجملة فأخبار الدولة السلجوقية كثيرة ، وقد اعتنى بها جماعة من المؤرخين وألفوا فيها تآليف اشتملت على تفاصيل أمرهم ، وما قصدت من الإتيان بهذه النبذة إلا التنبيه على مبدإ حالهم ، ليكشف جلية ذلك من يروم الوقوف عليه .

وتوفي طغرلبك المذكور يوم الجمعة ثامن شهر رمضان المعظم سنة خمس وخمسين وأربعمائة بالري ، وعمره سبعون سنة ، ونقـل إلى مرو ودفن عنـد قبر أخيه داود – وسيأتي ذكره في ترجمة ولده ألب أرسلان ، إن شاء الله تعالى – وقال ابن الهمداني في تاريخه : إنه دفن بالري في تربة هناك[2] ، وكذا قال السمعاني في « الذيل »[3] ، في ترجمة السلطان سنجر المقدم ذكره .

وحكى وزيره محمد بن منصور الكندري – الآتي ذكره[4] – عنه أنه قال : رأيت وأنا بخرسان في المنام كأنني رفعت إلى السماء ، وأنا في ضباب لا أبصر معه شيئاً غير أني أشم رائحة طيبة ، وإذا بمنادٍ ينادي : أنت قريب من الباري جلت قدرته ، فاسأل حاجتك لتقضى ، فقلت في نفسي : أسأل طول العمر ، فقيل لـــك سبعون سنة ، فقلت : يا رب لا تكفيني ، فقيل لك سبعون سنة ، فقلت : لا تكفيني ، فقيل لك سبعون سنة ، ذكر هـــذا شيخنا ابن الأثير في تاريخه[5] .

ولما حضرته الوفاة قال : إنما مثلي مثل شاة تشد قوائمها لجز الصوف ، فتظن أنها تذبح فتضطرب ، حتى إذا أطلقت تفرح ، ثم تشد للذبح فتظن أنــه لجز الصوف فتسكن فتذبح ، وهذا المرض الذي أنا فيه هو شد القوائم للذبح ، فمات منه ، رحمه الله تعالى ؛ ولم تقم بنت الإمام القائم في صحبته إلا مقدار ستة أشهر .

---

١ جاءت هذه الفقرة بإيجاز شديد في مج ت ؛ ر ن من بر : السرور .

٢ ق : تربة والده هناك .

٣ ق ن ر : المذيل .

٤ في النسخ : المقدم ذكره .

٥ ابن الأثير ١٠ : ٢٦ .

ولم يخلف ولداً ذكراً ، فانتقل ملكه إلى ابن أخيه ألب أرسلان حسبما شرح في ترجمته . وماتت زوجته ابنة القائم في سنة ست وتسعين وأربعمائـــة ، في سادس المحرم .

وطُغْرُلْبَك : بضم الطاء المهملة وسكون الغين المعجمة وضم الراء وسكون اللام وفتح الباء الموَحدة وبعدها كاف ، وهو اسم علم تركي مركب من طغرل وهو اسم علم بلغة الترك لطائر معروف عندهم ، وبه سمي الرجل ، وبك معناه الأمير .

وسَلْجُوق : بفتح السين المهملة وسكون السلام وضم الجيم وسكون الواو وبعدها قاف .

ودُقاق : بضم الدال المهملة وبين القافين ألف ساكنة .

وجَيْحُون : بفتح الجيم وسكون الياء المثناة من تحتهـا وضم الحاء المهملة وسكون الواو وبعدها نون ، وهو النهر العظيم الفاصل ما بين خوارزم وبلاد خراسان وبين بخارى وسمرقند وتلك البلاد ، فكل ما كان من تلك الناحية فهو ما وراء النهر ، والمراد بالنهر هو النهر المذكور ، وهو أحد أنهار الجنة الذي جاء ذكره في الحديث أنه يخرج منها أربعة أنهار : نهران ظاهران ونهران باطنان ، فالظاهران : النيل والفرات ، والباطنان : سيحون وجيحون .

وسَيحون : بفتح السين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وضم الحاء المهملة وسكون الواو وبعدها نون ، وهو وراء جيحون فـيما يلي بلاد الترك ، وبينهما مسافة خمسة وعشرين يوماً[1] ، وهذان النهران مع عظمهما وسعة عرضهما يجمدان في زمن الشتاء ، وتعبر القوافل عليهما بدوابهما وأثقالهما ويقيمان كذلك مقدار ثلاثة أشهر .

وهذا كله وإن كان خارجاً عن مقصودنا لكنه متعلق بما نحن فيه ، فانتشر الكلام ، وما يخلو من فائدة يقف عليها من كان يتوقعها ممن بعدت بلاده ولا يعرف صورة الحال .

---

١ ر ق بر من : خمسة عشر يوماً .

٦٩١

ألب أرسلان

أبو شجاع محمد بن جغري بك داود بن ميكائيل بن سَلْجُوق بن دُقَاق ، الملقب عضد الدولة ألب أرسلان ، وهو ابن أخي السلطان طُغْرُلْبَك — المقدم ذكره — وقد تقدم في ترجمة طغْرُلْبَك طرف من أخبار والده داود المذكور .

ولما مات السلطان طغرلبك — في التاريخ المذكور في ترجمته — نص على تولية الأمر لسليمان بن داود أخي ألب أرسلان المذكور ، ولم ينص عليه إلا لأن أمه كانت عنده فتبع هواها في ولدها ، فقام سليمان بالأمر وثار عليه أخوه ألب أرسلان وعمه شهاب الدولة قتلمش ، وجرت بينهم خطوب فلم يتم لسليمان الأمر ، وكانت النصرة لأخيه ألب أرسلان .

فاستولى على الممالك ، وعظمت مملكته ورهبت سطوته ، وفتح من البلاد ما لم يكن لعمه طُغْرُلْبَك مع سعة ملك عمه ، وقصد بلاد الشام فانتهى إلى مدينة حلب وصاحبها يومئذ محمود بن نصر بن صالح بن مرداس الكلابي ، فحاصره مدة ثم جرت المصالحة بينهما ، فقال ألب أرسلان : لا بد له من دوس بساطي ، فخرج إليه محمود ليلاً ومعه أمه ، فتلقاهما بالجميل وخلع عليهما وأعادهما إلى البلد ورحل عنها .

وقال المأموني في تاريخه : قيل إنه لم يعبر الفرات في قديم الزمان ولا حديثه في الإسلام ملك تركي قبل ألب أرسلان ، فانه أول من عبرها[1] من ملوك الترك .

ولما عاد عزم على قصد بلاد الترك ، وقد كمل عسكره مائتي ألف فارس أو يزيدون ، فمد على جيحون — النهر المقدم ذكره — جسراً وأقام العسكر

---

٦٩١ — ترجمته في المصادر التاريخية المذكورة في الترجمة السابقة ، وانظر الوافي ٢ : ٣٠٨ والمنتظم ٨ : ٢٧٩ والنجوم الزاهرة ٥ : ٩٢ وعبر الذهبي ٤ : ٢٥٨ والشذرات ٣ : ٣١٨ .

١ كذا هو في المختار و ق ر بر من ، وسقط النص من مج ت .

يعبر عليه شهراً ، وعبر هو بنفسه أيضاً ، ومد السماط في بليدة يقال لها « فربر » ولتلك البليدة حصن على شاطىء جيحون ، في السادس من شهر ربيع الأول ، سنة خمس وستين وأربعمائة ، فأحضر إليه أصحابه مستحفظ الحصن ، ويقال[1] له يوسف الخوارزمي ، وكان قد ارتكب جريمة في أمر الحصن ، فحمل إليه مقيداً ، فلما قرب منه أمر أن تضرب[2] أربعة أوتاد لتشد أطرافه الأربعة إليها ويعذبه ثم يقتله ، فقال يوسف المذكور : ومثلي يُفعل به هذه المثلة ؟ فغضب ألب أرسلان وأخذ قوسه وجعل فيها سهماً ، وأمر بحل قيده ورماه فأخطأه وكان مُدِلاً برميه ، وكان جالساً على سريره ، فنزل عنه فعثر ووقع على وجهه ، فبادره يوسف المذكور وضربه بسكين كانت معه في خاصرته ، فوثب عليه فرّاش أرمني فضربه في رأسه بمرزبة فقتله ، فانتقل ألب أرسلان إلى خيمة أخرى مجروحاً ، فأحضر وزيره نظام الملك أبا علي الحسن – المذكور في حرف الحاء[3] – وأوصى به إليه ، وجعل ولده ملك شاه ولي عهده – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى .

ثم توفي يوم السبت عاشر الشهر المذكور ، وكانت ولادته سنة أربع وعشرين وأربعمائة ، وكانت مدة ملكه تسع سنين وأشهراً ، ونقل إلى مرو ودفن عند قبر أبيه داود وعمه طُغْرُلبَك ، ولم يدخل بغداد ولا رآها ، مع أنها كانت داخلة في ملكه ، وهو الذي بنى على قبر الإمام أبي حنيفة مشهداً ، وبنى ببغداد مدرسة أنفق عليها أموالاً عظيمة ؛ وذكر في كتاب « زبدة التواريخ » أنه جرح يوم السبت ، سلخ شهر ربيع الأول سنة خمس وستين ، وعاش بعد الجراحة ثلاثة أيام ، والله أعلم .

وقد تقدم ذكر أبيه ، وأنه كان صاحب بَلْخ ، وتوفي بها في رجب سنة إحدى وخمسين ، وقيل سنة خمسين وأربعمائة ، ونقل إلى مرو ودفن بها ، وقيل إنه توفي بمرو ، والله أعلم بالصواب ، وقيل توفي في صفر سنة اثنتين وخمسين

---

١ ت مج : مستحفظ قلعة يقال له .

٢ إلى هنا تنتهي النسخة ت وقد سقطت منها أوراق كثيرة .

٣ ج ٢ : ١٢٨ .

وأربعمائة ، ودفن بمدرسة مرو ، رحمه الله تعالى .

وقد تقدم ذكر ولده تتش في حرف التاء .

وألْب أرسلان : بفتح الهمزة وسكون اللام وبعدها باء موحدة ، وبقية الاسم معروفة فلا حاجة إلى تفسيرها ، وهو اسم تركي معناه شجاع أسد ، فألب شجاع ، وأرسلان أسد .

(216) وأما شهاب الدولة قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق ، فإنه والد سليمان ابن قتلمش جد الملوك أصحاب الروم إلى الآن ، وكان له حصون وقلاع من جملتها كردكوه وغيرها من عراق العجم ، وعصى على ابن أخيه ألب أرسلان المذكور وحاربه بالقرب من الري ، فلما انجلى الأمر وجد قتلمش ميتاً لا يدرى كيف كان موته ، وذلك في المحرم من سنة ست وخمسين وأربعمائة ، قيل إنه مات من الخوف ، فشق ذلك على ألب أرسلان ، والله تعالى أعلم بالصواب .

٦٩٢

محمد بن ملكشاه السلجوقي

أبو شجاع محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان المذكور قبله ، الملقب غياث الدين ، وقد تقدم في ترجمة جده تتمة نسبه فلا حاجة إلى الإعادة .

ولما توفي والده ملكشاه اقتسم مملكته أولاده الثلاثة ، وهم بركياروق وسنجر – وقد تقدم ذكرهما – ومحمد المذكور ، ولم يكن لمحمد وسنجر ، وهما من أم واحدة ، مع وجود بركياروق حديث ، لأنه كان السلطان المشار إليه ، وهما كالأتباع له ، ثم اختلف محمد وبركياروق ، فدخل محمد المذكور وأخوه سنجر إلى بغداد ، وخلع عليهما الإمام المستظهر بالله ، وكان محمد قد التمس من

---

٦٩٢ – انظر المصادر التاريخية السابقة وراجع المنتظم ٩ : ١٩٦ والنجوم ٥ : ٢١٤ وعبر الذهبي ٤ : ٢٣ والشذرات ٤ : ٣٠ ، ولم يقف صاحب المختار عند هذه الترجمة .

أمير المؤمنين أن يجلس له ولأخيه سنجر ، فأجيب إلى ذلـك ، وجلس لهما في قبة التاج وحضر أرباب المناصب وأتباعهم وجلس أمير المؤمنين على سُدَّته ، ووقف سيف الدولة صَدَقَة بن مزيد صاحب الحلة عن يمين السدة ، وعلى كتفه بردة النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى رأسه العمامة وبين يديه القضيب ، وأفيض على محمد الخلع السبع التي جرت عادة السلاطين بهـا ، وألبس الطوق والتاج والسوارين ، وعقد له الخليفة اللواء بيده وقلده سيفين ، وأعطاه خمسة أفراس بمراكبها ، وخلع على أخيـه سنجر خلعة أمثاله ، وخطب لمحمد بالسلطنة في جامع بغداد كجاري عادتهم في ذلك الزمان وتركوا الخطبة لبركياروق لسبب اقتضى ذلك ، ولا حاجة إلى شرحه لطوله ، قال محمد بن عبد الملك الهمداني في تاريخه : وكان ذلك في سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، وقـــال صاحب تاريخ السلجوقية : أقيمت الخطبة ببغداد للسلطان محمد في سابع عشر ذي الحجة من سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، ووافقه على ذلك غيره ؛ ثم قال الهمداني : وكان من الاتفاق العجيب أن خطيب جامع القصر ببغداد لما بلغ إلى الدعاء للسلطان بركياروق ، وأراد أن يذكره ، سبق لسانه للسلطان محمد ودعا له ، فأتى أصحاب بركياروق وشنعوا بما جرى في الديوان العزيز ، فعزل الخطيب لهـذا السبب ورتبوا ولده موضعه ، فلم تتأخر خطبة السلطان محمد عن هذه الواقعة إلا أياماً قلائل ، وكان ذلك فألاً للسلطان محمد ، وأما بركياروق فانه كان مريضاً وانحدر إلى واسط ، ثم قوي أمره واستظهر ، وجرى بينه وبين أخيه محمد مصاف على الري ، وانكسر محمد ، وبالجملة فان شرح ذلك يطول .

وكان السلطان محمد المذكور رجل الملوك السلجوقية وفحلهم ، وله الآثار الجميلة والسيرة الحسنة ، والمعدلة الشاملة ، والـــبر للفقراء والأيتام ، والحرب للطائفة الملحدة والنظر في أمور الرعية .

وذكره أبو البركات ابن المستوفي في « تاريخ إربل» وذكر أنه وصل إليها في تاسع شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وأربعمائة ، ورحل عنها متوجهاً إلى الموصل في ثاني عشر الشهر المذكور ، ثم قال : ووجدت في كتاب ذكره الإمام أبو حامد الغزالي في مخاطبته السلطان محمد بن ملكشاه : اعلم يا سلطان

العالم أن بني آدم طائفتان : طائفة غفلاء نظروا إلى مُشاهد حال الدنيا ، وتمسكوا بتأميل العمر الطويل ، ولم يتفكروا في النفس الأخير ، وطائفة عقلاء جعلوا النفس الأخير نصب أعينهم ، لينظروا إلى ماذا يكون مصيرهم ، وكيف يخرجون من الدنيا ويفارقونها وإيمانهم سالم ، وما الذي ينزل من الدنيا في قبورهم ، وما الذي يتركون لأعاديهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله .

ثم إن السلطان محمداً استقل بالممالك بعد موت أخيه بركياروق – في التاريخ المذكور في ترجمته – ولم يبق له منازع وصفت له الدنيا ، وأقام على ذلك مدة، ثم مرض زماناً طويلاً ، وتوفي يوم الخميس الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة بمدينة أصبهان ، وعمره سبع وثلاثون سنة وأربعة أشهر وستة أيام ، وهو مدفون بأصبهان في مدرسة عظيمة ، وهي موقوفة على الطائفة الحنفية ، وليس بأصبهان مدرسة مثلها . ولما أيس من نفسه[1] أحضر ولده محمداً – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – فقبله وبكى كل واحد منهما ، وأمره أن يخرج ويجلس على تخت السلطنة وينظر في أمور الناس ، فقال لوالده : إنه يوم غير مبارك ، يعني من طريق النجوم ، فقال : صدقت ، ولكن على أبيك ، وأما عليك فمبارك بالسلطنة . فخرج وجلس على التخت بالتاج والسوارين ، ولم يخلف أحد من الملوك السلجوقية ما خلفه من الذخائر وأصناف الأموال والدواب وغير ذلك مما يطول شرحه ، رحمه الله تعالى ؛ وسيأتي ذكر والده في هذا الحرف ، إن شاء الله تعالى .

(217) وتزوج الإمام المقتفي لأمر الله فاطمة ابنة السلطان محمد المذكور ، وكان الوكيل في قبول النكاح الوزير شرف الدين أبا القاسم علي ابن طراد الزينبي، وذلك في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، وحضر أخوها مسعود العقد ، ونقلت[2] فاطمة ابنة السلطان المذكورة إلى دار الخلافة للزفاف سنة أربع وثلاثين ، ويقال إنها كانت تقرأ وتكتب ، ولها التدبير الصائب ، وسكنت في الموضع المعروف بدركاه خاتون ، وتوفيت في عصمته يوم السبت الثاني والعشرين من شهر ربيع

---

١ ق : حياته .

٢ ق : ودخلت .

الآخر سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، ودفنت بالرُّصافة ، رحمها الله تعالى ، والله أعلم بالصواب .

٦٩٣

الملك العادل ابن أيوب

أبو بكر محمد بن أبي الشكر أيوب بن شاذي بن مروان ، الملقب بالملك العادل سيف الدين ، أخو السلطان صلاح الدين ، رحمهما الله تعالى – وقد تقدم ذكر والده في حرف الهمزة[١] ، وسيأتي ذكر أخيه صلاح الدين في حرف الياء إن شاء الله تعالى ؛ وكان الملك العادل قد وصل إلى الديار المصرية صحبة أخيه وعمه أسد الدين شيركوه – المقدم ذكره – وكان يقول : لما عزمنا على المسير إلى مصر احتجت إلى حرمدان ، فطلبته من والدي فأعطاني وقال : يا أبا بكر إذا ملكتم مصر أعطني ملئه ذهباً ، فلما جاء إلى مصر قال : يا أبا بكر أين الحرمدان ؟ فرحت وملأته من الدراهم السود وجعلت أعلاها شيئاً من الذهب وأحضرته إليه ، فلما رآه اعتقده ذهباً ، فقلبه فظهرت الفضة السوداء ، فقال : يا أبا بكر ، تعلمت من زغل المصريين .

ولما ملك صلاح الدين الديار المصرية كان ينوب عنه في حال غيبته في الشام ويستدعي منه الأموال للإنفاق في الجند وغيرهم ، ورأيت في بعض رسائل القاضي الفاضل أن الحمول تأخرت مدة ، فتقدم السلطان إلى العماد الأصبهاني أن يكتب إلى أخيه الملك العادل يستحثه على إنفاذها حتى قال : يسير لنا الحمل من مالنا أو من ماله ؛ فلما وصل الكتاب إليه ووقف على هذا الفصل شقّ عليه ،

---

٦٩٣ – أخباره في تاريخ ابن الأثير ومفرج الكروب والسلوك وابن اياس ١ : ٧٥ ومرآة الزمان : ٥٩٤ وذيل الروضتين : ١١١ والشذرات ٥ : ٦٥ والوافي ٢ : ٢٣٥ والنجوم ٦ : ١٦٠ وعبر الذهبي ٥ : ٥٨ .

١ ج ١ : ٢٥٥ ، ٢٦٠ .

وكتب إلى القاضي الفاضل يشكو من السلطان لأجل ذلك ، فكتب القاضي الفاضل جوابه ، وفي جملته : « وأما ما ذكره المولى من قوله يسير لنا الحمل من مالنا أو من ماله ، فتلك لفظة ما المقصود بها من المالك النجعة ، وإنما المقصود بها من الكاتب السجعة ، وكم من لفظة فظة ، وكلمة فيها غلظة ، جبرت عيّ الأقلام ، وسدّت خلل الكلام ، وعلى المملوك الضمان في هذه النكتة ، وقد فات لسان القلم منها أي سكتة ، وكان المملوك حاضراً وقد خرجت قوارع الاستحثاث ، وصرصر البازي وقوة نفس العماد قوة نفس البغاث ، والسلام » .

ولما ملك السلطان مدينة حلب في صفر سنة تسع وسبعين وخمسمائة – كما تقدم في ترجمة عماد الدين زنكي[1] – أعطاها لولده الملك الظاهر غازي – المقدم ذكره – ثم أخذها منه وأعطاها للملك العادل ، فانتقل إليها وقصد[2] قلعتها يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة ، ثم نزل عنها للملك الظاهر غازي ابن السلطان – المقدم ذكره – لمصلحةٍ وقع الاتفاق عليها بينه وبين أخيه صلاح الدين ، وخرج منها في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ليلة السبت الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول ، ثم أعطاه السلطان قلعة الكرك ، وتنقل في الممالك في حياة السلطان وبعد وفاته ؛ وقضاياه مشهورة مع الملك الأفضل والملك العزيز والملك الظاهر ، فلا حاجة إلى الإطالة بشرحها ؛ وآخر الأمر أنه استقل بمملكة الديار المصرية ، وكان دخوله القاهرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمائة ، واستقرت له القواعد .

وقال أبو البركات ابن المستوفي في « تاريخ إربل » في ترجمة ضياء الدين أبي الفتح نصر الله المعروف بابن الأثير الوزير الجزري ما مثاله : وجدت بخطه « خطب للملك العادل أبي بكر ابن أيوب بالقاهرة ومصر يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة ، وخطب له بحلب يوم الجمعة حادي عشر جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وخمسمائة . وملك معها البلاد الشامية والشرقية وصفت له الدنيا ، ثم ملك بلاد اليمن في سنة اثنتي عشرة وستمائة ، وسير إليها

---

١ انظر ج ٢ : ٣٢٧ .
٢ ن ر ق بر من : وصعد .

ولد ولده الملك المسعود صلاح الدين أبا المظفر يوسف المعروف بأطسيس ابن الملك الكامل - الآتي ذكره إن شاء الله تعالى - .

وكان ولده الملك الأوحد نجم الدين أيوب ينوب عنه في ميّافارقين وتلك النواحي، فاستولى على مدينة خلاط وبلاد أرمينية واتسعت مملكته، وذلك في سنة أربع وستمائة .

ولما تمهدت له البلاد قسمها بين أولاده، فأعطى الملك الكامل الديار المصرية والملك المعظم البلاد الشامية، والملك الأشرف البلاد الشرقية، والأوحد في المواضع التي ذكرناها .

وكان ملكاً عظيماً ذا رأي ومعرفة تامة قد حنكته التجارب، حسن السيرة جميل الطوية وافر العقل، حازماً في الأمور صالحاً محافظاً على الصلوات في أوقاتها، متبعاً لأرباب السنة مائلاً إلى العلماء، حتى صنف له فخر الدين الرازي كتاب « تأسيس التقديس » وذكر اسمه في خطبته وسيره إليه من بلاد خراسان وبالجملة فإنه كان رجلاً مسعوداً، ومن سعادته أنه خلف أولاداً لم يخلف أحد من الملوك أمثالهم في نجابتهم وبسالتهم ومعرفتهم وعلو همتهم، ودانت لهم العباد وملكوا خيار[1] البلاد، ولما مدح ابن عنين - المقدم ذكره[2] - الملك العادل بقصيدته الرائية المذكور بعضها في ترجمته جاء منها في مديح أولاده المذكورين قوله[3] :

وله البنونَ بكلّ أرضٍ منهمُ ملكٌ يقود إلى الأعادي عسكرا
من كلّ وضاح الجبين تخاله بدراً، وإن شهد الوغى فغضنفرا

---

١ ق : خير .

٢ انظر ما تقدم ج ٥ : ١٤ .

٣ ديوان ابن عنين : ٧ ؛ وعلق ابن المؤلف هنا بقوله : « قلت » أعني كاتبها موسى بن أحمد لطف الله به : أخبرني والدي قدس الله روحه أن ابن عنين لما كان ينشد هذه القصيدة بين يدي الملك العادل ووصل إلى هذا البيت « وله البنون... » قال له ولده الملك المعظم : يا خوند، قصد بقوله « يقود » القيادة، وذلك في حالة المجون، فقال له الملك العادل : ما ترى في ما يقوله يا ابن عنين، فأنكر ثم أقسم عليه فقال : هذا أردت، فضحكوا من ذلك » .

متقدمٌ حتى إذا النقعُ انجلى ... بالبيض عن سبي الحريم تأخرا
قوم زكوا أصلاً وطابوا محتدا ... وتدفقوا جوداً وراقوا منظرا
وتعافُ خيلهم الورودَ بمنهلٍ ... ما لم يكن بدم الوقائع أحمرا
يعشو إلى نار الوغى شغفاً بها ... ويجل أن يعشو إلى نار القرى

وكم للشعراء فيهم من القصائد المختارة ، لكن ذكرت هذه لكونها جامعة لجميعهم ، ومن جملة هذه القصيدة في مدح الملك العادل قوله ولقد أحسن فيه :

العادل الملك الذي أسماؤه ... في كل ناحية تشرف منبرا
وبكل أرض جنة من عدله الصـ ... ـافي أسال نداه فيها كوثرا
عدل يبيت الذئب منه على الطوى ... غرثان وهو يرى الغزال الأعفرا
ما في أبي بكر لمعتقد الهدى ... شك يريبُ بأنه خير الورى
سيف صقال المجد أخلص متنه ... وأبان طيبُ الأصل منه الجوهرا
ما مدحه بالمستعار له ولا ... آيات سؤدده حديث يفترى
بين الملوك الغابرين وبينه ... في الفضل ما بين الثريا والثرى
نسخت خلائقه الحميدة ما أتى ... في الكتب عن كسرى الملوك وقيصرا
ملك إذا خَفـَّت حلوم ذوي النهى ... في الروع زاد رصانة[1] وتوقـُّرا
ثبت الجنان تراع من وثباته ... وثباته يوم الوغى أسدُ الشرى
لفظٌ يكاد يقول عما في غد ... ببديهة أغنته أن يتفكرا
حلم تخف له الحلوم وراءه ... رأي وعزم يحقر الإسكندرا
يعفو عن الذنب العظيم تكرماً ... ويصد عن قول الخنا متكبرا
لا تسمعنّ حديث ملك غيره ... يُرْوَى ، فكل الصيد في جوف الفَرا

وبالجملة فإنها من القصائد المختارة .

ولما قسم البلاد بين أولاده كان يتردد بينهم ، وينتقل إليهم من مملكة إلى

---

١ ر : صيانة .

أخرى . وكان في الغالب يصيف بالشام لأجل الفواكه[1] والثلج والمياه الباردة ، ويشتي في الديار المصرية لاعتدال الوقت فيها وقلة البرد ، وعاش في أرغد عيش ، وكان يأكل كثيراً خارجاً عن المعتاد ، حتى يقال إنه يأكل وحده خروفاً لطيفاً مشوياً ، وكان له في النكاح نصيب وافر ، وحاصل الأمر[2] أنه كان ممتعاً في دنياه .

وكانت ولادته بدمشق في المحرم سنة أربعين ، وقيل ثمان وثلاثين وخمسمائة . وتوفي في سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة بعالقين ، ونقل إلى دمشق ودفن بالقلعة ثاني يوم وفاته ، ثم نقل إلى مدرسته المعروفة به ودفن في التربة التي بها[3] ، وقبره على الطريق يراه المجتاز من الشباك المركب هناك ، رحمه الله تعالى .

وعالِقين : بفتح العين المهملة وبعد الألف لام مكسورة وقاف مكسورة أيضاً وياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها نون ، وهي قرية بظاهر دمشق من الجيدور وكان ذلك عند وصول الفرنج إلى ساحل الشام ، وقصدوا أولاً لقاء الملك العادل، فتوجه قدامهم إلى جهة دمشق ليتجهز ويتأهب للقائهم ، فلما وصل إلى الموضع المذكور توفي به ، فحينئذ أعرض جميع الفرنج عن دمشق[4] ، وقصدوا الديار المصرية فكانت وقعة دمياط المشهورة في ذلك التاريخ ، وتاريخها مضبوط في ترجمة يحيى بن منصور المعروف بابن جراح في حرف الياء .

وأطسيس : بفتح الهمزة وسكون الطاء المهملة وكسر السين المهملة وبعدها ياء مثناة من تحتها ثم سين ثانية ، وهي كلمة تركية معناها بالعربية ما له اسم ، ويقال : إنما سمي بذلك لأن الملك الكامل ما كان يعيش له ولد ، فلما ولد هذا المسعود المذكور قال بعض الحاضرين في مجلسه من الأتراك : في بلادنا إذا كان الإنسان لا يعيش له ولد سماه أطسيس ، فسماه أطسيس[5] ؛ والناس يقولون

---

١ ر : الفاكهة . ٢ ر ق : وحاصل ذلك .

٣ إلى هنا انتهت الترجمة في مج .

٤ ق ر : دمشق والشام .

٥ ق : بذلك ؛ المختار : ذلك .

أقسيس بالقاف ، وصوابه[1] بالطاء ، كذا قالوا والله أعلم .

ثم ظفرت بتاريخ تسلم حلب محرراً ، وهو أن عماد الدين زنكي نزل من قلعتها يوم الخميس الثاني والعشرين من صفر ، وصعد صلاح الدين إليها يوم الاثنين السادس[2] والعشرين من صفر المذكور ، والله أعلم .

٦٩٤

الملك الكامل الايوبي

أبو المعالي محمد ، ابن الملك العادل المذكور ، الملقب بالملك الكامل ناصر الدين ، قد سبق في ترجمة والده طرف من خبره ؛ ولما وصل الفرنج إلى دمياط – كما تقدم ذكره – كان الملك الكامل في مبدأ استقلاله بالسلطنة ، وكان عنده جماعة كثيرة من أكابر الأمراء ، وفيهم عماد الدين أحمد بن المشطوب – المذكور في حرف الهمزة – فاتفقوا مع أخيه الملك الفائز سابق الدين إبراهيم بن الملك العادل وانضموا إليه ، وظهر للملك الكامل منهم أمور تدل على أنهم عازمون على تفويض السلطنة إليه وخلع الملك الكامل ، واشتهر ذلك بين الناس ؛ وكان الملك الكامل يداريهم لكونه في قبالة العدو ، ولا يمكنه المقافزة والمنافرة ، وطول نفسه معهم ، ولم يزل على ذلك حتى وصل إليه أخوه الملك المعظم صاحب دمشق – المذكور في حرف العين[3] – يوم الخميس تاسع عشر ذي القعدة سنة خمس عشرة وستمائة ، فأطلعه الملك الكامل في الباطن على صورة الحال ، وأن رأس هذه

---

١ ق : والصواب .

٢ ق ر : السابع .

٦٩٤ – اخباره في تاريخ ابن الأثير ومفرج الكروب والسلوك (ج ١) وابن اياس والوافي ١ : ١٩٣ وابن الشعار ج ٧ الورقة : ٢٤٠ والحوادث الجامعة : ١٠٧ ومرآة الزمان : ٧٠٥ وذيل الروضتين : ١٦٦ وعبر الذهبي ٥ : ١٤٤ والشذرات ٥ : ١٧٢ .

٣ انظر ج ٣ : ٤٩٤ .

الطائفة[1] ابن المشطوب ، فجاءه يوماً على غفلة إلى خيمته واستدعاه ، فخرج إليه فقال له : أريد أن أتحدث معك سراً في خلوة ، فركب فرسه وسار معه وهو جريدة وقد جرد[2] المعظم جماعة ممن يعتمد عليهم ويثق إليهم ، وقال لهم : اتبعونا ، ولم يزل المعظم يشاغله بالحديث ويخرج معه من شيء إلى شيء حتى أبعدا عن المخيم ، ثم قال له : يا عماد الدين، هذه البلاد لك ونشتهي أن تهبها لنا، ثم أعطاه شيئاً من النفقة ، وقال لأولئك المجردين : تسلموه حتى تخرجوه من الرمل ، فلم يسعه إلا امتثال الأمر لانفراده وعدم القدرة على الممانعة في تلك الحال .

ثم عاد المعظم إلى أخيه الكامل وعرفه صورة ما جرى ، ثم جهز أخاه الملك الفائز إلى الموصل لإحضار النجدة منها ومن بلاد الشرق ، فمات بسنجار وكان ذلك خديعة لإخراجه من البلاد ، فلما خرج هذان الشخصان من العسكر تحللت عزائم من بقي من الأمراء الموافقين لهما ، ودخلوا في طاعة الملك الكامل كرهاً لا طوعاً ، وجرى في قضية دمياط ما هو مشهور ، فلا حاجة إلى الإطالة بذكره؛ولما ملك الفرنج دمياط وصارت في قبضتهم خرجوا منها قاصدين القاهرة ومصر ، ونزلوا في رأس الجزيرة التي دمياط في برها ، وكان المسلمون قبالتهم في القرية المعروفة بالمنصورة ، والبحر حائل بينهم ، وهو بحر أشموم ، ونصر الله تعالى بمنه وجميل لطفه المسلمين عليهم ، كما هو مشهور ، ورحل الفرنج عن منزلهم ليلة الجمعة سابع شهر رجب سنة ثمان عشرة وستمائة ، وتم الصلح بينهم وبين المسلمين في حادي عشر الشهر المذكور ، ورحل الفرنج عن البلاد في شعبان من السنة المذكورة ، وكانت مدة إقامتهم في بلاد الإسلام ما بين الشام والديار المصرية أربعين شهراً وسبعة عشر يوماً ، وكفى الله شرهم والحمد لله على ذلك ، وقد فصلت ذلك في ترجمة يحيى بن جراح فيكشف هناك .

فلما استراح خاطر الملك الكامل من جهة هذا العدو تفرغ للأمراء الذين كانوا متحاملين عليه فنفاهم عن البلاد ، وبدد شملهم وشردهم ، ودخل إلى القاهرة

---

١ المختار : القضية .

٢ هامش ن : أعلم .

وشرع في عمارة البلاد واستخراج الأموال من جهاتها ، وكان سلطاناً عظيم القدر جميل الذكر محباً للعلماء متمسكاً بالسنة النبوية حسن الاعتقاد معاشراً لأرباب الفضائل حازماً في أموره ، لا يضع الشيء إلا في موضعه من غير إسراف ولا إقتار، وكانت تبيت عنده كل ليلة جمعة جماعة من الفضلاء ، ويشاركهم في مباحثاتهم ، ويسألهم عن المواضع المشكلة من كل فن، وهو معهم كواحد منهم، وكان يعجبه هذان البيتان وينشدهما كثيراً ، وهما :

ما كنت من قبل ملك قلبي   تصدُّ عن مدنف حزين
وإنما قد طمعت لما   حللت في موضع حصين

وبنى بالقاهرة دار حديث ورتب لها وقفاً جيداً ، وكان قد بنى على ضريح الإمام الشافعي ، رضي الله عنه ، قبةً عظيمة ، ودفن أمه عنده ، وأجرى إليها من ماء النيل ، ومدده بعيد ، وغرم على ذلك جملة عظيمة .

ولما مات أخوه الملك المعظم صاحب الشام – في التاريخ المذكور في ترجمته– وقام ولده الملك الناصر صلاح الدين داود مقامه ، خرج الملك الكامل من الديار المصرية قاصداً أخذ دمشق منه ، وجاءه أخوه الملك الأشرف مظفر الدين موسى – الآتي ذكره بعد هذا إن شاء الله تعالى – فاجتمعا على أخذ دمشق – بعد فصول جرت يطول شرحها – وملك دمشق في أول شعبان سنة ست وعشرين وستمائة ، وكان يوم الاثنين ، فلما ملكها دفعها إلى أخيه الملك الأشرف ، وأخذ عوضها من بلاد الشرق حران والرها وسروج والرقة ورأس عين ، وتوجه إليها بنفسه في تاسع شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة .

واجتزت بحرّان في شوال سنة ست وعشرين وستمائة ، والملك الكامل مقيم بها بعساكر الديار المصرية ، وجلال الدين خوارزم شاه يوم ذاك يحاصر خِلاط ، وكانت لأخيه الملك الأشرف ، ثم رجع إلى الديار المصرية .

ثم تجهز[1] في جيش عظيم وقصد آمد في سنة تسع وعشرين وستمائة ، فأخذها مع حصن كيفا وتلك البلاد من الملك المسعود ركن الدين مودود بن الملك الصالح

---

[1] المختار : ثم تجهز من الديار المصرية .

أبي الفتح محمد بن نور الدين محمد بن فخر الدين قرا أرسلان بن ركن الدولة داود ابن نور الدولة سقمان – ويقال سكمان – بن أرتق ، وقد تقدم ذكر جدهم أرتق ؛ أخبرني بعض أهل آمد ممن عنده معرفة أن آمد انبرم أمرها وتسليمها إلى الملك الكامل في تاسع عشر ذي الحجة من السنة المذكورة ، ودخلها ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب في العشرين من الشهر المذكور ، ودخلها الملك الكامل في مستهل المحرم سنة ثلاثين وستمائة .

ولما مات الملك الأشرف – في التاريخ الآتي ذكره إن شاء الله تعالى في ترجمته – جعل ولي عهده أخاه الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل ، فقصده الملك الكامل وانتزع منه دمشق ، بعد مصالحة جرت بينهما ، وذلك في التاسع من جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وستمائة ، وأبقى له[1] بعلبك وأعمالها وبصرى وأرض السواد وتلك البلاد . ولما ملك البلاد الشرقية وآمد وتلك النواحي استخلف فيها ولده الملك الصالح نجم الدين أبا المظفر أيوب ، واستخلف ولده الأصغر الملك العادل سيف الدين أبا بكر بالديار المصرية .

وقد تقدم في ترجمة الملك العادل أنه سير الملك المسعود إلى اليمن ، وكان أكبر أولاد الملك الكامل ، وملك الملك المسعود مكة حرسها الله تعالى وبلاد الحجاز مضافة إلى اليمن . وكان رحيل الملك المسعود عن الديار المصرية متوجهاً إلى اليمن يوم الاثنين سابع عشر رمضان المعظم سنة إحدى عشرة وستمائة ، ودخل مكة شرفها الله تعالى في الثالث من ذي القعدة من السنة ، وخطب له بها وحج ، ودخل زبيد وملكها مستهل المحرم سنة اثنتي عشرة ثم ملك مكة شرفها الله تعالى في ربيع الآخر من سنة عشرين وستمائة ، أخذها من الشريف حسن بن قتادة الحسني ، واتسعت المملكة للملك الكامل. ولقد حكى لي من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكة شرفها الله تعالى أنه لما وصل الخطيب إلى الدعاء للملك الكامل قال : صاحب مكة وعبيدها ، واليمن وزبيدها ، ومصر وصعيدها ، والجزيرة ووليدها ، سلطان القبلتين ، ورب العلامتين ، خادم الحرمين الشريفين ، أبو

---

١ المختار : وأبقى عليه .

المعالي محمد الملك الكامل ناصر الدين خليل أمير المؤمنين ؛ وبالجملة فقد خرجنا عن المقصود .

ولقد رأيته بدمشق في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة عند رجوعه من بلاد الشرق واستنقاذه إياها من يد علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج[1] أرسلان بن مسعود ابن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي صاحب الروم ، وهي وقعة مشهورة يطول شرحها ، وفي خدمته يومئذ بضعة عشر ملكاً منهم أخوه الملك الأشرف. ولم يزل في علو شانه وعظم سلطانه إلى أن مرض بعد أخذ دمشق ولم يركب ، وكان ينشد في مرضه كثيراً :

يا خليلي خبراني بصدق كيف طعم الكرى فإني عليل

ولم يزل كذلك إلى أن توفي يوم الأربعاء بعد العصر ، ودفن بالقلعة بمدينة دمشق يوم الخميس الثاني والعشرين من رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة ، وكنت بدمشق يومئذ ، وحضرت الصبحة يوم السبت في جامع دمشق لأنهم أخفوا موته إلى وقت صلاة الجمعة ، فلما حضرت الصلاة قام بعض الدعاة على العريش الذي بين يدي المنبر وترحم على الملك الكامل ودعا لولده الملك العادل صاحب مصر ، وكنت حاضراً في ذلك الموضع ، فضج الناس ضجة واحدة ، وكانوا قد أحسوا بذلك ، لكنهم لم يتحققوه إلا ذلك اليوم .

وترتب ابن أخيه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين مودود ابن الملك العادل في نيابة السلطنة بدمشق ، عن الملك العادل بن الملك الكامل صاحب مصر ، باتفاق الأمراء الذين كانوا حاضرين ذلك الوقت بدمشق .

ثم بنى له تربة مجاورة للجامع ، ولها شباك إلى الجامع، ونقل إليها ؛ وكانت ولادته في سنة ست وسبعين وخمسمائة في الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول؛ كذا وجدته بخط من يعتني بالتاريخ ، والله أعلم .

(218) وتوفي ولده الملك المسعود بمكة شرفها الله تعالى في ثالث عشر جمادى الأولى سنة ست وعشرين وستمائة، ومولده في سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وكان

---

١ ق ر : قليج .

بمكة رجل من المجاورين يقال له الشيخ صديق بن بدر بن جناح ، من أكراد بلد إربل ، وكان من كبار الصالحين ، فلما حضرت الملك المسعود الوفاة أوصى أنه إذا مات لا يجهز بشيء من ماله ، بل يسلم إلى الشيخ صديق يجهزه من عنده بما يراه ، فلما مات تولى الشيخ صديق أمره ، وكفنه في إزار كان أحرم فيه بالحج والعمرة سنين عديدة ، وجهزه تجهيز الفقراء على حسب قدرته ، وكان أوصى أنه لا يبنى على قبره شيء ، بل يدفن في جانب المعلى جبانة مكة ، شرفها الله تعالى ، ويكتب على قبره « هذا قبر الفقير إلى رحمة الله تعالى[1] يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب[2] » ففعل به ذلك. ثم إن عتيقه الصارم قايماز المسعودي الذي تولى القاهرة بعد ذلك بنى عليه قبة ، ولما بلغ الملك الكامل ما فعله الشيخ صديق كتب إليه وشكره فقال : ما فعلت ما أستحق به الشكر ، فإن هذا رجل فقير سألني القيام بأمره فساعدته بما يجب على كل أحد القيام به من مواراة الميت ، فقيل له : تكتب جواب الملك الكامل ؟ فقال : ليس لي إليه حاجة ، وكان قد سأله أن يسأله حوائجه كلها ، فما رد عليه الجواب ؛ أخبرني بذلك كله من كان حاضراً ويعرف ما يقول ، والله أعلم .

(219) وأما ولده الملك العادل فإنه أقام في المملكة إلى يوم الجمعة ثامن ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة ، فقبض عليه أمراء دولته بظاهر بلبيس ، وطلبوا أخاه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكان الصالح قد صالح الملك الجواد على أن أعطاه دمشق ، وعوضه عنها سنجار وعانة ، وقدم الصالح دمشق متملكاً لها في مستهل جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين وستمائة. ثم إن عمه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب بعلبك اتفق مع الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص على أخذ دمشق اغتيالاً ، وكان الملك الصالح نجم الدين قد خرج منها قاصداً الديار المصرية ليأخذها من أخيه الملك العادل ، فلما استقر بنابلس وأقام بها مدة جرت هذه الكائنة في سنة سبع وثلاثين وستمائة ، يوم الثلاثاء السابع والعشرين من صفر ، فهجما دمشق

---

١ ق : رحمة ربه .

٢ أنظر العقد الثمين ٧ : ٤٩٢ ، ٤ : ١٦٨ .

بعساكرهما وأخذاها ، وهي قضية مشهورة ، فلما أخذت دمشق رجع العسكر الذي كان مع الصالح نجم الدين إليها ليدرك كل واحد منهم أهله وبنيه، وتركوا الملك الصالح بنابلس وحيداً في نفر قليل من غلمانه وأتباعه[1] ، فجاءه الملك الناصر ابن الملك المعظم صاحب الكرك، وقبض عليه ليلة السبت الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول من السنة ، وأرسله إلى الكرك واعتقله بها ، ثم إنه أفرج عنه في ليلة السبت السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة، وشرح ذلك يطول . واجتمع هو والملك الناصر على نابلس ، فلما قبض الملك العادل في التاريخ المذكور وطلب الأمراء الملك الصالح نجم الدين أيوب جاءهم ومعه الملك الناصر صاحب الكرك ، ودخلا القاهرة في الساعة الثانية من يوم الأحد السابع والعشرين من ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة ، وكنت إذ ذاك[2] بالقاهرة[3] ، وأدخل أخوه الملك العادل في محفة وحوله جماعة كثيرة من الأجناد يحفظونه ، وحمله من خارج البلد إلى القلعة واعتقله بها عند دخوله في داخل الدور السلطانية ، وبسط العدل في الرعية وأحسن إلى الناس وأخرج الصدقات ورمم ما تهدم من المساجد ، وسيرته طويلة .

ثم إنه أخذ دمشق من عمه الملك الصالح في يوم الاثنين ثامن جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، وأبقى عليه بعلبك ، ومضى بعد ذلك إلى الشام في سنة [أربع وأربعين ودخلها في تاسع عشر ذي القعدة من السنة، ثم توجه إليها][4] ست وأربعين بعد أن كان عاد إلى مصر ، ودخل دمشق في أوائل شعبان من السنة ، وسير العساكر لحصار حمص ، وقد كان الملك الناصر صاحب حلب أخذها من صاحبها الأشرف ابن صاحب حمص ، ثم رجع في أوائل سنة سبع وأربعين وهو مريض .

وقصد الفرنج دمياط وهو مقيم بأشموم ينتظر وصولهم ، وكان وصولهم إليها

---

١ وأتباعه : سقطت من ق والمختار .

٢ ق بر من : يومئذ ؛ ر : يوم ذاك .

٣ ق بر من : بالقاهرة مقيماً .

٤ زيادة من ق ، وفي المختار : ثم خرج إلى الشام مرتين .

يوم الجمعة العشرين من صفر سنة سبع وأربعين وستمائة ، وملكوا بر الجيزة يوم السبت ، وملكوا دمياط يوم الأحد ثلاثة أيام متوالية لأن العسكر وجميع أهلها تركوها وهربوا منها .

وانتقل الملك الصالح من أشموم إلى المنصورة ، ونزل بها وهو في غاية من المرض، وأقام بها على تلك الحال إلى أن توفي هناك ليلة الاثنين نصف شعبان من السنة المذكورة ، وحمل إلى القلعة الجديدة التي في الجزيرة ، وترك بها في مسجد هناك ، وأخفي موته مقدار ثلاثة أشهر ، والخطبة باسمه ، إلى أن وصل ولده الملك المعظم توران شاه من حصن كيفا على البرية إلى المنصورة ، فعند ذلك أظهروا موته ، وخطب لولده المذكور ، ثم بعد ذلك بني له بالقاهرة إلى جنب مدارسه تربة ، ونقل إليها في رجب سنة ثمان وأربعين وستمائة . وكانت ولادته في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث وستمائة، هكذا وجد بخط ابنه مكتوباً ، ورأيت في مكان آخر أنه ولد في ليلة الخميس الخامس من جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وفي مكان آخر أنه ولد في الرابع من المحرم سنة أربع وستمائة ، والله تعالى أعلم ؛ وأمه جارية مولدة سمراء اسمها ورد المنى ، رحمه الله تعالى .

وكانت ولادة الملك العادل في ذي الحجة سنة سبع عشرة وستمائة، بالمنصورة ووالده في قبالة العدو على دمياط ، وتوفي في الاعتقال يوم الاثنين ثاني عشر شوال سنة خمس وأربعين وستمائة بقلعة القاهرة ، ودفن في تربة شمس الدولة خارج باب النصر ، رحمه الله تعالى .

هذه الفصول ذكرت خلاصتها ، ولو فصلتها لطال الشرح ، والمقصود الاختصار وطلب الإيجاز مع أني كنت حاضراً أكثر وقائعها[1] .

(220) وكان للملك العادل المذكور ولد صغير يقال له الملك المغيث مقيماً بالقلعة ، فلما وصل ابن عمه الملك المعظم توران شاه إلى المنصورة سير من هناك، ونقله إلى قلعة الشوبك . فلما جرت الكائنة على المعظم أحضر متسلم قلعة الكرك

---

١ وقعت هذه الجملة في آخر الترجمة في المختار .

الملك المغيث من الشوبك وسلم إليه الكرك والشوبك وتلك النواحي ، وهو الآن ملكها ، ولم يزل مالكاً لها إلى سنة إحدى وستين وستمائة ، فنزل الملك الظاهر ركن الدين بيبرس[1] المذكور في ترجمة القاضي مجلي صاحب كتاب «الذخائر» بالفور، وراسله وبذل له من تسليم البلد بذولاً كثيرة وحلف له ، ويقـــال إنه ورى في في اليمين ولم يستقص فيها . فنزل إليه إلى منزله بالطور من[2] الغور، فقبض عليه ساعة وصوله وجهزه إلى قلعة الجبل بمصر واعتقله بها .

(221) وكان للمغيث ولد ينعت بالعزيز فخر الدين عثمان صغير السن، فأمَّرَه الملك الظاهر ، ولم يزل في خدمته أميراً إلى أن فتح أنطاكية في شهر رمضان سنة ست وستين وستمائة ، وتوجه من الشام بعد ذلك إلى مصر ، فلما دخل إليها قبض عليه واعتقله ، وهو الآن معتقل بقلعة الجبل المذكورة .

وهذه قلعة الكرك هي المذكورة في ترجمة القاضي مجلي أيضاً ، وكان الملك الظاهر يخاف على أولاده فكان يبالغ في تحصين القلعة المذكورة، ويملؤها بالذخائر والأموال ، ولما جرى لولده السعيد ما ذكرنا في ترجمة القاضي مجلي وتوجه إلى الكرك نفعته تلك الذخائر ووجدها عوناً له على زمانه .

(222) ولما توفي الملك السعيد ابن الملك الظاهر في الكرك – كما ذكرناه في الترجمة المذكورة – ملكها بعد أخوه الملك المسعود نجم الدين خضر ابن الملك الظاهر[3] باتفاق ممن كان بها من مماليك أبيه ومن أمرائه، وهو الآن متملكها مقيم بها ، ثم نزل منها بالأمان بعد حصاره فيها في مدة الأمير حسام الدين طرنطاي المنصوري كان نائب المملكة ، وتقدم العساكر ، ونزل معه أخوه الملك العادل سلامش بعد أخيه السعيد ، وتوجه إلى الديار المصرية إلى خدمة السلطان الملك

---

١ المختار : صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية .

٢ بالطور من : سقطت من ر والمختار .

٣ علق ابن المؤلف بقوله : « قلت ، أعني كاتبها موسى بن أحمد لطف الله به : ولم يزل خضر المذكور بها إلى سنة خمس وثمانين فتسلمها منه نواب الملك المنصور سيف الدين قلاون الصالحي المعروف بالألفي وبدل منها على مصالحة جرت بينهما وانتقل الى الديار المصرية ملازماً للخدمة » وجاء بعد ذلك قوله وهو من الأصل : « وتوفي المعظم توران شاه يوم الاثنين السابع والعشرين من المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة » .

المنصور سيف الدين قلاون الصالحي المذكور في ترجمة القاضي مجلي في أوائل هذا الحرف ، فأحسن السلطان إليهما ، وجعل الملك خضراً وأخاه سلامش أميرين ، وأقطعهما الإقطاعات الجيدة ، وأسكنهما بقلعة الجبل المنصور، واستمر الأمر على ذلك ، وهما مختلطان به في جملة أهله ملازمان للركوب مع ولديه السلطان الملك الصالح علاء الدين والملك الأشرف صلاح الدين خليل .

[ولم يزل الأمر كذلك إلى شهور سنة ثمان وثمانين وستمائة، فجرى من الأمر ما اقتضى الحال معه القبض على الأميرين نجم الدين خضر وبدر الدين سلامش المذكورين واعتقالهما بقلعة الجبل المنصورة وأما الملك الصالح بن الملك المنصور المذكور ، فإنّه كان ولي عهد أبيه ، وكان حازماً شديد الرأي . وتوفي في حياة والده في شهر شعبان سنة سبع وثمانين وستمائة ، ثم إن والده جعل ولاية العهد إلى ولده الملك الأشرف المذكور ، وقلده الملك في شهر شوال سنة سبع وثمانين المذكورة . وهو من الملوك المشهورين بعلو الهمة والسعادة والحزم .

وتوفي الملك المنصور قلاون في يوم السبت من شهر ذي القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة في دهليزه بمسجد التين . وكان قد خرج على نيّة الغزاة إلى عكا ، فعرض له مرض ، فقضى به نحبه وعادت العساكر إلى مستقرها .

واستقلّ ولده السلطان الملك الأشرف بالمملكة يجمع المعاقل والبلاد ، ولم ير في الملوك أكثر سعادة منه ، ولا أعلى همة ولا أكرم نفساً ولا أكثر وفاء لمن خدمه ولاذ به .

وفي أيام الملك المنصور فتحت طرابلس الشام يوم الثلاثاء تاسع ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وستمائة ، وكان نازلّها بنفسه وعساكره ، وفتحها قهراً بالسيف ، واستولى القتل والأسر والنهب على أهلها ، وملك ما جاورها من قلعة جبيل والبترون وغير ذلك ، ثم إن الملك الأشرف المذكور بعد استقلاله بالملك بمدة يسيرة خرج بنفسه وجمع عساكره وتوجه إلى عكا ، فنازلها في يوم ، وكان خروجه من مصر في يوم ، واجتمع على عكا جميع الناس: الجند والمتطوعة وغيرهم وسائر البلاد، ويسّرَ الله فتحها في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى سنة تسعين وستمائة ، في مثل الساعة من اليوم من الشهر الذي أخذت فيه من المسلمين ، إلا أن الشهر كان الأولى ، وأخذت من المسلمين في أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب في الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وأن

السلطان الملك الأشرف صلاح الدين أخرج أهلها منها وقتلهم جميعاً بالسيف ، وكذلك الفرنج عملوا بالذي كان فيها من المسلمين لما ملكوها في أيام صلاح الدين ، فانظروا إلى هذا الاتفاق العجيب في أمور كثيرة . لمّا أخذت من صلاح الدين ملكتها صلاح الدين وقتل المسلمون بها ثم قتل الكافرون بها ، وأخذت من المسلمين ثاني ساعة من يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ، ثم ملكها المسلمون ثاني ساعة من يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ، فسبحان مقدر الأمور .

ثم انحلّت عزائم الفرنج عن أخذ عكا ، فهرب من كان ببيروت وعثليث وهما حصنان عظيمان لا تتطرق الأوهام إليهما ، وملكهما المسلمون بحول الله وقوته من غير منازع . وملكوا أيضاً صيدا وبيروت وحيفا فلم يبق للفرنج على الساحل الشامي قلعة ولا بلد ولا قرية ولا جزيرة إلا وملك المسلمون ذلك جميعه والحمد لله وحده][1] .

وتوفي المعظم توران شاه يوم الاثنين السابع والعشرين من المحرم من سنة ثمان وأربعين وستمائة رحمه الله تعالى ، والله تعالى أعلم .

٦٩٤ ب

الملك الكامل الايوبي

أبو المعالي محمد بن أبي بكر الملقب الملك الكامل ناصر الدين صاحب الديار المصرية . خطب له اخوته وأهل بيته في بلادهم وضربوا السكة باسمه ؛ وكان محبوباً إلى الناس مسعوداً مؤيداً في الحروب . ولما نزل الفرنج على دمياط في صفر سنة خمس عشرة اتفق لما يريده الله تعالى وفاة والده العادل ، وجرت أمور مع ذلك أوجبت خروج السلطان ومن معه من المخيم ليلاً إلى أشموم — حسبما هو مشروح في ترجمة عماد الدين أحمد بن المشطوب المذكور في حرف الهمزة —

---

[1] من الواضح ان هذا ليس من عمل المؤلف ، لأنه توفي قبل هذه الأحداث .

٦٩٤ ب — هذه الترجمة تنفرد بها مج وهي تختلف عن الترجمة السابقة ، فلذلك أثبتناها في هذا الموضع .

وكان [الفرنج] قد ساروا عن دمياط في الفارس والراجل ، وقصدوا الملك الكامل فنزلوا مقابله ، وبينهما بحر أشموم وهم يرمون بمناجيقهم وجروخهم إلى عساكر المسلمين ، وتيقنوا وكل النـاس أنهم يملكون الديار المصريـة ، فوصل الأشرف وتلقاه أخواه الكامل والمعظم ، واستبشروا به وكافة المسلمين وتوقعوا النصرة على الأعداء الكافرين ، ووقع الاتفاق أن يبعثوا في بحر المحلة أسطولاً يدخل إلى بحر دمياط ليمنع الميرة عن الفرنج ، وأمر السلطان بنصب الجسور وعبر عليها المسلمون إلى جزيرة شرمساح التي الفرنج نخيمون عليها ، وكسروا النيل عليها ؛ وكان النيل في زيادته ، فركب الماء اكثر تلك الأرض ، ولم يبق للفرنج جهة يسلكونها ، غير جهة واحدة ضيقة ان أرادوا العود إلى دمياط ، وعبرت العساكر وملكوا الطريق ، ولم يبق لهم خلاص ، وأيقنوا بالهلكة ، فراسلوا السلطان الملك الكامل يبذلون له النزول عن دمياط على أن يؤمنهم ، فأجابهم إلى ذلك ، وشرط عليهم إطلاق من في أيديهم من أسرى المسلمين ، وأخذ منهم رهائن ملوكهم على تسليم البلد ، وتقرر بينهم صلح مدة ثمان سنين ، وتسلم السلطان دمياط يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب ، فكانت مدة ملك الفرنج لها سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً ؛ وكان يوماً مشهوداً ؛ ومن العجيب أن المسلمين لـمـا تسلموها وصلت للفرنج نجدة في البحر فلو سبقوا المسلمين إليها لامتنعوا من تسليم دمياط ليقضي الله أمراً كان مفعولاً . فلما دخلها المسلمون لم يجدوا فيها من أهلها إلا آحاداً، فبعضهم سار عنها باختياره، وبعضهم مات . وكان الفرنج قد حصنوها تحصيناً عظيماً بحيث بقيت لا ترام ولا يوصل إليها ؛ وأعاد الله سبحانه وتعالى الحق إلى نصابه وردّه إلى أربابه ، فالله المحمود المشكور على ما أنعم به على الإسلام والمسلمين من كف عادية هـذا العدو ، وكفاهم شره .

منقبة للملك الكامل جرت في هذه النوبة : لما وقـع الحصار على مدينة دمياط اتفق أن علجاً منهم ، لعنه الله ، قد ألهج لسانه بسب النبي صلى الله عليه وسلم ، معلناً به على خنادقهم ، ومنكياً لمن يليهم من حرس الإسلام ورجالهم ، وكان أمره قد استفحل، وداء اشتهاره بهذه العظيمة قد أعضل ، وقد جعل هذا

الأمر ديدن جهاده ، وذهب عنه أن الله تعالى ينتقم لنفسه من عتوّ هذا اللعين وعناده . فلما كانت الوقعة المشهورة في شعبان من سنة ست عشرة التي أسر فيها أعلاج الكفر وكنودهم ، وأفاء الله على أهل دينه عدوهم وعديدهم ، واستولى منهم على ما يناهز ألفي فارس ، عرف هذا العلج في جملة من اشتمل عليه الاستيلاء منهم حصراً وعدّاً ، وعوجل بعقوبة كفره الذي تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً ؛ فلما صفد في وثاقه ، وخرست شقاشق شقاقه ، أشعر السلطان الملك الكامل بموضعه ، فتنوعت المشورات بصورة قتل هذا الكافر ، واللحاق بروحه إلى الجحيم التي هي مأوى الفاجر ، فصمم الملك الكامل على إرسال هذا العلج مع من يوصله إلى والي المدينة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، وإشعاره بأمره ، وأن يباشر بذلك المحل الشريف تطهير الأرض من كفره . فلما وصل أقيم بين يدي الضريح المطهر ، ونوجي ذلك المحل الأطهر ، وذلك في عيد الفطر من السنة المذكورة ، وقيل : يا رسول الله : هذا عدو الله وعدوك ، والمصرح في ملة كفره بسبك وسب صاحبك ، قد أرسله محمد سلطان مصر ليقتل بين يديك ، ويشكر الله لما وفقه من مجاهدة الشرك الذين كفروا بما أنزل إليك ، ورام أن يجعله عبرة لمن انتهك حرمتك واجترأ عليك ، فتهادته أيدي المنايا ضرباً بالسيوف ، وفرح المؤمنون بنصر الله لدينه على طوائف الشرك وان رغمت منها الأنوف ، والحمد لله رب العالمين .

لا جرم أنه بعد وفاته أثيب على هذا المقصد السديد ، والتوفيق الذي ما على النعمة به من مزيد : ان الانبرور ملك صقلية وغيرها من بلاد الفرنج — وهو اليوم أكبر ملوكهم خطراً وكانت بينه وبين الملك الكامل صداقة ومهاداة يألفه بها إلى أن تأكدت له محبته وصار ذبُّه عن بلاده من طوائف الكفر ديدنه وعادته — كان عنده من الأسرى المأخوذين من مدينة ميرقة من الغرب عند استيلائه عليها جماعة ، فأحضرهم الانبرور بين يديه ، وقال لهم : يا حجاج ، قد أعتقتكم عن الملك الكامل ؛ وسيرهم مع قصاد تقودهم إلى عكا وأمرهم بحل قيودهم عند قبره ، وإطلاق سبيلهم .

وكانت وفاته بدمشق يوم الأربعاء آخر النهار ، ودفن يوم الخميس في الساعة الثانية منه ، وذلك لتسع بقين من شهر رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة بالكلاسة رحمه الله تعالى .

ولما توفي كان ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب بالبلاد الشرقية ، وهي التي كانت بيده في حياة والده ، وكان ولده الملك العادل سيف الدين أبو بكر بالديار المصرية ؛ ولما بلغ بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وفاة السلطان ، قصد سنجار مريداً حصارها ، وبها الملك الصالح نجم الدين ، فنازلها وزحف إليها ، فأرسل عليهم الخوارزمية ، فأوقعوا بهم واستولوا على جميع ما معهم من الأثقال ، ثم جرت مراسلات آخرها أنهم انقادوا لأمره ودخلوا في طاعته ؛ وكانت هذه الواقعة من الوقائع العجيبة .

ولما كان مستهل جمادى الآخرة وصل الملك الصالح المذكور إلى دمشق ودخلها في الساعة الخامسة من النهار ، وقد تقدم في ترجمة بهاء الدين زهير المذكور طرف من حديثه وملكه للديار المصرية ، حسبما شرحناه ثمّ .

٦٩٥

محمد بن عبد الله بن طاهر

أبو العباس محمد بن عبد الله بن طاهر الخزاعي ؛ كان شيخاً فاضلا وأديباً شاعراً ، وهو أمير ابن أمير ابن أمير ، ولي إمارة بغداد في أيام المتوكل ، وكان مألفاً لأهل العلم والأدب ؛ وقد أسند حديثاً عن أبي الصلت .

قال أحمد بن يزيد المهلبي : كانت لأبي حاجة الى محمد بن عبد الله بن طاهر فكتب إليه :

ألا مبلغٌ عني الأمير محمداً مقالاً له فضلٌ على القول واسعُ

---

٦٩٥ – انفردت مج بهذه الترجمة .

لنا حاجة إن أمكنتك قضيتها ... وإن هي لم تمكن فعذرك واسع
فأنت وإن كنت الجواد بعينه ... فلست بمعطي الناس ما الله مانع
فإن يورِ زندُ الطاهري فبالحرى ... وإلا فقد تنبو السيوف القواطع

وقيل : كان الحسن بن وهب عند محمد بن عبد الله بن طاهر فعرضت سحابة وبرقت ومطرت ، فقال كل من حضر فيها شيئاً ، فقال الحسن :

هطلتنا السماء هطلاً دراكا ... عارض المرزمان فيها السماكا
قلت للبرق إذ توقد فيها ... يا زناد السماء من أوراكا
أحبيب نأيته فجفاكا ... فهو العارض الذي استبكاكا
أم تشبهت بالأمير أبي العبـ ... ـاس في جوده ، فلست هناكا

قال إبراهيم بن عرفة : في سنة ثلاث وخمسين ومائتين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة انكسف القمر في أول الليل حتى ذهب أكثره فلما انتصف الليل مات محمد بن عبد الله بن طاهر ، وكان به خراج في حلقه واشتد حتى عولج بالفتائل ؛ وفي وفاته يقول أخوه عبد الله بن عبد الله بن طاهر :

هدّ ركن الخلافة الموطود ... زال عنها السرادق الممدود
كسف البدر والأمير جميعاً ... وانجلى البدر والأمير عميد

ودفن في مقابر قريش رحمه الله تعالى .

٦٩٦

الوزير ابن الزيات

أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة ، المعروف بابن الزيات ، وزير المعتصم؛ كان جده أبانُ رجلاً من أهل جَبُّل من قرية كان بها يقال لها الدسكرة يجلب الزيت من مواضعه إلى بغداد ، فسَمَتْ بمحمد المذكور همته – على ما يأتي ذكره فيه – وكان من أهل الأدب الظاهر والفضل الباهر ، أديباً فاضلاً بليغاً عالماً بالنحو واللغة .

ذكر ميمون بن هرون الكاتب أن أبا عثمان المازني لما قدم بغداد في أيام المعتصم كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه في علم النحو ، فإذا اختلفوا فيما يقع فيه الشك يقول لهم أبو عثمان: ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب، يعني محمد بن عبد الملك المذكور ، فاسألوه واعرفوا جوابه ، فيفعلون ويصدر جوابه بالصواب الذي يرتضيه أبو عثمان ويوقفهم عليه .

وقد ذكره دِعْبِل بن علي الخزاعي المقدم ذكره في كتاب «طبقات الشعراء» وذكره أبو عبد الله هرون بن المنجم – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – في كتاب « البارع » وأورد له من شعره عدة مقاطيع .

وكان في أول أمره من جملة الكتاب ، وكان أحمد بن عمّار بن شاذي البصري وزير المعتصم ، فورد على المعتصم كتاب من بعض العمال فقرأه الوزير عليه ، وكان في الكتاب ذكر الكلإ ، فقال له المعتصم : ما الكلأ ؟ فقال : لا أعلم ، وكان قليل المعرفة بالأدب ، فقال المعتصم : خليفة أمي ووزير عامي ؟! وكان المعتصم ضعيف الكتابة ، ثم قال : أبصروا من بالباب من الكتاب ، فوجدوا

---

٦٩٦ – أخباره في تاريخ الطبري والمسعودي وابن الأثير وتاريخ بغداد ٢ : ٣٤٢ ومعجم المرزباني : ٣٦٥ والخزانة ١ : ٢١٥ والأغاني ٢٢ : ٤٦٣ والفهرست : ١٢٢ والوافي ٤ : ٣٢ وعبر الذهبي ١ : ٤١٤ والشذرات ٢ : ٧٨ .

محمد بن عبد الملك المذكور ، فأدخلوه إليه فقال له : ما الكلأ ؟ فقال الكلأ العشب على الإطلاق ، فإن كان رطباً فهو الخَلا ، فإذا يبس[1] فهو الحشيش ، وشرع في تقسيم أنواع النبات ، فعلم المعتصم فضله ، فاستوزره وحكمه وبسط يده .

وقد ذكرنا ما كان بينه وبين القاضي أحمد بن أبي دواد الإيادي في ترجمته .

وحكى أبو عبد الله البيمارستاني أن أبا حفص الكرماني كاتب عمرو بن مسعدة كتب إلى محمد بن عبد الملك الزيات المذكور : أما بعد ، فانك ممن إذا غرس سقى ، وإذا أسس بنى ليستتم بناء أسه ويجتني ثمرة غرسه ، وبناؤك في وُدّي قد وهى وشارف الدروس ، وغرسك عندي قد عطش وأشفى على اليبوس ، فتدارك بناء ما أسست وسَقْيَ ما غرست ، فقال البيمارستاني : فحدثت بذلك أبا عبد الرحمن العطوي ، فقال في هذا المعنى يمدح محمد بن عمران بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك ، ثم وجدت الأبيات[2] في ديوان أبي نواس ، صنعة الأصبهاني ، وهي :

إن البرامكة الكرام تعلموا ... فعل الجميل وعلموه الناسا
كانوا إذا غرسوا سَقَوْا وإذا بنوا ... لا يهدمون لما بنوه أساسا
وإذا هُمُ صنعوا الصنائع في الورى ... جعلوا لها طولَ البقاء لباسا
فعلام تسقيني – وأنت سقيتني ... كأس المودة – من جفائك كاسا
آنستني متفضلاً ، أفلا ترى ... أن القطيعة توحش الإيناسا ؟

وقد تقدم في ترجمة عبد المحسن الصوري هذا المعنى أيضاً .

ولابن الزيات المذكور أشعار رائقة ، فمن ذلك قوله[3] :

سماعاً يا عباد الله مني ... وكفوا عن ملاحظة الملاح

---

١ ن : وان كان يبساً .

٢ ن ر ق من بر : هذه الأبيات الثلاثة .

٣ هذه القطعة غير موجودة في ديوانه .

فإن الحب آخره المنايا وأوله يهيّج بالمزاح
وقالوا دع مراقبة الثريا ونم فالليل مسودُّ الجناح
فقلت وهل أفاق القلب حتى أفرق بين ليلي والصباح

وله على ما نقلته من خط بعض الأفاضل[1] :

ظالم ما علمته معتدٍ لا عدمته
مُطْمع في الوصال ممـ ـتنع حين رمته
قال إذ أفصح البكا ء بما قد كتمته
لو بكى طول عمره بدم ما رحمته
ربَّ هم طويت فيـ ـه وغيظ كظمته
وحياة سئمتها والهوى ما سئمته

وذكر الخطيب في « تاريخ بغداد »[2] أن ابن الزيات المذكور كان يعشق جارية من جواري القيان ، فبيعت من رجل من أهل خراسان ، فأخرجها ، قال : فذهل عقل ابن الزيات حتى غشي عليه ، ثم إنه أنشأ يقول[3] :

يا طول ساعات ليل العاشق الدنِفِ وطول رعيته للنجم في السدفِ
ماذا تواري ثيابي من أخي حُرَق كأنما الجسم منه دقة الألف
ما قال يا أسفا يعقوبُ من كمد إلا لطول الذي لاقى من الأسف
مَنْ سره أن يرى مَيْت الهوى دنفا فليستدلَّ على الزيات وليقف

ومن شعره ما ذكره في كتاب « البارع » يرثي جاريته ، وقد خلفت له ابن ثمان سنين ، وكان يبكي عليها فيتألم بسببه وهو[4] :

---

١ ديوانه : ٨٠ .
٢ تاريخ بغداد ٢ : ٣٤٣ .
٣ لم أجدها في ديوانه .
٤ ديوانه : ٦٧ .

ألا من رأى الطفل المفارق أمه بُعَيْدَ الكرى عيناه تنسكبان
رأى كل أم وابنها غير أمه يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً في الفراش تجيبه بلابلُ قلب دائم الخفقان
فهبني أطلت الصبر عنها لأنني جليد ، فمن للصبر بابن ثمان ؟
ضعيف القوى لا يعرف الصبر جسمه ولا يأتسي بالناس في الحدَثان

وله ديوان رسائل جيد .

ومدحه البحتري بقصيدته الدالية وأحسن في وصف خطه وبلاغته ، وقال في آخرها[1] :

وأرى الخلق مجمعين على فضـ ـلك من بين سيد ومَسُودِ
عرف العالمون فضلك بالعلـ ـم وقال الجهال بالتقليدِ

ولأبي تمام فيه مدائح وجماعة من شعراء عصره ، ولإبراهيم بن العباس الصولي المقدم ذكره فيه مقاطيع يعبث به فيها ، فمن ذلك قوله[2] :

أخ كنت آوي منه عند ادكاره إلى ظل آباء من العز شامخ
سعت نُوَبُ الأيام بيني وبينه فأقلعن منه عن ظلوم وصارخ
وإني وإعدادي لدهري محمداً كملتمسٍ إطفاءَه نار نافخ

ومن ذلك قوله أيضاً :

دعوتك عن بلوى ألمت ضرورة فأوقدت عن طمن عليٌّ سعيرَها
وإني إذا أدعوك عند ملمة كداعيةٍ عند القبور نصيرَها

وله أيضاً فيه :

أبا جعفر خَفْ نَبْوة بعد دولة وقصّر قليلاً عن مَدى غُلَوائكا

---

١ ديوان البحتري : ٦٣٨ .

٢ الطرائف الأدبية : ١٥٧ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٥٨ ، ١٦٥ .

فإن يك هذا اليوم يوماً حويته   فإن رجائي في غدٍ كرجائكا

وله فيه أيضاً :

قلت لها حين أكثرت عَذَلي :   ويحك ! أزرت بنا المروءاتُ
قالت : فأين السراة ؟ قلت لها :   لا تسألي عنهمُ فقد ماتوا
قالت : ولم ذاك ؟ قلت لها :   هذا وزير الإمام زيات

وله أيضاً فيه :

لئن صدرت بي زورة عن محمد   بمنع لقد فارقته ومعي قَدْري
أليست يداً عندي لمثل محمد   صيانته عن مثل معروفه شكري

وله فيه أيضاً :

فإن تكن الدنيا أنالتك ثروة   فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
فقد كشف الإثراء منك خلائقاً   من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

وله فيه أيضاً :

من يشتري مني إخاء محمد   أم من يريد إخاءه مَجّانا
أم من يخلّص من إخاء محمد   وله مناه كائناً من كانا

وله أشياء غير ذلك ، وما زالت الأشراف تهجى وتمدح .

وفيه يقول بعضهم ، ولا أذكره الآن ، ثم ظفرت به بعد ذلك ، وهو القاضي أحمد بن أبي دواد الإيادي – المقدم ذكره[1] – وكان ابن الزيات المذكور قد هجاه بتسعين بيتاً ، فعمل القاضي أحمد فيه بيتين وهما :

أحسن من تسعين بيتاً سدى   جمعك معناهن في بيت
ما أحوجَ الملك إلى مَطْرةٍ   تغسل عنه وضَرَ الزيت

---

١ انظر ج ١ : ٨١ .

ونسب صاحب « العقد »[1] هذين البيتين إلى علي بن الجهم ، والأول حكاه في «الأغاني» والله تعالى أعلم ؛ [فأجابه ابن الزيات عن بيتيه بقوله، معرضاً بأن بعض أجداد القاضي كان يبيع القار :

يا أيها الطامع في هجونا   نفسك قد عرضت للموتِ
الزيت لا يزري بأحسابنا   أحسابنا معروفة البيت
قيرتم الملك فلم ننقه   حتى غسلنا القار بالزيت][2]

ولما مات المعتصم وقام بالأمر ولده الواثق هارون أنشد ابن الزيات المذكور[3]:

قد قلت إذ غَيَّبُوكَ وانصرفوا   في خير قبر لخير مدفون
لن يجبرَ الله أمّـةً فقدت   مثلك إلا بمثل هارون

وأقره الواثق على ما كان عليه في أيام المعتصم ، بعد أن كان متسخطاً عليه في أيام أبيه وحلف يميناً مغلظة أنه ينكبه إذا صار الأمر إليه ، فلما ولي أمر الكتاب أن يكتبوا ما يتعلق بأمر البيعة ، فكتبوا فلم يرض ما كتبوه ، فكتب ابن الزيات نسخة رضيها، وأمر بتحرير المكاتبات عليها ، فكفر عن يمينه وقال : عن المال والفدية عن اليمين عوض ، وليس عن الملك وابن الزيات عوض . فلما مات وتولى المتوكل كان في نفسه منه شيء كثير، فسخط عليه بعد ولايته بأربعين يوماً ، فقبض عليه واستصفى أمواله ، وكان سبب قبضه عليه أنه لما مات الواثق بالله أخو المتوكل أشار محمد المذكور بتولية ولد الواثق ، وأشار القاضي أحمد ابن أبي دواد المذكور بتولية المتوكل ، وقام في ذلك وقعد حتى عممه بيده وألبسه البردة وقبله بين عينيه ، وكان المتوكل في أيام الواثق يدخل على الوزير المذكور فيتجهمه ويغلظ عليه في الكلام ، وكان يتقرب بذلك إلى قلب الواثق فحقد المتوكل ذلك عليه ، فلما ولي الخلافة خشي إن نكبه عاجلاً أن يستر أمواله فيفوته ، فاستوزره ليطمئن ، وجعل القاضي أحمد يغريه ويجد لذلك عنده موقعاً،

---

١ العقد ٣ : ١٩٤ .

٢ زيادة من ر ، وانظر ديوانه : ١٢ .

٣ ديوانه : ٧٦ .

فلما قبض عليه ومات في التنور – كما سيأتي ذكره – لم يجد من جميع أملاكه وضياعه وذخائره إلا ما كانت قيمته مائة ألف دينار ، فندم على ذلك ولم يجد عنه عوضاً ، وقال للقاضي أحمد : أطمعتني في باطل وحملتني على شخص لم أجد عنه عوضاً .

وكان ابن الزيات المذكور قد اتخذ تنوراً من حديد وأطراف مساميره المحدّدة إلى داخل ، وهي قائمة مثل رؤوس المسالّ ، في أيام وزارته ، وكان يعذب فيه المصادَرِين وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال ، فكيفما انقلب واحد منهم أو تحرك من حرارة العقوبة[1] تدخل المسامير في جسمه ، فيجدون لذلك أشد الألم ولم يسبقه أحد إلى هذه المعاقبة ، وكان إذا قال له أحد منهم أيها الوزير ارحمني ، فيقول له : الرحمة خَوَر في الطبيعة ، فلما اعتقله المتوكل أمر بإدخاله في التنور ، وقيده بخمسة عشر رطلاً من الحديد فقال : يا أمير المؤمنين ارحمني ، فقال له : الرحمة خور في الطبيعة ، كما كان يقول[2] للناس ، فطلب دواة وبطاقة فأحضرتا إليه فكتب[3] :

هي السبيل فمن يوم إلى يوم كأنه ما تُريك العينُ في النومِ
لا تجزعنّ ، رويداً إنها دول دنيا تَنَقّلُ من قوم إلى قومِ

وسيرها إلى المتوكل ، فاشتغل عنها ولم يقف عليها إلا في الغد ، فلما قرأها المتوكل أمر بإخراجه ، فجاؤوا إليه فوجدوه ميتاً ، وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ، وكانت مدة إقامته في التنور أربعين يوماً ، وكان القبض عليه لثمان مضين من صفر من السنة المذكورة .

ولما مات وجد في التنور مكتوب بخطه قد خطّه بالفحم على جانب التنور يقول :

من له عهدٌ بنوم يرشد الصب إليهِ

---

١ ق : حرارة النار والعقوبة .

٢ ر : كنت تقول .

٣ ديوانه : ٦٦ .

رحم الله رحيما دل عيني عليه
سهرت عيني ونامت عين من هنت لديه

وقال أحمد الأحول : لما قبض على ابن الزيات تلطفت إلى أن وصلت إليه فرأيته في حديد ثقيل ، فقلت له : يعز علي ما أرى ، فقال :

سل ديار الحي من غيّرها وعفاها ومحا منظرها
وهي الدنيا إذا ما أقبلت صيرت معروفها منكرها
إنما الدنيا كظل مائل نحمد الله كذا قدرها

ولما جعل في التنور قال له خادمه : يا سيدي ، قد صرت إلى ما صرت إليه وليس لك حامد ، فقال : وما نفع البرامكة صنعهم ؟ فقال : ذكرك لهم هذه الساعة ، فقال : صدقت ، رحمه الله تعالى .

٦٩٦ ب

الوزير ابن الزيات

... كان شاعراً مجيداً وفاضلاً نبيلاً ، وزر لثلاثة خلفاء من بني العباس وهم : المعتصم والواثق والمتوكل ، وكان سبب وزارته ما حكى الصولي عن سعيد بن سلم قال : ورد كتاب من الجبل على المعتصم بوصف خصب السنة وكثرة الكلإ فقال لأحمد بن عمار : ما الكلأ ؟ فلم يعرفه ، فدعا ابن عبد الملك وسأله عنه فقال : ما رطب من النبات فهو كلأ ، وإذا جف فهو حشيش ، ويسمى أول ما ينبت الرطب والبقل ، فقال لأحمد : انت انظر في الأمور والدواوين والأعمال ، وهذا يعرض عليّ ، فعرض عليه أياماً ثم استوزره ، وكان محمد

---

٦٩٦ ب – انفردت بها النسخة مج على هذا النحو .

المذكور قبل ذلك يلي أمور المطبخ والفرش .

وكان الواثق لما ولي أمر أن يقوم جميع الناس لابن الزيات ، ولم يجعل في ذلك رخصة لأحد ، فكان ابن أبي دواد يستعجل صلاة الضحى إذا أحس بقدومه أنفة من القيام له في دار السلطان ، وامتثالاً للأمر ، فصنع ابن الزيات :

صلّى الضحى لما استفاد عداوتي وأراه ينسك بعدها ويصومُ
لا تأمننّ عداوة مسمومة تركتك تقصد تارةً وتقومُ

وقد سبق شيء من خبره معه في ترجمته .

ومن شعر محمد المذكور في جاريته أم ابنه عمر ، وقد ماتت :

يقول لي الخلان لو زرت قبرها فقلت وهل غير الفؤاد لها قبرُ
على حين لم أحدث فأجهل فقدها ولم أبلغ السنّ التي معها الصبرُ

وشعره كله نخب ، ونقتصر منه على هذا القدر ففيه كفاية .

وكان أبوه زياتاً إلا أنه كان كثير المال ؛ وكان محمد المذكور شديد القسوة صعب العريكة لا يرق لأحد ولا يرحمه ، وكان يقول : الرحمة خور في الطبيعة. ووقع يوماً على رقعة رجل توسل إليه بقرب الجوار منه : الجوار للحيطان ، والتعطف للنسوان .

فلما أراد المتوكل قتله أحضره وأحضر تنور خشب فيه مسامير من حديد أطرافها إلى داخل التنور تمنع من يكون فيه من الحركة ، كان محمد اتخذه ليعذب فيه من يطالبه — وهو أول من عمل ذلك وعذب فيه ابن أسباط المصري — وقال : أجرينا فيك حكمك في الناس ، فأجلس فيه ، فمات بعد ثلاث وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ؛ وقيل انه كتب في التنور بفحمة :

من له عهد بنوم يرشد الصبّ إليه
رحم الله رحيماً دلّ عينيّ عليه

ودفن ولم يعمق قبره فنبشته الكلاب وأكلته ، رحمه الله تعالى .

وكان الجاحظ منقطعاً إليه فخاف أن يؤخذ مع أسبابه ، فغاب وكان يقول : كدت أكون [......] . وحكى ابن أبي العيناء قال : كنت عند ابن أبي دواد بعد قتل ابن الزيات فجيء بالجاحظ مقيداً وكان في أسبابه وناحيته ، وعند ابن أبي دواد محمد بن منصور ، وهو إذ ذاك يلي قضاء فارس وخوزستان ، فقال ابن أبي دواد للجاحظ : ما تأويل هذه الآية ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذه أليم شديد ﴾ (هود : ١٠٢) فقال : تلاوتها تأويلها أعزّ الله القاضي ، فقال : جيئوا بحداد ، فقال : أعز الله القاضي ، ليفك عني أو ليزيدني ؟ فقال : بل ليفك عنك ، فجيء بالحداد وغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ويطيل أمره قليلاً ، ففعل ، فلطمه الجاحظ وقال : اعمل عملَ شهر في يوم وعمل يوم في ساعة وعمل ساعة في لحظة ، فان الضرر على ساقي وليس بجذعٍ ولا ساجة ، فضحك ابن أبي دواد وأهل المجلس منه ، وقال ابن أبي دواد لمحمد بن منصور : أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه .

٦٩٧

أبو الفضل ابن العميد

أبو الفضل محمد بن العميد أبي عبد الله الحسين بن محمد الكاتب ، المعروف بابن العميد ، والعميد لقب[1] والده ، لقبوه بذلك على عادة أهل خراسان في إجرائه مجرى التعظيم ، وكان فيه فضل وأدب وله ترسل .

وأما ولده أبو الفضل فإنه كان وزير ركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه

---

٦٩٧ – ترجمته في اليتيمة ٣ : ١٥٨ ومعاهد التنصيص ٢ : ١١٥ وتراجع أخباره في تجارب الأمم لمسكويه وأخلاق الوزيرين والامتاع ١ : ٦٦ والشذرات ٣ : ٣١ وترجمته في مج مختلفة عما ورد هنا ، وتكاد لا تلتقي في كثير من الأمور مع ما ورد في النسخ الأخرى وسنثبت أهم ما ورد فيها في الحواشي .

١ ن ر ق بر من : نعت .

الديلمي والد عضد الدولة – وقد تقدم ذكرهما[1] – وتولى وزارته عقيب موت وزيره أبي علي ابن القمي ، وذلك في سنة ثمان وعشرين وثلثمائة[2] ، وكان متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم ، وأما الأدب والترسل فلم يقاربه فيه أحد في زمانه ، وكان يسمى الجاحظ الثاني ، وكان كامل الرياسة جليل المقدار ، من بعض أتباعه الصاحبُ ابن عَبّاد – المقدم ذكره – ولأجل صحبته قيل له الصاحب ، وكان له في الرسائل اليد البيضاء .

قال الثعالبي في كتاب « اليتيمة » : كان يقال : بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد ، وقد تقدم ذكر عبد الحميد .

وكان الصاحب ابن عَبّاد قد سافر إلى بغداد، فلما رجع إليه قال له : كيف وجدتها ؟ فقال : بغداد في البلاد ، كالأستاذ في العباد ، وكان يقال له «الأستاذ» وكان سائساً مدبراً للملك قائماً بحقوقه .

وقصده جماعة من مشاهير الشعراء من البلاد الشاسعة ، ومدحوه بأحسن المدائح ، فمنهم أبو الطيب المتنبي ، ورد عليه وهو بأرّجان ، ومدحه بقصائد إحداها التي أولها[3] :

باد هواك صبرت أو لم تصبرا ... وبُكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

ومنها عند تخلصها :

أرجانَ أيتها الجيادُ فإنه ... عزمي الذي يذر الوشيج مكسرا

لو كنت أفعل ما اشتهيت فعاله ... ما شق كوكبك العجاج الأكدرا

أمّي أبا الفضل المبرّ ، أليتي ... لأيمَمَنّ أجلّ بحر جوهرا

---

[1] انظر ج ٢ : ١١٨ .

[2] جاء في مج أن ركن الدولة كان واهي السياسة « قطع على بغال له خرجت إلى العلف ، فأخذ منها ستة بغال ، فقال : كم كان الحرامية ؟ فقيل : سبعة فقال : الآن يختلفون لأن البغال لا تنقسم على عددهم : فقامت سياسة ابن العميد لضبط الأمر وسد خلل ضعف صاحبه ، وله في ذلك أخبار مشهورة » .

[3] ديوان المتنبي : ٥٣٧ .

أفق برؤيته الأنام وحاش لي   من أكون مُقصرا أو مُقصرا

ومنها :

من مبلغ الأعراب أني بعدها   شاهدت رسطاليس والإسكندرا

ومللت نحر عِشارها فأضافني   من ينحر البِدَرَ النضار لمن قَرَى

وسمعت بطلميوس دارس كتبه   متملكاً متبدياً متحضرا

ولقيت كل الفاضلين كأنما   رد الإله نفوسهم والأعصُرا

نُسِقوا لنا نسق الحساب مقدما   وأتى فذلك إذ أتيت مؤخرا

وهي من القصائد المختارة . وقال ابن الهمداني في كتاب « عيون السير » : أعطاه ثلاثة آلاف دينار .

وقد استعمل أرجان بتخفيف الراء ، وهي مشددة على ما ذكره الجوهري في كتاب « الصحاح » والحازمي في كتاب « ما اتفق لفظه وافترق مسماه » وابن الجواليقي في كتاب « المعرب » . وقد سبق ذكره هذه القصيدة في ترجمة أبي الفضل جعفر بن الفرات ، وأن المتنبي نظمها فيه وهو بمصر ، فلما لم يرضه لم ينشده إياها ، فلما توجه إلى بلاد فارس صرفها لابن العميد .

وكان أبو نصر عبد العزيز بن نُباتة السعدى – المقدم ذكره[1] – قد ورد عليه وهو بالري وامتدحه بقصيدته التي أولها :

بَرْحٌ اشتياق وادكار   ولهيب أنفاس حرَارِ

ومدامع عبراتها   ترفضّ عن نوم مُطار

لله قلبي ما يجنُّ   من الهموم وما يواري

لقد انقضى سكر الشبا   ب وما انقضى وصب الخُمار

وكبرت عن وصل الصغا   ر وما سلوت عن الصغار

سقياً لتفليسي إلى   باب الرُّصافة وابتكاري

---

[1] انظر ج ٣ : ١٩٠ .

أيام أخطر في الصبا نشوان مسحوب الإزار
حَجّي إلى حُجَر الصَّرَا ة وفي حدائقها اعتماري
ومواطن اللـــذات أو طاني ودار اللهو داري

ومنهـــا :

لم يبـــق لي عيش يلذ سوى معاقرة العقـــار
حسبي بألحـــان قمر ت بهن ألحان القَماري
وإذا استهـل ابن العميـ ـد تضاءلت دِيَمُ القطار
خرق صفت أخلاقـــه صفو السبيك من النضار
فكأنمـــا رُفدت مـوا هبه بأمواج البحـــار
وكأن نَشْرَ حديثـــه نشر الخُزامى والعَرار
وكأننـــا ممـــا تفـ ـرق راحتـاه في نثار
كلف بحفظ السر تحـ ـسب صدره ليل السِّرار

ومنهـــا :

إن الكبـــار من الأمو ر تُنال بالهمم الكبار
وإلى أبي الفضـــل اتبعـ ـت هواجس النفس السواري

فتأخرت صلته عنه ، فشفع هذه القصيدة بأخرى وأتبعها برقعة ، فلم يزده ابن العميد على الإهمال مع رقة حاله التي ورد عليها إلى بابـه ، فتوسّل إلى أن دخل عليه يوم المجلس وهو حفل بأعيان الدولة ومقدمي أرباب الديوان ، فوقف بين يديه وأشار إليه بيده ، وقال : أيها الرئيس ، إني لزمتك لزوم الظل ، وذللت لك ذل النعل ، وأكلت النوى المحرق انتظاراً لصلتك ، والله ما بي من الحرمان ، ولكن شماتة الأعداء ، قوم نصحوني فاغتششتهم ، وصدقوني فاتهمتهم ، فبأي وجه ألقاهم وبأي حجة أقاومهم؟ ولم أحصل من مديح بعد مديح ومن نثر بعد نظم إلا على ندم مؤلم ويأس مسقم ؟ فإن كان للنجاح علامة فأين هي وما

هي ؟ إن الذين تحسدهم على ما مدحوا به كانوا من طينتك ، وإن الذين هجوا كانوا مثلك ، فزاحم بمنكبك أعظمهم سناماً وأنورهم شعاعاً ، وأشرفهم بقاعاً ، فحار ابن العميد وشُدِهَ ولم يدر ما يقول ، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال : هذا وقت يضيق عن الإطالة منك في الاستزادة ، وعن الإطالة مني في المعذرة ، وإذا تواهبنا ما دفعنا إليه استأنفنا ما نتحامد عليه ، فقال ابن نُباتة : أيها الرئيس ، هذه نفثة صدرٍ دَوِيّ[1] منذ زمان، وفضلة لسان قد خرس منذ دهر، والغني إذا مطل لئيم ، فاستشاط ابن العميد ، وقال : والله ما استوجبت هذا العتب من أحد من خلق الله تعالى ، ولقد نافرت العميد من دون ذا حق دفعنا إلى قريّ عائم ولجاج قائم ، ولست ولي نعمتي فأحتملكَ ، ولا صنيعتي فأغضي عليك ، وإن بعض ما أقررته في مسامعي ينقض مرة الحلم ويبدد شمل الصبر، هذا وما استقدمتك بكتاب ولا استدعيتك برسول ، ولا سألتك مدحي ولا كلفتك تقريضي ؛ فقال ابن نباتة : صدقت أيها الرئيس ما استقدمتني بكتاب ، ولا استدعيتني برسول ، ولا سألتني مدحك ، ولا كلفتني تقريضك ، ولكن جلست في صدر ديوانك بأبهتك وقلت : لا يخاطبني أحـــد إلا بالرياسة ، ولا ينازعني خلق في أحكام السياسة ، فاني كاتب ركن الدولة وزعيم الأولياء والحضرة ، والقيم بمصالح المملكة ، فكأنك دعوتني بلسان الحال ولم تدعني بلسان المقال ، فثار ابن العميد مغضباً وأسرع في صحن داره إلى أن دخل حجرته ، وتقوض المجلس وماج الناس ، وسمع ابن نُباتة وهو في صحن الدار ماراً يقول : والله إن سف التراب والمشي على الجمر أهون من هذا ، فلعن الله الأدب إذا كان بائعه مهيناً له ، ومشتريه مماكساً فيه . فلما سكن غيظ ابن العميد وثاب إليه حلمه التمسه من الغد ليعتذر إليه ويزيل آثار ما كان منه ، فكأنما غاص في سمع الأرض وبصرها ، فكانت حسرةً في قلب ابن العميد إلى أن مات .

ثم إني وجدت هذه القصيدة وصورة هذا المجلس منسوبين إلى غير ابن نُباتة، وكشفت ديوان ابن نباتة فلم أر هذه القصيدة فيــه ، والله أعلم بالصواب ، ثم

---

١ ق ر والمختار : ذوى .

وجدت في كتاب « الوزيرين »[1] تأليف أبي حيان التوحيدي هـذه القصيدة لأبي محمد عبـد الرزاق بن الحسين المعروف بابن أبي الثيـاب البغدادي اللغوي المنطيقي الشاعر ، وهذه المخاطبـة لشاعر آخر من أهـل الكرخ يعرف بمويه والله أعلم .

وكان أبو الفرج أحمد بن محمد الكاتب مكيناً عند مخدومه ركن الدولة ابن بُويَه ، وله الرتبة العلية لديه ، وكان ابن العميد لا يوفيه حقه من الإكرام ، فعاتبه مراراً فلم يفد ، فكتب إليه :

مالُكَ موفور فما باله أكسبك التيه على المعدمِ
ولِمْ إذا جئت نهضنا وإن جئنا تطاولت ولم تُتْمِمِ ؟
وإن خرجنا لم تقل مثل ما نقول قَدِّمْ طِرْفَهُ قدم
إن كنت ذا علم فمن ذا الذي مثل الذي تعلم لم يعلم
ولست في الغارب من دولة ونحن من دونك في المنسم
وقد ولينـا وعزلنـا كما أنت فلم نصغر ولم تعظم
تكافأت أحوالنا كلها فَصل على الإنصاف أو فاصرم

وللصاحب ابن عباد فيه مدائح كثيرة ، وكان ابن العميد قد قدم مرة إلى أصبهان والصاحب فيها فكتب إليه :

قالوا ربيعك قد قدم قلت البشارة إن سلم
أهو الربيع أخو الشتا ء أم الربيع أخو الكرم
قالوا الذي بنواله أمن المقلُّ من العدم
قلت الرئيس ابن العميـ ـد إذاً ، فقالوا لي نعم

وكان ابن العميد كثير الإعجاب بقول بعضهم :

---

[1] انظر أخلاق الوزيرين : ٤٢٧ ، ٥٣٣ وفي الرواية اختلاف عما أورده ابن خلكان .

وجاءت إلى ستر على الباب بيننا   مُجافٍ[1] وقد قامت عليه الولائدُ
لتسمع شعري وهو يقرع قلبها   بوحيٍ تؤديه إليـه القصائد
إذا سمعت مني لطيفاً تنفست   له نفساً تنقد منـه القلائد

ولابن العميد شعر ، وما أعجبني الذي وقفت عليه منه حتى أثبته[2] ، سوى ما ذكره ابن الصابي في كتاب « الوزراء » ، وهو قوله :

رأيت في الوجه طاقة بقيت   سوداء عيني تحبُّ رؤيتها
فقلت للبيض إذ تروعها   بالله إلا رحمت وحدتها
فقلَّ لبث السوداء في وطنٍ   تكون فيه البيضاء ضرتها

وذكر له الأمير أبو الفضل الميكالي في كتاب « المنتخل » :

آخ الرجال من الأبا   عد والأقاربَ لا تُقارب
إن الأقارب كالعقا   رب بل أضر من العقارب

وتوفي ابن العميد المذكور في صفر ، وقيل في المحرم بالري ، وقيل ببغداد ، سنة ستين وثلثمائة ، رحمه الله تعالى[3] .

وذكر أبو الحسين هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابي في كتاب « الوزراء » أنه توفي في سنة تسع وخمسين وثلثمائة ، [وكذا قال جده إبراهيم الصابي في كتاب « التاجي » ، والله أعلم][4] .

[وكان أبو الفضل ابن العميد يعتاده القولنج تارة والنقرس أخرى ، تسلمه

---

١ ر المختار ؛ بر من : يخاف .

٢ كذا قال هنا ، وفي مج : وله شعر حسن فمنه قوله في غلام قام على رأسه يظله من الشمس :

كانت تظللني من الشمس   نفس أعز علي من نفسي
فأقول يا عجباً ومن عجب   شمس تظللني من الشمس

٣ زاد في مج : وكان عمره قد زاد على ستين سنة يسيراً ، وكانت وزارته أربعاً وعشرين سنة ؛ وقال في مج : إنه توفي بهمذان .

٤ زيادة من ر .

هذه إلى هذه ، وقال لسائل سأله : أيها أصعب عليك وأشق ؟ قال : إذا عارضني النقرس فكأني بين فكي سبع يمضغني ، وإذا اعتراني القولنج وددت لو استبدلت النقرس عنه ، ويقال : إنه رأى أكاراً في بستان يأكل خبزاً ببصل ولبن وقد أمعن منه ، فقال : وددت لو كنت كهذا الأكار آكل ما أشتهي ؛ قلت : وهذه شيمة الدنيا ، قل أن تصفو من الشوائب][1] .

ورأيت في بعض المجاميع أن الصاحب بن عباد عبر على باب داره بعد وفاته فلم ير هناك أحداً بعد أن كان الدهليز يَغَصُّ من زحام الناس[2] ، فأنشد :

أيها الربع لمْ علاك اكتئاب ... أين ذاك الحجاب والحجّابُ
أين من كان يفزع الدهر منه ... فهو اليوم في التراب تراب
قلْ بلا رقبة وغير احتشام ... مات مولاي فاعتراني اكتئاب

ثم رأيت في كتاب « اليميني » للعتبي هذه الأبيات ، وقد نسبها إلى أبي العباس الضبي ، ثم قال : ويقال إنها لأبي بكر الخوارزمي ، وقد اجتاز بباب الصاحب ابن عباد ، ولا يمكن أن تكون على هذا التقدير للخوارزمي لأنه مات قبل الصاحب كما تقدم ذكره .

ومثل هذه الحكاية ما حكاه علي بن سليمان قال : رأيت بالري دار قوم لم يبق منها إلا رسم بابها ، وعليه مكتوب :

اعجب لصرف الزمان[3] معتبرا ... فهذه الدار من عجائبها
عهدي بها بالملوك زاهية ... قد سطع النور في جوانبها
تبدلَتْ وحشة بساكنها ... ما أوحش الدار بعد صاحبها

(223) ولما مات رتب مخدومه ركن الدولة ولده ذا الكفايتين أبا الفتح

---

١ سقط من النسخ وهو ثابت في المطبوعة المصرية .
٢ ق : الزحام بالناس .
٣ ق : الأزمان .

علياً[1] مكانه في دست الوزارة ، وكان جليلاً نبيلاً سرياً ذا فضائل وفواضل ، وهو الذي كتب إليه المتنبي الأبيات الخمسة الدالية الموجودة في ديوانه في أثناء مدائح والده ، ولا حاجة إلى ذكرها .

وذكره الثعالبي في « اليتيمة » في ترجمة والده ، وقال : كتب إلى صديق له يستهديه خمراً مستوراً عن والده «قد اغتنمت الليلة – أطال الله بقاءك يا سيدي – رقدة من عين الدهر ، وانتهزت فرصة من فرص العمر ، وانتظمت مع أصحابي في سمط الثريا ، فإن لم تحفظ علينا هذا النظام ، باهداء المدام ، عدنا كبنات نعش والسلام » وذكر له مقاطيع من الشعر . ولم يزل أبو الفتح المذكور في وزارة ركن الدولة إلى أن توفي في التاريخ المذكور في ترجمته في حرف الحاء ، وقام بالأمر ولده مؤيد الدولة فاستوزره أيضاً ، وأقام على ذلك مدة مديدة ، وكانت بينه وبين الصاحب ابن عباد منافسة ، ويقال : إنه أغرى قلب مؤيد الدولة عليه ، فظهر له منه التنكر والإعراض ، وقبض عليه في بعض شهور سنة ست وستين وثلثمائة ، وله في اعتقاله أبيات شرح فيها حاله . وقال الثعالبي : اجتاح ماله وقطع في العقوبة أنفه وجز لحيته – وقال غيره : وقطع يديه – فلما أيس من نفسه وعلم أنه لا تخلص له مما هو فيه ولو بذل جميع ما تحتوي عليه يده ، فتق جيب جبة كانت عليه واستخرج منها رقعة فيها تذكرة بجميع ما كان له ولوالده من الذخائر والدفائن[2] ، وألقاها في النار ، فلما علم أنها احترقت قال للموكل به : افعل ما أمرت به . فوالله لا يصل إلى صاحبك من أموالنا درهم واحد ، فما زال يعرضه على أنواع[3] العذاب حتى تلف ، وكان القبض عليه يوم الأحد ثامن عشر ربيع الآخر سنة ست وستين وثلثمائة ، وكانت ولادته سنة سبع وثلثمائة .

[ولما انصرف أهل خراسان في سنة خمس وخمسين وثلثمائة أيام الغزاة من الري بعد الحادثة التي جرت هناك – وهي واقعة مشهورة ودفع الله شرها –

---

1 ترجمة أبي الفتح في اليتيمة ٣ : ١٨٥ ومعجم الأدباء ١٤ : ١٩١ ونكت الهميان : ٢١٥ وتاريخ ابن خلدون ٤ : ٤٥٢ وراجع أخلاق الوزيرين للتوحيدي .

2 ر ق بر من : والدفاتر .

3 أنواع : سقطت من ر ق والمختار .

شرع الرئيس أبو الفضل ابن العميد في بناء حائط عظيم حول دار مخدومه ركن الدولة ، فقال له عارض الجيش : هذا كما يقال : الشد بعد الضراط ، فقال ابن العميد : هذا أيضاً جيد ، لئلا تنفلت أخرى ، فاستحسن منه هذا الجواب][1].

وفيه يقول بعض أصحابه :

آلَ العميد وآل بَرْمَكَ مالكم قلَّ المعينُ لكم وذل الناصرُ
كان الزمانُ يحبكم فبدا له إن الزمان هو الخؤون الغادر

وتولى موضعه الصاحب ابن عباد – وقد تقدم ذكره في ترجمته فينظر هناك في حرف الهمزة[2] .

وكان أبو الفتح المذكور قبل أن يقتل بمدة قد لهج بانشاد هذين البيتين :

دخل الدنيا أناس قبلنا رحلوا عنها وخلوها لنا
ونزلناها كما قد نزلوا ونخليها لقوم بعدنا

[ومن المنسوب إلى أبي الفتح ابن العميد :

يقول ليَ الواشون : كيف تحبها ؟ فقلت لهم : بين المقصر والغالي
ولولا حذاري منهم لصدقتهم فقلت : هوى لم يهوه قط أمثالي
وكم من شفيق قال : مالك واجما ؟ فقلت: ترى ما بي وتسأل عن حالي][3]

(224) وكان أبو حيان علي بن محمد التوحيدي البغدادي[4] قد وضع كتاباً سماه « مثالب الوزيرين » ضمنه معايب أبي الفضل ابن العميد المذكور والصاحب

---

١ لم يرد هذا في النسخ الخطية ، وهو قلق في موضعه .

٢ انظر ج ١ : ٢٢٨ .

٣ لم يرد في النسخ الخطية .

٤ البغدادي : سقطت من ق ر بر من والمختار ، وفي ترجمة التوحيدي يراجع معجم الأدباء ١٥ : ٥ وميزان الاعتدال ٢ : ٣٥٥ وشد الازار : ٥٣ وطبقات السبكي ٤ : ٢ ولسان الميزان ٦ : ٣٦٩ وبغية الوعاة : ٣٤٨ وروضات الجنات : ٧١٤ وعنه كتبت دراسات متعددة في السنوات الأخيرة .

ابن عباد ، وتحامل عليها وعدد نقائصها ، وسلبها ما اشتهر عنها من الفضائل والإفضال ، وبالغ في التعصب عليها وما انصفها ، وهذا الكتاب من الكتب المحدودة ، ما ملكه أحد إلا وتعكست أحواله ، ولقد جربت ذلك وجربه غيري على ما أخبرني مَنْ أثق به . وكان أبو حيان المذكور فاضلاً مصنفاً له من الكتب المشهورة « الإمتاع والمؤانسة » في مجلدين ، وكتاب « البصائر والذخائر » ، وكتاب « الصديق والصداقة » في مجلد واحد ، وكتاب « المقابسات »[1] في مجلد أيضاً ، وكتاب « مثالب الوزيرين » في مجلد واحد أيضاً ، وغير ذلك ، وكان موجوداً في السنة الأربعمائة ، ذكر ذلك في كتاب « الصديق والصداقة » .

والتوحيدي : بفتح التاء المثناة من فوقها وسكون الواو وكسر الحاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة ، ولم أر أحداً ممن وضع كتب الأنساب تعرض إلى هذه النسبة ، لا السمعاني ولا غيره ، لكن يقال إن أباه كان يبيع التوحيد ببغداد ، وهو نوع من التمر بالعراق ، وعليه حمل بعض من شرح ديوان المتنبي قوله :

يترشفْنَ من فمي رشفات ... هُنّ فيه أحلى من التوحيدِ

والله أعلم بالصواب .

٦٩٨

ابن مقلة

أبو علي محمد بن علي بن الحسين بن مُقْلَة الكاتب المشهور؛ كان في أول أمره يتولى بعض أعمال فارس ويجبي خراجها ، وتنقلت أحواله إلى أن استوزره

---

١ ن ق بر من : المقايسات .

٦٩٨ - أخباره في ثمار القلوب ٢١٠ - ٢١٢ ورسالة في الكتابة للتوحيدي والوافي ١ : ١٦٨ والمنتظم ٦ : ٣٠٩ و ج ٨ من ابن الأثير والشذرات ٢ : ٣١٠ وعبر الذهبي ٢ : ٢١١ والفخري : ٢٤٣ وتحفة أولي الألباب : ٤٣ وما بعدها ؛ ولم ترد هذه الترجمة في مج .

الإمام المقتدر بالله ، وخلع عليه لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ست عشرة وثلثمائة ، وقبض عليه يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثماني عشرة وثلثمائة ، ثم نفاه إلى بلاد فارس بعد أن صادره ، ثم استوزره الإمام القاهر بالله ، فأرسل إليه إلى فارس رسولاً يجيء به ، ورتب له نائباً عنه ، فوصل ابن مقلة من فارس بكرة يوم الخميس عيد[1] الأضحى من سنة عشرين وثلثمائة ، وخلع عليه ، ولم يزل وزيره حتى اتهمه بمعاضدة علي بن بليق على الفتك به ، وبلغ ابن مقلة الخبر ، فاستتر في أول شعبان من سنة إحدى وعشرين وثلثمائة .

ولما ولي الراضي بالله ، لست خلون من جمادى الأولى من سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة ، استوزره أيضاً لتسع خلون من جمادى الأولى من السنة المذكورة ، وكان المظفر بن ياقوت مستحوذاً على أمور الراضي ، وكان بينه وبين أبي علي الوزير وحشة ، فقرر ابن ياقوت المذكور مع الغلمان الحجرية أنه إذا جاء الوزير أبو علي قبضوا عليه ، وأن الخليفة لا يخالفهم في ذلك ، وربما سره هذا الأمر ، فلما حصل الوزير في دهليز دار الخلافة وثب الغلمان عليه ومعهم ابن ياقوت المذكور ، فقبضوا عليه وأرسلوا إلى الراضي يعرفونه صورة الحال ، وعددوا له ذنوباً وأسباباً تقضي ذلك ، فرد جوابهم وهو يستصوب رأيهم فيما فعلوه ، وذلك في يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة أربع وعشرين وثلثمائة ، واتفق رأيهم على تفويض الوزارة إلى عبد الرحمن بن عيسى بن داود بن الجراح ، فقلده الراضي الوزارة ، وسلم إليه أبا علي بن مُقْلة ، فضربه بالمقارع وجرى عليه من المكاره بالتعليق وغيره من العقوبة شيء كثير ، وأخذ خطه بألف ألف دينار ، ثم خلص وجلس بطالاً في داره .

ثم إن أبا بكر محمد بن رائق استولى على الخلافة ، وخرج عن طاعتها فأنفذ إليه الراضي واستماله ، وفوض إليه تدبير المملكة وجعله أمير الأمراء ورد[2] إليه تدبير أعمال الخراج والضياع في جميع النواحي ، وأمر أن يخطب له على جميع

---

[1] الخميس عيد : سقطت من ن ر ق ؛ وهذا النص كله موجز في بر من .

[2] المختار : وفوض .

المنابر ، فقوي أمره وعظم شأنه وتصرف على حسب اختياره ؛ واحتاط على أملاك ابن مقلة المذكور وضياعه وأملاك ولده أبي الحسين ، فحضر إليه ابن مُقلة وإلى كاتبه وتذلل لهما في معنى الإفراج عن أملاكه ، فلم يحصل منهما إلا على المواعيد ، فلما رأى ابن مُقلة ذلك أخذ في السعي بابن رائق المذكور من كل جهة ، وكتب إلى الراضي يشير عليه بإمساكه والقبض عليه، وضمن له أنه متى فعل ذلك وقلده الوزارة استخرج له ثلثمائة ألف ألف دينار ، وكانت مكاتبته على يد علي بن هارون المنجم النديم – المقدم ذكره[1] – فأطمعه الراضي بالإجابة إلى ما سأل ، وترددت الرسائل بينهما في ذلك ، فلما استوثق ابن مقلة من الراضي اتفقا على أن ينحدر إليه سراً ويقيم عنده إلى أن يتم التدبير ، فركب من داره وقد بقي من شهر رمضان ليلة واحدة ، واختار هذا الطالع لأن القمر يكون تحت الشعاع ، وهو يصلح للأمور المستورة ، فلما وصل إلى دار الخليفة لم يمكّنه من الوصول إليه ، واعتقله في حجرة ، ووجه الراضي من غدٍ إلى ابن رائق ، وأخبره بما جرى ، وأنه احتال على ابن مُقْلة حتى حصله في أسره وترددت بينهما المكاتبات في ذلك .

فلما كان رابع عشر شوال سنة ست وعشرين وثلثمائة ، أظهر الراضي أمر ابن مقلة وأخرجه من الاعتقال ، وحضر حاجب ابن رائق وجماعة من القواد وتقابلا ، وكان ابن رائق قد التمس قطع يده اليمنى التي كتب بها تلك المطالعة، فلما انتهى كلامهما في المقابلة قطعت يده اليمنى ورد إلى محبسه ، ثم ندم الراضي على ذلك وأمر الأطباء بملازمته للمداواة ، فلازموه حتى برىء ، وكان ذلك نتيجة دعاء أبي الحسن محمد بن شنبوذ المقرىء عليه بقطع اليد – وقد تقدم ذكر سبب ذلك في ترجمته – وذلك من عجيب الاتفاق .

وقال أبو الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الطبيب ، وكان يدخل عليه لمعالجته : كنت إذا دخلت عليه في تلك الحال يسألني عن أحوال ولده أبي الحسين ، فأعرفه استتاره وسلامته ، فتطيب نفسه ، ثم ينوح على يده ويبكي ويقول : خدمت بها الخلفاء وكتبت بها القرآن الكريم دفعتين ، تقطع كما تقطع

---

١ انظر ج ٣ : ٣٧٥ .

أيدي اللصوص ؟ فأسليه وأقول له : هـــذا انتهاء المكروه وخاتمة القطوع ، فينشدني ويقول :

إذا ما مات بعضك فابك بعضا فإن البعضَ[1] من بعض قريبُ

ثم عاد وراسل الراضي من الحبس بعد قطع يده وأطمعه في المال وطلب الوزارة وقال : إن قطع اليد ليس مما يمنع الوزارة ، وكان يشد القلم على ساعده ويكتب به .

ولما قدم[2] بَجْكم التركي من بغداد ، وكان من المنتمين إلى ابن رائق أمر بقطع لسانه أيضاً فقطع ، وأقام في الحبس مدة طويلة ثم لحقه ذَرَبٌ ، ولم يكن له من يخدمه ، فكان يستقي الماء لنفسه من البئر ، فيجذب بيده اليسرى جذبة وبفمه الأخرى . وله أشعار في شرح حاله ومـــا انتهى أمره إليـــه ورثاء يده والشكوى من المناصحة وعدم تلقيها بالقبول ، فمن ذلك قوله :

ما سئمت الحيـــاة لكن توثقـ ـت بأيمـانهم فبانت يميـــني

بعتُ ديني لهم بدنياي حتى حرموني دنياهمُ بعـــد ديـني

ولقد حُطْتُ ما استطعت بجهدي حفظ أرواحهم فما حفظوني

ليس بعد اليمـين لذةُ عيش يا حيـاتي بانت يميني فبيـني

ومن المنسوب إلى ابن مقلة أيضاً :

لست ذا ذلة إذا عضني الدهـ ـر ولا شامخـاً إذا واتاني

أنا نار في مرتقى نَفَس الحا سدِ ماءٌ جارٍ مع الإخوانِ

وفي الوزير المذكور يقول بعضهم :

وقالوا العزلُ للوزراء[3] حيض لحـاه الله من أمر بغيضِ

---

١ بر من : فبعض الشيء .

٢ بر : قرب .

٣ بر : للاخوان ؛ ق ر : للأحرار .

ولكن الوزير أبا عـلي من اللائي يئسن من المحيضِ

ومن شعره أيضاً ما قاله الثعالبي في « يتيمة الدهر » :

وإذا رأيت فتى بأعلى رتبة في شامخ من عزه المترفـعِ
قالت ليَ النفس العروف بقدرها ما كان أولاني بهذا الموضـعِ

ولم يزل على هذه الحال إلى أن توفي في موضعه يوم الأحد عاشر شوال ، سنة ثمان وعشرين وثلثمائة ، ودفن في مكانه ، ثم نبش بعد زمان وسلم إلى أهله . وكانت ولادته يوم الخميس بعد العصر ، لتسع بقين من شوال سنة اثنتين وسبعين ومائتين ، ببغداد ، رحمه الله تعالى .

وقد تقدم طرف من خبره في ترجمة ابن البواب الكاتب ، وأنه أول من نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين إلى هـذه الصورة هو أو أخوه ، على الخلاف المذكور في ترجمة ابن البواب ، وأن ابن البواب تبع طريقته ونقح أسلوبه .

ولابن مقلة ألفاظ منقولة مستعملة ، فمن ذلك قوله : إذا أحببتُ تهالكت ، وإذا أبغضت أهلكت ، وإذا رضيتُ آثرت ، وإذا غضبت أثرت . ومن كلامه أيضاً : يعجبني من يقول الشعر تأدباً لا تكسبا ، ويتعاطى الغنـاء تطرباً لا تطلبا . وله كل معنى مليح في النظم والنثر . وكان ابن الرومي الشاعر –المتقدم ذكره– يمدحه فمن معانيه المقولة فيه قوله :

إن يخدم القلمَ السيف الذي خضعت له الرقابُ ودانتْ خوفه الأممُ
فالموتُ ، والموت لا شيء يعادله ما زال يتبع ما يجري به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذ بريت أن السيوف لها مذ أرهفت خَدَم
وكل صاحب سيف دائماً أبـداً ما يزال يتبع ما يجري به القلم

(225) وكان أخوه أبو عبد الله الحسن بن علي بن مقلة كاتباً أديباً بارعاً ، والصحيح أنه صاحب الخط المليح ، ومولده يوم الأربعاء طلوع الفجر ، سلخ شهر رمضان سنة ثمان وسبعين ومائتين . وتوفي في شهر ربيع الآخر سنة ثمان

وثلاثين وثلثمائة ، رحمه الله تعالى .

(226) وأما ابن رائق ، فإن الحافظ ابن عساكر ذكر في « تاريخ دمشق » أنه قدمها في ذي الحجة سنة سبع وعشرين وثلثمائة وذكر أن الإمام المقتفي بالله ولاه أمر دمشق ، وأخرج منها بدر بن عبد الله الإخشيدي ، ثم توجه إلى مصر ، وتواقع هو وصاحبها محمد بن طُغْج الإخشيد – المقدم ذكره – فهزمه[1] الإخشيد فرجع إلى دمشق، ثم توجه إلى بغداد وقتل بالموصل سنة ثلاثين وثلثمائة، وقيل إن بني حمدان قتلوه بالموصل[2] ، قتله ناصر الدولة الحسن – المقدم ذكره .

٦٩٩

ابن بقية

الوزير أبو الطاهر محمد بن محمد بن بقية بن علي، الملقب نصير الدولة، وزير عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه – المقدم ذكره[3] – كان من جلة الرؤساء ، وأكابر الوزراء ، وأعيان الكرماء . وقد تقدم في ترجمة عز الدولة طرف من خبره في قضية الشمع ، وأن الشماع لما سئل عن راتب عز الدولة في الشمع كم كان ، فقال: كان راتب وزيره محمد بن بقية ألف منّ في كل شهر، فإذا كان هذا راتب الشمع خاصة مع قلة الحاجة إليه ، فكم يكون غيره مما تشتد الحاجة إليه ؟

وكان من أهل أوانا من أعمال بغداد ، وكان في أول أمره قد توصل إلى أن صار صاحب مطبخ معز الدولة والد عز الدولة ، ثم تنقل إلى غيرها من الخدم .

---

١ ق : فقهره .

٢ ق : صلبوه وقتلوه .

٦٩٩ – أخباره في تاريخ ابن الأثير (ج : ٨) وتجارب الأمم (ج : ٢) وراجع الامتاع والمؤانسة (ج : ١) والشذرات ٣ : ٦٣ ؛ وبعد سطرين من بداية هذه الترجمة وقع في النسخة مج خرم ضاعت به أوراق حتى أول ترجمة منصور بن إسماعيل الفقيه .

٣ انظر ج ١ : ٢٧٦ .

ولما مات معز الدولة وأفضى الأمر إلى عز الدولة حسنت حـاله عنده ، ورعى خدمته لأبيه ، وكان فيه توصل وسعة صدر ، وتقدم إلى أن استوزره عز الدولة يوم الاثنين لسبع ليال خلون من ذي الحجة سنة اثنتين وستين وثلثمائة .

ثم إنه قبض عليه لسبب اقتضى ذلك يطول شرحه ؛ وحاصله أنه حمله على محاربة ابن عمه عضد الدولة ، فالتقيا على الأهواز وكُسر عز الـدولة ، فنسب ذلك إلى رأيه ومشورته ، وفي ذلك يقول أبو غسان الطبيب بالبصرة :

أقام على الأهواز خمسين ليلة   يدبر أمر الملك حتى تَدَمَّرا
فدبر أمراً كان أوله عَمًى   وأوسطه بلوى وآخره خرا

وكان قبضه يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة ست وستين وثلثمائة بمدينة واسط، وسمل عينيه ولزم بيته. وكان في مدة وزارته يبلغ عضد الدولة ابن بويه عنه أمور يسوءه سماعها، منها أنه كان يسميه أبا بكر الغددي[1] تشبيهاً له برجل أشقر أزرق أغمش يسمى أبا بكر كان يبيع الغدد برسم السنانير ببغداد ، وكان عضد الدولة بهذه الحلية وكان الوزير يفعل ذلك تقرباً إلى قلب مخدومه عز الدولة لما كان بينه وبين ابن عمه عضد الدولة من العداوة، فلما قتل عز الدولة –كما وصفناه في ترجمته – وملك عضد الدولة بغداد ودخلها طلب ابن بقية المذكور وألقاه تحت أرجل الفيلة ، فلما قتل صلبه بحضرة البيمارستان العضدي ببغداد ، وذلك في يوم الجمعة لست خلون من شوال سنة سبع وستين وثلثمائـة ، رحمه الله تعالى .

وقال ابن الهمداني في كتاب « عيون السير » : لما استوزر عزُّ الدولة بختيار ابن بويه ابنَ بقية المذكور ، بعد أن كان يتولى أمر المطبخ ، قال الناس : من الغضارة إلى الوزارة ، وستر كرمُه عيوبه ، وخلع في عشرين يوماً عشرين ألف خلعة ، قال أبو إسحاق الصابي : رأيته وهو يشرب في بعض الليالي ، وكلما لبس خلعة خلعها على أحد الحاضرين ، فزادت على مائتي خلعة ، فقالت له مغنيته[2] :

---

١ بر : العذري ؛ وقد حولت « سنانير » إلى « بساتين » لتوافق هذه اللفظة ، في بعض الأصول .

٢ ر ق : مغنية .

يا سيدي الوزير في هذه الثياب زنابير ما تدعها تثبت على جسمك ، فضحك وأمر لها بحقة حليّ . وهو أول وزير لقب بلقبين ، فإن الإمام المطيع لقبه بالناصح ، ولقبه ولده الطائع بنصير الدولة .

ولما جرت الحرب بين عز الدولة وابن عمه عضد الدولة قبض عز الدولة عليه وسمله وحمله إلى عضد الدولة مسمولاً ، فشهره عضد الدولة وعلى رأسه برنس ، ثم أمر بطرحه للفيلة فقتلته ، ثم صلبه عند داره بباب الطاق ، وعمره نيف وخمسون سنة . ولما صلب رثاه أبو الحسن محمد بن عمر بن يعقوب الأنباري أحد العدول ببغداد بقوله :

علو في الحياة وفي الممات ... لحقّ أنت إحدى المعجزاتِ
كأن الناس حولك حين قاموا ... وفود نـداك أيام الصّلات
كأنك قائم فيهم خطيباً ... وكلهمُ قيامٌ للصّلاة
مددت يديك نحوهم احتفاءً ... كمدهما[1] إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن ... يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستنابوا ... عن الأكفان ثوب السافيات
لعظمك في النفوس تبيت تُرعى ... بحفاظ وحراس ثقات
وتُشعَلُ عندك النيران ليلا ... كذلك كنت أيام الحياة
ركبت مطية من قبلُ زيدٌ ... علاها في السنين الماضيات
وتلك فضيلة فيها تأسٍّ ... تباعد عنك تعييرَ العداة
ولم أر قبل جذعك قط جذعاً ... تمكن من عناق المكرمات
أسأت إلى النوائب فاستثارت ... فأنت قتيلُ ثأر النائبات
وكنت تجير من صَرف الليالي ... فعاد مطالباً لك بالتِّرات
وصيَّر دهرك الإحسان فيه ... إلينا من عظيم السيئات
وكنت لمعشر سعداً ، فلما ... مضيت تفرقوا بالمنحسات

---

[1] ر ق والمختار : كمدكها .

غليل باطنٌ لك في فؤادي يخفف بالدموع الجاريات
ولو أني قدرت على قيام لفرضك والحقوق الواجبات
ملأت الأرض من نظم القوافي ونحت بها خلاف النائحات
ولكني أصبّر عنك نفسي مخافة أن أعد من الجناة
وما لك تربة فأقول تسقى لأنك نُصْبُ هَطْلِ الهاطلات
عليك تحية الرحمن تترى برحمات غوادٍ رائحات

ولم يزل[1] ابن بقية مصلوباً إلى أن توفي عضد الدولة – في التاريخ المذكور في ترجمته في حرف الفاء[2] – فأنزل عن الخشبة ، ودفن في موضعه ، فقال فيه أبو الحسن ابن الأنباري صاحب المرثية المذكورة :

لم يُلْحِقوا بك عاراً إذ صلبت بلى باءوا بإثمك ثم استرجعوا ندما
وأيقنوا أنهم في فعلهم غلطوا وأنهم نصبوا من سؤدد علما
فاسترجعوك وواروا منك طَوْدَ علا بدفنه دفنوا الافضال والكرما
لئن بليتَ فلا يبلى نداك ولا يُنسى ، وكم هالك ينسى إذا عدما
تقاسم الناس حسن الذكر فيك كما ما زال مالُكَ بين الناس منقسما

قال الحافظ ابن عساكر في « تاريخ دمشق » : لما صنع أبو الحسن المرثية التائية كتبها ورماها في شوارع بغداد ، فتداولتها الأدباء[3] ، إلى أن وصل الخبر إلى عضد الدولة ، فلما أنشدت بين يديه تمنى أن يكون هو المصلوب دونه ، فقال : عليّ بهذا الرجل ، فطلب سنة كاملة ، واتصل الخبر بالصاحب ابن عباد وهو بالري فكتب له الأمان ، فلما سمع أبو الحسن ابن الأنباري بذكر الأمان قصد حضرته فقال له : أنت القائل هذه الأبيات ؟ قال : نعم ، قال : أنشدنيها من فيك ، فلما أنشد :

---

١ ق : قال الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق ولم يزل ...الخ .
٢ انظر ج ٤ : ٥٤ .
٣ ق : فتداولها الناس والأدباء .

ولم أر قبل جذعك قط جذعا   تمكن من عناق المكرمات

قام إليه الصاحب وعانقه وقبل فاه ، وأنفذه إلى عضد الدولة ، فلما مثل بين يديه قال له : ما الذي حملك على مرثية عدوي ؟ فقال : حقوق سلفت وأياد مضت ، فجاش الحزن في قلبي فرثيت ، فقال : هل يحضرك شيء في الشموع ، والشموع تزهر بين يديه ، فأنشأ يقول :

كأن الشموع وقد أظهرت   من النار في كل رأس سنانا

أصابعُ أعدائك الخائفين   تضرّعُ تطلب منك الأمانا

فلما سمعها خلع عليه وأعطاه فرساً وبدرة ؛ انتهى كلام الحافظ ابن عساكر رحمه الله .

(227) قلت : قوله في الأبيات :

ركبت مطية من قبل زيد   علاها في السنين الماضيات

زيد هذا هو أبو الحسين زيد بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وكان قد ظهر في أيام هشام بن عبد الملك في سنة اثنتين وعشرين ومائة ، ودعا إلى نفسه ، فبعث إليه يوسف بن عمر الثقفي والي العراقين يومئذ جيشاً مقدمه العباس المري ، فرماه رجل منهم بسهم فأصابه فمات ، وصلب بكناسة الكوفة[1] ، ونقل رأسه إلى البلاد . وقال ابن قانع : كان ذلك في صفر سنة إحدى وعشرين ومائة ، وقيل سنة اثنتين وعشرين ومائة في صفر أيضاً ، بالكوفة ، ولزيد من العمر اثنان وأربعون سنة يومئذ . وقال ابن الكلبي في كتاب « جمهرة النسب » : إن زيد بن علي رضي الله عنهما أصابه سهم في جبهته فاحتمله أصحابه ، وكان ذلك عند المساء ، ثم دعوا الحجام فانتزع النشابة[2] وسالت نفسه ، رضي الله عنه . وذكر أبو عمرو الكندي في كتاب « أمراء مصر » أن أبا الحكم ابن أبي الأبيض العبسي[3] قدم إلى مصر برأس زيد

---

١ ق ر : وصلب بالكوفة .   ٢ ق والمختار : السهم .

٣ كذا في ق ر والكندي : ٨١ وورد في ن والمطط : القيسي .

ابن علي خطيباً يوم الأحد لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين ومائة ، واجتمع إليه الناس في المسجد ، وهو صاحب المشهد الذي بين مصر وبركة قارون ، بالقرب من جامع ابن طولون يقال : إن رأسه مدفون به ، والله أعلم بالصواب .

(228) وقتل ولده يحيى بن زيد سنة خمس وعشرين ومائة ، وقصته مشهورة بالجوزجان ، قتله سالم بن أحوز المازني ، وقيل جهم بن صفوان صاحب الجهمية[1] .

وهذه القصيدة اتفق العلماء على أنه لم يعمل في بابها مثلها . وقد ذكر أبو تمام أيضاً حال المصلوبين في قصيدته التي مدح بها المعتصم لما صلب الأفشين خيذر ابن كاوس مقدم قواده وبابك ومازيار في سنة ست وعشرين ومائتين ، وقصتهم مشهورة ، فمنها قوله[2] :

ولقد شفى الأحشاء من بُرَحائها إذ صار بابك جار مازيّارِ
ثانيه في كبد السماء ولم يكن كاثنين ثانٍ إذ هما في الغار
وكأنما انتبذا لكيما يطويا عن ناطس خبراً من الأخبار
سود اللباس كأنما نَسَجتْ لهم أيدي السموم مدارعاً من قار
بكروا وأسروا في متون ضوامر قيدت لهم من مربط النجار
لا يبرحون ومَنْ رآهم خالهم أبداً على سفر من الأسفار

وقبل هذا في وصف الأفشين خاصة :

رمقوا أعاليَ جذعه فكأنما رمقوا الهلالَ عشية الإفطار

وهي من القصائد الطنانة . والأفشين مشهور فلا حاجة إلى ضبطه ، وهو بكسر الهمزة وفتحها ، واسمه خيذر – بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الذال المعجمة وبعدها راء – وإنما قيدته لأنه يتصحف على كثير من الناس بحيدر ، بالحاء المهملة .

---

١ ق : وقتل أيضاً جهم بن صفوان صاحب (بياض) .
٢ ديوان أبي تمام ٢ : ٢٠٧ .

(229) ومن شعر أبي الحسن الأنباري المذكور في الباقلى الأخضر قوله[1] :

فصوص زمرّد في غلف در ... بأقماع حكت تقليم ظفرِ
وقد خلع الربيع لها ثيابا ... لها لونان من بيض وخُضْر

وقد ذكره الخطيب في « تاريخ بغداد »[2] ، وقال : إنه من المقلين في الشعر ، رحمه الله تعالى .

٧٠٠

الوزير فخر الملك

أبو غالب محمد بن علي بن خلف ، الملقب فخر الملك ، وزير بهاء الدولة أبي نصر بن عضد الدولة بن بويه ، وبعد وفاته وزر لولده سلطان الدولة أبي شجاع فَنَّاخُسْرو . وكان فخر الملك المذكور من أعظم وزراء آل بويه على الإطلاق بعد أبي الفضل محمد بن العميد والصاحب بن عباد – المقدم ذكرهما – وكان أصله من واسط ، وأبوه صيرفياً ، وكان واسع النعمة فسيح مجال الهمة جم الفضائل والإفضال جزيل العطايا والنوال ، قصده جماعة من أعيان الشعراء ومدحوه ، وقَرَّضُوه بنخب المدائح ، منهم أبو نصر عبد العزيز بن نباتة الشاعر – المقدم ذكره – له فيه قصائد مختارة ، منها قصيدته النونية التي من جملتها يقول :

لكل فتى قرين حين يسمو ... وفخر الملك ليس له قرينُ
أنخْ بجنابه واحكم عليه ... بما أملته فأنا الضمين

---

١ ورد البيتان في حلبة الكميت : ٢٣٥ منسوبين للصنوبري وانظر ديوانه ٤٨٠ .
٢ تاريخ بغداد ٣ : ٣٥ .
٧٠٠ – أخباره في المنتظم ٧ : ٢٨٦ والوافي ٤ : ١١٨ ومواضع متفرقة من ابن الاثير (ج : ٩) وعبر الذهبي ٣ : ٩٧ والشذرات ٣ : ١٨٥ .

أخبرني بعض علماء الأدب أن بعض الشعراء امتدح فخر الملك بعد هذه القصيدة ، فأجازه إجازة لم يرضها ، فجاء الشاعر إلى ابن نُباتة ، وقال له : أنت غررتني[1] ، وأنا ما مدحته إلا ثقة بضمانك ، فتعطيني ما يليق بمثل قصيدي، فأعطاه من عنده شيئاً رضي به ، فبلغ ذلك فخر الملك ، فسير لابن نباته جملة مستكثرة لهذا السبب .

ويقرب من معنى هذين البيتين في شدة الوثوق بالعطاء قول المتنبي :

وثقنا بأن تُعْطي فلو لم تجد لنا لخلناك قد أعطيت من قوة الوهم

ويحكى في هذا المعنى أيضاً أن بعض الشعراء مدح بعض الأكابر بقصيدة ، فلما أصبح كتب إليه :

لم أعالجك بالرقاع إلى أن عاجَلَتْني رقاعُ أهل الديونِ
علموا أنني بمدحك أمسيـ ـت مليّاً فأصبحوا يرفعوني[2]

ومن جملة مداحه المهيار بن مرزويه الكاتب الشاعر المشهور – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى – وفيه يقول قصيدته الرائية التي منها[3] :

أرى كبدي وقد بردت قليلاً أمات الهم أم عاش السرورُ
أم الأيامُ خافتني لأني بفخر الملك منها أستجير

ومدائحه كثيرة ، ولأجله صنف أبو بكر محمد بن الحسن الحاسب الكرجي[4] كتاب « الفخري » في الجبر والمقابلة ، وكتاب « الكافي » في الحساب .

ورأيت في بعض المجاميع أن رجلاً شيخاً رفع إلى فخر الملك المذكور قصة

---

١ ر والمختار : غريتني .

٢ ن : يقتضوني .

٣ ديوان مهيار ١ : ٣٥٨ .

٤ الكرجي : كذا في ر والمختار ، والمشهور أنه الكرخي ، (كما في بعض النسخ) ، وانظر فصلا عن جهوده في الرياضيات في كتاب تراث العرب العلمي لقدري طوقان ص : ٢٤٩ .

سعى فيها بهلاك شخص ، فلما وقف فخر الملك عليها قلبها وكتب في ظهرها : « السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة ، فان كنت أجريتها مجرى النصح ، فخسرانك فيها أكثر من الربح ، ومعاذ الله أن نقبل من مهتوك في مستور ، ولولا أنك في خفارة من شيبك لقابلناك بما يشبه مقالك ، ونردع به أمثالك ، فاكتم هذا العيب ، واتق من يعلم الغيب ، والسلام » .

وذكر أبو منصور الثعالبي في كتاب « تتمة يتيمة الدهر » للأشرف بن فخر الملك قوله[1] :

مرَّ بيَ الموكبُ لكنني لم أر فيه قمر الموكبِ
قل لأمير الجيش يا سيدي ما لأمير الحسن لم يركب

ومحاسن فخر الملك كثيرة ، ولم يزل في عزه وجاهه وحرمته إلى أن نقم عليه مخدومه سلطان الدولة المذكور بسبب اقتضى ذلك ، فحبسه ثم قتله بسفح جبل قريب من الأهواز ، يوم السبت ، وقيل يوم الثلاثاء ، لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة سبع وأربعمائة ، ودفن هناك ، ولم يستقص في دفنه فنبشت الكلاب قبره وأكلته ، ثم أعيد دفن رمته ، فشفع فيه بعض أصحابه فنقلت عظامه إلى مشهد هناك فدفنت فيه في سنة ثمان وأربعمائة .

[وقال أبو عبد الله أحمد بن القادسي في « أخبار الوزراء » : وكان الوزير فخر الملك قد أهمل بعض الواجبات فعوقب سريعاً ، وذلك أن بعض خواصه قتل رجلاً ظلماً ، فتصدت له زوجة المقتول تستغيث ، فلم يلتفت إليها ، فلقيته ليلة في مشهد باب التبن وقد حضر للزيارة ، فقالت له : يا فخر الملك ، القصص التي أرفعها إليك ولا تلتفت إليها صرت أرفعها إلى الله ، وأنا منتظرة خروج التوقيع من جهته ، فلما قبض عليه قال : لا شك أن توقيعها خرج ، واستدعي إلى مضرب سلطان الدولة ، ثم قبض عليه وعدل به إلى خركاه ، وقد أحيط على أمواله وخزائنه وكراعه وولده وأصحابه ، وقتل في التاريخ المذكور أعلاه ، وأخذ من ماله ستمائة ألف دينار ونيف وثلاثون ألف دينار ، وقيل إنه وجد

---

١ انظر تتمة اليتيمة ١ : ٥٦ – ٥٧ .

له ألف ألف ومائتا ألف دينار منطبعة .

ورثاه الشريف الرضي بأبيات مـا اخترت منها شيئاً حتى أثبته هاهنا][1] فسبحان اللطيف الخبير ، الفعال لما يريد . ومولده بواسط يوم الخميس الثـاني والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة أربع وخمسين وثلثمائة ، وقد استوفى هلال ابن الصابي أخباره في تاريخه ، والله تعالى أعلم بالصواب .

٧٠١

أبو نصر ابن جهير

أبو نصر محمد بن محمد بن جهير ، الملقب فخر الدولة مؤيد الدين الموصلي الثعلبي ؛ كان ذا رأي وعقل وحزم وتدبير ، خرج من الموصل لأمر يطول شرحه ، وصار ناظر الديوان بحلب ، ثم صرف عنه وانتقل إلى آمد ، وأقام بها مدة بطالا ، ثم توصل إلى أن وزر للأمير[2] نصر الدولة أحمـد بن مروان الكردي صاحب ميّافارقين وديار بكر – وقد تقدم ذكر ذلك في ترجمة نصر الدولة – وكان نافذ الكلمة مطاع الأمر ، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي نصر الدولة في التاريخ المذكور في ترجمته ، وقام بالأمر ولده نظام الدين ، فأقبل عليه وزاد في إكرامه فرتب أمور دولته وأجراها على الأوضاع التي كانت في أيام أبيه .

ثم خطر له التوجه إلى بغداد ، فعمل على ذلك ، وكان يكاتب الإمام القائم بأمر الله ، ولم يزل يتوصل ويبذل الأموال حتى خرج إليه نقيب النقباء ابن طراد الزينبي ، فقرر معه ما أراد تقريره ثم خرج لوداعه ، ويمم إلى بغداد ، وأرسل

---

١ انفردت ق بما بين معقفين .

٧٠١ – أخباره في تاريخ ابن الأثير (ج : ١٠) وابن خلدون ٤ : ٣٢٠ وتاريخ الدولة السلجوقية : ٦٢ والمنتظم ٩ : ٥٤ والفخري : ٢٦٠ والوافي ١ : ١٢٢ وعبر الذهبي ٣ : ٣٠٤ والشذرات ٣ : ٣٦٩ .

٢ ر : استوزره الأمير .

ابن مروان خلفه من يرده فلم يقدر عليه ، فلما بلغها تولى وزارة القائم بدلاً من أبي الغنائم ابن دارست[1] في سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، ودام فيها إلى أن توفي القائم ، وتولى ولد ولده المقتدي بأمر الله فأقره على الوزارة مدة سنين ، ثم عزله عنها يوم عرفة الأمير أبو الغنائم ابن دارست ، باشارة الوزير نظام الملك ، وكان ولده عميد الدولة شرف الدين أبو منصور محمد ينوب عنه فيها ، فلما عزل والده خرج هو إلى نظام الملك أبي الحسن وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي – المقدم ذكره – واسترضاه وأصلح حاله معه وعاد إلى بغداد ،وتولى الوزارة مكان أبيه .

وخرج أبوه فخر الدولة في سنة ست وسبعين إلى جهة السلطان ملكشاه المذكور باستدعائه إياه ، فعقد له على ديار بكر ، وسار معه الأمير أرتق بن أكسب صاحب حلوان –المقدم ذكره– في جماعة من التركان والأكراد والأمراء، فلما وصلوا إلى ديار بكر فتح ولده أبو القاسم زعيم الرؤساء مدينة آمد بعد حصار شديد ، ثم فتح أبوه فخر الدولة ميّافارقين بعد ثلاثة أشهر من فتح آمد وكان أخذها من ناصر الدولة أبي المظفر منصور بن نظام الدين ، واستولى على أموال بني مروان وذلك في سنة تسع وسبعين وأربعمائة. ومن عجيب الاتفاق أن منجماً حضر إلى ابن مروان نصر الدولة ، وحكم له بأشياء ، ثم قال له : ويخرج على دولتك رجل قد أحسنت إليه ، فيأخذ الملك من أولادك ، فأفكر ساعة ثم رفع رأسه إلى فخر الدولة وقال : إن كان هذا القول صحيحاً فهو الشيخ هذا ، ثم أقبل عليه وأوصاه على أولاده ، فكان الأمر كما قال ، فإنه وصل إلى البلاد وكان فتحها على يديه كما ذكرنا ، والشرح في ذلك يطول .

وكان رئيساً جليلاً ، خرج من بيتهم جماعة من الوزراء والرؤساء ، ومدحهم أعيان الشعراء ، فمنهم أبو منصور علي بن الحسن[2] المعروف بصَرّدُرّ ، أنفذ إلى فخر الدولة المذكور من واسط عند تقلده الوزارة قصيدة ، وهي من مشاهير القصائد ، وأولها[3] :

---

١ بدلا ... دارست : سقطت من ن ر .   ٢ ر ق : الحسين .
٣ الديوان : ٥٦ وانفذهما اليه سنة ٤٥٥ وفيها يعرض بابن دارست .

لجاجةُ قلبٍ ما يُفيق غرورها   وحاجةُ نفسٍ ليس يُقضى يسيرها
وقفنـا صفوفاً في الديار كأنها   صحائفُ ملقاةٌ ونحن سطورها
يقول خليلي والظباءُ سوانح :   أهذا الذي تهوى ؟ فقلت : نظيرها
لئن شابهت أجيادها وعيونهـا   لقد خالفت أعجازها وصدورها
فيا عجبـا منهـا يصدُّ أنيسها   ويدنو على ذعر إلينا نَفُورها
وما ذاك إلا أن غزلانَ عامرٍ   تيقَّنُ أن الزائرين صقورها
ألم يكفها ما قد جنته شموسها   على القلب حتى ساعدتها بُدورُها
نكصنا على الأعقاب خوف إناثها   فما بالها تدعو نَـزالِ ذكورها
ووالله ما أدري غداة نظرننا   أتلك سهام أم كؤوس تديرها
فإن كن من نبلٍ فأين حفيفها ؟   وإن كن من خمر فأين سرورها ؟
أيا صاحبيَّ استأذنا ليَ خُمْرها   فقد أذنت لي في الوصول خدورها
هباها تجافت عن خليل يروعها   فهـل أنا إلا كالخيال يزورها
وقد قلتما لي ليس في الأرض جنـة   أما هذه فوق الركائب حُورُها
فلا تحسبا قلبي طليقـاً فإنمـا   لها الصدر سجن وهو فيه أسيرها
يعز على الهيم الخوامس وردها   إذا كان ما بين الشفاه غديرها
أراكَ الحمى قل لي بأي وسيلة   توسَّلتَ حتى قبلتْكَ ثغورها

ومن مديحها :

أعدت إلى جسم الوزارة روحه   وما كان يُرجى بعثها ونشورها
أقامت زماناً عند غيرك طامثاً   وهذا الزمان قرؤها وطهورها
من الحق أن يُحْبَى بها مستحقها   ويُنْزَعَها مردودة مستعيرها
إذا ملك الحسناء من ليس كفؤها   أشار عليهـا بالطلاق مشيرها

وأنشده أيضاً لما عاد إلى الوزارة في صفر سنة إحدى وستين وأربعمائة بعد العزل ، وكان المقتدي بالله قد أعاده إلى الوزارة بعـد العزل وقبل الخروج إلى

السلطان ملكشاه ، فعمل فيه صدر هذه القصيدة[1] :

قد رجع الحق إلى نصابهِ ... وأنت من كل الورى أولى بهِ
ما كنت إلا السيف سلته يد ... ثم أعادتـــه إلى قرابه
هزّته حتى أبصرته صارماً ... رونقه يغنيـه عن ضرابه
أكرم بها وزارة ما سلمت ... ما استودعت إلا إلى أربابه
مشوقة إليك مـنذ فارقتها ... شوق أخي الشيب إلى شبابه
مثلك محسود ولكن معجزٌ ... أن يدرك البارق في سحابه
حاولها قوم ومن هذا الذي ... يخرج ليثاً خادراً من غابه
يُدْمي أبو الأشبال من زاحمه ... في خِيسه بظفره ونابه
وهل سمعتَ أو رأيتَ لابساً ... ما خلع الأرقم من إهابه

ومنها :

تيقنوا لمـــا رأوها صَعْبة[2] ... أن ليس للجو سوى عقابه
إن الهلال يرتجى طلوعه ... بعد السّرار ليلة احتجابه
والشمس لا يُؤيسُ من طلوعها ... وإن طواها الليل في جنابه
ما أطيب الأوطان إلا أنهـــا ... للمرء أحـــلى أثر اغترابه
كم عودةٍ دلت على دوامها ... والخـلد للإنسان في مآبه
لو قرب الدرُّ على جالبـه ... ما لَجَّجَ الغائص في طلابه
ولو أقـــام لازماً أصدافه ... لم تكن التيجان في حسابه
ما لؤلؤ البحر ولا مَرْجانه ... إلا وراء الهول من عبابه

وهي قصيدة طويلة اقتصرنا منها على هذا القدر .

وقد سبق في ترجمة سابور بن أردشير ثلاثة أبيات كتبها إليه أبو إسحاق

---

١ ديوانه : ٦٣ .

٢ ق ر والمختار : صنعة ؛ بر : ضيعة .

الصابي لما عاد إلى الوزارة بعد العزل ، ولم يعمل في هذا الباب مثلها .

وممن مدحه أيضاً القائد أبو الرضا الفضل بن منصور الشريف الفارقي ، وفيه عمل الأبيات الحائية المشهورة ، وهي :

يا قالةَ الشعر قد نصحت لكم ... ولست أدهى إلا من النصحِ
قد ذهب الدهرُ بالكرام وفي ... ذاك أمورٌ طويلةُ الشرح
وأنتمُ تمدحون بالحسن والـ ... ظرف[1] وجوهاً في غاية القبح
وتطلبون السماح من رجل ... قد طُبعت نفسه على الشح
من أجل ذا تحرمون كدكمُ ... لأنكم تكذبون في المدح
صونوا القوافي فما أرى أحداً ... يعثر فيه الرجاء بالنجح
فإن شككتم فيما أقول لكم ... فكذبوني بواحد سمح
سوى الوزير الذي رياسته ... تعرك أذْنَ الزمان بالملح

وكانت ولادة فخر الدولة المذكور في سنة ثمان وتسعين وثلثمائة بالموصل ؛ وتوفي بها في شهر رجب ، وقيل في المحرم ، سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ودفن في تل توبة ، وهو تل في قبالة الموصل يفصل بينهما عرض الشط ، رحمه الله تعالى. وكان قد عاد إلى ديار ربيعة متولياً من جهة ملكشاه أيضاً في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة ، فأول ما ملك نصيبين في شهر رمضان من هذه السنة ، ثم ملك الموصل وسنجار والرحبة والخابور وديار ربيعة أجمع ، وخطب له على منابرها[2] نيابة عن الموصل إلى أن توفي .

(230) وأما ولده عميد الدولة المذكور فقد ذكره محمد بن عبد الملك الهمداني في تاريخه فقال : انتشر عنه الوقار والهيبة والعفة وجودة الرأي ، وخدم ثلاثة من الخلفاء ووزر لاثنين منهم ، وكان عليه رسوم كثيرة وصلات جمة ، وكان نظام الملك يصفه دائماً بأوصاف عظيمة ، ويشاهده بعين الكافي الشهم ، ويأخذ رأيه في أهم الأمور ويقدمه على الكفاة والصدور ، ولم يكن يعاب بأشد من الكبر

---

١ ق : بالظرف والحسن .
٢ ق : المناير .

الزائد ، فإن كلماته كانت محفوظة مع ضنه بها ، ومَنْ كلمه بكلمة قامت عنده مقام بلوغ الأمل، فمن جملة ذلك ما قاله لولد الشيخ الإمام أبي نصر ابن الصباغ: اشتغل وتأدب ، وإلا كنت صباغاً بغير أب ، انتهى كلام ابن الهمداني .

وكان نظام الملك الوزير قد زوجه زبيدة ابنته ، وكان قد عزل عن الوزارة ثم أعيد إليها بسبب المصاهرة، وفي ذلك يقول الشريف أبو يعلى ابن الهَبّارية — المقدم ذكره — :

قل للوزير ولا تُفزعك هيبته وإن تعاظم واستولى لمنصبه
لولا ابنة الشيخ ما استوزرت ثانية فاشكر حراً صرت مولانا الوزير به

ووجدت بخط أسامة بن منقذ — المقدم ذكره — أن السابق بن أبي مهزول الشاعر المعري قال : دخلت العراق واجتمعت بابن الهَبّارية ، فقال لي في بعض الأيام : امض بنا لنخدم الوزير ابن جهير ، وكان قد عزل ثم استوزر ، قال السابق : فدخلت معه حتى وقفنا بين يدي الوزير ، فدفع إليه رقعة صغيرة ، فلما قرأها تغير وجهه ورأيت فيه الشر ، وخرجنا من مجلسه فقلت : ما كان في الرقعة ؟ فقال : خير ، الساعة تضرب رقبتي ورقبتك ، فأشفقت وقلقت ، وقلت : أنا رجل غريب صحبتك هذه الأيام ، وسعيت في هلاكي ، فقال : كان ما كان . فقصدنا باب الدار لنخرج فردّنا البواب ، فقال : أمرت بمنعكما ، فقال السابق : أنا رجل غريب من أهل الشام ما يعرفني الوزير ، وإنما القصد هذا ، فقال البواب : لا تطوّل فما إلى خروجك من سبيل ، فأيقنت بالهلاك ، فلما خفّ الناس من الدار خرج إليه غلام معه قرطاس فيه خمسون ديناراً وقال : قد شكرنا فاشكر ، فانصرفنا ، ودفع لي عشرة دنانير منها ، فقلت : ما كان في الرقعة ؟ فأنشدني البيتين المذكورين ، فآليت أن لا أصحبه بعدها .

ولعميد الدولة شعر ذكره في « الخريدة » لكنه غير مرضي ، وذكره ابن السمعاني في كتاب « الذيل »، ومدحه خلق كثير من شعراء عصره ، وفيه يقول صردر المذكور قصيدته العينية المشهورة التي أولها[1] :

---

١ ديوانه : ٦٧ .

قد بان عذرك والخليط مودِّع   وهوى النفوس مع الهوادج يرفعُ
لك حيثما سمتِ الركائب لفتة   أترى البدور بكل واد تطلع
في الظاعنين من الحمى ظبي له الـ   ـأحشاء مرعًى والمآقي مكرع
ممنوعُ أطراف الجمال رقيبه   حذراً عليه من العيون البرقع
عهد الحبائلَ صائداتٍ شبهه   فارتاع فهو لكل حبل يقطع
لم يدر حامي سربه أني إذا   حرم الكلام له لساني الأصبع
وإذا الطيوف إلى المضاجع أرسلت   بتحية منه فعيني تسمع

وهذه القصيدة طويلة ، وهي من غرر الشعر ، وقوله فيها :

عهد الحبائل صائدات شبهه   فارتاع فهو لكل حبل يقطع

نظير قول ابن الحمارة الأندلسي :

عن النوم سل عيناً به طال عهدها   وكان قليلاً في ليالٍ قلائلِ
إذا ظن وكراً مقلتي طائرُ الكرى   رأى هُدْبَها فارتاع خوف الحبائل

ولا أدري أيهما أخذ من الآخر ، لأني لم أقف على تاريخ وفاة ابن الحمارة حتى أعرف عصره[1] . ويجوز أن يكون ذلك بطريق التوارد على هذا المعنى من غير أن يأخذ أحدهما من الآخر .

وعزل عميد الدولة المذكور عن الوزارة وحُبس وقيِّد في شهر رمضان المعظم سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وتوفي في شوال من السنة ، وإليه كتب أبو الكرم ابن العلاف الشاعر قوله :

ولولا مدائحنا لم تبن[2]   فعالُ المسيءِ من المحسنِ
فهبك احتجبت عن الناظرين   فهلا احتجبت عن الألسنِ

---

١ - المشهور بهذا الاسم أبو عامر ابن الحمارة تلميذ ابن باجة الاندلسي في الغناء والموسيقى (انظر ترجمته في بغية الملتمس : ٥١٧ والمغرب ٢ : ١٢٠ وصفحات متفرقة من نفح الطيب) .

٢ ق ر والمختار : تكن .

(231) وتوفيت زوجته بنت نظام الملك المذكور في شعبان سنة سبعين وأربعمائة وكان تزوجها في سنة اثنتين وستين وأربعمائة . وتوفي سنة ثلاث وتسعين في حصن مقابل لتل بها[1] .

(232) ولصردر أيضاً في زعيم الرؤساء أبي القاسم ابن فخر الدولة قصيدته القافية التي أولها[2] :

صبّحها الدمع ومساها الأرَق هل بين هذين بقاء للحدق

وهي بديعة مختارة مشهورة فلا حاجة إلى التطويل في الإتيان بها ؛ وتولى زعيم الرؤساء أبو القاسم ابن فخر الدولة وزارة الإمام المستظهر بالله ، في شعبان من سنة ست وتسعين وأربعمائة ، ولقبه نظام ، وقيل قوام ، الدين .

وجهير : بفتح الجيم وكسر الهاء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء، وقال السمعاني : بضم الجيم ، وهو غلط ، يقال رجل جَهير بَيِّنُ الجهارة ، أي ذو منظر ، ويقال أيضاً جهير الصوت بمعنى جهوري الصوت ، والله تعالى أعلم بالصواب .

٧٠٢

ظهير الدين الروذراوري

أبو شجاع محمد بن الحسين بن محمد[3] بن عبد الله بن إبراهيم ، الملقب ظهير الدين، الرُّوذْراوَري الأصل الأهوازي المولد ؛ قرأ الفقه على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي ، وقرأ الأدب ، وولي الوزارة للإمام المقتدي بأمر الله بعد عزل عميد

---

١ كذا وهو مغاير لما سبق . ٢ ديوانه : ١١٠ .

٧٠٢ – أخباره في تاريخ ابن الأثير (ج : ١٠) والفخري : ٢١٤ والوافي ٣ : ٣ والمنتظم ٩ : ٩٠ والخريدة (قسم العراق) ١ : ٧٧ وطبقات السبكي ٣ : ٥٧ .

٣ بن محمد : سقطت من ر ق .

الدولة أبي منصور ابن جَهير المذكور قبله في ترجمة أبيه فخر الدولة ، وذلك في سنة ست وسبعين وأربعمائة ، وعزل عنها يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، وأعيد عميد الدولة ابن جَهير . ولما قرأ أبو شجاع التوقيع بعزله أنشد :

تولاها وليس له عدو وفارقها وليس له صديقُ

وخرج بعد عزله ماشياً يوم الجمعة من داره إلى الجامع ، وانثالت عليه العامة تصافحه وتدعو له ، وكان ذلك سبباً[1] لإلزامه بالقعود في داره ، ثم خرج إلى رُوذْراوَر وهي موطنه قديماً ، فأقام هناك مدة ، ثم خرج إلى الحج في الموسم[2] سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، وخرجت العرب على الركب الذي هو فيه بقرب الربذة ، فلم يسلم من الرفقة سواه، وجاور بعد الحج بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، إلى أن توفي في النصف من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، ودفن بالبقيع عند القبة التي فيها قبر إبراهيم عليه السلام ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وكانت ولادته سنة سبع وثلاثين وأربعمائة ، رحمه الله تعالى .

قال العماد الكاتب في « الخريدة » في حقه : وكان عصره أحسن العصور ، وزمانه أنضر[3] الأزمان، ولم يكن في الوزراء من يحفظ أمر الدين وقانون الشريعة مثله ، صعباً شديداً في أمور الشرع ، سهلاً في أمور الدنيا ، لا تأخذه في الله لومة لائم .

ثم قال : ذكره ابن الهمداني في « الذيل »[4] فقال : كانت أيامه أوفى الأيام سعادة للدولتين، وأعظمها بركة على الرعية ، وأعمها أمناً وأشملها رخصاً وأكملها صحة ، لم يغادها[5] بؤس ولم تشبها مخافة ، وقامت للخلافة في نظره من الحشمة

---

١ ق : سبيلا .

٢ ق : موسم .

٣ ر : أفضل ؛ بر من : أحسن .

٤ ق ر : المذيل .

٥ ق ر ن بر من : يغادرها .

والاحترام ، ما أعادت سالف الأيام ، وكان أحسن الناس خطاً ولفظاً .

وذكره الحافظ ابن السمعاني في « الذيل » فقال : كان يرجع إلى فضل كامل وعقل وافر ورزانة ورأي صائب ، وكان له شعر رقيق مطبوع ، أدركته حرفة الأدب ، وصُرف عن الوزارة وكلف لزوم البيت ، فانتقل من بغداد إلى جوار النبي صلى الله عليه وسلم ، وأقام بالمدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام إلى حين وفاته ، وزرت قبره غير مرة عند قبر إبراهيم ابن نبينا ، صلى الله عليه وسلم ، بالبقيع ؛ ثم قال السمعاني بعد ذلك : سمعت من أثق به يقول إن الوزير أبا شجاع وقت أن قرب أمره وحان ارتحاله من الدنيا حمل إلى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، فوقف عند الحظيرة وبكى وقال : يا رسول الله ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما﴾ (النساء : ٦٤) ولقد جئتك معترفاً بذنوبي وجرائمي أرجو شفاعتك ، وبكى ورجع وتوفي من يومه .

وله شعر حسن مجموع في ديوان ، فمن ذلك[1] قوله :

لأعذّبن العينَ غيرَ مفكّرٍ	فيها بكت بالدمع أو فاضت دما
ولأهجرنّ من الرقاد لذيذَهُ	حتى يعودَ على الجفون محرّما
هي أوقعتني في حبائلِ فتنةٍ	لو لم تكنْ نظرتْ لكنت مسلّما
سفكت دمي فلأسفكن دموعها	وهي التي بدأت فكانت أظلما

وإلى هذا المعنى ينظر قول بعضهم :

يا عين ما ظلم الفؤادُ	ولا تعدّى في الصنيعِ
جرعته مرّ الهوى	فمحا سوادَكِ بالدموعِ[2]

وله أيضاً :

وإني لأبدي في هواك تجلداً	وفي القلب مني لوعة وغليلُ

---

١ بر من : فمن شعره .

٢ وإلى هذا ... بالدموع : ثبت في النسخ الخطية ولم يرد في المطبوعة المصرية .

فلا تحسبي أني سلوت فربما تُرى صحة بالمرء وهو عليلُ[1]

وله أيضاً[2] :

أيذهب جلُّ العمر بيني وبينكم بغير لقاء ؟ إن ذا لشديدُ

فإن يسمحِ الدهر الخؤون بوصلكم على فاقتي إني إذاً لسعيدُ

وعمل ذيلاً على كتاب « تجارب الأمم » ، تأليف أبي علي أحمد بن محمد المعروف بمسكويه ، وهو التاريخ المشهور بأيدي الناس .

وقال محمد بن عبد الملك الهمداني في تاريخه : وظهر منه من التلبس في الدين وإظهاره وإعزاز أهله والرأفة بهم والأخذ على أيدي الظلمة ما أذكرَ به عدل العادلين ؛ وكان لا يخرج من بيته حتى يكتب شيئاً من القرآن العظيم ويقرأ في المصحف ما تيسر . وكان يؤدي زكاة أمواله الظاهرة في سائر أملاكه وضياعه واقطاعه ويتصدق سراً . وعرضت عليه رقعة فيها : إن الدار الفلانية بدرب القيّار ، فيها امرأة معها أربعة أيتام وهم عراة جياع ، فاستدعى صاحباً له وقال له : مُرّ واكسهم وأشبعهم ، وخلع أثوابه وحلف : لا لبستها ولا دفئت حتى تعود إلي وتخبرني أنك كسوتهم وأشبعتهم . ولم يزل يُرْعد إلى أن جاء صاحبه وأخبره بذلك ؛ وكانت له مبار كثيرة .

والرُّوذْرَاوريّ : بضم الراء وسكون الواو والذال المعجمة وفتح الراء والواو بينهما ألف في آخرها راء أخرى ، هذه النسبة إلى رُوذْرَاوَر ، وهي بليدة[3] بنواحي همذان ، والله تعالى أعلم .

---

١ لم يرد إلا في بر من .

٢ بر من : ومن شعره أيضاً .

٣ ق ن بر من : بلدة .

٧٠٣

عميد الملك الكندري

أبو نصر محمد بن منصور بن محمد ، الملقب عميد الملك الكندري ؛ كان من رجال الدهر جوداً وسخاء وكتابة وشهامة ، واستوزره السلطان طُغْرلبَك السلجوقي — المقدم ذكره — ونال عنده الرتبة العالية والمنزلة الجليلة ، ولم يكن لأحد من أصحابه معه كلام ، وهو أول وزير كان لهذه الدولة ، ولم تكن له منقبة إلا صحبة إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك ابن الشيخ أبي محمد الجويني الفقيه الشافعي صاحب « نهاية المطلب » على ما ذكره السمعاني في ترجمة أبي المعالي في كتاب « الذيل » فإنه قال — بعد الإطناب في وصف إمام الحرمين وذكر تنقله في البلاد — ثم قال : وخرج إلى بغداد وصحب العميد الكندري أبا نصر مدة يطوف معه ويلتقي في حضرته بالأكابر من العلماء ويناظرهم ، وتحنك بهم حتى تهذب في النظر ، وشاع ذكره[1] .

وذكره شيخنا ابن الأثير في تاريخه[2] في سنة ست وخمسين وأربعمائة وقال : إن الوزير المذكور كان شديد التعصب على الشافعية كثير الوقيعة في الشافعي ، رضي الله عنه ، حتى بلغ من تعصبه أنه خاطب السلطان ألب أرسلان السلجوقي في لعن الرافضة على منابر خراسان ، فأذن في ذلك ، فلعنهم وأضاف إليهم الأشعرية ، فأنف من ذلك أئمة خراسان ، منهم أبو القاسم القشيري وإمام الحرمين الجويني وغيرهما ، ففارقوا خراسان ، وأقام إمام الحرمين بمكة شرفها الله تعالى أربع سنين يدرس ويفتي ، فلهذا قيل له إمام الحرمين فلما جاءت الدولة

---

٧٠٣ — أخباره في تاريخ ابن الأثير (ج : ٩ ، ١٠) وأخبار الدولة السلجوقية واللباب : (الكندري) وعبر الذهبي ٣ : ٢٤٠ والشذرات ٣ : ٣٠١ .

١ زاد في ن : قلت : وهذا خلاف ما ذكره شيخنا .. الخ فانه قال .

٢ انظر تاريخ ابن الأثير ١٠ : ٣٣ .

النظامية أحضر من انتزح منهم وأكرمهم وأحسن إليهم ؛ وقيل إنه تاب عن الوقيعة في الشافعي ، فإن صح فقد أفلح .

وكان عميد الملك ممدَّحاً مقصداً للشعراء ، مدحه جماعة من أكابر شعراء عصره ، منهم أبو الحسن علي بن الحسن الباخرزي – المقدم ذكره – والرئيس أبو منصور علي بن الحسن بن علي بن الفضل ، الكاتب المعروف بصردر – المقدم ذكره أيضاً – وفيه يقول قصيدته النونية ، وهي[1] :

أكذا يُجازَى ود كل قرينِ	أم هذه شِيَمُ الظباءِ العينِ
قُصُّوا عليَّ حديثَ من قتلَ الهوى	إن التأسي رَوْحُ كلّ حزينِ
ولئن كتمتم مشفقين لقد درى	بمصارع العذري والمجنون
فوق الركاب ولا أطيل مشبها	بل ثم شهوة أنفس وعيون
هُزّتْ قدودهمُ وقالت للصبا	هزُؤاً أعند البان مثل غصوني
ووراء ذياك المقبل مورد	حصباؤه من لؤلؤ مكنون
إما بيوت النحل بين شفاههم	منظومة[2] أو حانة الزرجون
ترمي بعينيك الفجاج مقلباً	ذات الشمال بها وذات يمين
لو كنت زرقاءَ اليمامة ما رأت	من بارق حياً على جيرون
شكواك من ليل التمام وإنما	أرَقي بليل ذوائب وقرون
ومعنفٍ[3] في الوجد قلت له اتئد	فالدمع دمعي والحنين حنيني
ما نافعي إذ كان ليس بنافعي	جاه الصبا وشفاعة العشرين
لا تطرقنْ خجلاً للومة لائم	ما أنت أول حازمٍ[4] مفتون
أأسومهم ، وهم الأجانبُ ، طاعةً	وهوايَ بين جوانحي يعصيني

---

١ ديوانه : ٥٣ .

٢ ق بر من : منضودة .

٣ ق ر بر من والمختار : ومعنفي .

٤ بر : حاذر .

ديني على ظبياتهم ما يُقتضى … فبأي حكم يقتضون رهوني
وخشيتُ من قلبي الفرارَ إليهمُ … حتى لقد طالبته بضمين
كلٌّ النكال أطيق إلا ذلةً … إن العزيز عذابه بالهون
يا عين مثل قـَذاك رؤيةُ معشرٍ … عارٌ على دنياهمُ والدين
لم يشبهوا الإنسان إلا أنهم … متكونون من الحما المسنون
نجس العيون فإن رأتهم مقلتي … طهرتُها فنزحت ماء جفوني
أنا إن همُ حسبوا الذخائر دونهم … وهمُ إذا عدوا الفضائل دوني
لا يشمتِ الحسادَ أن مطامعي … عادت إليّ بصفقة المغبون
ما يستدير البدر إلا بعدما … أبصرته في الضمر كالعرجون
هذا الطريق اللحبُ زاجرُ ناقتي … واليمُّ قاذفُ فلكيَ المشحون
فإذا عميدُ الملك حَلّى ربعه … ظفراً بفأل الطائر الميمون
ملك إذا ما العزمُ حث جياده … مَرِحَتْ بأزهرَ شامخ العرنين
بأغرّ ما أبصرت نور جبينه … إلا اقتضاني بالسجودِ جبيني
تجلو النواظرُ في نواحي دسته … والسرج بدرَ دجًى وليثَ عرين
عمت فضائله البرية فالتقى … شكر الغنيّ ودعوة المسكين
قالوا وقد شنوا عليه غارة … أصِلات جود أم قضاء ديون
لو كان في الزمن القديم تظلمت … منه الكنوز إلى يدَي قارون
أما خزائن ماله فمباحة … فاستوهبوا من علمه المخزون[1]
ما الرزق محتاجاً بعرصته إلى … طلب وليس الأجرُ بالممنون
أقسمتُ أن ألقى المكارمَ عالماً … أني برؤيته أبر يميني
ساس الأمور فليس يخلي رغبة … من رهبةٍ، وبسالة من لين
كالسيف رونق أثرهِ في مَتنه … ومضاؤه في حده المسنون
شهدت علاه أن عنصر ذاته … مسك وعنصر غيره من طين

---

١ سقط البيت من ن ر ق .

وكان إنشاده إياه[1] هذه القصيدة عند وصول عميد الملك إلى العراق ، وهو في دَسْتِ وزارته وعلو منصبه ، وهذه القصيدة من الشعر الفائق المختار وقد أثبتُّها بكمالها ما خلا ثلاثة أبيات فإنها لم تعجبني فأهملتها ، وقد وازن هذه القصيدة جماعة من الشعراء منهم ابن التعاويذي – المقدم ذكره – وازنه بقصيدته التي أولها :

إن كان دينك في الصبابة ديني   فقِفِ المطي برملَتَيْ يَبْرِينِ

وهي من القصائد النادرة ، وأرسلها من العراق إلى الشام ممتدحاً بها السلطان صلاح الدين ، رحمه الله تعالى ، ولولا خوف الإطالة لأثبتها ، ثم ذكرتها في ترجمة صلاح الدين يوسف بن أيوب فتطلب هناك ؛ ووازنه أيضاً ابن المعلم – المقدم ذكره – بقصيدته التي أولها :

ما وقفة الحادي على يَبْرِينِ   وهو الخليُّ من الظباء العينِ

وهي أيضاً قصيدة جيدة ، وقد ذكرت بعضها في ترجمته ، وقد وازنها الأبله أيضاً ، وبالجملة فما قاربها إلا ابن التعاويذي ، وقد خرجنا عن المقصود ، ولكن انتشر الكلام فلم يكن بد من استيفائه .

ولم يزل عميد الملك في دولة طُغْرُلبَك عظيم الجاه والحرمة ، إلى أن توفي طغرلبك – في التاريخ المذكور في ترجمته – وقام في المملكة ابن أخيه ألب أرسلان – المقدم ذكره – فأقره على حاله وزاد في إكرامه ورتبته ، ثم إنه سيره إلى خوارزم شاه ليخطب له ابنته ، فأرجف أعداؤه أنه خطبها لنفسه ، وشاع ذلك بين الناس فبلغ عميد الملك الخبر ، فخاف تغير قلب مخدومه عليه ، فعمد إلى لحيته فحلقها وإلى مذاكيره فجبَّها ، فكان ذلك سبب سلامته من ألب أرسلان ، وقيل إن السلطان خصاه ، فلما فعل ذلك عمل أبو الحسن علي بن الحسن الباخَرْزي المذكور في ترجمته قوله :

قالوا محا السلطان عنه بعَدْكم   سمةَ الفحولِ وكانَ قَرْماً صائِلا

---

[1] إياه : سقطت من رق .

قلتُ اسكتوا فالآن زاد فُحولةً لما اغتدى من أنثييه عاطلا
فالفحلُ يأنف أن يُسمى بعضهُ أنثى ، لذلك جذّه مستاصلا

وهذا من المعاني الغريبة البديعة .

ثم إن ألب أرسلان عزله من الوزارة في المحرم من سنة ست وخمسين وأربعمائة لسبب يطول شرحه ، وفوض الوزارة إلى نظام الملك أبي علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي المقدم ذكره. وحبس عميد الملك بنيسابور في دار عميد خراسان، ثم نقله إلى مرو الروذ وحبسه في داره ، فكان في حجرة تلك الدار عياله ، وكانت له بنت واحدة لا غير ، فلما أحس بالقتل دخل الحجرة وأخرج كفنه وودع عياله وأغلق باب الحجرة واغتسل وصلى ركعتين ، وأعطى الذي همّ بقتله مائة دينار نيسابورية وقال : حقي عليك أن تكفنني في هذا الثوب الذي غسلته بماء زمزم ، وقال لجلاده : قلْ للوزير نظام الملك : بئس ما فعلت ، علّمت الأتراك قتل الوزراء وأصحاب الديوان ، ومن حفر مَهْواة وقع فيها ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ؛ ورضي بقضاء الله المحتوم .

وقتل يوم الأحد سادس عشر ذي الحجة سنة ست وخمسين وأربعمائة وعمره يومئذ نيف وأربعون سنة ، فعمل في ذلك الباخَرْزي الشاعر المذكور مخاطباً للسلطان ألب أرسلان :

وعمك أدناه وأعلى محله وبوأه من ملكه كنفاً رحبا
قضى كل مولى منكما حق عبده فخوله الدنيا وخولته العقبى

ومن العجائب أنه دفنت مذاكيره بخوارزم ، وأريق دمه بمروالروذ ، ودفن جسده بقريته كندر ، وجمجمته ودماغه بنيسابور ، وحشيت سوأته بالتبن ونقلت إلى كِرْمان ، وكان نظام الملك هناك ، ودفنت ثمّ ، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر ، بعد أن كان رئيس عصره ، رحمه الله تعالى .

والكُنْدُري : بضم الكاف وسكون النون وضم الدال المهملة وبعدها راء ، هذه النسبة إلى كندر ، وهي قرية من قرى طُرَيْثيث — بضم الطاء المهملة وفتح

الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وكسر الثاء المثلثة وسكون الياء المثناة من تحتها أيضاً وبعدها ثاء مثلثة – وهي كورة من نواحي نيسابور ، خرج منها جماعة من العلماء وغيرهم ، والله تعالى أعلم بالصواب .

٧٠٤

الوزير الجواد جمال الدين

أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور ، الملقب جمال الدين المعروف بالجواد الأصفهاني ، وزير صاحب الموصل ؛ كان جده أبو منصور فهّاداً للسلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – فتأدب ولده وسَمَتْ همته ، فاشتهر أمره وخدم في مناصب علية وصاهر الأكابر ، فلما ولد له جمال الدين المذكور عني بتأديبه وتهذيبه ، ثم ترتب في ديوان العرض للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – فظهرت كفايته وحمدت طريقته ، فلما تولى أتابك زنكي بن آق سنقر – المقدم ذكره – الموصل وما والاها استخدم جمال الدين المذكور وقربه واستصحبه معه إليها ، فولاه نصيبين ، فظهرت كفايته ، وأضاف إليه الرحبة ، فأبان عن كفاية وعفة، وكان من خواصه وأكبر ندمائه ، فجعله مشرف مملكته كلها وحكمه تحكيماً لا مزيد عليه . وكان الوزير يومئذ ضياء الدين أبا سعيد بهرام بن الخضر الكَفَرْتوثي ، استوزره أتابك زنكي في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، وتوفي خامس شعبان سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، وهو على وزارته ، وتولى الوزارة بعده أبو الرضى ابن صدقة ، وجمال الدين المذكور على وظائفه .

وكان جمال الدين دمث الأخلاق ، حسن المحاضرة مقبول المفاكهة ، فخف على أتابك زنكي المذكور وأعجبه حديثه ومحاورته ، وجعله من ندمائه ،

---

٧٠٤ – تراجع أخباره في الباهر والمنتظم ١٠ : ٢٠٩ والشذرات ٤ : ١٨٥ .

[وعول عليه في آخر مدته في أشراف ديوانه][1] وزاد ماله ، ولم يظهر منه في أيام أتابك زنكي كرم ولا جود ولا تظاهر بموجود ، فلما قتل على قلعة جعبر – كما تقدم في ترجمته – أراد بعض العسكر قتل الوزير المذكور ونهب ماله ، فتعرضوا له ورموا خيمته بالنشاب ، فحماه جماعة من الأمراء ، وتوجه بالعسكر إلى الموصل ، فرتبه سيف الدين غازي بن أتابك زنكي – المقدم ذكره – في وزارته ، وفوض الأمور وتدبير أحوال الدولة إليه وإلى زين الدين علي بن بكتكين والد مظفر الدين صاحب إربل – وقد تقدم طرف من خبره في ترجمة ولده في حرف الكاف – فظهر حينئذ جود الوزير المذكور وانبسطت يده ، ولم يزل يعطي ويبذل الأموال ويبالغ في الإنفاق حتى عرف بالجواد ، وصار ذلك كالعلم عليه ، حتى لا يقال له إلا « جمال الدين الجواد » . ومدحه جماعة من الشعراء ، من جملتهم محمد بن نصر بن صغير القَيْسراني الشاعر – المقدم ذكره – فإنه قصده بقصيدته المشهورة التي أولها :

سقى الله بالزوراء من جانب الغربي ... مَهاً وردت عين الحياة من القلبِ

وهي من القصائد الطنانة .

وأثر آثاراً جميلة ، وأجرى الماء إلى عرفات أيام الموسم من مكان بعيد ، وعمل الدرج من أسفل الجبل إلى أعلاه ، وبنى سور مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما كان خرب من مسجده ، وكان يحمل في كل سنة إلى مكة شرفها الله تعالى والمدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام من الأموال والكسوات للفقراء والمنقطعين ما يقوم بهم مدة سنة كاملة ، وكان له ديوان مرتب باسم أرباب الرسوم والقصاد لا غير ، ولقد تنوع في فعل الخير حتى جاء في زمنه بالموصل غلاء مفرط فواسى الناس حتى لم يبقَ له شيء ، وكان إقطاعه عُشر مُغَلّ البلاد على جاري عادة وزراء الدولة السلجوقية ، فأخبر بعض وكلائه أنه دخل عليه يوماً فناوله بقياره ، وقال له : بع هذا واصرف ثمنه إلى المحاويج ، فقال له الوكيل : إنه لم يبق عندك سوى هذا البقيار والذي على رأسك ، وإذا بعت

---

[1] لم يرد في ر ن ق ، وورد في بر من .

هذا ربما تحتاج إلى تغيير[1] البقيار فلا تجد ما تلبسه ، فقال له : إن هذا الوقت صعب كما ترى ، وربما لا أجد وقتاً أصنع فيه الخير كهذا الوقت ، وأما البقيار فاني أجد عوضه كثيراً ، فخرج الوكيل وباع البقيار وتصدق بثمنه ؛ وله من هذه النوادر أشياء كثيرة .

وأقام على هذه الحال إلى أن توفي مخدومه غازي – في التاريخ المذكور في ترجمته – وقام بالأمر من بعده أخوه قطب الدين مودود – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى – فاستولى عليه مدة ، ثم إنه استكثر إقطاعه وثقل عليه أمره ، فقبض عليه في شهر رجب الفرد سنة ثمان وخمسين وخمسمائة . وفي أخبار زين الدين صاحب إربل طرفٌ من خبر قبضه وحبسه في قلعة الموصل . ولم يزل مسجوناً[2] بها إلى أن توفي في العشر الأخير من شهر رمضان المعظم ، وقيل شعبان ، سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، وصلي عليه ، وكان يوماً مشهوداً من ضجيج الضعفاء[3] والأرامل والأيتام حول جنازته ، ودفن بالموصل إلى بعض سنة ستين ، ثم نقل إلى مكة – حرسها الله تعالى – وطيف به حول الكعبة ، وكان بعد أن صعدوا به ليلة الوقفة إلى جبل عرفات ، وكانوا يطوفون به كل يوم مراراً مدة مقامهم بمكة ، شرفها الله تعالى ، وكان يوم دخوله مكة يوماً مشهوداً من اجتماع الخلق والبكاء عليه ، ويقال إنه لم يعهد[4] عندهم مثل ذلك اليوم ، وكان معه شخص مرتب يذكر محاسنه ويعدد مآثره ، إذا وصلوا به إلى المزارات والمواضع المعظمة ، فلما انتهوا به إلى الكعبة وقف وأنشد :

يا كعبةَ الإسلام هذا الذي ... جاءك يسعى كعبةُ الجودِ
قصدتِ في العام وهذا الذي ... لم يخلُ يوماً غيرَ مقصودِ

ثم حمل إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ودفن بها بالبقيع بعد أن أدخل

---

١ ق : إلى أن تغير .

٢ بر : محبوساً .

٣ بر : من ضجيج الناس من الضعفاء .

٤ بر : انهم لم يعهدوا .

المدينة ، وطيف به حول حجرة الرسول صلى الله عليه وسلم مراراً ، وأنشد الشخص الذي كان مرتباً معه ، فقال :

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما سرى جوده فوق الركاب ونائله
يمرُّ على الوادي فتثني رمـاله عليه وبالنـادي فتبكي أرامله

قلت : وهذان البيتان من جملة القصيدة المذكورة في ترجمة المقلد بن نصر بن منقذ الشيزري – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى – ؛ رحمه الله تعالى .

(233) وكان ولده أبو الحسن علي الملقب جلال الدين ، من الأدباء الفضلاء البلغاء الكرماء،رأيت له ديوان رسائل أجاد فيه، وجمعه مجد الدين أبو السعادات المبارك المعروف بابن الأثير الجزري صاحب « جامع الأصول » – وقد تقدم ذكره[1] – وسماه كتاب « الجواهر واللآلي من الإملاء المولويّ الوزيريّ الجلاليّ». وكان مجد الدين المذكور في أول أمره كاتباً بين يديه ، يملي رسائله وإنشاءه عليه، وهو كاتب يده ، وقد أشار مجد الدين إلى ذلك في أول هذا الكتاب ، وبالغ في وصف جلال الدين المذكور وتقريضه ،وفضله على كل من تقدم من الفصحاء ، وذكر أنه كان بينه وبين حَيْصَ بَيْصَ – الشاعر المقدم ذكره[2] – مكاتبات ، ولولا خوف الإطالة لذكرت بعض رسائله .

وفي جملة ما ذكره أن حيص بيص كتب إليه على يد رجل عليه دين رسالة مختصرة ، فأتيت بها لقصرها ، وهي « الكرم غامر والذكر سائر ، والعَوْنُ على الخطوب أكرم ناصر ، وإغاثة الملهوف من أعظم الذخائر ، والسلام »[3] .

وكان جلال الدين المذكور وزير سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود ، – وقد تقدم ذكره أيضاً في حرف الغين[4] – .

وتوفي جلال الدين المذكور سنة أربع وسبعين وخمسمائة ، بمدينة دُنَيْسَر

---

١ انظر ج ٤ : ١٤١ .
٢ انظر ج ٢ : ٣٦٢ .
٣ لم ترد هذه الرسالة في ق .
٤ انظر ج ٤ : ٤ .

وحمل إلى الموصل ثم نقل إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، ودفن بها في تربة والده ، رحمه الله تعالى .

ودُنَيْسَر : بضم الدال المهملة وفتح النون وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح السين المهملة وبعدها راء ، وهي مدينة بالجزيرة الفراتية بين نصيبين ورأس عين ، تطرقها التجار من جميع الجهات ، وهي مجمع الطرقات ، ولهذا قيل لها : دنيسر ، وهي لفظ مركب عجمي ، وأصله دنياسر ، ومعناه رأس الدنيا ، وعادة العجم في الأسماء المضافة أن يؤخروا المضاف عن المضاف إليه ، وسر بالعجمي رأس .

والكَفَرْتَوثي الوزير المذكور : بفتح الكاف وسكون الفاء وفتح الراء وضم التاء المثناة من فوقها وسكون الواو وبعدها ثاء مثلثة ، هذه النسبة إلى كفرتوثا وهي قرية من أعمال الجزيرة الفراتية بين رأس عين ودارا ، والله أعلم بالصواب .

٧٠٥

العماد الاصفهاني الكاتب

أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي الفرج محمد بن نفيس[١] الدين أبي الرجا حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله المعروف بابن أخي العزيز – وقد تقدم ذكر عمه العزيز في حرف الهمزة[٢] – . المعروف بأَلُهْ ، الملقب عماد الدين ، الكاتب الأصبهاني .

كان العماد المذكور فقيهاً شافعي المذهب ، تفقه بالمدرسة النظامية زماناً ،

---

٧٠٥ – أخباره في مرآة الزمان والكامل لابن الأثير (ج : ١٢) والروضتين ١ : ١٤٤ والوافي ١ : ١٣٣ ومعجم الأدباء ١٨ : ١١ وطبقات السبكي ٤ : ٩٧ وعبر الذهبي ٤ : ٢٩٩ والشذرات ٤ : ٣٣٢ وفي الخريدة والبرق الشامي أخبار كثيرة عن شئونه واشعاره .

١ ر : نصير . ٢ انظر ج ١ : ١٨٨ .

وأتقن الخلاف وفنون الأدب ، وله من الشعر والرسائل ما يغني عن الإطالة في شرحه . وكان قد نشأ بأصبهان وقدم بغداد في حداثته ، وتفقه على الشيخ أبي منصور سعيد بن محمد بن الرزاز مدرس النظامية ، وسمع بها الحديث من أبي الحسن علي بن هبة الله بن عبد السلام وأبي منصور محمد بن عبد الملك بن جيرون وأبي المكارم المبارك بن علي السمرقندي وأبي بكر أحمد بن علي بن الأشقر ، وغيرهم ، وأقام بها مدة .

ولما تخرج ومهر تعلق بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ببغداد ، فولاه النظر بالبصرة ثم بواسط ، ولم يزل ماشي الحال مدة حياته ، فلما توفي — في التاريخ الآتي ذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى — تشتت شمل أتباعه والمنتسبين إليه ونال المكروه بعضهم ، وأقام العماد مدة في عيش منكد وجفن مسهد ، ثم انتقل إلى مدينة دمشق ، فوصلها في شعبان سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، وسلطانها يومئذ الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن أتابك زنكي — الآتي ذكره إن شاء الله تعالى — وحاكمها ومتولي أمورها وتدبير دولتها القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد ابن الشهرزوري — المقدم ذكره[1] — فتعرف به وحضر مجالسه ، وذكر لديه مسألة في الخلاف ، وعرفه الأمير الكبير نجم الدين أبو الشكر أيوب والد السلطان صلاح الدين رحمهما الله تعالى ، وكان يعرف عمه العزيز من قلعة تكريت فأحسن إليه وأكرمه وميزه عند الأعيان والأماثل ، وعرفه السلطان صلاح الدين من جهة والده ، ومدحه في ذلك الوقت بدمشق المحروسة ، وذكر العماد ذلك في كتابه « البرق الشامي » وأورد القصيدة التي مدحه بها يومئذ .

ثم إن القاضي كمال الدين نوّه بذكره عند السلطان نور الدين ، وعدد عليه فضائله وأهله لكتابة الإنشاء . قال العماد : فبقيت متحيراً في الدخول فيما ليس من شأني ولا وظيفتي ، ولا تقدمت لي به دربة . ولقد كانت مواد هذه الصناعة عتيدة عنده ، لكنه لم يكن قد مارسها فجبن عنها في الابتداء ، فلما باشرها هانت عليه وأجاد فيها وأتى فيها بالغرائب ؛ وكان ينشىء الرسائل باللغة العجمية أيضاً ، وحصل بينه وبين صلاح الدين في تلك المدة مودة أكيدة وامتزاج تام[2] ،

---

١ انظر ج ٤ : ٢٤١ .

٢ تام : سقطت من ق ن بر من .

وعلت منزلته عند نور الدين ، وصار صاحب سره ، وسيره إلى دار السلام بغداد رسولاً في أيام الإمام المستنجد ، ولما عاد فوض إليه تدريس المدرسة المعروفة به في دمشق ، أعني العماد ، وذلك في شهر رجب سنة سبع وستين وخمسمائة ، ثم رتبه في اشراف الديوان في سنة ثمان وستين ، ولم يزل مستقيم الحال رخي البال ، إلى أن توفي نور الدين –في التاريخ الآتي ذكره إن شاء الله تعالى– وقام ولده الملك الصالح إسماعيل مقامه وكان صغيراً فاستولى عليه جماعة كانوا يكرهون العماد فضايقوه وأخافوه إلى أن ترك جميع ما هو فيه وسافر قاصداً بغداد فوصل إلى الموصل ومرض بها مرضاً شديداً .

ثم بلغه خروج السلطان صلاح الدين من الديار المصرية لأخذ دمشق ، فانثنى عزمه عن قصد العراق وعزم على العود إلى الشام وخرج من الموصل رابع جمادى الأولى سنة سبعين وخمسمائة ، وسلك طريق البرية ، فوصل إلى دمشق في ثامن جمادى الآخرة وصلاح الدين يومئذ نازل على حلب ، ثم قصد خدمته وقد تسلم قلعة حمص في شعبان من السنة ، فحضر بين يديه وأنشده قصيدة أطال نفسه فيها ، ثم لزم الباب ينزل لنزول السلطان ويرحل لرحيله[1] ، فاستمر على عطلته مديدة ، وهو يغشى مجالس السلطان وينشده في كل وقت مدائح ويعرض بصحبته القديمة ، ولم يزل على ذلك حتى نظمه في سلك جماعته واستكتبه واعتمد عليه وقرب[2] منه ، فصار من جملة الصدور المعدودين والأماثل المشهورين ، يضاهي الوزراء ويجري في مضمارهم . وكان القاضي الفاضل في أكثر أوقاته ينقطع عن خدمة السلطان ويتوفر على مصالح الديار المصرية ، والعماد ملازمٌ الباب بالشام وغيره وهو صاحب السر المكتوم .

وصنف التصانيف النافعة ، من ذلك : كتاب « خريدة القصر وجريدة العصر » جعله ذيلاً على « زينة الدهر » تأليف أبي المعالي سعد بن علي الوراق الحظيري ، والحظيري جعل كتابه ذيلاً على « دمية القصر وعصرة أهل العصر » للباخَرْزي ، والباخرزي جعل كتابه ذيلاً على « يتيمة الدهر » للثعالبي ، وقد

---

١ ق ر : يرحل لرحيل السلطان وينزل لنزوله .

٢ ق : وقربه .

تقدم ذكر هؤلاء الثلاثة المؤلفين ، والثعالبي جعل كتابه ذيلاً على كتاب « البارع » لهارون بن علي المنجم – وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى – وقد ذكر العماد في خريدته[1] الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة إلى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وجمع شعراء العراق والعجم والشام والجزيرة ومصر والمغرب ، ولم يترك أحداً[2] إلا النادر الخامل ، وأحسن في هذا الكتاب ، وهو في عشر مجلدات .

وصنف كتاب « البرق الشامي » في سبع مجلدات ، وهو مجموع تاريخ ، وبدأ فيه بذكر نفسه وصورة انتقاله من العراق إلى الشام ، وما جرى له في خدمة السلطان نور الدين محمود ، وكيفية تعلقه بخدمة السلطان صلاح الدين ، وذكر شيئاً من الفتوحات بالشام ، وهو من الكتب الممتعة ، وإنما سماه « البرق الشامي » لأنه شبه أوقاته في تلك الأيام بالبرق الخاطف لطيبها وسرعة انقضائها.

وصنف كتاب « الفتح القدسي[3] في الفتح القدسي » في مجلدين ، يتضمن كيفية فتح البيت المقدس ، وصنف كتاب « السيل على الذيل » جعله ذيلاً على « الذيل » لابن السمعاني المقدم ذكره الذي ذيل به « تاريخ بغداد » تأليف الخطيب البغدادي الحافظ ، هكذا كنت قد سمعت ثم إني وقفت عليه فوجدته ذيلاً على كتابه « خريدة القصر » المذكور ، وصنف كتاب « نصرة الفترة وعصرة الفطرة في أخبار الدولة السلجوقية » وله ديوان رسائل وديوان شعر في أربع مجلدات ، ونفسه في قصائده طويل ، وله ديوان صغير جميعه دوبيت .

وكان بينه وبين القاضي الفاضل مكاتبات ومحاورات لطاف ، فمن ذلك ما يحكى عنه أنه لقيه يوماً وهو راكب على فرس ، فقال له : سر فلا كبا بك الفرس ، فقال له الفاضل : دام علا العماد ، وهذا مما يقرأ مقلوباً وصحيحاً سواء . واجتمعا يوماً في موكب السلطان ، وقد انتشر من الغبار لكثرة الفرسان ما سد الفضاء ، فتعجبا من ذلك ، فأنشد العماد في الحال :

أما الغبار فإنه ... مما أثارته السنابك

والجو منه مظلم ... لكن أنار به السنا بك

---

[1] ق ر ن : الحريدة . [2] أحداً : سقطت من ر ق .

[3] ر ن : القسي .

يا دهر لي عبد الرحيـ ـم فلست أخشى مَسّ نابك

وقد اتفق له الجناس في الأبيات الثلاثة ، وهو في غاية الحسن .

وكان القاضي الفاضل قد حج من مصر في سنة أربع وسبعين وخمسمائة وركب البحر في طريقه ، فكتب إليه العماد : طوبى للحِجْر والحَجُون من ذي الحجر والحجا ، منيل الجدا ومنير الدجى ، ولندي الكعبة من كعبة الندى ، وللهدايا المشعرات من مشعر الهدى ، وللمقام الكريم من مقام الكريم ، ومن حاطم فقار الفقر للحطيم ، ومتى رؤي هرم في الحرم ، وحاتم ماتح زمزم ؟ ومتى ركب البحر البحر ، وسلك البر البر ؟ لقد عاد قُس إلى عكاظه ، وعاد قيس لحِفاظه ، ويا عجباً لكعبة يقصدها كعبة الفضل والإفضال ، ولقبلة يستقبلها قبلة القبول والإقبال ، والسلام .

لقد أبدع في هذه الرسالة وما أودعها من الصناعة ، لكن الظاهر أنه غلط في قوله قيس لحفاظه ، فإن المشهور أنس الحفاظ ، وهم أربعة أخوة لكل واحد منهم لقب ، ولولا خوف الإطالة والانتقال عما نحن بصدده لذكرت قصتهم[1] .

ولما توفي الوزير عون الدين بن هبيرة اعتقل الديوان العزيز جماعة من أصحابه وكان العماد في جملة من اعتقل ، لأنه كان ينوب عنه في واسط تلك المدة ، فكتب من الحبس إلى عماد الدين بن عضد الدين بن رئيس الرؤساء ، وكان حينئذ أستاذ الدار المستنجدية ، وذلك في شعبان سنة ستين وخمسمائة من قصيدة :

قل للامام : علام حبس وليكم أولوا جميلكم جميلَ ولائهِ

أوليس إذ حبس الغمامُ وليَّه خـلى أبوك سبيله بدعائـهِ

فأمر باطلاقه ، وهذا معنى مليح غريب ، وفيه إشارة إلى قضية العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فإن الغيث قد انقطع في زمن خلافته وأمحلت الأرض ، فخرج للاستسقاء ومعه

---

[1] هم المعروفون بالكملة من بني عبس أبناء فاطمة بنت الخرشب الأنمارية : الربيع الكامل وقيس الحفاظ وعمارة الوهاب وأنس الفوارس ؛ وأخطأ المؤلف في تعليقه .

العباس والناس ، فلما وقف للدعاء قال : اللهم إنا كنا إذا قحطنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك اليوم بعم نبينا فاسقنا ، فسقوا . وأما الوليُّ فهو المطر الذي يأتي بعد الوسمي ، وسمي ولياً لأنه يلي الوسمي ، والوسمي : مطر الربيع الأول ، وسمي بذلك لأنه يَسِم الأرضَ بالنبات ، وهو منسوب إلى الوسم ، وقد جمعها المتنبي في بيت واحد وهو :

أمُنْعِمة بالعودة الظبيةُ التي بغير ولي كان نائلها الوسمي

يعني أنه لم تكن لزيارتها الأولى ثانية .

ولم يزل العماد الكاتب على مكانته ورفعة منزلته إلى أن توفي السلطان صلاح الدين ، رحمه الله تعالى ، فاختلت أحواله وتعطلت أوصاله ، ولم يجد في وجهه باباً مفتوحاً ، فلزم بيته وأقبل على الاشتغال بالتصانيف ، وقد ساق في أوائل « البرق الشامي » طرفاً من ذلك . وتقدم في ترجمة ابن التعاويذي ما دار بينهما في طلب الفروة والرسالة والقصيدة وجوابها .

وكانت ولادته يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة ، وقيل في شعبان ، سنة تسع عشرة وخمسمائة بأصبهان . وتوفي يوم الاثنين مستهل شهر رمضان المعظم سنة سبع وتسعين وخمسمائة بدمشق ، ودفن في مقابر الصوفية خارج باب النصر ، رحمه الله تعالى .

أخبرني بعض الرؤساء ممن كان ملازمه في مدة مرضه أنه كان إذا دخل عليه أحدٌ يعوده أنشده :

أنا ضيف بربعكم أين أين المضيِّفُ ؟
أنكرتني معارفي مات من كنت أعرفُ

وألُهْ : بفتح الهمزة وضم اللام وسكون الهاء ، وهو اسم عجمي معناه بالعربي العقاب ، وهو الطائر المعروف ، وقد قيل إن العقاب لا يوجد فيه ذكر بل جميعه أنثى ، وإن الذي يسافده طائر آخر من غير جنسه ، وقيل إن الثعلب يسافده ، وهذا من العجائب .

ولابن عنين الشاعر المقدم ذكره في هجو شخص يقال له ابن سيده :

ما أنت إلا كالعقاب فأمه   معروفة وله ب مجهولُ

وهذه إشارة إلى ما نحن فيه ، والله تعالى أعلم بالصواب .

٧٠٦
الفارابي الفيلسوف

أبو نصر محمد بن محمد بن طَرْخان بن أوْزَلغ الفارابي التركي الحكيم المشهور، صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى وغيرهما من العلوم ؛ وهو أكبر فلاسفة المسلمين ، ولم يكن فيهم من بلغ رتبته في فنونه ، والرئيسُ أبو علي ابن سينا – المقدم ذكره – بكتبه تخرج وبكلامه انتفع في تصانيفه . وكان رجلاً تركياً ولد في بلده ونشأ بها – وسيأتي الكلام عليها في آخر الترجمة إن شاء الله تعالى– ثم خرج من بلده وتنقلت بـه الأسفار إلى أن وصل إلى بغداد ، وهو يعرف اللسان التركي وعدة لغات غير العربي ، فشرع في اللسان العربي فتعلمه وأتقنـه غاية الإتقان ، ثم اشتغل بعلوم الحكمة .

(234) ولما دخل بغداد كان بها أبو بشر متى بن يونس الحكيم المشهور، وهو شيخ كبير، وكان يقرأ الناسُ عليه[1] فن المنطق، وله إذ ذاك صيت عظيم وشهرة وافية ، ويجتمع في حلقته كل يوم المئون من المشتغلين بالمنطق ، وهو يقرأ كتاب أرسطاطاليس في المنطق ويملي على تلامذته شرحه ،فكتب عنه في شرحه سبعون[2]

---

٧٠٦ – ترجمته في الفهرست : ٢٦٣ وتاريخ الحكماء : ٢٧٧ وطبقات صاعد : ٥٣ وعبر الذهبي ٢ : ٢٥١ وتاريخ ابن العبري : ١٧٠ والوافي ١ : ١٠٦ قال ورأيت ابن خلكان قد قال : محمد بن طرخان ؛ قلت : وهو ثابت في النسخ ق ر ن والمختار : محمد بن محمد، وانظر عيون الانباء ٢ : ١٣٦ .

١ ر ن بر من : وكان يعلم الناس .

٢ بر : سبعين .

سفراً ، ولم يكن في ذلك الوقت أحد مثله في فنه ، وكان حسن العبارة في تواليفه لطيف الإشارة ، وكان يستعمل في تصانيفه البسط والتذليل ، حتى قال بعض علماء هذا الفن : ما أرى أبا نصر الفارابي أخذ طريق تفهيم المعاني الجزلة بالألفاظ السهلة إلا من أبي بشر يعني المذكور ، وكان أبو نصر يحضر حلقته في غمار تلامذته .

فأقام أبو نصر كذلك برهة ثم ارتحل إلى مدينة حَرّان وفيها يوحنا بن حيلان[1] الحكيم النصراني ، فأخذ عنه طرفاً من المنطق أيضاً ، ثم إنه قفل راجعاً إلى بغداد وقرأ بها علوم الفلسفة ، وتناول جميع كتب أرسطاطاليس وتمهر في استخراج معانيها والوقوف على أغراضه فيها ، ويقال إنه وجد « كتاب النفس » لأرسطاطاليس وعليه مكتوب بخط أبي نصر الفارابي : إني قرأت هذا الكتاب مائتي مرة . ونقل عنه أنه كان يقول : قرأت « السماع الطبيعي » لأرسطاطاليس الحكيم أربعين مرة ، وأرى أني محتاج إلى معاودة قراءته. ويروى عنه أنه سئل : من أعلم الناس بهذا الشأن أنت أم أرسطاطاليس؟ فقال : لو أدركته لكنت أكبر تلامذته .

وذكره أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد القرطبي في كتاب « طبقات الحكماء » فقال : الفارابي فيلسوف المسلمين بالحقيقة ، أخذ صناعة المنطق عن يوحنا بن حيلان المتوفى بمدينة السلام في أيام المقتدر، فبذ جميع أهل الإسلام وأربى عليهم في التحقيق لها وشرح غامضها وكشف سرها وقرب تناولها ، وجميع ما يحتاج إليه منها، في كتب صحيحة العبارة لطيفة الإشارة، منبهاً على ما أعيا الكندي وغيره من صناعة التحليل وأنحاء التعاليم ، وأوضح القول فيها عن مواد المنطق الخمسة ، وأفاد وجوه الانتفاع بها وعرف طرق استعمالها ، وكيف تَصَرُّفُ صورة القياس في كل مادة منها ، فجاءت كتبه في ذلك الغاية الكافية والنهاية الفاضلة ، ثم له بعد هذا كتاب شريف في إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها لم يُسْبَق إليه ولا ذهب أحد مذهبه فيه ولا يستغني طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به ، انتهى كلام ابن صاعد ؛ وذكر بعد ذلك

---

١ الوافي : حبلان ؛ بر : حلان ؛ ق ر : خيلان .

شيئاً من تواليفه ومقاصده فيها .

ولم يزل أبو نصر ببغداد مكباً على الاشتغال بهذا العلم والتحصيل له إلى أن برز فيه وفاق أهل زمانه ، وألف بها معظم كتبه ، ثم سافر منها إلى دمشق ، ولم يقم بها، ثم توجه إلى مصر، وقد ذكر أبو نصر في كتابه الموسوم بـ «السياسة المدنية » أنه ابتدأ بتأليفه في بغداد وأكمله بمصر ، ثم عاد إلى دمشق وأقام بها، وسلطانها يومئذ سيف الدولة بن حمدان، فأحسن إليه .

ورأيت في بعض المجاميع أن أبا نصر لما ورد على سيف الدولة وكان مجلسه مجمع الفضلاء في جميع المعارف فأدخل عليه وهو بزي الأتراك ، وكان ذلك زيه دائماً ، فوقف ، فقال له سيف الدولة : اقعد ، فقال : حيث أنا أم حيث أنت ؟ فقال : حيث أنت ، فتخطى رقاب الناس حتى انتهى إلى مسند سيف الدولة وزاحمه فيه حتى أخرجه عنه ، وكان على رأس سيف الدولة مماليك ، وله معهم لسان خاص يسارّهم به قَلَّ أن يعرفه أحد ، فقال لهم بذلك اللسان : إن هذا الشيخ قد أساء الأدب ، وإني مسائله عن أشياء إن لم يوف بها فاخرقوا به ، فقال له أبو نصر بذلك اللسان : أيها الأمير[1] ، اصبر فإن الأمور بعواقبها ، فعجب سيف الدولة منه وقال له : أتحسن هذا اللسان ؟ فقال : نعم أحسن أكثر من سبعين لساناً ، فعظم عنده . ثم أخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين في المجلس في كل فن ، فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل وبقي يتكلم وحده ، ثم أخذوا يكتبون ما يقوله ، فصرفهم سيف الدولة وخلا به ، فقال له : هل لك في أن تأكل ؟ فقال : لا ، فقال : فهل تشرب ؟ فقال : لا، فقال : فهل تسمع ؟ فقال : نعم ، فأمر سيف الدولة بإحضار القيان ، فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بأنواع الملاهي ، فلم يحرك أحد منهم آلته إلا وعابه أبو نصر وقال له : أخطأت ، فقال له سيف الدولة : وهل تحسن في هذه الصناعة شيئاً ؟ فقال : نعم ، ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها وأخرج منها عيداناً وركبها ، ثم لعب بها ، فضحك منها كل من كان في المجلس ، ثم فكها وركبها تركيباً آخر وضرب بها فبكى كل من في المجلس ، ثم فكها وغير

---

١ أيها الأمير : سقط من ن ر والمختار .

تركيبها وحركها فنام كل من في المجلس حتى البواب ، فتركهم نياماً وخرج .
ويحكى أن الآلة المسماة القانون من وضعه، وهو أول من ركبها هذا التركيب.
وكان منفرداً بنفسه لا يجالس الناس[١] ، وكان مدة مقامه بدمشق لا يكون غالباً إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض، ويؤلف هناك كتبه، وينتابه المشتغلون عليه . وكان أكثر تصنيفه في الرقاع ، ولم يصنف في الكراريس إلا القليل ، فلذلك جاءت أكثر تصانيفه فصولاً وتعاليق، ويوجد بعضها ناقصاً مبتوراً. وكان أزهد الناس في الدنيا لا يحتفل بأمر مكسب ولا مسكن ، وأجرى عليه سيف الدولة كل يوم من بيت المال أربعة دراهم ، وهو الذي اقتصر عليها لقناعته . ولم يزل على ذلك إلى أن توفي في سنة تسع وثلاثين وثلثمائة بدمشق، وصلى عليه سيف الدولة في أربعة من خواصه ، وقد ناهز ثمانين سنة ، ودفن بظاهر دمشق خارج باب الصغير ، رحمه الله تعالى .
وتوفي متى بن يونس ببغداد في خلافة الراضي ، هكذا حكاه ابن صاعد القرطبي في « طبقات الأطباء »[٢] .
وظفرت في مجموع بأبيات منسوبة إلى الفارابي ، ولا أعلم صحتها ، وهي :

أخي خلّ حيّزَ ذي باطل ... وكن للحقائق في حيّزِ
فما الدار دار مقام لنا ... وما المرء في الأرض بالمعجز
ينافس هذا لهذا على ... أقلّ من الكلم الموجز
وهل نحن إلا خطوط وقعن ... على نقطة وقعَ مستوفز
محيط السموات أولى بنا ... فما ذا التنافس في مركز

(235) ورأيت هذه الأبيات في « الخريدة » منسوبة إلى الشيخ محمد بن عبد الملك الفارقي البغدادي الدار. وقال العماد مؤلف « الخريدة » : إنه اجتمع به يوم الجمعة ثامن عشر شهر رجب ، سنة إحدى وستين وخمسمائة ، وتوفي بسنيات بعد ذلك .

---

١ ق : لا يجالس أحداً من الناس .
٢ ق : الحكماء ، وانظر ص : ١٥٤ .

وطرخان : بفتح الطاء المهملة وسكون الراء وفتح الخاء المعجمة وبعد الألف نون.

وأوْزَلَغ : بفتح الهمزة وسكون الواو وفتح الزاي واللام وبعدها غين معجمة ، وهما من أسماء الترك .

والفارابي : بفتح الفاء والراء وبينهما ألف وبعد الألف الثانية باء موحدة ، هذه النسبة إلى فاراب ، وتسمى في هذا الزمان أطرار – بضم الهمزه وسكون الطاء المهملة وبين الراءين ألف ساكنة – وقد غلب عليها هذا الاسم، وهي مدينة فوق الشاش ، قريبة من مدينة بلاساغون ، وجميع أهلها على مذهب الإمام الشافعي ، رضي الله عنه ، وهي قاعدة من قواعد مدن الترك ، ويقال لها فاراب الداخلة ، ولهم فاراب الخارجة ، وهي في أطراف بلاد فارس .

وبلاساغون : بفتح الباء الموحدة واللام ألف والسين المهملة وبعد الألف غين معجمة ثم واو ساكنة وبعدها نون ، وهي بلدة في ثغور الترك وراء نهر سيحون – المقدم ذكره – بالقرب من كاشْغَر .

وكاشْغَر : بفتح الكاف وبعد الألف شين معجمة ساكنة ثم غين معجمة مفتوحة وفي آخرها راء ، وهي من المدن العظام في تخوم الصين ؛ والله تعالى أعلم بالصواب .

٧٠٧

ابن زكريا الرازي

أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب المشهور؛ ذكر ابن جلجل في « تاريخ الأطباء » أنه دبّر مارستان الري ثم مارستان بغداد في أيام المكتفي . ومن

---

٧٠٧ – ترجمته في طبقات ابن جلجل : ٧٧ وطبقات صاعد : ٣٣ والفهرست : ٢٩٩ وابن أبي أصيبعة ٢ : ٣٤٣ (ط. بيروت) ونكت الهميان : ٢٤٩ وتاريخ الحكماء : ٢٧١ والوافي ٣ : ٧٦ وتاريخ ابن العبري : ١٥٨ وعبر الذهبي ٢ : ١٥٠ والشذرات ٢ : ٢٦٣ وابتداء من هذه الترجمة تشترك نسخة لاله لي (رقم ٢١١٣) ورمزها (لي) مع سائر النسخ .

أخباره أنه كان في شبيبته يضرب بالعود ويغني ، فلما التحى وجهه قال : كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يستظرف[1] ، فنزع عن ذلك وأقبل على دراسة كتب الطب والفلسفة ، فقرأها قراءة رجل متعقب على مؤلفيها ، فبلغ من معرفة غوائرها الغاية ، واعتقد الصحيح منها وعَلَّلَ السقيم ، وألف في الطب كتباً كثيرة .

وقال غيره : كان إمام وقته في علم الطب والمشار إليه في ذلك العصر ، وكان متقناً لهذه الصناعة حاذقاً فيها عارفاً بأوضاعها وقوانينها ، تشد إليه الرحال في أخذها عنه ، وصنف فيها الكتب النافعة ، فمن ذلك كتاب « الحاوي » وهو من الكتب الكبار ، يدخل في مقدار ثلاثين مجلداً ، وهو عمدة الأطباء في النقل منه والرجوع إليه عند الاختلاف . ومنها كتاب « الجامع » ، وهو أيضاً من الكتب الكبار النافعة . وكتاب « الأعصاب »[2] وهو أيضاً كبير ، وله أيضاً كتاب « المنصوري » المختصر المشهور ، وهو – على صغر حجمه – من الكتب المختارة ، جمع فيه بين العمل والعلم ويحتاج إليه كل أحد ، وكان قد صنفه لأبي صالح منصور بن نوح بن نصر بن إسماعيل بن أحمد بن أسد بن سامان ، أحد الملوك السامانية ، فنسب الكتاب إليه ، وله غير ذلك تصانيف كثيرة وكلها يحتاج إليها .

ومن كلامه : مهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية ، ومهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب ؛ ومن كلامه : إذا كان الطبيب عالماً والمريض مطيعاً فما أقل لبث العلة ؛ ومن كلامه : عالج في أول العلة بما لا تسقط به القوة .

[وذكر القاضي التنوخي في كتاب « الفرج بعد الشدة » في باب من اشتد بلاؤه بمرض فعافاه الله بأيسر سبب وأقاله: أن غلاماً من بغداد قدم الري وكان ينفث الدم ، وكان لحقه ذلك في طريقه ، فاستدعى أبا بكر الرازي الطبيب المشهور بالحذق ، صاحب الكتب المصنفة ، فأراه ما ينفث ووصف له ما يجد ،

---

١ ر : يطرب .

٢ لي : الاقصاب ؛ ر : الأقطار ؛ ن : الاعصار ؛ بر من : الاعضاء .

فأخذ الرازي مجسَّه ، ورأى قارورته واستوصف حاله منذ ابتداء ذلك به، فلم يقم له دليل على سلٍّ ولا قرحة ، ولم يعرف العلة ، واستنظر الرجل لينظر في الأمر ، فقامت على العليل القيامة وقال : هذا أيأس لي من الحياة لحذق الطبيب وجهله بالعلة ، فازداد ما به من الألم ، فولد الفكر للرازي أن عاد إليه فسأله عن المياه التي شربها في طريقه ، فأخبره أنه شرب من مستنقعات وصهاريج ، فقام في نفس الرازي بحدة الخاطر وجودة الذكاء أن علقة كانت في الماء وقد حصلت في معدته وأن ذلك الدم من فعلها وقال له : إذا كان في غد جئتك فعالجتك ولم أنصرف حتى تبرأ ، ولكن بشرط أن تأمر غلمانك أن يطيعوني فيك لما آمرهم ، فقال : نعم ؛ فانصرف الرازي فجمع ملء مركنين كبيرين من طحلب فأحضرهما في غدٍ معه فأراه إياهما وقال له : ابلع ، فقال : لا أستطيع، فقال للغلمان : خذوه فأنيموه ، ففعلوا به ذلك ، وطرحوه على قفاه وفتحوا فاه وأقبل الرازي يدس الطحلب في حلقه ويكبسه كبساً شديداً ويسأله ببلعه ويهدده بأن يضرب ، إلى أن أبلعه كارهاً أحد المركنين بأسره ، والرجل يستغيث فلا ينفعه مع الرازي شيء ، إلى أن قال العليل : الساعة أقذف ، فزاد الرازي في ما يكبسه في حلقه ، فذرعه القيء فقذف ، فتأمل الرازي قذفه فاذا فيه علقة ، واذا هي لما وصل إليها الطحلب قربت إليه بالطبع وتركت موضعها والتفت على الطحلب ونهض العليل معافى][1] .

ولم يزل رئيس هذا الشان ، وكان اشتغاله به على كبر ، يقال إنه لما شرع فيه كان قد جاوز أربعين سنة من العمر ، وطال عمره فعمي في آخر مدته ، وتوفي سنة إحدى عشرة وثلثمائة ، رحمه الله تعالى .

وكان اشتغاله بالطب على الحكيم أبي الحسن علي بن ربن الطبري صاحب التصانيف المشهورة ، منها « فردوس الحكمة » وغيره . وكان مسيحياً ثم أسلم . وقد تقدم الكلام على الرازي .

وأما الملوك السامانية فكانوا سلاطين ما وراء النهر وخراسان ، وكانوا أحسن الملوك سيرة ، ومن ولي منهم كان يقال له سلطان السلاطين ، لا ينعت إلا به ،

---

١ زيادة انفردت بها لي ، وقد وردت عند وستنفيلد .

وصار كالعلم لهم ، وكان يغلب عليهم العدل والدين والعلم ، وملك من بينهم جماعة، ولم تنقرض دولتهم إلا بدولة السلطان محمود بن سُبُكتكين – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – وكانت مدة ولايتهم مائة سنة وسنتين وستة أشهر وعشرة أيام .

(236) وكانت وفاة أبي صالح منصور المذكور في شوال سنة خمس وستين وثلثمائة وكان قد صنف له الرازي المذكور الكتاب المذكور في حال صغره ، ليشتغل به .

ثم رأيت نسخة كتاب[1] « المنصوري » ، وعلى ظهره : أن المنصور الذي وسم الرازي هذا الكتاب باسمه هو المنصور بن إسحاق بن أحمد بن نوح من ولد بهرام كوس[2] صاحب كرمان وخراسان، وكنيته أبو صالح، والله أعلم بالصواب.

وحكى ابن جلجل – المقدم ذكره – في تاريخه أيضاً : أن الرازي المذكور صنف لمنصور المذكور كتاباً في إثبات صناعة الكيمياء ، وقصده به من بغداد فدفع له الكتاب ، فأعجبه وشكره عليه وحباه بألف دينار وقال له : أريد أن تخرج هذا الذي ذكرت في هذا الكتاب إلى الفعل ، فقال له الرازي : إن ذلك مما يتمون له المؤن ، ويحتاج إلى آلات وعقاقير صحيحة ، وإلى إحكام صنعة ذلك كله ، وكل ذلك كلفة ، فقال له منصور : كل ما احتجت إليه من الآلات ، ومما يليق بالصناعة أحضره لك كاملاً حتى تخرج عما ضمنته كتابك إلى العمل . فلما حقق عليه كعّ عن مباشرة ذلك وعجز عن عمله . فقال له منصور : ما اعتقدتُ أن حكيماً يرضى بتحليل الكذب في كتب ينسبها إلى الحكمة ، يشغل بها قلوب الناس ويتعبهم فيما لا يعود عليهم من ذلك منفعة . ثم قال له : قد كافأناك على قصدك وتعبك بما صار إليك من الألف دينار ، ولا بد من معاقبتك على تخليد الكذب ، فحمل السوط على رأسه ، ثم أمر أن يضرب بالكتاب على رأسه حتى يتقطع ، ثم جهزه وسير به إلى بغداد ، فكان ذلك الضرب سبب نزول الماء إلى عينيه ، ولم يسمح بقدحها وقال : قد رأيت الدنيا .

---

[1] ق بر من : بكتاب .

[2] كذا هو في اكثر النسخ ؛ وسقطت الفقرة من لي .

(237) وكانت وفاة والده أبي محمد نوح بن نصر في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة .

(238) وكانت وفاة جده أبي الحسن نصر بن إسماعيل في رجب سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة .

(239) وكانت وفاة جد أبيه أبي إبراهيم إسماعيل بن أحمد في صفر ليلة الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت منه ، سنة خمس وتسعين ومائتين ببخاري ؛ ومولده سنة أربع وثلاثين ومائتين بفرْغانة ، وكان يكتب الحديث ويكرم العلماء .

(240) وكانت وفاة أحمد بن أسد بن سامان سنة خمسين ومائتين بفرْغانة ، رحمهم الله تعالى .

وسامان : بفتح السين المهملة والميم وبينهما ألف وبعد الألف الثانية نون — وهذا وإن كان خارجاً عن المقصود ، لكن مساق[1] الكلام جره ، وفيه فائدة لا يستغنى عنها ، والله أعلم بالصواب .

٧٠٨

ابن شاكر

أبو عبد الله محمد بن موسى بن شاكر ؛ أحد الإخوة الثلاثة الذين ينسب إليهم حِيَلُ بني موسى ، وهم مشهورون بها ، واسم أخويه أحمد والحسن ، وكانت لهم همم عالية في تحصيل العلوم القديمة وكتب الأوائل ، وأتعبوا أنفسهم في شأنها ، وأنفذوا إلى بلاد الروم مَنْ أخرجها لهم ، وأحضروا النَّقلة من الأصقاع الشاسعة والأماكن البعيدة بالبذل السَّنيّ ، فأظهروا عجائب الحكمة . وكان الغالب عليهم من العلوم : الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم ، وهو

---

١ ق : سياق .

٧٠٨ — ترجمته في طبقات صاعد : ٥٥ والفهرست : ٢٧١ وأخبار الحكماء : ٣١٥ .

الأقل . ولهم في الحيل كتاب عجيب نادر يشتمل على كل غريبة ، ولقد وقفتُ عليه فوجدته من أحسن الكتب وأمتعها ، وهو مجلد واحد .

ومما اختصوا به في ملة[1] الإسلام وأخرجوه من القوّة إلى الفعل – وإن كان أرباب الأرصاد المتقدمون على الإسلام قد فعلوه ، لكنه لم يقل إن أحداً من أهل هذه الملة تصدى له وفعله ، إلا هم – وهو أن المأمون كان مغرى بعلوم الأوائل وتحقيقها ، ورأى فيها أن دور كرة الأرض أربعة وعشرون ألف ميل ، كل ثلاثة أميال فرسخ ، فيكون المجموع ثمانية آلاف فرسخ ، بحيث لو وضع طرف حبل على أي نقطة كانت من الأرض ، وأدرنا الحبل على كرة الأرض حتى انتهينا بالطرف الآخر إلى ذلك الموضع من الأرض ، والتقى طرفا الحبل ، فإذا مسحنا ذلك الحبل كان طوله أربعة وعشرين ألف ميل .

فأراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك ، فسأل بني موسى المذكورين عنه فقالوا : نعم ، هذا قطعي . فقال : أريد منكم أن تعملوا الطريق الذي ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك أم لا ، فسألوا عن الأراضي المتساوية في أي البلاد هي ؟ فقيل لهم : صحراء سنجار في غاية الاستواء ، وكذلك وطاة الكوفة ، فأخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون إلى أقوالهم ، ويركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة ، وخرجوا إلى سنجار ، وجاءوا إلى الصحراء المذكورة ، فوقفوا في موضع منها وأخذوا ارتفاع القطب الشمالي ببعض الآلات ، وضربوا في ذلك الموضع وَتِداً وربطوا فيه حبلاً طويلاً ، ثم مشوا إلى الجهة الشمالية على الاستواء من غير انحراف إلى اليمين واليسار حسب الإمكان . فلما فرغ الحبل نصبوا في الأرض وتداً آخر وربطوا فيه حبلاً طويلاً ، ومشوا إلى جهة الشمال أيضاً كفعلهم الأول؛ ولم يزل ذلك دأبهم ، حتى انتهوا إلى موضع أخذوا[2] فيه ارتفاع القطب المذكور ، فوجدوه قد زاد على الارتفاع الأول درجة ، فمسحوا ذلك القدر الذي قدروه من الأرض بالحبل ، فبلغ ستة وستين ميلاً وثلثي ميل ، فعلموا أن كل درجة من درج الفلك ، يقابلها من سطح الأرض ستة وستون ميلاً وثلثان .

---

١ ملة : سقطت من ق .

٢ لي : الموضع الذي أخذوا .

ثم عادوا إلى الموضع الذي ضربوا فيه الوتد الأول وشدوا فيه حبلاً ، وتوجهوا إلى جهة الجنوب ، ومشوا على الاستقامة ، وعملوا كما عملوا في جهة الشمال : من نصب الأوتاد وشد الحبال ، حتى فرغت الحبال التي استعملوها في جهة الشمال ، ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالي قد نقص عن ارتفاعه الأول درجة ، فصح حسابهم وحققوا ما قصدوه من ذلك ، وهذا إذا وقف عليه من له يد في علم الهيئة ظهر له حقيقته . ومن المعلوم أن عدد درج الفلك ثلثمائة وستون درجة ، لأن الفلك مقسوم باثني عشر برجاً ، وكل برج ثلاثون درجة ، فتكون الجملة ثلثمائة وستين درجة ، فضربوا عدد درج الفلك في ستة وستين ميلاً وثلثين – أي التي هي حصة كل درجة – فكانت الجملة أربعة وعشرين ألف ميل ، وهي ثمانية آلاف فرسخ ، وهذا محقق لا شك فيه .

فلما عاد بنو موسى إلى المأمون وأخبروه بما صنعوا ، وكان موافقاً لما رآه في الكتب القديمة من استخراج الأوائل ، طلب تحقيق ذلك في موضع آخر ، فسيرهم إلى أرض الكوفة وفعلوا كما فعلوا في سنجار ، فتوافق الحسابان ، فعلم المأمون صحة ما حرره القدماء في ذلك ، وهذا الفصل هو الذي أشرت إليه في ترجمة أبي بكر محمد بن يحيى الصولي وقلت : لولا التطويل لبينت ذلك[1] .

وكانت لبني موسى المذكورين أوضاع نادرة غريبة ، ولولا الإطالة لذكرت شيئاً منها .

وتوفي محمد المذكور في شهر ربيع الأول سنة تسع وخمسين ومائتين ، رحمه الله تعالى ؛ والله أعلم بالصواب .

---

[1] انظر ج ٤ : ٣٥٩ .

٧٠٩

البتاني الحاسب

أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحَرّاني الأصل البَتّاني الحاسب ، المنجم المشهور صاحب الزيج ، الصابي ؛ له الأعمال العجيبة والأرصاد المتقنة . وأول ما ابتدأ بالرصد في سنة أربع وستين ومائتين ، إلى سنة ست وثلثمائة ، وأثبت الكواكب الثابتة في زيجه لسنة تسع وتسعين ومائتين. وكان أوحد عصره في فنه ، وأعماله تدل على غزارة فضله وسعة علمه . وتوفي سنة سبع عشرة وثلثمائة ، عند رجوعه من بغداد ، بموضع يقال له قصر الحَضْر . ولم أعلم أنه أسلم ، لكن اسمه يدل على إسلامه .

وله من التصانيف « الزيج » وهو نسختان : أولى وثانية ، والثانية أجود وكتاب « معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك » ورسالة في « مقدار الاتصالات » ، وكتاب شرح فيه أربعة أرباع الفلك ، ورسالة في تحقيق أقدار الاتصالات ، وشرح أربع مقالات بطليموس[1] ، وغير ذلك .

والبتاني : بفتح الباء الموحدة ، وقال أبو محمد هبة الله بن الأكفاني[2] بكسرها ، وبتشديد التاء المثناة من فوقها وبعد الألف نون ، هذه النسبة إلى بتّان ، وهي ناحية من أعمال حران .

والحَضْر : بفتح الحاء المهملة وسكون الضاد المعجمة وبعدها راء ، وهي مدينة قديمة ، بالقرب من تكريت ، بين دجلة والفرات في البرية ، وكان صاحبها الساطرون ، فحاصره أردشير بن بابك أول ملوك الفرس ، وأخذ البلد وقتله ، وفي ذلك يقول أبو دواد الإيادي ، واسمه حارثة بن حجاج ،

---

٧٠٩ – ترجمته في الفهرست : ٢٧٩ وتاريخ الحكماء : ٢٨٠ وطبقات صاعد : ٣١ والشذرات ٢ : ٢٧٦ .

١ ن : بطلميوس .

٢ ذكره المؤلف ١ : ٢٦٩ وكانت وفاته سنة ٥٢٣ .

وقيل حنظلة بن شرقي[1] :

وأرى الموت قد تدلى من الحَضْـ ـر على رب أهله الساطرونِ
صرعته الأيام[2] من بعد ملك ونعـيم وجوهر مكنون

وذكره أيضاً عدي بن زيد العبادي في قوله[3] :

وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجـ ـلة تُجْبى إليـه والخابورُ

وجاء ذكره في الشعر كثيراً ، وقيل إن الذي حصره سابور ذو الأكتاف وهو الذي ذكره ابن هشام في سيرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأول أصح .

والساطِرون : بفتح السين المهملة وبعد الألف طاء مهملة مكسورة ثم راء مضمومة ثم واو ساكنة وبعدها نون وهو لفظ سرياني ، ومعناه الملك ، واسمه ضَيْزَن — بفتح الضاد المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الزاي وبعدها نون — بن معاوية .

وضيزن : اسم صنم كان في الجاهلية وبه سمي الرجل ، وهو قضاعي ، وكان من ملوكِ الطوائف ، وإذا اجتمعوا لحرب غيرهم تقدم عليهم ، لعظمته[4] عندهم .

فأقام أردشير على حصاره أربع سنين وهو لا يقدر عليه ، وكان للساطرون ابنة يقال لها نضيرة — بفتح النون وكسر الضاد المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الراء وبعدها هاء ساكنة — وفيها يقول الشاعر :

أقفر الحَضْر من نضيرة فالمر باع منها فجانب الثرثارِ

وكانت في غاية الجمال ، وكانت عادتهم إذا حاضت المرأة أنزلوها إلى الربض ،

---

١ ديوان أبي دواد : ٣٤٧ .
٢ ق : صرعته المنون .
٣ ديوان عدي : ٨٨ .
٤ ق ر : لعظمه .

فحاضت نضيرة فأنزلت إلى ربض الحَضْر ، فأشرفت ذات يوم فأبصرت أردشير وكان من أجمل الرجال فهويته ، فأرسلت إليه أن يتزوجها وتفتح له الحصن ، واشترطت عليه ، والتزم لها ما طلبت ، ثم اختلفوا في السبب الذي دلته عليه حتى فتح الحصن ، والذي قاله الطبري أنها دلته على طِلَّسْم كان في الحصن ، وكان في علمهم أنه لا يفتح حتى تؤخذ حمامة ورقاء وتخضب رجلاها بحيض جارية بكر زرقاء ، ثم ترسل الحمامة فتنزل على سور الحصن ، فيقع الطِّلَّسْم[1] فيفتح الحصن ، ففعل أردشير ذلك واستباح الحصن وخربه وأباد أهله [وقتل الساطرون أباها][2] وسار بنضيرة وتزوجها ، فبينما هي نائمة على فراشها ليلاً إذ جعلت تتململ لا تنام[3] ، فدعا بالشمع ، ففتش فراشها فوجد عليه ورقة آس ، فقال لها أردشير : أهذا الذي أسهرك ؟ قالت : نعم ، قال : فما كان أبوك يصنع بك ؟ قالت : كان يفرش لي الديباج ويلبسني الحرير ويطعمني المخ والزبد وشهد أبكار النحل ، ويسقيني الخمر الصافي ، قال : فكان جزاء أبيك ما صنعت به ؟ أنت إليّ بذلك أسرع ، ثم أمر بها[4] فربطت قرون رأسها بذَنب فرس ، ثم ركض الفرس حتى قتلها . والحضر إلى الآن آثاره باقية ، وفيه بقايا عمائر ، لكنه لم يسكن منذ ذلك الوقت ؛ وقد طال الكلام فيه ، وإنما هي حكاية غريبة فأحببت إثباتها .

---

١ ق : فتنزل على طلسم الحصن .

٢ لم ترد إلا في المختار .

٣ ورد النص في لي مغايراً لسائر النسخ إذ جاء هنالك : « فجعلت تململ ولا يأخذها النوم ، فقال لها سابور : أي شيء خبرك لا تنامين ؟ قالت : ما نمت على فراش أخشن من هذا الفراش ، وبعد فأنا أحس بشيء يؤذيني ، فأمر سابور بالفراش فأبدل ، فلم تنم أيضاً حتى أصبحت وهي تشتكي جنبها ، فنظر اليه فاذا ورقة آس قد لصقت ببعض عكنها وقد أدمتها ، فعجب سابور من ذلك وقال : أهذا الذي أسهرك ؟.. الخ » ؛ وكذلك أورده وستنفيلد .

٤ لي : ثم أمر بها فشدت ذوائبها إلى فرسين جامحين ، ثم أرسلا فقطعاها ؛ والدليل على ذلك أن في البرية مواضع قريبة من الثرثار : موضع يعرف بالورك وآخر يقال له الكتف وآخر يعرف بالأعضاء ، وهي أماكن وجدت أعضاؤها فيها فسمي المكان بالعضو الذي وجد فيه ؛ وهذا هو ما أثبته وستنفيلد أيضاً في هذه الترجمة .

ورأيت في تاريخ آخر أنه دخل بغداد وخرج منها وتوفي في الطريق بقصر الحَضْر في التاريخ المذكور، قال ياقوت الحموي في كتابه «المشترك» : قصر الحضر بقرب سامرا من أبنية المعتصم ، والله تعالى أعلم[1] .

٧١٠
أبو الوفاء المهندس

أبو الوفاء محمد بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس البُوزْجاني الحاسب المشهور؛ أحد الأئمة المشاهير في علم الهندسة، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها ، وكان شيخنا العلامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس، تغمده الله برحمته وهو القيم بهذا الفن ، يبالغ في وصف كتبه ويعتمد عليها في أكثر مطالعاته ، ويحتج بما يقوله . وكان عنده من تواليفه عدة كتب . وله في استخراج الأوتار تصنيف جيد نافع .

وكانت ولادته يوم الأربعاء مستهل شهر رمضان المعظم سنة ثمان وعشرين وثلثمائة ، بمدينة بُوزْجان . وتوفي سنة سبع وثمانين وثلثمائة[2] ، رحمه الله تعالى .

وبُوزْجان : بضم الباء الموحدة وسكون الواو والزاي وفتح الجيم وبعد الألف نون ، وهي بليدة بخراسان بين هَراة ونيسابور .

وكان قد قدم العراق سنة ثمان وأربعين وثلثمائة .

وكنت وقفت على تاريخ ولادته على هذه الصورة في كتاب « الفهرست »

---

١ ورأيت ... أعلم : لم يرد في لي .

٧١٠ - ترجمته في الفهرست : ٢٨٣ وأخبار الحكماء : ٢٨٧ والوافي ١ : ٢٠٩ وابن الأثير (وفيات : ٣٨٧) وراجع الامتاع والمؤانسة فقد كتبه أبو حيان له ؛ ولم يقف صاحب المختار عند هذه الترجمة .

٢ موضع التاريخ بياض في لي ؛ وفي تاريخ الحكماء أنه توفي سنة ٣٨٨ .

تأليف أبي الفرج ابن النديم ، ولم يذكر تاريخ وفاته . فكتبت هذه الترجمة ، وذكرت تاريخ الولادة ، فأخليت بياضاً لأجل تاريخ الوفاة لعلي أظفر به ، فإن قصدي في هذا التاريخ إنما هو ذكر الوفاة كما ذكرته في أول الكتاب . ثم إني وجدت تاريخ الوفاة في تاريخ شيخنا ابن الأثير قد ذكرها في هذه السنة المذكورة فألحقتها . وكان بين شروعي في هذا التاريخ وظفري بالوفاة أكثر من عشرين سنة ، والله تعالى أعلم .

٧١١

الزمخشري صاحب الكشاف

أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمَخْشَري ، الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان ؛ كان إمام عصره من غير مدافع ، تُشَدّ إليه الرحال في فنونه . أخذ النحو عن أبي مضر منصور[١] ، وصنف التصانيف البديعة : منها « الكشاف » في تفسير القرآن العزيز ، لم يصنف قبله مثله [و « المحاجاة بالمسائل النحوية » و « المفرد والمركب » في العربية][٢] و « الفائق » في تفسير الحديث ، و « أساس البلاغة » في اللغة ، و « ربيع الأبرار وفصوص الأخبار » و « متشابه أسامي الرواة » و « النصائح الكبار » و « النصائح الصغار » و « ضالة الناشد والرائض[٣] في علم الفرائض »

---

٧١١ – ترجمته في طبقات المعتزلة : ٢٠ ولسان الميزان ٦ : ٤ والجواهر المضية ٢ : ١٦٠ والبدر السافر ، الورقة : ١٩٣ وعبر الذهبي ٤ : ١٠٦ وانباه الرواة ٣ : ٢٦٥ وفي الحاشية ثبت كبير بالمصادر الأخرى .

١ لي : أبي منصور مضر ؛ وسقطت مضر من بر من والمختار .

٢ لم يرد في النسخ ، وورد عند وستنفيلد والمطبوعة المصرية .

٣ ن : وضالة الناشد وكتاب الرائض ...

و « المفصل » في النحو وقد اعتنى بشرحه خلق كثير ، و « الأنموذج » في النحو ، و « المفرد والمؤلف » في النحو ، و « رؤوس المسائل » في الفقه ، و « شرح أبيات كتاب سيبويه » و « المستقصى[1] في أمثال العرب » و « صميم العربية » و « سوائر الأمثال » و « ديوان التمثيل » و « شقائق النعمان في حقائق النعمان » و « شافي العيّ من كلام الشافعي » رضي الله عنه ، و « القسطاس » في العروض ، و « معجم الحدود » و « المنهاج » في الأصول ، و « مقدمة الآداب »[2] و « ديوان الرسائل » و « ديوان الشعر » و « الرسالة الناصحة » والأمالي في كل فن، وغير ذلك ؛ وكان شروعه في تأليف «المفصل» في غرة شهر رمضان سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وفرغ منه في غرة المحرم سنة خمس عشرة وخمسمائة .

وكان قد سافر إلى مكة ، حرسها الله تعالى ، وجاور بها زماناً ، فصار يقال له « جار الله » لذلك ، وكان هذا الاسم علماً عليه . وسمعت من بعض المشايخ أن إحدى رجليه كانت ساقطة ، وأنه كان يمشي في جاون خشب ، وكان سبب سقوطها أنه كان في بعض أسفاره ببلاد خوارزم أصابه ثلج كثير وبرد شديد في الطريق فسقطت منه رجله ، وأنه كان بيده محضر فيه شهادة خلق كثير ممن اطلعوا على حقيقة ذلك خوفاً من أن يظن من لم يعلم صورة الحال أنها قطعت لريبة ، والثلج والبرد كثيراً ما يؤثر في الأطراف في تلك البلاد فتسقط، خصوصاً خوارزم ، فإنها في غاية البرد ، ولقد شاهدت خلقاً كثيراً ممن سقطت أطرافهم بهذا السبب ، فلا يستبعده من لم يعهده .

ورأيت في تاريخ بعض المتأخرين[3] أن الزمخشري لما دخل بغداد واجتمع بالفقيه الحنفي الدامغاني سأله عن سبب قطع رجله ، فقال : دعاء الوالدة ، وذلك أني في صباي أمسكت عصفوراً وربطته بخيط في رجله ، وأفلت من يدي ، فأدركته وقد دخل في خرق ، فجذبته فانقطعت رجله في الخيط ، فتألمت

---

١ ق : والمستصفى ، وقد طبع الكتاب باسم « المستقصى » .

٢ ن بر من : الادب .

٣ انظر انباه الرواة ٣ : ٢٦٨ .

والدتي لذلك وقالت : قطع الله رجل الأبعد كما قطعت رجله ؛ فلما وصلت إلى سن الطلب رحلت إلى بخارى لطلب العلم ، فسقطت عن الدابة فانكسرت الرجل[1] وعملت عليّ عملاً أوجب قطعها ؛ والله أعلم بالصحة .

وكان الزمخشري المذكور معتزلي الاعتقاد متظاهراً به ، حتى نقل عنه أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن : قل له أبو القاسم المعتزلي بالباب. وأول ما صنف كتاب «الكشاف» كتب استفتاح الخطبة « الحمد لله الذي خلق القرآن » فيقال إنه قيل له : متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب أحد فيه ، فغيره بقوله « الحمد لله الذي جعل القرآن » وجعل عندهم بمعنى خلق ، والبحث في ذلك يطول ، ورأيت في كثير من النسخ « الحمد لله الذي أنزل القرآن » وهذا إصلاح الناس لا إصلاح المصنف .

وكان الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السِّلَفي المقدم ذكره، رحمه الله تعالى، قد كتب إليه من الإسكندرية[2] ، وهو يومئذ مجاور بمكة حرسها الله تعالى ، يستجيزه في مسموعاته ومصنفاته ، فرد جوابه بما لا يشفي الغليل ، فلما كان في العام الثاني كتب إليه أيضاً مع الحُجّاج استجازة أخرى اقترح فيها مقصوده ، ثم قال في آخرها : ولا يحوج ، أدام الله توفيقه ، إلى المراجعة ، فالمسافة بعيدة، وقد كاتبه في السنة الماضية فلم يجبه بما يشفي الغليل ، وله في ذلك الأجر الجزيل.

X فكتب إليه الزمخشري جوابه ، ولولا خوف التطويل لكتبت الاستدعاء والجواب ، لكن نقتصر على بعض الجواب وهو « ما مثلي مع أعلام العلماء إلا كمثل السُّها مع مصابيح السماء ، والجَهام الصفر من الرهام مع الغوادي الغامرة للقيعان والآكام ، والسُّكَيْت المخلف مع خيل السباق ، والبغاث مع الطير العتاق ، وما التلقيب بالعلامة ، إلا شبه الرقم بالعلامة ، والعلم مدينة أحدُ بابيها الدراية ، والثاني الرواية[3] ، وأنا في كلا البابين ذو بضاعة مُزجاة ، ظلي

---

١ ق : رجلي .

٢ انظر هذه المكاتبات في أزهار الرياض ٣ : ٢٨٣ .

٣ ق : للدراية ... للرواية .

فيه أقلص من ظل حَصاة ، أما الرواية فحديثة الميلاد ، قريبة الإسناد ، لم تستند إلى علماء نحارير ، ولا إلى أعلام مشاهير ، وأما الدراية فثَمد لا يبلغ أفواها ، وبرض لا يبلُّ شفاها » ثم كتب بعد هذا : لا يغرنكم قول فلان في ولا قول فلان ، وعدد جماعة من الشعراء والفضلاء مدحوه بمقاطيع من الشعر ، وأوردها كلها ، ولا حاجة إلى الاتيان بها ها هنا ، فلما فرغ من إيرادها كتب « فإن ذلك اغترار منهم بالظاهر المموّه ، وجهل بالباطن المشوّه ، ولعل الذي غرهم مني ما رأوا من حسن منصح للمسلمين وبليغ الشفقة على المستفيدين ، وقطع المطامع عنهم ، وإفادة المبار والصنائع عليهم ، وعزة النفس والرَّبءِ بها عن الإسفاف للدنيّات ، والإقبال على خويصتي ، والإعراض عما لا يعنيني ، فجللت في عيونهم ، وغلطوا في ونسبوني إلى ما لست منه في قَبيل ولا دَبير ، وما أنا فيما أقول بهاضمٍ لنفسي كما قال الحسن البصري ، رحمه الله تعالى ، في أبي بكر الصديق رضوان الله عليه بقوله « وليتكم ولست بخيركم » : إن المؤمن ليهضم نفسه ، وإنما صدقت الفاحص عني وعن كنه روايتي ودرايتي ومن لقيت وأخذت عنه ، وما بلغ علمي وقصارى فضلي ، وأطلعته طلعَ أمري ، وأفضيت إليه بخبيّة سري ، وألقيت إليه عُجَري وبُجَري ، وأعلمته نجمي وشجري . وأما المولد فقرية مجهولة من قرى خوارزم تسمى زَمَخْشر ، وسمعت أبي ، رحمه الله تعالى ، يقول : اجتاز بها أعرابي فسأل عن اسمها واسم كبيرها ، فقيل له : زمخشر والردّاد ، فقال لا خير في شر وردّ ، ولم يُلْمم بها ؛ ووقت الميلاد شهر الله الأصم في عام سبع وستين وأربعمائة ، والله المحمود ، والمصلى عليه محمد وآله وأصحابه » هذا آخر الإجازة ، وقد أطال الكلام فيها ، ولم يصرح له بمقصوده فيها ، وما أعلم هل أجازه بعد ذلك أم لا .

وبيني وبينه في الرواية شخص واحد ، فإنه أجاز زينب بنت الشَّعْري ، ولي منها إجازة كما تقدم في ترجمتها في حرف الزاي .

ومن شعره السائر قوله ، وقد ذكره السمعاني في « الذيل »[1] قال : أنشدني أحمد بن محمود الخوارزمي إملاء بسمرقند ، قال : أنشدنا محمود بن عمر الزمخشري

---

[1] لي : المذيل .

لنفسه بخوارزم ، وذكر الأبيات وهي :

ألا قل لسعدى ما لنا فيك من وَطَـرْ وما تطلبين النجـل من أعـين البقرْ
فانا اقتصرنا بالذين تضايقـت عيونهمُ والله يجـزي من اقتصر
مليـح ولكن عنـده كل جَفْوة ولم أر في الدنيـا صفاء بلا كدر
ولم أنس إذ غازلته قرب روضة إلى جَنْب حوض فيه للماء مُنْحَدَر
فقلـت له : جئني بورد وإنمـا أردت به ورد الخدود وما شعر
فقال : انتظرني رَجْعَ طرفٍ أجيء به فقلت له : هيهـات ماليَ منتظر
فقال : ولا ورد سوى الخد حاضر فقلت له : إني قنعت بما حضر

ومن شعره يرثي شيخه أبا مضر منصوراً المذكور أولاً :

وقائلة : مـا هـذه الدرر التي تساقط من عينيك سِمْطين سمطين ؟
فقلت : هو الدر الذي كان قد حشا أبو مضر أذْني تساقَطَ مـن عيني

وهذا مثل قول القاضي أبي بكر الأرجاني – المقدم ذكره – ولا أعلم أيهما أخذ من الآخر لأنهما كانا متعاصرين ، وهو :

لم يُبكني إلا حديث فراقـكم[1] لمّا أسر بـه إلى مُوَدّعي
هو ذلك الدر الذي أودعتُـمُ في مسمعي أجريته من مدمعي

وهذان البيتان من جملة قصيدة طويلة بديعـة ؛ ومن المنسوب إلى القاضي الفاضل في هذا المعنى :

لا تردني نظـرةٌ ثانيـة كَفَتِ الأولى ووفَّت ثمني
لك في قلبي حديث مودَع لا جحدت الحب ما أودعني
خذه من جفني عقوداً إنـه بعضُ ما أودعتَه في أذني

ومما أنشده لغيره في كتابه « الكشاف » عند تفسير قول الله تعالى في سورة البقرة ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ﴾ (البقرة : ٢٦)

---

١ ق ر لي : فراقهم .

فإنه قال : أنشدت لبعضهم :

يا من يرى مدَّ البعوض جَناحها　　في ظلمة الليـل البهيم الأليلِ
ويرى عروق نياطها في نحرها　　والمخ في تلك العظام النحَّلِ
اغفرْ لعبدٍ تاب من فرطاته　　ما كان منه في الزمان الأول

وكان بعض الفضلاء قد أنشدني هـذه الأبيات بمدينة حلب وقال : إن الزمخشري المذكور أوصى أن تكتب على لوح قـبره هذه الأبيات ، ثم أنشدني ذلك الفاضل الرئيس بيتين وذكر أن صاحبها أوصى أن يكتبا على قبره وهما[1] :

إلهيَ قد أصبحْتُ ضيفك في الثرى　　وللضيف حق عند كل كريمِ
فهب لي ذنوبي في قراي فإنها　　عظيم ولا يُقرَى بغـير عظيمِ

وأخبرني بعض الأصحاب أنه رأى بجزيرة سواكن تربة ملكها عزيز الدولة ريحان وعلى قبره مكتوب :

يا أيها الناس كان لي أمل　　قَصَّر بي عن بلوغه الأجَلُ
فليتق الله ربـه رجـل　　أمكنه قبـل موته العمل
ما أنا وحدي نقلت حيث ترى　　كل إلى مـا نقلت ينتقل

وكانت ولادة الزمخشري يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب سنة سبع وستين وأربعمائة بزمخشر . وتوفي ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، بجُرْجانية خوارزم ، بعد رجوعه من مكة ، رحمه الله تعالى ؛ ورثاه بعضهم بأبيات ، ومن جملتها :

فأرض مكة تذري الدمع مقلتها　　حزناً لفرقـة جـار الله محمودِ

وزَمَخْشَر : بفتح الزاي والميم وسكون الخاء المعجمة وفتح الشين المعجمة

---

١ ينتهي هنا الجزء الأول من المختار ، وقد سقطت منه تراجم ، ثم يبدأ الجزء الثاني بترجمة « أبو تميم معد » .

وبعدها راء ، وهي قرية كبيرة من قرى خوارزم .

وجُرْجانية : بضم الجيم الأولى وفتح الثانية وسكون الراء بينهما وبعد الألف نون مكسورة وبعدها ياء مثناة من تحتها مفتوحة مشددة ثم هاء ساكنة ، وهي قصبة خوارزم .

قال ياقوت الحموي في كتاب «البلدان» : يقال لها بلغتهم كركانج، وقد عربت فقيل لها الجرجانية ، وهي على شاطىء جيحون ، والله تعالى أعلم بالصواب .

٧١٢

القاضي الأصبهاني

أبو طالب محمود بن علي بن أبي طالب بن عبد الله بن أبي الرجا التميمي الأصبهاني ، المعروف بالقاضي ، صاحب الطريقة في الخلاف ، تفقه على الشهيد محمد بن يحيى – المقدم ذكره – وبرع في الخلاف ، وصنف فيه التعليقة التي شهدت بفضله وتحقيقه وتبريزه على أكثر نظرائه ، وجمع فيها بين الفقه والتحقيق، وكان عمدة المدرسين في إلقاء الدروس عليها ومن لم يذكرها فإنما كان لقصور فهمه عن إدراك دقائقها ، واشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به ، وصاروا علماء مشاهير . وكان له في الوعظ اليد الطولى ، وكان متفنناً في العلوم خطيباً ، خطب ودرس بأصبهان مدة ؛ وتوفي في شوال سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى .

---

٧١٢ – ترجمته في طبقات السبكي ٤ : ٣٠٤ والشذرات ٤ : ٢٨٤ .

٧١٣

محمود بن سبكتكين

أبو القاسم محمود بن ناصر الدولة أبي منصور سُبُكتِكِين ، الملقب أولاً سيف الدولة ، ثم لقبه الإمام القادر بالله لما سلطنه بعد موت أبيه « يمين الدولة وأمين الملة » واشتهر به .

(241) وكان والده سبكتكين قد ورد مدينة بخارى في أيام نوح بن منصور أحد ملوك السامانية[١] المذكورين في ترجمة أبي بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب ، وكان وروده في صحبة أبي إسحاق ابن البتكين ، وهو حاجبه وعليه مدار أموره ، فعرفه أركانُ تلك الدولة بالشهامة والصرامة ، وتوسموا فيه الارتفاع إلى اليفاع . ولما خرج أبو إسحاق المذكور إلى غَزْنَة والياً عليها وسادّاً مسدّ أبيه انصرف الأمير سبكتكين بانصرافه على جملته[٢] في زعامة رجاله ومراعاة ما وراء بابه ، فلم يلبث أبو إسحاق بعد موافاتها أن قضى نحبه ، ولم يبق من ذوي قرابته مَنْ يصلح لمكانته واحتاج الناس إلى من يتولى أمورهم ، فاختلفوا فيمن يصلح لذلك ، ثم وقع اتفاقهم واجتمعت كلمتهم على تأمير الأمير سبكتكين ، فبايعوه على ذلك ، وانقادوا لحكمه .

فلما تمكن واستحكم شرع في الغَزاة والإغارة على أطراف الهند ، فافتتح قلاعاً كثيرة منها ، وجرت بينه وبين الهنود حروب يقصر الشرح عن وصفها ولم يلبث أن اتسعت رقعة ولايته وعظم حجم جريدته ، وعمرت أرض خزانته[٣] ، وأشفقت النفوس من هيبته . وكان من جملة فتوحاته ناحية بُسْت ، وكان من

---

٧١٣ – أخباره في تاريخ ابن الأثير (ج : ٩) وابن خلدون ٤ : ٣٦٣ والجواهر المضية ٢ : ١٥٧ والبداية والنهاية ٢ : ٢٧ والمنتظم ٨ : ٥٢ وعبر الذهبي ٣ : ١٤٥ والشذرات ٣ : ٢٢٠ .

١ ق : أحد الملوك السلطانية السامانية .

٢ لي لي ن : حملته .   ٣ لي : خزائنه .

جملة ما استفاده[1] من صفاياها أبو الفتح علي بن محمد البستي الشاعر المقدم ذكره ، فإنه كان كاتباً لملك الناحية المذكورة ، واسمه بابي نور[2] ، فلما تعلق بخدمته اعتمد عليه في أموره ، وأسر إليه بأحواله ، وشرحُ ذلك يطول .

وآخر الأمر أن الأمير سبكتكين كان قد وصل إلى مدينة بلخ من طوس فمرض بها ، واشتاق إلى غَزْنَة فخرج إليها في تلك الحال ، فمات في الطريق قبل وصوله، وذلك في شعبان سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، ونقل تابوته إلى غزنة، ورثاه جماعة من شعراء عصره منهم كاتبه أبو الفتح البستي المذكور بقوله :

قلت إذ مات ناصر الدين والدو   لة حَيَّاه ربه بالكرامه
وتداعت جموعه بافتراق :   هكذا هكذا تكون القيامه !

واجتاز بعض الأفاضل بداره بعد موته وقد تشعثت ، فأنشد :

عليك سلام الله من منزل قفر   فقد هِجتَ لي شوقاً قديماً وما تدري
عهدتك مذ شهر جديداً ولم أخل   صروف الردى تبلي مغانيك في شهر

وكان الأمير المذكور قد جعل ولي عهده من بعده ولده إسماعيل ، واستخلفه على الأعمال ، وأوصى إليه بأمور أولاده وعياله ، وجمع وجوه حجابه وقواده على طاعته ومتابعته ، وجلس على سرير السلطنة ، وتحكم واعتبر بيوت الأموال ، وكان أخوه السلطان محمود بخراسان مقيماً بمدينة بلخ وإسماعيل بغزنة ، فلما بلغه نعي أبيه كتب إلى أخيه إسماعيل ولاطفه في القول وقال له : إن أبي لم يستخلفك دوني إلا لكونك كنت عنده وأنا كنت بعيداً عنه، ولو أوقف الأمر على حضوري لفاتت مقاصده[3]، ومن المصلحة أن نتقاسم الأموال بالميراث وتكون أنت مكانك بغزنة وأنا بخراسان ، وندبر الأمور ونتفق على المصالح كيلا يطمع فينا عدو ، ومتى ما ظهر للناس اختلافنا قلّت حرمتنا[4] ، فأبى إسماعيل من

---

١ ن : استقاده .

٢ لي ن : بابي ثور ، ق : بابي النور ، وعند دي سلان : باي توز .

٣ لي : مصالح ومقاصد .

٤ ق ن لي : كي لا يطمع فينا متى ما ظهر للناس اختلافنا .

موافقته على ذلك وكان فيه لين ورخاوة، فطمع فيه الجند وتشغبوا عليه وطالبوه بالأموال فاستنفد في مرضاتهم الخزائن .

ثم خرج محمود إلى هراة وجدد مكاتبة أخيه ، وهو لا يزداد إلا اعتياصاً[1] ، فدعا محمود عمه بغراجق إلى موافقته فأجابه ؛ وكان أخوه أبو المظفر نصر بن سبكتكين أميراً بناحية بُسْت ، فنهض إليه وعرض عليه الانقياد لمتابعته فلم يتوقف عليه ، فلما قوي جأشه بعمه وأخيه قصد أخاه إسماعيل بغَزْنة وهما معه، فنازلها في جيش عظيم وجم غفير وحاصرها ، واشتد القتال عليها ففتحها، وانحاز إسماعيل إلى قلعتها متحصناً بها ، ثم تلطف في طلب الأمان من أخيه محمود فأجابه إلى سؤاله ، ونزل في حكم أمانه وتسلم منه مفاتيح الخزائن ، ورتب في غزْنة النواب والأكفاء وانحدر إلى بلخ .

وكان السلطان محمود قد اجتمع بأخيه إسماعيل في مجلس الأنس بعد ظفره به ، فسأله عما كان في نفسه أنه يعتمده في حقه لو ظفر به ، فحملته سلامة صدره ونَشْوة السكر على أن قال : كان في عزمي أن أسيِّرك إلى بعض القلاع مُوَسَّعاً عليك فيما تقترحه من دار وغلمان وجوار ورزق على قدر الكفاية[2] ، فعامله بجنس ما كان قد نواه له ، وسيره إلى بعض الحصون وأوصى عليه الوالي أن يمكنه من جميع ما يشتهي .

ولما انتظم الأمر للسلطان محمود ، كان في بعض بلاد خراسان نواب لصاحب ما وراء النهر من ملوك بني سامان ، فجرى بين السلطان محمود وبينهم حروب[3] انتصر فيها عليهم ، وملك بلاد خراسان وانقطعت الدولة السامانية[4] منها ، وذلك في سنة تسع وثمانين وثلثمائة ، واستتب له الملك ، وسير له الإمام القادر بالله خلعة السلطنة ، ولقبه بالألقاب المذكورة في أول ترجمته ، وتبوأ سرير المملكة ، وقام بين يديه أمراء خراسان سماطين مقيمين برسم الخدمة ، وملتزمين

---

١ ر : إباء .

٢ ق : على قدر الكفاية دار .

٣ ر : حروب عظيمة .

٤ ق : السلطانية السامانية .

حكم الهيبة ، وأجلسهم بعد الإذن العام على مجلس الأنس ، وأمر لكل واحد منهم ولسائر غلمانه وخاصته ووجوه أوليائه وحاشيته من الخلع والصلات ونفائس الأمتعة ما لم يسمع بمثله . واتسعت الأمور عن آخرها في كنف إيالته ، واستوسقت الأعمال في ضمن كفالته ، وفرض على نفسه في كل عام غزْوَ الهند. ثم إنه ملك سجستان في سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، بدخول قوادها وولاة أمرها في طاعته من غير قتال .

ولم يزل يفتح في بلاد الهند حتى انتهى إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية ، ولم تتل[1] به قط سورة ولا آية ، فـرَحَضَ عنها أدناس الشرك وبنى بها مساجد وجوامع ، وتفصيل حاله يطول شرحه . ولما فتح بلاد الهند كتب إلى الديوان العزيز ببغداد كتاباً يذكر فيه ما فتحه الله تعالى على يديه من بلاد الهند ، وأنه كسر الصنم[2] المعروف بسومنات . وذكر في كتابه أن هذا الصنم عند الهنود يُحيي ويميت ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وأنه إذا شاء أبرأ من جميع العلل ، وربما كان يتفق لشقوتهم إبلال عليل يقصده فيوافقه طيب الهواء وكثرة الحركة فيزيدون به افتتاناً ويقصدونه من أقاصي البلاد رجالاً وركباناً ، ومن لم يصادف منهم انتعاشاً احتج بالذنب وقال : إنه لم يخلص له الطاعة ، ولم يستحق منه الإجابة ، ويزعمون أن الأرواح إذا فارقت الأجسام اجتمعت لديه على مذهب أهل التناسخ ، فينشئها فيمن يشاء ، وأن مد البحر وجَزره عبادة له على قدر طاقته ، وكانوا بحكم هذا الاعتقاد يحجونه من كل صقع بعيد ، ويأتونه من كل فج عميق ، ويتحفونه بكل مال نفيس . ولم يبق في بـلاد السند والهند على تباعد أقطارها وتفاوت أديانها ملك ولا سوقة إلا تقرب إلى هذا الصنم بما عز عليه من أمواله وذخائره حتى بلغت أوقافه عشرة آلاف قريـة مشهورة في تلك البقاع[3] ، وامتلأت خزائنه من أصناف الأموال ، وفي خدمته من البراهمة ألف رجل يخدمونه ، وثلثمائة رجل يحلقون رؤوس حجيجه ولحاهم عند الورود

---

١ ر : ولم تقرأ به ؛ ن : ولم تقل به قط صورة ولا ية .

٢ ق : الصنم الكبير .

٣ ق : البلاد والبقاع .

عليه ، وثلثمائة رجل وخمسمائة امرأة يغنون ويرقصون عند بابه ، ويجرى من مال الأوقاف المرصَدة له لكل طائفة من هؤلاء رزق معلوم .

وكان بين المسلمين وبين القلعة التي فيها الصنم مسيرة شهر في مفازة موصوفة بقلة المياه وصعوبة المسالك واستيلاء الرمل على طرقها ، فسار إليها السلطان محمود في ثلاثين ألف فارس جريدة مختارة من بين عدد كثير ، وأنفق عليهم من الأموال ما لا يحصى ؛ فلما وصلوا إلى القلعة وجدوها حصناً منيعاً ، وفتحوها في ثلاثة أيام ، ودخلوا بيت الصنم وحوله من الأصنام الذهب المرصع بأصناف الجوهر عدة كثيرة[1] محيطة بعرشه ، يزعمون أنها الملائكة ، وأحرق المسلمون الصنم المذكور فوجدوا في أذنه نيفاً وثلاثين حلقة ، فسألهم محمود عن معنى ذلك فقالوا : كل حلقة عبادة ألف سنة ، وكانوا يقولون بقدم العالم ويزعمون أن هذا الصنم يعبد منذ أكثر من ثلاثين ألف سنة ، وكلما عبدوه ألف سنة علقوا في أذنه حلقة ، وبالجملة فإن شرح ذلك يطول .

وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه أن بعض الملوك بقلاع الهند أهدى له هدايا كثيرة من جملتها طائر على هيئة القمري ، من خاصيته أنه إذا حضر الطعام وفيه سم دمعت عينا هذا الطائر وجرى منهـا ماء وتحجّر ، فإذا حك[2] ووضع على الجراحات الواسعة لحمها ، ذكر ذلك في سنة أربع عشرة وأربعمائة .

وقد جمع سيرته أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي الفاضل المعروف في كتاب سماه « اليميني » وهو مشهور ، وذكر في أوله أن السلطان المذكور ملك الشرق بجنبيه ، والصدر من العالم ويديه ، لانتظام الإقليم الرابع بما يليه من الثالث والخامس في حوزة ملكه وحصول ممالكها الفسيحة وولايتها[3] العريضة في قبضة ملكه ، ومصير أمرائها وذوي الألقاب الملوكية من عظمائها تحت حمايته وجبايته ، واستدرائهم من آفات الزمان بظل ولايته ورعايته ، وإذعان ملوك الأرض لعزته ، وارتياعهم بفائض[4] هيبته ، واحتراسهم — على تقاذف الديار

---

١ ق : عدد كثير .
٢ ق : حل ، ر : خط .
٣ ن : وولاياتها ؛ لي : وولاتها .
٤ ق : من فائض .

وتحاجز الأنجاد والأغوار – من فاجىء ركضته ، واستخفاء الهند تحت جيوبها[1] عند ذكره، واقشعرارهم لمهب الرياح من أرضه، وقد كان مذ لَفَظه المهد وجفاء الرضاع ، وانحلت عن لسانه عقدة الكلام ، واستغنى عن الإشارة بالإفهام ، مشغولَ اللسان بالذكر والقرآن ، مشغوف النفس بالسيف والسنان ، ممدود الهمة إلى معالي الأمور، معقود الأمنية بسياسة الجمهور، لعبه مع الأتراب جد ، وجده مستكدّ ، يألمُ لما لا يعلم حتى يقتله[2] خُبراً ، ويحزن لما يحزن حتى يدمّثه قسراً وقهراً .

وذكر إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني–المقدم ذكره–في كتابه الذي الذي سماه « مغيث الخلق في اختيار الأحق » أن السلطان محموداً المذكور كان على مذهب أبي حنيفة ، رضي الله عنه ، وكان مولعاً بعلم الحديث ، وكانوا يسمعون الحديث من الشيوخ بين يديه ، وهو يسمع ، وكان يستفسر الأحاديث ، فوجد أكثرها موافقاً لمذهب الشافعي رضي الله عنه ، فوقع في خلده[3] حكة ، فجمع الفقهاء من الفريقين في مَرْو ، والتمس منهم الكلام في ترجيح أحد المذهبين على الآخر ، فوقع الاتفاق على أن يصلوا بين يديه ركعتين على مذهب الإمام الشافعي، رضي الله عنه ، وعلى مذهب أبي حنيفة ، رضي الله عنه، لينظر فيه السلطان ، ويتفكر ويختار ما هو أحسنها ، فصلى القفال المروزي – وقد تقدم ذكره – بطهارة مسبغة وشرائط معتبرة من الطهارة والسترة واستقبال القبلة ، وأتى بالأركان والهيئات والسنن والآداب والفرائض على وجه الكمال والتمام ، وقال : هذه صلاة لا يجوّز الإمام الشافعي دونها رضي الله عنه ، ثم صلى ركعتين على ما يجوز أبو حنيفة رضي الله عنه ، فلبس جلد كلب مدبوغاً ولطخ ربعه بالنجاسة ، وتوضأ بنبيذ التمر ، وكان في صميم الصيف في المفازة ، واجتمع عليه الذباب والبعوض ، وكان وضوءه منكساً منعكساً ، ثم استقبل القبلة ، وأحرم بالصلاة من غير نية في الوضوء ، وكبر بالفارسية دو بركك سبز ، ثم نقر

---

١ لي : جنودها ؛ ن ق : جيوبها .
٢ لي : يقلبه ؛ ق : يقبله .
٣ لي : جِلْده .

نقرتين كنقرات الديك من غير فصل ومن غير ركوع ، وتشهد ، وضرط في آخره ، من غير نية السلام ، وقال : أيها السلطان ، هذه صلاة أبي حنيفة[1] ، فقال السلطان : لو لم تكن هذه الصلاة صلاة أبي حنيفة لقتلتك ، لأن مثل هذه الصلاة لا يجوزها ذو دين ، فأنكرت الحنفية أن تكون هذه صلاة أبي حنيفة ، فأمر القفال بإحضار كتب أبي حنيفة ، وأمر السلطان نصرانياً كاتباً يقرأ[2] المذهبين جميعاً ، فوجدت الصلاة على مذهب أبي حنيفة على ما حكاه القفال ، فأعرض السلطان عن مذهب أبي حنيفة ، وتمسك بمذهب الشافعي رضي الله عنه؛ انتهى كلام إمام الحرمين .

وكانت مناقب السلطان محمود كثيرة ، وسيرته من أحسن السير ، ومولده ليلة عاشوراء سنة إحدى وستين وثلثمائة . وتوفي في شهر ربيع الآخر ، وقيل حادي عشر صفر ، سنة إحدى ، وقيل اثنتين وعشرين وأربعمائة بغَزْنَة ، رحمه الله تعالى .

(242) وقام بالأمر من بعده ولده محمد بوصية من أبيه ، واجتمعت عليه الكلمة ، وغمرهم بإنفاق الأموال فيهم ، وكان أخوه أبو سعيد مسعود غائباً ، فقدم نيسابور وقد استتب أمر أخيه محمد، فراسله، ومال الناس إليه لقوة نفسه وتمام[3] هيبته ، وزعم أن الإمام القادر بالله قلده خراسان ، ولقبه الناصر لدين الله وخلع عليه وطوقه سواراً ، فقوي أمره لذلك . وكان محمد هذا سيء التدبير منهمكاً في ملاذه ، فأجمع الجند على عزل محمد وتولية الملك لمسعود ، ففعلوا ذلك ، وقبضوا على محمد وحملوه إلى قلعة ووكلوا به .

(243) واستقر الملك للأمير مسعود ، وجرى له مع بني سلجوق خطوب يطول شرحها . وله في ترجمة المعتمد بن عباد حكاية في المنام ، فلتنظر هناك[4] . وقتل سنة ثلاثين وأربعمائة ، واستولى على المملكة بنو سلجوق ، وقد تقدم في

---

١ في حاشية ق تعليق بغير خط الأصل في الدفاع عن مذهب أبي حنيفة .

٢ ن : فقرأ .

٣ ن ر ق : في تمام .

٤ لم يرد شيء من ذلك في ترجمة المعتمد .

ترجمة السلطان طُغْرُلبَك السلجوقي طرف من الخبر ، وكيفية ما اعتمده السلطان محمود في حقهم ، وكيف تغلبوا على الأمر .

وسُبُكْتِكين : بضم السين المهملة والباء الموحدة وسكون الكاف وكسر التاء المثناة من فوقها والكاف الثانية وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون .

وتفسير « دو بركك سبز » ورقتان خضراوان ، وهو معنى قوله تعالى في سورة الرحمن ﴿ مدهامتان ﴾ (الرحمن : ٦٤) والله تعالى أعلم .

٧١٤
مغيث الدين السلجوقي

أبو القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي ، الملقب مغيث الدين ، أحد الملوك السلجوقية المشاهير ، وقد تقدم ذكر والده وجماعة من أهل بيته وسيأتي ذكر جده وغيره منهم إن شاء الله تعالى ، وتقدم طرف من خبره في ترجمة العزيز أبي نصر أحمد بن حامد الأصبهاني عم العماد الكاتب .

تولى أبو القاسم المذكور السلطنة بعد وفاة والده ، وخطب له بها بمدينة بغداد على جاري عادة الملوك السلجوقية ، يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة اثنتي عشرة وخمسمائة ، في خلافة المستظهر بالله ، وهو يومئذ في سن الحلم ، وكان متوقداً ذكاء ، قوي المعرفة بالعربية ، حافظاً للأشعار والأمثال ، عارفاً بالتواريخ والسير ، شديد الميل إلى أهل العلم والخير ، وكان حَيْصَ بَيْصَ الشاعر المقدم ذكره قد قصده من العراق ومدحه بقصيدته الدالية المشهورة التي أولها :

ألق الحدائجَ ترع الضمرُ القودُ طال السرى وتشكت وَخْدَكَ البيدُ

---

٧١٤ – أخباره في تاريخ ابن الأثير (ج : ١٠) وتاريخ الدولة السلجوقية وابن خلدون ٥ : ٤٥ والسلوك ١ : ٣٤ والباهر : ٤٢ والمنتظم ١٠ : ٢٤ وعبر الذهبي ٤ : ٦٦ والشذرات ٤ : ٧٦ .

يا ساريَ الليل لا جَدْبٌ ولا فرق   فالنبتُ أغيد والسلطان محمودُ
قَيْلٌ تألفتِ الأضدادُ خيفته   فالمورد الضنك فيه الشاء والسِّيد

وهي طويلة ومن غرر القصائد ، وأجازه عليها جائزة سنية .

وقد كان تزوج بنتي عمه السلطان سنجر – المقدم ذكره – حسبما شرحناه في ترجمة العزيز الأصبهاني ، واحدة بعد الأخرى ، وكانت السلطنة في أواخر أيامه قد ضعفت وقلت أموالها ، حتى عجزوا عن إقامة وظيفة الفقاعي ، فدفعوا له يوماً بعض صناديق الخزانة حتى باعها وصرف ثمنها في حاجته ، وكان في آخر مدته قد دخل بغداد ، ثم خرج منها ، فمرض في الطريق واشتد به المرض ، وتوفي يوم الخميس خامس عشر شوال سنة خمس وعشرين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى .

وذكر ابن الأزرق الفارقي في تاريخه أنه مات خامس عشر شوال سنة أربع وعشرين بباب أصبهان ، ودفن بها . وولي السلطنة أخوه طُغْرُلبَك ، ومات سنة سبع عشرين ، وتولى أخوه مسعود وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى .

(244) وابنه محمد شاه بن محمود بن محمد هو الذي حاصر بغداد ومعه زين الدين أبو الحسن علي بن بلتكين صاحب إربل في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، وقال شيخنا ابن الأثير في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة – قال ذلك في تاريخه الصغير المعروف بالأتابكي – : ومات محمد شاه المذكور في ذي الحجة سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، وتاريخ وفاة زين الدين المذكور مذكور في ترجمة ولده مظفر الدين صاحب إربل في حرف الكاف ؛ ومات محمد شاه بباب همذان ، ومولده في شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة .

٧١٥

الملك العادل نور الدين

أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر ، الملقب الملك العادل نور الدين ، قد تقدم ذكر أبيه في حرف الزاي .

ولما حاصر أبوه قلعة جعبر – حسبما تقدم ذكره في ترجمته – كان ولده نور الدين المذكور في خدمته ، فلما قتل أبوه سار نور الدين وفي خدمته صلاح الدين محمد بن أيوب اليغيساني وعساكر الشام إلى مدينة حلب[1] فملكها في ذلك التاريخ . وملك أخوه سيف الدين غازي – المذكور في حرف الغين – مدينة الموصل وما والاها من تلك النواحي .

ثم إنه نزل على دمشق محاصراً لها وصاحبُها يومئذ مجير الدين أبو سعيد أبق ابن جمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري بن ظهير الدين طغتكين ، وهو أتابك الملك دُقاق بن تُتُش – المقدم ذكره في ترجمة تتش في حرف التاء – وكان نزوله عليها ثالث صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وملَكها يوم الأحد تاسع الشهر المذكور ، وعوض مجير الدين أبق عن دمشق حمص ثم أخذها منه وعوضه عنها بالس ، فانتقل إليها وأقام بها مدة ثم قصد بغداد في أيام الإمام المقتفي .

وكان أتابكه معين الدين أنر بن عبد الله عتيق جد أبيه ظهير الدين طغتكين الأتابك – المقدم ذكره في ترجمة تتش السلجوقي ، وقد سبق ذكر ظهير الدين طغتكين الأتابك هناك أيضاً .

ثم استولى نور الدين محمود على بقية بلاد الشام من حَماة[2] وبعلبك ، وهو

---

٧١٥ – أخباره في الباهر والكامل (ج : ١١) وابن خلدون ٥ : ٢٥٣ وابن الوردي ٢ : ٨٣ ومرآة الزمان : ٣٠٥ ومفرج الكروب (ج : ١) والنجوم الزاهرة ٦ : ٧١ والمنتظم ١٠ : ٢٤٨ وعبر الذهبي ٤ : ٢٠٨ والشذرات ٤ : ٢٢٨ ولابن قاضي شهبة مؤلف في سيرته باسم « الكواكب الدرية في السيرة النورية » ، تحقيق الدكتور محمود زايد (بيروت ١٩٧١) .

١ زاد في لي بر من : وحماه وحمص ومنبج وحران .

٢ لي : حمص وحماة .

الذي بنى سورها ، ومنبج وما بين ذلك ، وافتتح من بلاد الروم عدة حصون منها مرعش وبهسنا[1] وتلك الأطراف ، وكان فتحه لمرعش في ذي القعدة من سنة ثمان وستين وخمسمائة ولبهسنا في ذي الحجة من السنة[2] ، وافتتح أيضاً من بلاد الفرنج حارم ، وكان فتحها في أواخر شهر رمضان سنة تسع وخمسمائة ، وفتح أعزاز وبانياس وغير ذلك ما تزيد عدته على خمسين حصناً .

ثم سير الأمير أسد الدين شيركوه – المقدم ذكره – إلى مصر ثلاث دفعات ، وملكها السلطان صلاح الدين في الدفعة الثالثة[3] نيابة عنه ، وضرب باسمه السكة والخطبة ، وهي قضية مشهورة فلا حاجة إلى الإطالة في شرحها[4] ، وسيأتي ذلك في ترجمة صلاح الدين إن شاء الله تعالى .

وكان ملكاً عادلاً زاهداً عابداً ورعاً ، مستمسكاً[5] بالشريعة مائلاً إلى أهل الخير ، مجاهداً في سبيل الله تعالى ، كثير الصدقات ، بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل دمشق وحلب وحماة وحمص وبعلبك ومنبج والرحبة ، وقد تقدم ذلك في ترجمة الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون ، وبنى بمدينة الموصل الجامع النوري ورتب له ما يكفيه ، وبحماة الجامع الذي على نهر العاصي ، وجامع الرها وجامع منبج ، وبيمارستان دمشق ، ودار الحديث بها أيضاً ، وله من المناقب والمآثر والمفاخر ما يستغرق الوصف .

وكان بينه وبين أبي الحسن سنان بن سليمان[6] بن محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الإسماعيلية ومقدم الفرقة الباطنية بالشام ، وإليه تنسب الطائفة السنانية ، مكاتبات ومحاورات بسبب المجاورة ، فكتب إليه نور الدين في بعض الأزمنة كتاباً يتهدده فيه ويتوعده[7] لسبب اقتضى ذلك ، فشق على سنان فكتب

---

١ ق : وبهنشا ، لي : وبهشنا .

٢ زاد هنا في ق : واعزاز وبانياس في ذي الحجة من السنة المذكورة ؛ وسيأتي هذا بعد قليل .

٣ ق : الأولى والثالثة .

٤ ق : في ذكرها وشرحها .

٥ ق ر بر من : متمسكا .

٦ ق ر لي بر من : سلمان .

٧ لي ر ن : ويتواعده .

جوابه أبياتاً ورسالة ، وهما :

يا ذا الذي بقراع السيف هَدْدَنا[1] لا قام مصرع جنبي حين تصرعه

قام الحَمام إلى البازي يهدده واستيقظت لأسود البر أضبُعه

أضحى يسدُّ فم الأفعى باصبعه يكفيه ما قد تُلاقي منه إصبعه

وقفنا على تفاصيله[2] وجمله ، وعلمنا ما هددَنا به من قوله وعمله ، فيالله العجب من ذبابة تطن في أذن فيل ، وبعوضة تُعَدُّ في التماثيل ، ولقد قالها من قبلك قوم آخرون ، فدمرنا عليهم وما كان لهم من ناصرين ، أوَ للحق تدحضون ، وللباطل تنصرون ؟ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، وأما ما صدر من قولك في قطع راسي ، وقلعك لقلاعي من الجبال الرواسي ، فتلك أماني كاذبة ، وخيالات غير صائبة ، فإن الجواهر لا تزول بالأعراض ، كما أن الأرواح لا تضمحل بالأمراض ، كم بين قوي وضعيف ، ودني وشريف ؟ وإن عدنا إلى الظواهر والمحسوسات ، وعدلنا عن البواطن والمعقولات ، فلنا أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله « ما أوذي نبيٌّ ما أوذيت » ولقد علمتم ما جرى على عترته ، وأهل بيته وشيعته ، والحال ما حال ، والأمر ما زال ، ولله الحمد في الآخرة والأولى إذ نحن مظلومون لا ظالمون ، ومغصوبون لا غاصبون ، وإذا جاء الحق زهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، ولقد علمتم ظاهر حالنا ، وكيفية رجالنا ، وما يتمنونه من الفوت ، ويتقربون به إلى حياض الموت ، ﴿ قل فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾ (الجمعة ٦ — ٧) وفي أمثال العامة السائرة : أوَ للبط تهددون بالشط ؟ فَهَيِّىء للبلايا جلباباً ، وتدرع للرزايا أثواباً ، فلأظهرن عليكَ منك ، ولأفتننّهم[3] فيك عنك ، فتكون كالباحث عن حَتفه بظِلْفه ، والجادع مارنَ

---

١ لي : هددني .

٢ ق لي : تفصيله .

٣ وردت هذه اللفظة بصور مختلفة في النسخ : ن : ولا يقيتهم ؛ ر : ولا نصبهم ؛ لي : ولا يفنيهم ؛ بر من : ولا يقتيهم .

أنفه بكفه ، وما ذلك على الله بعزيز .

وهذه الرسالة نقلت من خط القاضي الفاضل على هذه الصورة ، ورأيت في نسخة زيادة على هذا ، وهي: فاذا وقفت على كتابنا هذا فكن لأمرنا بالمرصاد ، ومن حالك على اقتصاد ، وأقرأ أول النحل وآخر صاد ؛ والصحيح أنه كتبها إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، والله أعلم ؛ ورأيت في بعض النسخ زيادة بيت في أول الأبيات الثلاثة ، وهو :

يا للرجال لأمرٍ هالَ مفظعه[1] ما مر قطُّ على سمعي توقعه

وكتب سنان المذكور مرة أخرى إليه ، وقد جرت بينهما وحشة :

بنا نِلتَ هذا الملك حتى تأثّلتْ بيوتُكَ فيها واشْمَخرَّ عمودها

فأصبحتَ ترمينا بنبل بنا استوى مغارسها منـا ، وفينا حديدها

وبالجملة فإن محاسن نور الدين كثيرة ؛ وكانت ولادته يوم الأحد عند طلوع الشمس سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة ؛ وتوفي يوم الأربعاء حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة ، بقلعة دمشق ، بعلة الخوانيق ، وأشار عليه الأطباء بالفَصْد فامتنع ، وكان مهيباً فما روجع . ودفن في بيت بالقلعة كان يلازم الجلوس فيه والمبيت أيضاً ، ثم نقل إلى تربته بمدرسته التي أنشأها عند باب سوق الخواصين ، وسمعت من جماعة من أهل دمشق يقولون : إن الدعاء عند قبره مستجاب ، ولقد جربت ذلك فصح ، رحمه الله تعالى .

[وذكر شيخنا عز الدين أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري في تاريخه الكبير الذي سمّاه « الكامل » في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة[2] أن نور الدين المذكور نزل في البقيعة تحت حصن الاكراد في السنة المذكورة محاصراً لحصن الاكراد ، وعازماً على قصد طرابلس وهو في جميـع عساكره ، فاجتمع من الفرنج خلق كثير وكبسوهم في النهار والمسلمون في غفلة عنهم ، فلم يتمكنوا

---

١ ق ر لي بر من : مقطعه .

٢ الكامل ١١ : ٢٩٥ – ٢٩٦ .

من الاستعداد لهم وهربوا منهم ، ونجا نور الدين بنفسه وهي وقعة مشهورة معروفة ، ونزل على بحيرة قدس بالقرب من حمص ، وبينه وبين الفرنج مقدار أربعة فراسخ ، فسير إلى حلب وبقية البلاد وأحضروا الأموال الكثيرة وأنفقها ليقوي جيشه ثم يعود إليهم فيستوفي الثار ، فقال له بعض أصحابه : إن في بلادك إدرارات وصدقات وصلات كثيرة على الفقهاء والصوفية والقرّاء ، ولو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح ، فغضب من ذلك غضباً شديداً وقال : إني لا أرجو النصر إلا بأولئك ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطىء ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا بسهام قد تصيب وتخطىء ؟ وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال فكيف يحل أن أعطيه غيرهم ؟][1] .

وكان اسمر اللون طويل القامة حسن الصورة، ليس بوجهه شعر سوى ذقنه .

(245) وكان قد عهد بالملك إلى ولده الملك الصالح عماد الدين إسماعيل وعمره يوم مات أبوه إحدى عشرة سنة ، فقام بالأمر من بعده ، وانتقل من دمشق إلى حلب ودخل قلعتها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة سبعين وخمسمائة ، وخرج السلطان صلاح الدين من مصر ، وملك دمشق وغيرها من بلاد الشام ، ولم يبق عليه سوى مدينة حلب ، ولم يزل الصالح بها إلى أن توفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، وذكروا أنه لم يبلغ عشرين سنة ، والله أعلم . وكان مبدأ مرضه في تاسع شهر رجب من السنة المذكورة ، وحدث له قولنج في مستهل جمادى الأولى ، وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس ، وتأسفوا عليه لأنه كان محسناً محمود السيرة ، ودفن في المقام الذي في القلعة ، ثم نقل إلى رباطه المعروف به تحت القلعة ، وهو مشهور هناك، رحمه الله تعالى .

(246) وتوفي مجير الدين أبق[2] المذكور في سنة أربع وستين وخمسمائة ببغداد،

---

١ لم ترد في النسخ ، وانما اثبتها وستنفيلد .

٢ راجع أخبار مجير الدين في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي .

ودفن في داره ، كذا وجدته في بعض المسودات التي بخطي ، والله أعلم ، ومولده يوم الجمعة ثامن شعبان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ببعلبك ، والله تعالى أعلم .

٧١٦

مروان بن أبي حفصة

أبو السمط – وقيل أبو الهندام – مروان بن أبي حفصة سليمان بن يحيى ابن أبي حفصة يزيد ، الشاعر المشهور ؛ كان جده أبو حفصة مولى مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي ، فأعتقه يوم الدار ، لأنه أبلى يومئذ ، فجعل عتقه جزاءه ، وقيل إن أبا حفصة كان يهودياً طبيباً أسلم على يد عثمان بن عفان رضي الله عنه . وقيل على يد مروان بن الحكم ، ويزعم أهل المدينة أنه كان من موالي السَّمَوْأل بن عادياء اليهودي المشهور بالوفاء صاحب القصة المشهورة مع امرىء القيس بن حُجْر الشاعر المشهور ، وأن أبا حفصة سبي من إصطخر وهو غلام فاشتراه عثمان رضي الله عنه ، ووهبه لمروان بن الحكم .

ومروان بن أبي حفصة الشاعر المذكور من أهل اليمامة ، وقدم بغداد ومدح المهدي وهارون الرشيد ، وكان يتقرب إلى الرشيد بهجاء العلويين ، ومروان المذكور من الشعراء المجيدين ، والفحول المقدمين . [حكى ابن سيف[1] عن أبي خليفة عن ابن سلام قال : لما أنشد مروان بن أبي حفصة المهدي قصيدته التي يقول فيها :

إليك قسمنا النصف من صلواتنا مسيرة شهر بعد شهر نواصله

---

٧١٦ – ترجمته في الفهرست : ١٦٠ والأغاني ١٠ : ٧٤ ومعجم المرزباني : ٣٩٦ والشعر والشعراء : ٦٤٩ وتاريخ بغداد ١٣ : ١٤٢ وصفحات من أمالي المرتضى ، والفلاكة : ٨٠ والموشح : ٢٥١ وطبقات ابن المعتز : ٤٢ ومطالع البدور ١ : ٧٣ والشذرات ١ : ٣٠١ .

[1] وستنفيلد : ابن يوسف .

فلا نحن نخشى أن يخيب رجاؤنا   لديك ولكن أهنأ العيش عاجله

فقال له المهدي ، قف بحيث أنت ، كم قصيدتك هذه من بيت ؟ قال : سبعون بيتاً ، قال : فلك سبعون ألفاً ، لا تتم إنشادك حتى يحضر المال ، فأحضر المال ، فأنشد القصيدة وقبضه وانصرف][1] .

ذكره أبو العباس بن المعتز في كتاب « طبقات الشعراء » فقال في حقه[2] : وأجود ما قاله مروان قصيدته الغراء اللامية وهي التي فضل بها على شعراء زمانه ، يمدح فيها معن بن زائدة الشيباني ، ويقال إنه أخذ منه عليها مالاً كثيراً لا يقدر قدره ، ولم ينل أحد من الشعراء الماضين ما ناله مروان بشعره ، فمما ناله ضربة واحدة ثلثمائة ألف درهم من بعض الخلفاء بسبب بيت واحد ؛ انتهى كلام ابن المعتز .

والقصيدة اللامية طويلة تناهز الستين بيتاً ولولا خوف الإطالة لذكرتها ، ولكن نأتي ببعض مديحها وهو في أثنائها[3] :

بنو مَطَرٍ يوم اللقاء كأنهم   أُسُودٌ لهم في بطن خَفّانَ أَشْبُلُ
همُ يمنعون الجارَ حتى كأنما   لجارهمُ بين السماكين منزل
تجنب « لا » في القول حتى كأنه   حرام عليه قول « لا » حين يسأل
تشابه يوماه علينا فأشكلا   فلا نحن ندري أي يوميه أفضل
أيوم نداه الغمر أم يوم بؤسه   وما منهما إلا أغرُّ مُحجَّل
بهاليل في الإسلام سادوا ولم يكن   كأولهم في الجاهلية أول
هم القوم إن قالوا أصابوا ، وإن دعوا   أجابوا ، وإن أعطوا أصابوا وأجزلوا
وما يستطيع الفاعلون فعالهم   وإن أحسنوا في النائبات وأجملوا
ثلاث بأمثال الجبال حُباهُمُ[4]   وأحلامهم منها لدى الوزن أثقل

---

١ زيادة من لي بر ، وردت عند وستنفيلد .
٢ طبقات الشعراء : ٥١ وفيه اختلاف عما أورده المؤلف .
٣ انظر المصدر السابق : ٤٣ .
٤ لي : جباهم ؛ بر : خباهم .

هذا لعمري هو السحر الحلال المنقح لفظاً ومعنى ، وحقه أن يفضل على شعراء عصره وغيرهم ، وله في مدائح معن المذكور ومراثيه كل معنى بديع ، وسيأتي شيء من ذلك في أخبار معن إن شاء الله تعالى .

وحكى ابن المعتز أيضاً[1] عن شراحيل بن معن بن زائدة أنه قال : عرضت في طريق مكة ليحيى بن خالد البرمكي ، وهو في قبة ، وعديله القاضي أبو يوسف الحنفي وهما يريدان الحج ، قال شراحيل : فإني لأسير تحت القبة إذ عرض له رجل من بني أسد في شارة حسنة ، فأنشده شعراً ، فقال له يحيى بن خالد في بيت منها : ألم أنهك عن مثل هذا البيت أيها الرجل ؟ ثم قال : يا أخا بني أسد ، إذا قلت الشعر فقل كقول الذي يقول ، وأنشده الأبيات اللامية المقدم ذكرها ، فقال له القاضي أبو يوسف ، وقد أعجبته الأبيات جداً : مَن قائل هذه الأبيات يا أبا الفضل ؟ فقال يحيى : يقولها مروان بن أبي حفصة يمدح بها أبا هذا الفتى الذي تحت القبة ، قال شراحيل : فَرَمَقَني أبو يوسف بعينيه وأنا راكب على فرس لي عتيق وقال لي : من أنت يا فتى حياك الله تعالى وقربك قلت : أنا شراحيل بن معنَ بن زائدة الشيباني ، قال شراحيل : فوالله ما أتت عليّ ساعة قط كانت أقر لعيني من تلك الساعة ارتياحاً وسروراً .

ويحكى أن ولداً لمروان بن أبي حفصة المذكور دخل على شراحيل المذكور فأنشده :

أيا شراحيل من معن بن زائدة … يا أكرم الناس من عجم ومن عربِ
أعطى أبوك أبي مالاً فعاش بـه … فأعطني مثل ما أعطى أبوك أبي
ما حل قط أبي أرضاً أبوك بها … إلا وأعطاهُ قنطاراً من الذهب

فأعطاه شراحيل قنطاراً من الذهب .

ومما يقارب هذه الحكاية ما يروى عن أبي مليكة جَرْوَل بن أوس المعروف بالحُطَيئة الشاعر المشهور لما اعتقله عمر بن الخطاب ، رضي الله عنـه ، لبذاءة

---

[1] لم ترد هذه القصة في الطبقات .

لسانه وكثرة هجوه الناس، كتب إليه من الاعتقال :

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ حمر الحواصل لا ماء ولا شجرُ
ألقيت كاسبهم في قعر مُظْلمةٍ فارحم عليك سلام الله يا عمر
أنت الإمام الذي من بعد صاحبه ألقت إليك مقاليد النهي البشر
ما آثروك بها إذا قدموك لها[1] لكن لأنفسهم قد كانت الأثر

فأطلقه، وشرط عليه أن يكف لسانه عن الناس، فقال له : يا أمير المؤمنين اكتب لي كتاباً إلى علقمة بن عُلاثة لأقصده به، فقد منعتني التكسب بشعري وكان علقمة مقيماً بحُوران، وهو من الأجواد المشهورين - قال ابن الكلبي في كتاب «جمهرة النسب» : هو علقمة بن عُلاثة بن عوف بن ربيعة، ويقال له الأحوص لصغر عينيه، ابن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هَوازن - وكان عمر، رضي الله عنه استعمله على حوران، فامتنع عمر رضي الله عنه من ذلك، فقيل له : يا أمير المؤمنين وما عليك من ذلك ؟ علقمة ليس من عمالك[2] فتخشى من ذلك أن تأثم، وإنما هو رجل من المسلمين تشفع بك إليه. فكتب له بما أراد، فمضى الحطيئة بالكتاب، فصادف علقمة قد مات والناس منصرفون من قبره، وابنه حاضر، فوقف عليه ثم أنشد[3] :

لعمري لنعم المرء من آل جعفر بحوران أمسى علقَتْهُ الحبائلُ
فإن تَحْيَ لا أملَلْ حياتي، وإن تمت فما في حياةٍ بعد موتك طائل
وما كان بيني لو لقيتُكَ سالماً وبين الغنى إلا ليالٍ قلائل

فقال له ابنه : كم ظننت أن علقمة كان يعطيك لو وجدته حياً ؟ فقال : مائة ناقة يتبعها مائة من أولادها، فأعطاه ابنه إياها.

---

١ ق : اذ كنت موئلها .
٢ قد مر قبل قليل أن عمر هو الذي استعمله على حوران .
٣ ديوان الحطيئة : ٢١٦ .

والبيتان الأخيران من هذه الثلاثة وجدتها في ديوان النابغة الذبياني ، واسمه زياد بن معاوية بن جابر، من جملة قصيدة يرثي بها النعمان بن أبي شمر الغساني .

وأخبار ابن أبي حفصة ونوادره ومحاسنه كثيرة ، فلا حاجة إلى الإطناب بذكرها ، وكانت ولادته سنة خمس ومائة . وتوفي سنة إحدى وثمانين ، وقيل سنة اثنتين وثمانين ومائة ببغداد ، ودفن بمقبرة نصر بن مالك الخزاعي ، رحمه الله تعالى .

(247) وحفيده مروان الأصغر[1] ، وهو أبو السمط مروان بن أبي الجنوب ابن مروان الأكبر المذكور ، وكان من شعراء عصره المشاهير المقدمين ، وذكر المبرد في كتاب « الكامل »[2] طرفاً من أخبار عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري ثم قال : ويروى أن عبد الرحمن المذكور لدغه زنبور فجاء أباه يبكي ، فقال له : ما بك ؟ قال : لسعني طائر كأنه ملتف في بردَيْ حِبَرة ، فقال أبوه : قلت الشعر والله ؟ ثم قال بعد ذلك : وأعرق قوم كانوا في الشعر آل حسان ، فإنهم كانوا يعدون ستة في نسق كلهم شاعر ، وهم : سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام ، وبعد هؤلاء في الوقت آل أبي حفصة فإنهم أهل بيت كل واحد منهم شاعر يتوارثونه كابراً عن كابر[3] ، ويحيى ابن أبي حفصة كنيته أبو جميل ، وأمه تحيا بنت ميمون ، يقال إنها من ولد النابغة الجعدي ، وإن الشعر أتى إلى أبي حفصة بذلك السبب ، وكل واحد من هؤلاء كان يضرب بلسانه أرنبة أنفه ، وهو دليل على الفصاحة والبلاغة ، والله تعالى أعلم .

---

١ ترجمة مروان الأصغر في معجم المرزباني: ٣٢١ وطبقات ابن المعتز : ٣٩٢ وتاريخ بغداد ١٣ : ١٥٣ والأغاني ١٢ : ٧١ ، ٢٣ : ٩٦ .

٢ الكامل للمبرد ١ : ٢٦٣ .

٣ إلى هنا انتهت الترجمة في لي بر من .

٧١٧

مسلم صاحب الصحيح

أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القُشَيْري النيسابوري صاحب الصحيح ؛ أحد الأئمة الحفاظ وأعلام المحدثين ، رحل إلى الحجاز والعراق والشام ومصر ، وسمع يحيى بن يحيى النيسابوري وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وعبد الله بن مسلمة القعنبي وغيرهم ، وقدم بغداد غير مرة فروى عنه أهلها ، وآخر قدومه إليها في سنة تسع وخمسين ومائتين ، وروى عنه الترمذي وكان من الثقات .

وقال محمد الماسرجسي ، سمعت مسلم بن الحجاج يقول : صنفت هذا المسند الصحيح من ثلثمائة ألف حديث مسموعة . وقال الحافظ أبو علي النيسابوري : ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم في علم الحديث . وقال الخطيب البغدادي : كان مسلم يناضل عن البخاري ، حتى أوحش ما بينه وبين محمد بن يحيى الذهلي بسببه .

وقال أبو عبد الله محمد بن يعقوب الحافظ : لما استوطن البخاري نيسابور أكثر مسلم من الاختلاف إليه ، فلما وقع بين محمد بن يحيى والبخاري ما وقع في مسألة اللفظ ، ونادى عليه ، ومنع الناس من الاختلاف إليه ، حتى هجر وخرج من نيسابور في تلك المحنة ، قطعه أكثر الناس غير مسلم ، فإنه لم يتخلف عن زيارته ، فأنهي إلى محمد بن يحيى أن مسلم بن الحجاج على مذهبه قديماً وحديثاً وأنه عوتب على ذلك بالحجاز والعراق ولم يرجع عنه ، فلما كان يوم مجلس محمد ابن يحيى قال في آخر مجلسه : ألا من قال باللفظ فلا يحل له أن يحضر مجلسنا ، فأخذ مسلم الرداء فوق عمامته ، وقام على رؤوس الناس وخرج من مجلسه ، وجمع

---

٧١٧ – ترجمته في تذكرة الحفاظ : ٥٨٨ وتاريخ بغداد ١٣ : ١٠٠ وطبقات الحنابلة ١ : ٣٣٧ والفهرست : ٢٣١ والمنتظم ٥ : ٣٢ وتهذيب التهذيب ١٠ : ١٢٦ والبداية والنهاية ١١ : ٣٣ وعبر الذهبي ٢ : ٢٣ والشذرات ٢ : ١٤٤ .

كل ما كان كتب منه وبعث به على ظهر حمّال إلى باب محمد بن يحيى، فاستحكمت بذلك الوحشة وتخلف عنه وعن زيارته .

وتوفي مسلم المذكور عشية يوم الأحد ودفن بنصرأباذ ظاهر نيسابور يوم الاثنين لخمس ، وقيل لست ، بقين من شهر رجب الفرد سنة إحدى وستين ومائتين بنيسابور ، وعمره خمس وخمسون سنة .

هكذا وجدته في بعض الكتب ، ولم أر أحداً من الحفاظ يضبط[1] مولده ولا تقدير عمره، وأجمعوا أنه ولد بعد المائتين . وكان شيخنا تقي الدين أبو عمرو عثمان المعروف بابن الصلاح يذكر مولده ، وغالب ظني أنه قال : سنة اثنتين ومائتين ، ثم كشفت ما قاله ابن الصلاح فإذا هو في سنة ست ومائتين ، نقل ذلك من كتاب «علماء الأمصار» تصنيف الحاكم أبي عبد الله بن البيّع النيسابوري الحافظ ، ووقفت على الكتاب الذي نقل منه ، وملكت النسخة التي نقل منها أيضاً ، وكانت ملكه ، وبيعت في تركته ووصلت إلي وملكتها ، وصورة ما قاله بأن مسلم بن الحجاج توفي بنيسابور لخمس بقين من شهر رجب الفرد سنة إحدى وستين ومائتين ، وهو ابن خمس وخمسين سنة ، فتكون ولادته في سنة ست ومائتين ، والله أعلم ، رحمه الله تعالى .

وقد تقدم الكلام على القشيري صاحب الرسالة[2] فأغنى عن الإعادة .

(248) وأما محمد بن يحيى المذكور فهو أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد الله ابن خالد ابن فارس بن ذؤيب الذهلي النيسابوري ، وكان أحد الحفاظ الأعيان ، روى عنه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة القزويني ، وكان ثقة مأموناً . وكان سبب الوحشة بينه وبين البخاري أنه لما دخل البخاري مدينة نيسابور شعث عليه محمد بن يحيى في مسألة خلق اللفظ ، وكان قد سمع منه ، فلم يمكنه ترك الرواية عنه ، وروى عنه في الصوم والطب والجنائز والعتق وغير ذلك مقدار ثلاثين موضعاً ، ولم يصرح باسمه فيقول حدثنا محمد بن يحيى الذهلي ، بل يقول : حدثنا محمد ، ولا يزيد عليه ، ويقول محمد بن عبد الله ،

---

١ لي : ولم أر من الحفاظ من يضبط .

٢ زاد في بر : في ترجمة أبي القاسم التستري .

فينسبه إلى جده وينسبه أيضاً إلى جد أبيه ، وتوفي محمد المذكور سنة اثنتين ، وقيل سبع ، وقيل ثمان وخمسين ومائتين رحمه الله تعالى ، والله أعلم .

٧١٨
مسعود الطريثيثي

أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود بن طاهر النيسابوري الطريثيثي الفقيه الشافعي ، الملقب قطب الدين ؛ تفقه بنيسابور ومروَ على أئمتها ، وسمع الحديث من غير واحد ، ورأى الأستاذ أبا نصر القشيري ، ودرّس بالمدرسة النظامية بنيسابور نيابة عن الجُوَيني . وكان قد قرأ القرآن الكريم والأدب على والده ، وقدم بغداد ووعظ بها وتكلم في المسائل فأحسن ، وقدم دمشق سنة أربعين وخمسمائة ، ووعظ بها وحصل له قبول ، ودرّس بالمدرسة المجاهدية ثم بالزاوية الغربية من جامع دمشق بعد موت الفقيه أبي الفتح نصر الله المصيصي ؛ وذكره الحافظ ابن عساكر في « تاريخ دمشق » .

ثم خرج إلى حلب وتولى التدريس مدة في المدرستين اللتين بناهما له نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه ، ثم مضى إلى همذان وتولى التدريس بها ، ثم رجع إلى دمشق ودرّس بالزاوية الغربية وحدث ، وتفرد برياسة أصحاب الشافعي رضي الله عنه .

وكان عالماً صالحاً[1] ، صنف كتاب « الهادي » في الفقه ، وهو مختصر نافع لم يأت فيه إلا بالقول الذي عليه الفتوى ، وجمع للسلطان صلاح الدين عقيدةً تجمَعُ جميعَ ما يحتاج إليه في أمور دينه ، وحفظها أولاده الصّغار حتى تترسخ في

---

٧١٨ — ترجمته في طبقات السبكي ٤ : ٣٠٩ ومرآة الزمان : ٣٧٢ وعبر الذهبي ٤ : ٢٣٥ والشذرات ٤ : ٢٦٣ .

١ لي بر من : صالحاً ورعاً .

أذهانهم من الصغر ، قال بهاء الدين ابن شداد في « سيرة السلطان »[1] : ورأيته – يعني السلطان – وهو يأخذها عليهم ، وهم يقرؤونها بين يديه من حفظهم .

وكان متواضعاً قليل التصنّع ، مطرحاً للتكليف ؛ وكانت ولادته سنة خمس وخمسمائة ، في الثالث عشر من شهر رجب الفرد[2] ؛ وتوفي في آخر يوم من شهر رمضان المعظم ، سنة ثمان وسبعين وخمسمائة بدمشق ، وصلي عليه يوم العيد ، وكان نهار[3] الجمعة ، ودفن بالمقبرة التي أنشأها جوار مقبرة الصوفية غربي دمشق ، وزرت قبره غير مرة ، رحمه الله تعالى .

وكان والده من طُرَيْثيث ، وقد تقدم الكلام عليها في ترجمة عميد الملك الكندري فلا حاجة إلى إعادته ، وهي من نواحي نيسابور[4] .

وقال بعضُ أصحابه : أنشدنا الشيخ قطب الدين لبعضهم :

يقولون إنّ الحبّ كالنار في الحشا ... ألا كذبوا فالنارُ تذكو وتخمدُ
وما هي إلا جَذْوَةٌ مَسّ عودها ... نَدى فهي لا تخبو ولا تَتوقدُ

والله تعالى أعلم بالصواب .

٧١٩

الشريف البياضي الشاعر

الشريف أبو جعفر مسعود بن عبد العزيز بن المحسن بن الحسن بن عبد الرزاق البياضي ، الشاعر المشهور ؛ هكذا وجدته بخط بعض الحفاظ المتقنين ، ورأيت

---

[1] انظر سيرة صلاح الدين : ٧ وفيها : وهم يقرءونها من حفظهم بين يديه .

[2] ق : من ربيع الآخر أو رجب .

[3] ق : يوم .

[4] انتهت الترجمة هنا في بر من لي .

٧١٩ – ترجمته في تاريخ ابن الأثير ١٠ : ٨٨ ، ٨٩ ودمية القصر : ٨٧ والشذرات ٣ : ٣٣١ وله شعر في تاريخ الدولة السلجوقية : ٦٩ .

في أول ديوانه أنه أبو جعفر مسعود بن المحسن بن عبد الوهاب بن عبد العزيز ابن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، القرشي الهاشمي ، والله أعلم بالصواب .

وهو من الشعراء المجيدين في المتأخرين ، وديوان شعره صغير ، وهو في غاية الرقة ، وليس فيه من المدائح[1] إلا اليسير ، فمن أحسن شعره قصيدته القافية التي أولها :

إن غاضَ دَمْعُكَ والركابُ تُساق مع ما بقلبك فهو منك نِفاقُ
لا تحبسن ماء الجفون فإنه لك يا لديغَ هواهمُ ترياق
واحْذَر مصاحبة العذول فإنه مُغْرٍ ، وظاهرُ عذله إشْفاق
لا يبعدَنْ زمنٌ مضت أيامه وعلى متون غصونها أوراق
أيام نرجسنا العيُون ووردنا الـ غَضُّ الخدود[2] وخمرنا الأرياق
ولنا بِزَوراءِ العراق مواسم كانت تقامُ لطيبها أسواق
فلئن بكت عيني دماً شوقاً إلى ذاك الزمان فمثله يشتاق

ومنها :

أين الأغيلمة الألى لولاهمُ ما كان طعمُ هوى الملاح يُذاق
وكأنما أرماحهم بأكفّهِمْ أجسامُهُم ونصولها الأحداق
شنّوا الإغارة في القلوب بأعينٍ لا يرتجى لأسيرها إطلاق
واستعذبوا ماء الجفون فعذّبُوا الـ أسراءَ حتى درّت الآماق
ونمى الحديثُ بأنهم نذرُوا دمي أوَ لي دمٌ يوم الفراقِ يراق

وله ، وهو مما يغنى به :

كيف يذوي عشب أشوا قي ولي طرفٌ مطيرُ
إن يكن في العشقِ حُرٌّ فأنا العبد الأسير

---

[1] لي بر من : المديح ؛ ر : مدائح .
[2] بر من : عض الخدود .

أو علـى الحسنِ زكاة فأنا ذاك الفقـــير

[وله وكتبها على مروحة :

وارحمتا لي أنـ حلت بمجلس ان لحّنوا فيه يكون كسادي][1]

وله أيضاً :

يا ليلة بات فيها البدر معتنقي إلى الصباح بلا خوفٍ ولا حذرِ

كلامه الدر يغني عن كواكبها ووَجهُه عِوضٌ فيها عن القمر

فبينما أنا أرعي في محاسنـه سمعي وطرفيَ إذ أنذرت بالسحر

ولم يكن عيبها إلا تقاصرها وأي عيب لها أشنى من القصر

وددت لو أنها طالت عليّ ولو أمددتها بسواد القلب والبصر

والبيت الأخير منها ينظر إلى قول أبي العلاء بن سليمان المعري ، وهو[2] :

يود أن ظلام الليل دام له وزيد فيه سواد القلب والبصر

وشعره كله على هذا الأسلوب ، وقد تقدم له بيتان في ترجمة صَرٌّ دُرٌّ الشاعر . وتوفي البياضي المذكور يوم الثلاثاء سادس عشر ذي القعدة سنة ثمان وستين وأربعمائة ببغداد ، ودفن بمقبرة باب أبرز . وإنما قيل له البياضي لأن أحد أجداده كان في مجلس بعض الخلفاء مع جماعة من العباسيين ، وكانوا قـد لبسوا سواداً ، ما عداه ، فإنه كان قـد لبس بياضاً فقال الخليفة : من ذلك البياضي ؟ فثبت الاسم عليه واشتهر به .

وذكر ابن الجوزي في كتاب « الألقاب » أن صاحب هذه الواقعة هو محمد ابن عيسى بن محمد بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، رضي الله عنهم أجمعين ، وهو الذي يقال له البياضي . ورأيت بخط أسامة بن منقذ – المقدم ذكره – أن الذي لقبه بهذا اللقب هو الخليفة الراضي بالله ، والله تعالى أعلم .

---

١ زيادة من : لي بر من ، ثابتة عند وستنفيلد .

٢ شروح السقط : ١١٩ .

٧٢٠

غياث الدين السلجوقي

أبو الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي ، الملقب غياث الدين، أحد ملوك[١] السلجوقية المشاهير وقد تقدم ذكر والده وأخيه محمود وجماعة من أهل بيته .

كان مسعود المذكور قد سلمه والده في سنة خمس وخمسمائة إلى الأمير مودود ابن التوتكين وجعله صاحب الموصل ليربيه ، فلما قتل مودود في سنة سبع وخمسمائة وتولى الأمير آق سنقر البرسقي - المذكور في حرف الهمزة - مكانه سلمه والده إليه أيضاً ، ثم أرسله من بعده إلى جوش بك[٢] أتابك الموصل أيضاً . فلما توفي والده وتولى موضعه ولده محمود - المقدم ذكره - أخذ جوش بك يحسّن لمسعود المذكور الخروج على أخيه محمود وأطمعه في السلطنة ، ولم يزل على ذلك حتى جمع العساكر واستكثر منها ، وقصد أخاه ، والتقيا بالقرب من همذان في ربيع الأول سنة أربع عشرة[٣] وخمسمائة ، وكان النصر لمحمود ، وقتل في هذه الواقعة الأستاذ أبو إسماعيل الطغرائي - وقد سبق شيء من خبره في حرف الحاء .

ثم تنقلت الأحوال وتقلبت بمسعود المذكور واستقل بالسلطنة سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، ودخل بغداد ، واستوزر شرف الدين أنو شروان بن خالد

---

٧٢٠ - أخباره في تاريخ الدولة السلجوقية وابن الأثير (ج ١٠ ، ١١) وابن خلدون ٥ : ٤٥ والسلوك ١ : ٣٤ والباهر (صفحات مختلفة) ومرآة الزمان : ٢١٤ والمنتظم ١٠ : ١٥١ وعبر الذهبي ٤ : ١٢٧ والشذرات ٤ : ١٤٥ .

١ لي : الملوك .

٢ لي : حوس بك ؛ بر : خوش بك ؛ ر : جيوش بك .

٣ لي : ثلاث عشرة .

القاشاني الذي كان وزير المسترشد ، وقد تقدم ذكره في ترجمة الحريري صاحب المقامات ؛ وكان سلطاناً عادلاً لين الجانب كبير النفس ، فرق مملكته على أصحابه ، ولم يكن له من السلطنة غير الاسم ، [وكان حسن الأخلاق كثير المزاح والانبساط مع الناس ، فمن ذلك أن أتابك زنكي صاحب الموصل أرسل إليه القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري في رسالة ، فوصل إليه وأقام معه في العسكر ، فوقف يوماً على خيمة الوزير حتى قارب أذان المغرب فعاد إلى خيمته وأذن المغرب وهو في الطريق ، فرأى إنساناً فقيهاً في خيمة ، فنزل إليه فصلّى معه ، فسأله كمال الدين من أين هو ؟ فقال : أنا قاضي مدينة كذا ، فقال له كمال الدين : القضاة ثلاثة : قاضيان في النار وهو أنا وأنت ، وقاضٍ في الجنة وهو من لا يعرف أبواب هؤلاء الظلمة ولا يراهم . فلما كان من الغد أرسل السلطان وأحضر كمال الدين ، فلما دخل عليه ورآه ضحك وقال : القضاة ثلاثة ، فقال كمال الدين : نعم يا مولانا ، فقال : والله صدقت ، ما أسعد من لا يرانا ولا نراه ، ثم أمر به فقضيت حاجته وأعاده من يومه .

ومن ذلك أنه اجتاز يوماً في بعض أطراف بغداد فسمع امرأة تقول لأخرى : تعالي انظري إلى السلطان ، فوقف وقال : نقف حتى تجيء هذه الست تنظر إلينا .

وله مناقب كثيرة][1] وكان مع لين جانبه ما ناوأه أحدٌ وظفر به ، وقتل من الأمراء الأكابر خلقاً كثيراً ، ومن جملة من قتل الخليفتان المسترشد بالله والراشد لأنه كان قد وقع بينه وبين الخليفة المسترشد وحشة قبل استقلاله في السلطنة ، فلما استقل استطال نوابه على العراق ، وعارضوا الخليفة في أملاكه ، فقويت الوحشة بينهما ، وتجهز المسترشد وخرج لمحاربته ، وكان السلطان مسعود بهمذان ، فجمع جيشاً عظيماً وخرج للقائه ، وتصافا بالقرب من همذان فكسر عسكر الخليفة ، وأسر هو وأرباب دولته ، وأخذه السلطان مسعود مأسوراً وطاف به بلاد أذربيجان ، وقتل على باب المراغة ، حسبما شرحناه في ترجمة دبيس بن صدقة ، وهو الذي خلع الراشد وأقام المقتفي كما هو مشهور .

---

1 ما بين معقفين انفردت به لي بر من ، وهو وارد عند وستنفيلد .

ثم أقبل مسعود على الاشتغال باللذات والانعكاف على مواصلة وجوه الراحات ، متكلاً على السعادة تعمل له ما يؤثره ، إلى أن حدث له القيء وعلة القـَشـَيان ، واستمر به ذلك إلى أن توفي في حادي عشر جمادى الآخرة ، سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، وقيل يوم الأربعاء ، الثاني والعشرين من الشهر المذكور بهمذان [ومات معه سعادة البيت السلجوقي فلم تقم له بعده راية يعتد بها ولا يلتفت إليها :

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما][1]

ودفن في مدرسة بناها[2] جمال الدين إقبال الخادم .

وقال ابن الأزرق الفارقي في تاريخه : رأيت السلطان المذكور ببغداد ، في السنة المذكورة ، وسار إلى همذان ومات بباب همذان ، وحمل إلى أصبهان رحمه الله تعالى ، وقد تقدم شيء من خبره في ترجمة دبيس بن صدقة صاحب الحلـّة .

ومولده يوم الجمعة ، لثلاث خلون من ذي القعدة ، سنة اثنتين وخمسمائة . ولما ولي السلطنة جرت بينه وبين عمه سنجر – المقدم ذكره – منازعة ، ثم خطب له بعد عمه المذكور ببغداد ، يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من صفر سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، والله أعلم .

---

١ زيادة من لي ، وردت عند وستنفيلد .

٢ لي : مدرسته التي بناها .

٧٢١

عز الدين مسعود صاحب الموصل

أبو الفتح وأبو المظفر ، مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي ابن آق سنقر ، أتابك صاحب الموصل ، الملقب عز الدين – قد تقدم خبر جده وجد أبيه ، وخبر ولده نور الدين أرسلان شاه وغيرهم من أهل بيته ، وسيأتي ذكر أبيه في هذا الحرف إن شاء الله تعالى – ولما توفي والده قام بالملك ولده سيف الدين غازي – المقدم ذكره – لأنه كان أكبر الإخوة ، وكان قد خلف هذين الولدين ، وعماد الدين زنكي صاحب سنجار المذكور عقيب ترجمة جده عماد الدين زنكي .

وكان عز الدين المذكور مقدم الجيوش في أيام أخيه غازي ؛ ولما خرج السلطان صلاح الدين من الديار المصرية بعد وفاة الملك العادل نور الدين محمود – المقدم ذكره – وأخذ دمشق وتقدم إلى حلب وحاصرها ، خاف غازي منه ، وعلم أنه قد استفحل أمره وعظم شأنه ، واستشعر أنه متى استحوذ على الشام تعدى الأمر إليه ، فجهز جيشاً عظيماً وقدم عليه أخاه عز الدين مسعوداً المذكور ، وسار يريد لقاء السلطان ، وضرب المصاف معه ليرده عن البلاد فلما بلغ السلطان خروجه رحل عن حلب ، وذلك في مستهل رجب الفرد سنة سبعين وخمسمائة ، وسار إلى حمص وأخذ قلعتها . وكان قد أخذ البلد في جمادى الأولى من السنة المذكورة بعد خروجه من دمشق قاصداً حلب ، ووصل عز الدين مسعود إلى حلب لينجد ابن عمه الملك الصالح إسماعيل ابن نور الدين ، صاحب حلب .

هذا كان في الصورة الظاهرة ، وفي الباطن كان غرضهم ما ذكرناه من

٧٢١– أخباره في الباهر : ١٨١ – ١٨٩ والكامل (ج ١١ ، ١٢) والنجوم الزاهرة ٦ : ١٣٦ وعبر الذهبي ٥ : ٢٦٩ والشذرات ٤ : ٢٩٧ .

خوفهم على بـــلادهم ، فانضم إلى عز الدين مسعود عسكر حلب وخرج في جمع كثير .

ولما عرف السلطان مسيرهم سار حتى وافـــاهم على قرون حَماة ، وراسلهم وراسلوه ، واجتهد في أن يصالحوه فلم يفعلوا ، ورأوا أن ضرب المصاف معه ربما نالوا به الغرض الأكبر والمقصود الأوفر ، والقضاء يجر إلى أمور لا يشعرون بها ، فقام المصاف بين العسكرين ، وقضى الله تعالى أن انكسر جيش عز الدين وأسر السلطان جماعة من أمرائه ثم أطلقهم ، وذلك يوم الأحد التاسع عشر من شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة ، وهذه الواقعة من الوقائع المشهورة .

ثم سار السلطان عقيبَ الكسرة إلى حلب ونزل عليها، وهي الدفعة الثانية، فصالحه الملك الصالح إسماعيل على أخذ المعرة وكفرطاب وبارين ثم رحل عنها . وشرح ذلـك يطول ، وتتمة هـــذه القضية مذكورة في ترجمة أخيه سيف الدين غازي .

ولما توفي أخوه سيف الدين في التاريخ المذكور في ترجمته ، استقل عز الدين المذكور بالملك من بعده ، ولم يزل إلى أن حضرت الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين الوفاة – في التاريخ المذكور في ترجمة أبيه نور الدين – فأوصى بمملكة حلب وما معها لابن عمـه عز الدين مسعود المذكور ، واستحلف له الأمراء والأجناد ، فلما توفي وبلغ الخبر عز الدين مسعوداً ، بادر متوجهاً إليها خوفاً من صلاح الدين أن يسبقه فيأخذها ، وكان وصوله إليها في العشرين من شعبان سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، وصعد القلعة واستولى على ما بها من الخزائن والحواصل ، وتزوج أم الملك الصالح في خامس شوال من السنة ، وأقـام بهـا إلى سادس عشر شوال .

ثم علم أنه لا يمكنه حفظ الشام والموصل ، وخاف من جانب صلاح الدين ، وألح عليه الأمراء في طلب الزيادات ، وتبسطوا عليه في المطالب[1] ، وضاق عنهم عَطَنه . وكان المستولي على أمره مجاهد الدين قايماز الزيني – المقدم ذكره في حرف القاف – فرحل عن حلب وخلف بها مظفر الدين ولده ، ومظفر

---

١ لي : الطلب .

الدين بن زين الدين صاحب إربل – المذكور في حرف الكاف ؛ ولما وصل إلى الرقة لقيه بها أخوه عماد الدين زنكي صاحب سنجار ، فقرر معه مقايضة حلب بسنجار وتحالفا على ذلك ، وسير عماد الدين من يتسلم حلب ، وسير عز الدين من يتسلم سنجار .

وفي ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، صعد عماد الدين إلى قلعة حلب ، وكان قد تقرر الصلح بين عز الدين المذكور وابن عمه الملك الصالح ، وبين صلاح الدين ، على يد قليج أرسلان صاحب الروم ، وصعد السلطان صلاح الدين إلى الديار المصرية ، واستناب بدمشق ابنَ أخيه عز الدين فروخ شاه بن شاهان شاه بن أيوب ، فلما بلغه خبر وفاة الملك الصالح وهذه الأمور المتجددة عاد إلى الشام . وكان وصوله إلى دمشق في سابع عشر صفر سنة ثمان وسبعين، وبلغه بها أن رسول عز الدين مسعود وصل إلى الفرنج يحثهم على قتال السلطان ويبعثهم على قصده ، فعلم أنه قد غدر به ونكث اليمين ، فعزم على قصد حلب والموصل وأخذ في التأهب للحرب ، فبلغ عماد الدين صاحب حلب ذلك ، فسير إلى أخيه صاحب الموصل يعلمه ذلك ويستدعي منه العساكر .

فسار السلطان صلاح الدين من دمشق ونزل على حلب ، في ثاني عشر جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وأقام عليها ثلاثة أيام . ثم رحل في الحادي والعشرين من الشهر ، ثم جاءه مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل ، وكان يوم ذلك في خدمة صاحب الموصل ، وهو صاحب حران ، وكان قد استوحش من عز الدين مسعود صاحب الموصل وخاف من مجاهد الدين قايماز الزيني – المذكور في حرف القاف – فالتجأ إلى السلطان صلاح الدين وقطع الفرات وعبر إليه ، وقوّى عزمه على قصد بلاد الجزيرة وسهّل أمرها عليه ، فعبر السلطان صلاح الدين الفرات ، وأخذ الرها والرقة ونصيبين وسروج ، ثم أشحن[1] على بلاد الخابور وأقطعها ، وتوجه إلى الموصل ، ونزل عليها يوم الخميس حادي عشر رجب سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ليحاصرها ، فأقام أياماً ، وعلم أنه بلد عظيم لا يتحصل منه شيء بالمحاصرة ، وأن طريق أخذه أخذ قلاعه

---

١ ن ر لي بر من : شحن .

وبلاده وإضعاف أهله على طول الزمان ، فرحل عنها ونزل على سنجار في سادس عشر شعبان من السنة ، وأخذها في ثاني شهر رمضان المعظم ، وأعطاها لابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر – المقدم ذكره – وشرح ذلك يطول .

وخلاصة الأمر أنه رجع إلى الشام فكان وصوله إلى حَرّان في أول ذي القعدة ثم عاد إلى منازلة الموصل ، وكان وصوله إليها في أول شهر ربيع الأول سنة إحدى وثمانين ، ونزلت إليه والدة عز الدين ومعها جماعة من نساء بني أتابك وابنه نور الدين أرسلان شاه بن مسعود – وقد سبق ذكره في حرف الهمزة – وطلبت منه المصالحة ، فردّها خائبة ظناً منه أن عز الدين أرسلها عجزاً عن حفظ الموصل ، واعتذر بأعذار ندم عليها بعد ذلك ، وبذل أهل الموصل نفوسهم في القتال لكونه رد النساء والولد بالخيبة ، فأقام عليها إلى أن أتاه خبر وفاة شاه أرمن ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن سكمان القطبي صاحب خلاط ، وقيام مملوكه بكتمر بالأمر من بعده ، وطمع فيه من جاوره من الملوك وعزموا على قصده ، فسير إلى السلطان وأطمعه في خِلاط ، وقرر معه تسليمها إليه وأن يعوضه عنها ما يرضيه . وكانت وفاة شاه أرمن يوم الخميس تاسع شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة .

فرحل السلطان [صلاح الدين] عن الموصل لهذا السبب في العشرين من الشهر المذكور وتوجّه نحو خلاط ، وفي مقدمته مظفر الدين صاحب إربل وهو يوم ذاك صاحب حران ، وناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه وهو ابن عم صلاح الدين، فنزلوا بالطوانة، البليدةِ التي هي بالقرب من خِلاط ، وسير الرسل إلى بكتمر لتقرير القاعدة، فوصلت الرسل إليه وشمس الدين بهلوان بن الذكر[1] صاحب أذربيجان وعراق العجم قد قرب من خلاط ليحاصرها ، فبعث إليه بكتمر يعرفه أنه إن لم يرجع عنه وإلا سلم البلاد إلى السلطان [صلاح الدين] فصالحه وزوجه ابنته ورجع عنه، وسير بكتمر إلى السلطان [صلاح الدين] يعتذر عما قاله من تسليم خلاط ، وكان السلطان قد نزل على ميّافارقين يحاصرها ، فقاتلها قتالاً شديداً ، ثم أخذها عن صلح بالخديعة في التاسع والعشرين من

---

[1] ر : الدكن ، ن بر من : الدكر ؛ ق لي : الذكز ؛ ولعل الصواب « الدكز » .

جمادى الأولى من السنة المذكورة، وكان صاحبها قطب الدين ايلغازي بن البي بن كرماس[1] بن غازي[2] بن أرتق ، فمات وتركها لولده حسام الدين بولق أرسلان، وهو طفل صغير ، فطمع في أخذها من واليها فأخذها .

ولما أيس السلطان من خلاط عاد إلى الموصل ، وهي الدفعة الثالثة ، ونزل بعيداً عنهـا بموضع يقال له كفر زمار ، فأقام به مدة ، وكان الحر شديداً ، فمرض السلطان مرضاً شديداً أشفى على الموت ، فرحل طالباً حران في مستهل شوال من السنة . ولما علم عز الدين مسعود المذكور بمرض السلطان وأنه رقيق القلب ، انتهز الفرصة وسير القاضي بهاء الدين بن شداد – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى في حرف الياء – ومعه بهاء الدين الربيب ، فوصلا إلى حران في الرسالة والتماس الصلح ، فأجاب إلى ذلك ، وحلف يوم عرفة من السنة وقـد تماثل للصحة ، ولم يتغير عن تلك اليمين إلى أن مات رحمـه الله تعالى ، ثم رحل إلى الشام .

وأمِنَ حينئذ عز الدين مسعود وطابت نفسه ، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي في السابع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائـة بعلة الإسهال . وكان قد بنى بالموصل مدرسة كبيرة وقفها على الفقهاء الشافعية والحنفية ، فدفن بهذه المدرسة في تربة هي بداخلها ، رحمه الله تعالى ؛ ورأيت المدرسة والتربة ، وهي من أحسن المدارس والترب ، ومدرسة ولده نور الدين أرسلان شـاه في قبالتها ، وبينهما ساحة كبيرة .

ولما مات خلف ولده نور الدين المذكور – وقـد تقدم ذكره في حرف الهمزة – ولما مات نور الدين – في التاريخ المذكور في ترجمته – خلف ولدين أحدهما الملك القاهر عز الدين أبو الفتح مسعود، والآخر الملك المنصور عماد الدين زنكي ولما حضرته الوفاة قسم البلاد بينهما ، فأعطى الملك القـاهر – وهو الأكبر – الموصل وأعمالها ، وأعطى عماد الدين الشوش[3] والعقر وتلك النواحي .

---

١ ق : كرماش ؛ ر : كرقاس ؛ ن : تمرتاش ؛ وسقط النص من بر من .

٢ ن : ايلغازي .

٣ ق ر : التوش ؛ ن : السوس .

(249) فأما الملك القاهر فكانت ولادته في سنة تسعين وخمسمائة بالموصل، وتوفي بها فجأة ليلة الاثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وستمائة ، وكان قد بنى مدرسة أيضاً فدفن بها .

(250) وأما عماد الدين فإنه أخذ بعد موت أخيه الملك القاهر قلعة العمادية، ثم أخذت منه ، وهي من أحسن القلاع بجبل الهكارية من أعمال الموصل ، وكذلك عدة قلاع مما يجاورها ، وانتقل إلى إربل، وكان زوج ابنة مظفر الدين صاحب إربل ، فأقام بها زماناً ، وكنا في جواره ، وكان من أحسن الناس صورة ، ثم قبض عليه مظفر الدين لأمر يطول شرحه ، وسيره إلى سنجار إلى الملك الأشرف ابن الملك العادل - الآتي ذكره إن شاء الله تعالى - فأفرج عنه الملك الأشرف ، وعاد إلى إربل ، وقايضه مظفر الدين عن العقر بشهرزور وأعمالها ، فانتقل إليها وأقام بها إلى أن توفي في حدود سنة ثلاثين وستمائة ، وخلف ولداً أقام بعده قليلاً ثم مات ، رحمهما الله تعالى .

ولما مات عز الدين مسعود بن أرسلان شاه خلف ولدين نور الدين أرسلان شاه ، وكان سمي عليا في حياة جده أرسلان شاه ، فلما مات جده نور الدين سموه باسمه ، وناصر الدين محمد .

(251) فتولى بعده نور الدين المذكور ، وكان تقدير عمره عشر سنين ، وبقي بعد أبيه قليلاً وتوفي في بقية السنة .

(252) وتولى أخوه بعده ناصر الدين محمود، والمدبر لأمر المملكة بدر الدين لؤلؤ الذي ملك الموصل فيما بعد .

(253) وتوفي بهلوان بن الذكر[1] المذكور ، في سلخ ذي الحجة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى .

(254) وتوفي والده شمس الدين ألدكز الأتابك في أواخر شهر ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة ، بنقجوان ، ودفن بها رحمه الله تعالى ؛ وكان أتابك السلطان أرسلان شاه بن طغرلبك بن محمد بن ملكشاه بن محمد السلجوقي .

---

١ ر : الدكر ؛ لي : الدكز .

وبعد الذكر بمقدار شهر توفي أرسلان شاه المذكور بهمذان ودفن بها رحمه الله تعالى .

(255) وقتل قزل بن الذكر المذكور في أوائل شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وكان ملكاً كبيراً ، وهو ابن الذكر المذكور ، رحمهم الله تعالى أجمعين . والله تعالى أعلم بالصواب .

٧٢٢

مطرف الصنعاني

أبو أيوب مطرف بن مازن ، الكناني بالولاء ، وقيل القيسي بالولاء ، اليماني الصنعاني ؛ ولي القضاء بصنعاء اليمن ، وحدث عن عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج وجماعة كثيرة ، وروى عنه الإمام الشافعي ، رضي الله عنه ، وخلق كثير .

واختلفوا في روايته : فنقل عن يحيى بن معين أنه سئل عنه فقال : كذاب. وقال النسائي : مطرف بن مازن ليس بثقة. وقال السعدي[1] : مطرف بن مازن الصنعاني يتثبت في حديثه حتى يُبْلى ما عنده . وقال أبو حاتم محمد بن حبان البستي : مطرف بن مازن الكناني قاضي اليمن يروي عن معمر وابن جريج ، روى عنه الشافعي وأهل العراق ، وكان يحدث بما لم يسمع ، ويروي ما لم يكتب عمن لم يره ، ولا تجوز الرواية عنه إلا عند الخواص للاعتبار فقط . وقال حاجب ابن سليمان : كان مطرف بن مازن قاضي صنعاء وكان رجلاً صالحاً ، وذكر عنه حكاية في إبراره قسم من أقسم على أمر شنيع يفعله به . وذكر أبو أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني أحاديث من رواية مطرف بن مازن وقال : لمطرف غير

---

٧٢٢ – ترجمته في ميزان الاعتدال ٤ : ١٢٥ .

١ يريد عبد الله بن محمود السعدي محدث مرو ، توفي سنة ٣٠٢ .

ما ذكرت أفراد يتفرد بها عمن يرويها عنه ، ولم أر فيما يرويه شيئاً[1] منكراً .
وقال أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي : أخبرنا أبو سعيد قال ، حدثنا أبو العباس قال ، أخبرنا الربيع قال الشافعي رضي الله تعالى عنه : وقد كان من حكام الآفاق من يستحلف على المصحف وذلك عندي حسن ، وقال : وأخبرني مطرف بن مازن بإسناد لا أحفظه أن ابن الزبير أمر بأن يحلف على المصحف قال الشافعي ، رضي الله عنه : ورأيت مطرفاً بصنعاء اليمن يحلف على المصحف، وقال غيره ، قال الشافعي رضي الله عنه : ورأيت ابن مازن — وهو قاضي صنعاء — يغلظ باليمين بالمصحف .

وتوفي مطرف المذكور بالرقة ، وقيل بمنبج ، وكانت وفاته في أواخر خلافة هارون الرشيد ، وتوفي هارون الرشيد ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة بطوس ، وكانت ولايته يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة ، رحمه الله تعالى .

وهذا مطرف ليس من المشاهير الذين أحتاج إلى ذكرهم ، والذي حملني على ذكره أن الشيخ أبا إسحاق الشيرازي ، رحمه الله تعالى ، ذكره في كتاب « المهذب » في باب اليمين في الدعاوى في فصل التغليظ ، فقال : « وإن حلف بالمصحف وما فيه من القرآن فقد حكى الشافعي رضي الله عنه عن مطرف أن ابن الزبير كان يحلف على المصحف ، قال : ورأيت مطرفاً بصنعاء يستحلف على المصحف ، قال الشافعي رضي الله عنه : وهو حسن » انتهى كلام صاحب «المهذب». ورأيت الفقهاء يسألون عن مطرف المذكور ولا يعرفه أحد، حتى غلط فيه صاحبنا عماد الدين أبو المجد إسماعيل بن أبي البركات هبة الله بن أبي الرضى بن باطيش الموصلي الفقيه الشافعي في كتابه الذي وضعه على «المهذب» في أسماء رجاله والكلام على غريبه فقال : « مطرف بن عبد الله بن الشخّير » ثم قال « وتوفي سنة[2] سبع وثمانين » يعني للهجرة ، فيا لله العجب ! شخص يموت في هذا التاريخ كيف يمكن أن يراه الشافعي رضي الله عنه ؟ ومولد الشافعي

---

١ ق : متناً .

٢ ق : بعد سنة .

سنة خمسين ومائة بعد موت ابن الشخير بثلاث وستين سنة ، وما أدري كيف وقع هذا الغلط ؟ فلو أنه ما حكى تاريخ وفاته كان يمكن أن يقال : ظن أنه أدركه الشافعي .

ولما انتهيت في هذه الترجمة إلى هذا الموضع رأيت في تاريخ أبي الحسين عبد الباقي بن قانع الذي جعله مرتباً على السنين أن مطرف بن مازن توفي سنة إحدى وتسعين ومائة ، وهذا يوافق ما قاله الأول من أنه توفي في أواخر خلافة هارون الرشيد . والذي أفادني هذه الترجمة على الصورة المحكية في الأول هو الشيخ الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم المنذري ، نفع الله به .

ومُطَرِّف : بضم الميم وفتح الطاء المهملة وتشديد الراء المكسورة وبعدها فاء . والباقي معروف فلا حاجة إلى ضبطه وتقييده .

(256) وأما مطرف الذي ذكره عماد الدين فهو أبو عبد الله مطرف بن عبد الله بن الشخير[1] بن عوف بن كعب بن وقدان بن الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن معد بن عدنان ، الحرشي ، كان فقيهاً ، وكان لوالده عبد الله صحبة ، وكان مطرف من أعبد الناس وأنسكهم ، فذكروا أنه وقع بينه وبين رجل منازعة ، فرفع يديه ، وكان ذلك في مسجد البصرة ، وقال : اللهم إني أسألك أن لا يقوم من مجلسه حتى تكفينيه إياه ، فلم يفرغ مطرف من كلامه حتى صُرِع الرجل فمات ، وأخذ مطرف وقدموه إلى القاضي ، فقال القاضي : لم يقتله ، وإنما دعا عليه فأجاب الله دعوته ، فكان بعد ذلك تُتّقى دعوته ، ومات في سنة سبع وثمانين للهجرة [وقيل غير ذلك][2] وقال ابن قانع : سنة خمس وتسعين ، والله تعالى أعلم بالصواب .

---

١ ترجمته في طبقات ابن سعد ٧ : ١٤١ وتذكرة الحفاظ : ٦٤ ورجال ابن حيان : ٨٨ .

٢ زيادة من ق .

٧٢٣

الواعظ المروزي

أبو منصور المظفر بن أبي الحسين أزدشير بن أبي منصور العَبّادي ، الواعظ المروزي الملقب قطب الدين ، المعروف بالأمير ؛ كان من أهل مرو ، وله اليد الطولى في الوعظ والتذكير وحسن العبارة ، ومارس هذا الفن من صغره إلى كبره ، ومهر فيه حتى صار ممن يضرب به المثل في ذلك ، وصار عَيْنَ ذلك العصر ، وشهد له الكل بالفضل وحيازة قصب السبق .

وقدم بغداد فأقام بها قريباً من ثلاث سنين يعقد له فيها مجالس الوعظ ، ولقي من الخلق قبولاً تاماً ، وحظي عند الإمام المقتفي لأمر الله ، ثم خرج منها رسولاً إلى جهة السلطان سنجر بن ملك شاه السلجوقي – المقدم ذكره – فوصل إلى خراسان ، ثم عاد إلى بغداد ، وخرج منها إلى خوزستان في رسالة فمات بعسكر مكرم في سلخ ربيع الآخر يوم الخميس ، وقيل الاثنين ، سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، وحمل تابوته إلى بغداد ، ودفن بها في الشونيزية في حظيرة الشيخ الجنيد بن محمد العبد الصالح ، رضي الله عنه .

ومولده في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين وأربعمائة ، وسمع الحديث الكثير بنيسابور من أبي علي نصرالله بن أحمد بن عثمان الخشنامي وأبي عبد الله إسماعيل بن الحافظ عبد الغافر الفارسي وغيرهما ، وروى عنه الحافظ أبو سعد السمعاني ، وقال عنه : كان صحيح السماع ، ولم يكن موثوقاً به في دينه ، رأيت منه أشياء ، وطالعت بخطه رسالة جمعها في إباحة شرب الخمر ، سامحه الله تعالى وعفا عنه .

وكان والده أبو الحسين يعرف بالأمير أيضاً ، وكان مليح الوعظ حسن السيرة توفي سنة نيف وتسعين وأربعمائة ، رحمهما الله تعالى .

والعَبّادي : بفتح العين المهملة وتشديد الباء الموحدة وبعد الألف دال مهملة هذه النسبة إلى سنج عَبّاد ، وهي قرية من قرى مرو .

وسِنج : بكسر السين المهملة وسكون النون وبعدها جيم ؛ وبأعمال مرو أيضاً قرية كبيرة يقال لها سِنْج ، منهـا الفقيه أبو علي السنجي – وقد تقدم ذكره في حرف الحاء – وتكلمنا على سنج هناك ، فلا يظن ظان أنهما موضع واحد ، بل هما قريتان ، وقد نبَّه على ذلك جماعة من أرباب هذا الفن .

وأما أزدشير فقد تقدم الكلام على ضبطه في ترجمة الوزير سابور ، فلا حاجة إلى إعادته ، والله تعالى أعلم .

٧٢٤

موفق الدين العيلاني المصري

أبو العز مظفر بن إبراهيم بن جماعة بن علي بن شامي[١] بن أحمد بن ناهض بن عبد الرزاق العيلاني ، الحنبـلي المذهب الملقب موفق الدين ، الشاعر المشهور المصري ؛ كان أديباً عروضياً شاعراً مجيداً ، صنف في العروض مختصراً جيداً دل على حذقه فيه ، وله ديوان شعر رائق[٢] ، وكان ضريراً ، فمن شعره :

قالوا عشقت وأنت أعمى ظبياً كحيل الطرف ألمى
وحُلاهُ مـا عاينتَهـا فنقولَ قد شغفتك همّا
وخيالهُ بكَ في المنـا م فما أطاف ولا ألمّا
من أينَ أرْسلَ للفؤا دِ وأنتَ لم تنظرْهُ سهما
ومتى رأيت جمـاله حتى كساك هواه سقما [

---

٧٢٤ – ترجمته في حاشية إنباه الرواة ٣ : ٣٣٠ وفي الحاشية ثبت بمصادر أخرى .

١ ق : سامي .

٢ زاد في ن : في غاية الرقة .

والعين داعيــة الهوى وبه تنمّ إذا تنمّى][1]
وبأيّ جارحةٍ وصلـ ـتَ لوصفهِ نثراً ونظما
فأجبت إني مُـــوسَوِ يٌ العشق إنصاتـاً وفهما
أهوى بجارحــة السما ع، ولا أرى ذات المسمى

ولقد أذكرتني هذه الأبيات أبياتاً لرجل ضرير أيضاً، والشيء بالشيء يذكر، وهي هذه :

وغادةٍ قالـت لأترابهـــا يا قوم ما أعجب هذا الضرير
أيعشق الإنسان ما لا يرى فقلت والدمع بعيني غزير :
إن لم تكن عيني رأت شخصها فإنها قد مثلت في الضمير

ومثل هذا أيضاً قول المهذب عمر بن محمـــد المعروف بابن الشحنة الموصلي الأديب الشاعر المشهور من جملة قصيدة طويلة مدح بهـا السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، والبيت المقصود قوله :

وإني امرؤ أحببتكم لمكارم سمعت بها، والأذن كالعين تعشقُ

وقد أخذ هذا المعنى من قول بشار بن برد الشاعر المقدم ذكره :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا[2]

وكان الوزير صفي الدين أبو محمد عبد الله بن علي، عرف بابن شكر، قد عاد من الشام إلى مصر، فخرج أصحابه للقائه إلى الخشبي المنزلة المجاورة للعباسة، فكتب مظفر المذكور إليه هـــذه الأبيات، يعتذر من تأخره عن الخروج إليه وهي :

قالوا إلى الخشبي سرنا على عجل نلقى الوزير جميعاً من ذوي الرتب[3]

---

١ زيادة من ر : ثابتة عند وستنفيلد .
٢ ولقد أذكرتني ... أحياناً : لم ترد هذه الفقرة في لي بر من .
٣ ق : النسب .

ولم تسر أيها الأعمى ، فقلت لهم : لم أخش من تعب ألقى ولا نصب
وإنما النــار في قلبي لوحشته فخفت أجمع بين النار والخشب

وهذا المعنى مطروق لكنه استعمله حسناً .

وأخبرني أحد أصحابه أن شخصاً قال له : رأيت في بعض تواليف أبي العلاء المعري ما صورته : أصلحك الله وأبقاك ، لقد كان من الواجب أن تأتينا اليوم إلى منزلنا الخالي ، لكي نحدث عهداً بك يا زين الأخلاء ، فما مثلك من غيّر عهداً أو غفل ؛ وسأله : من أي الأبحر هذا ؟ وهل هو بيت واحد ام أكثر ؟ فإن كان أكثر فهل أبياته على روي واحد أم هي مختلفة الروي ؟ قال : فأفكر فيه ، ثم أجابه بجواب حسن ، فلما قال لي المخبر ذلك قلت له : اصبر عليّ حتى أنظر فيه ولا تقل ما قاله ، ثم أفكرت فيه فوجدته يخرج من بحر الرجز ، وهو المجزوء منه ، وتشتمل هذه الكلمات على أربع أبيات على رويّ اللام ، وهي على صورة يسوغ استعمالها عند العروضيين ، ومن لا يكون له معرفة بهذا الفن فإنه ينكرها ، لأجل قطع الموصول منها ، ولا بد من الإتيان بها لتظهر صورة ذلك ، وهي :

أصلحك[1] الله وأبـ قاك لقد كان من الـ
ـواجب أن تأتينا اليـ ـوم إلى منزلنا الـ
ـخالي لكي نحدث عهـ ـداً بك يا زين الأخلـ
ـلاء فما مثلك من غير عهـداً أو غفل

وهذا إنما يذكره أهلُ هذا الشأن للمعاياة ، لا لأنه من الأشعار المستعملة ، فلما استخرجته عرضته على ذلك الشخص فقال : هكذا قاله مظفر الأعمى .

وقال الشيخ زكي الدين أبو محمد عبدَ العظيم بن عبد القوي المنذري المحدث المصري ، رحمه الله تعالى ، أخبرني الأديب موفق الدين مظفر الضرير الشاعر المصري أنه دخل على القاضي السعيد بن سناء الملك – قلت : وسيأتي ذكره إن

---

١ ق لي ر : أكرمك .

شاء الله تعالى ، واسمه هبة الله – قال : فقال لي : يا أديب ، قد صنعت نصف بيت ، ولي أيام أفكر فيه ، ولا يأتي لي تمامه ، فقلت : وما هو ؟ فأنشدني :

بياض عذاري من سواد عذاره

قال مظفر : فقلت : قد حصل تمامه وأنشدت :

كما جُلَّ ناري فيه من جلناره

فاستحسنه ، وجعل يعمل عليه ، فقلت في نفسي : أقوم وإلا يعمل المقطوع من كيسي[1] .

وبالجملة فقد خرجنا عن المقصود ، لكن الكلام يسوق بعضه بعضاً .

[وكتب مظفر المذكور لتقي الدين ، ومدحه جماعة هو منهم ، فخلع على الجميع ولم يخلع عليه :

العبد مملوك مولانا وخادمه ... مظفر الشاعر الأعمى حليف ضنى
يقبل الارض إجلالاً لمالكه ... رقاً ، وينهي إليه بعد كلّ هنا
أن القميص جميع الناس قد بصروا ... به وما منهم يعقوب غير أنا

وله يوم رمي الشواني :

يا أيها الملك المسرور آمله ... هذي شوانيك ترمى يوم سرّاءِ
كأنما هي عقبان بها ظمأ ... طارت من البحر وانقضت على الماءِ

وله في يوم لعبها :

مولاي هذه الشواني في ملاعبها ... مثل الشواهين بين السهل والجبلِ
تسقي مجاذيفها ماءً وتنفضه ... نفض العقاب جناحيها من البللِ

وله يصف فانوس الجامع العتيق بمصر :

أرى علماً للناس في الصوم ينصب ... على جامع ابن العاص أعلاه كوكب

---

١ وقال الشيخ... كيسي : سقط من لي بر من .

وما هو في الظلماء إلا كأنه على رمح زنجيّ سنان مذهب
ومن عجب ان الثريا سماؤها مع الليل تلهي كلّ من يترقب
فطوراً تحييه بباقة نرجس وطوراً يحييها بكاس تلهب
وما الليل إلا قانص لغزالة بفانوس نارٍ نحوها يتطلب
ولم أر صياداً على البعد قبله إذا قربت منه الغزالة يهرب

وشعره كثير][1] .

وكانت ولادة مظفر المذكور لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة بمصر . وتوفي بها سحر يوم السبت التاسع من المحرم سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، ودفن من الغد بسفح المقطم ، رحمه الله تعالى .

والعَيلاني : بفتح العين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعد اللام ألف نون ، هذه النسبة إلى قيس عَيْلان ، وقيل قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن عدنان ، فمن قال إنه قيس عيلان فقد اختلفوا في عيلان ماذا ؟ فمنهم من قال : هو اسم فرس كان له فأضيف إليه ، وقيل اسم كلب كان له ، وقيل اسم رجل كان قد حضنه صغيراً ، وإنما أضيف إلى عيلان لأنه كان في عصره شخص يقال له قيس كبّة – بضم الكاف وتشديد الباء الموحدة – وهو اسم فرس كانت له أيضاً ، فكان كل واحد منهما يضاف إلى ما له ليتميز عن الآخر ، والله أعلم ، وقد قيل إن قيس عيلان اسمه الناس – بالنون – وهو أخو إلياس – بالياء – جد النبي صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم بالصواب .

---

1 زيادة من لي ر بر من ، واردة عند وستنفيلد .

٧٢٥

الهرّا النحوي

أبو مسلم معاذ بن مسلم الهرّا النحوي الكوفيّ، من موالي محمد بن كعب القرظي؛ قرأ عليه الكسائي وروى الحديث عنه، وحُكيت عنه في القراءات حكايات كثيرة، وصنف في النحو كثيراً، ولم يظهر له شيء من التصانيف، وكان يتشيع، وله شعر كشعر النحاة.

وكان في عصره مشهوراً بالعمر الطويل، وكان له أولاد وأولاد أولاد، فمات الكل وهو باق. وحكى بعض كتابه قال: صحبت معاذ بن مسلم زماناً، فسأله رجل ذات يوم: كم سنك؟ فقال: ثلاث وستون، قال: ثم مكث بعد ذلك سنين وسأله: كم سنك؟ فقال ثلاث وستون، فقلت: أنا معك منذ إحدى وعشرين سنة، وكلما سألك أحد: كم سنك؟ تقول: ثلاث وستون، فقال: لو كنت معي إحدى وعشرين سنة أخرى ما قلت إلا هذا. وقال عثمان بن أبي شيبة: رأيت معاذ بن مسلم الهرا، وقد شد أسنانه بالذهب من الكبر، وفيه يقول أبو السريّ سهل بن أبي غالب الخزرجي الشاعر المشهور[1]:

إن معاذ بن مسلم رجل ... ليس لميقات عمره أمَدُ
قد شاب رأس الزمان واكتهل الدهر وأثواب عمره جُدُدُ
قل لمعاذ إذا مررت به ... قد ضج من طول عمرك الأبد
يا بكرَ حوّاء كم تعيش وكم ... تسحب ذيل الحياة يا لُبَد
قد أصبحت دار آدم خربت ... وأنت فيها كأنك الوَتِد

---

٧٢٥ – ترجمته في نور القبس: ٢٧٦ وعبر الذهبي ١: ٢٩٨ وانباه الرواة ٣: ٢٨٨ (وانظر مصادر أخرى في الحاشية).

١ وردت في بعض المصادر المشار اليها، وانظر الحيوان ٧: ٥١.

تسأل غربانها إذا نعبت كيف يكون الصداع والرمد
مصححاً كالظليم ترفل في بُرْديك مثل السعير تتقد
صاحَبْتَ نوحا ورضت بغلة ذي القرنين شيخا لولدك الولد
فارحل ودعنا لأن غايتك الموت وإن شد ركنك الجلد

قوله « تسحب ذيل الحياة يا لبد » فهذا لُبَدُ آخر نسور لقمان بن عاد ، وكان لقمان قد سيره قومه — وهم عاد الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه العزيز — إلى الحرم يستقي لها ، فلما هلكت عادُ خيّر لقمان بين أن يعيش عمر سبع بعرات سمر أو عمر سبعة أنسر ، كلما هلك نسر خلف بعده نسر ، فاختار النسور ، فكان يأخذ الفرخ عند خروجه من البيضة فيربيه فيعيش ثمانين سنة ، وهكذا ، حتى هلك منها ستة ، وبقي السابع فسمي لبداً ، فلما كبر وعجز عن الطيران كان يقول له لقمان : انهض لبد ، فلما هلك لبد مات لقمان ، وقد ذكرت العرب لبداً في أشعارها كثيراً ، فمن ذلك قول النابغة الذبياني :

أضحت خَلاء وأضحى أهلها احتَمَلوا أخنى عليها الذي أخنى على لبدِ

رجعنا إلى حديث معاذ[1] :

لما مات بنوه وحفَدته قال :

ما يرتجي في العيش من قد طَوَى من عمره الذاهب تسعينا
أفنى بنيه وبنيهم فقد جَرّعه الدهر الأمرينا
لا بد أن يشرب من حوضهم وإنْ تراخى عمره حينا

وكان معاذ المذكور صديقاً للكميت بن زيد الشاعر المشهور ؛ قال محمد بن سهل راوية الكميت : صار الطرماح الشاعر إلى خالد بن عبد الله القسْري أمير

---

[1] قوله تسحب ... حديث معاذ : سقط من ر لي بر من .

العراقين وهو بواسط فامتدحه ، فأمر له بثلاثين ألف درهم وخلع عليه حلّتي وشي لا قيمة لها[1] ، فبلغ ذلك الكميت ، فعزم على قصده ، فقال له معاذ الهرا : لا تفعل فلست كالطرماح ، فإنه ابن عمه ، وبينكما بون : أنت مضري وخالد يمني متعصب على مضر ، وأنت شيعي وهو أموي ، وأنت عراقي وهو شامي ، فلم يقبل إشارته ، وأبى إلا قصد خالد ، فقصده ، فقالت اليمانية لخالد : قد جاء الكميت وقد هجانا بقصيدة نونية فخر فيها علينا ، فحبسه خالد وقال : في حبسه صلاح لأنه يهجو الناس ويتأكلهم ، فبلغ ذلك معاذاً فغمه فقال :

نصحتك والنصيحة إن تـعـدّت ... هَوَى المنصوح عَزّ لها القبولُ
فخالفت الذي لك فيـه رشد ... فغالت دون مـا أملت غول
فعاد خلاف ما تهوى خلافاً ... له عرض من البـلوى طويل

فبلغ الكميت قوله ، فكتب إليه :

أراك كمهدي الماء للبحر حاملا ... إلى الرمل من يبرين مُتّجراً رملا

ثم كتب تحته : قد جرى عليّ القضاء فما الحيلة الآن ؟ فأشار عليه أن يحتال في الهرب ، وقال له : إن خالداً قاتلك لا محالة ، فاحتال بامرأته ، وكانت تأتيه بالطعام وترجع ، فلبس ثيابها وخرج كأنه هي ، فلحق بمسلمة بن عبد الملك فاستجار به وقال :

خرجت خروج القِدْحِ قدح ابن مقبل ... إليك على تلك الهزاهز والأزلِ
عليّ ثيـابُ الغانيات وتحتهـا ... عزيمة رأى أشبهت سلة النصل

فكان ذلك سبب نجاته من خالد .

وسأل شخص معاذاً عن مولده فقال : ولدت في أيام يزيد بن عبـد الملك أو في أيام عبد الملك ؛ وكان يزيد بن عبد الملك قد تولى بعد موت عمر بن عبد العزيز في شهر رجب سنة إحدى ومائة ، وتوفي في شعبان سنة خمس ومائة ،

---

[1] أي لا يمكن تقدير قيمتهما .

فهذه المدة هي أيامه ؛ وأما أبوه عبد الملك فإنه تولى بعد أبيه مروان في شهر رمضان المعظم سنة خمس وستين للهجرة ومات سنة ست وثمانين، فهذه مدته .

وتوفي معاذ سنة تسعين ومائة وقيل في السنة التي نكبت فيها البرامكة وهي سنة سبع وثمانين ومائة ، وهو الأصح ، رحمه الله تعالى .

وكان يكنى أبا مسلم ، فولد له ولد سماه علياً فصار يكنى به .

والهرا : بفتح الهاء وتشديد الراء وبعدها ألف مقصورة ؛ وإنما قيل له ذلك لأنه كان يبيع الثياب الهروية فنسب إليها .

(257) وأما أبو السري الشاعر صاحب الأبيات الدالية المذكورة فإنه نشأ بسجستان ، وادعى رضاع الجن وأنه صار إليهم ، ووضع كتاباً ذكر فيه أمر الجن وحكمتهم وأنسابهم وأشعارهم ، وزعم أنه بايعهم للأمين بن هارون الرشيد ولي العهد فقربه الرشيد وابنه الأمين وزبيدة أم الأمين ، وبلغ معهم ، وأفاد منهم، وله أشعار حسان وضعها على الجن والشياطين والسعالي ، وقال له الرشيد: إن كنت رأيت ما ذكرت لقد رأيت عجباً ، وإن كنت ما رأيته لقد وضعت أدباً ، وأخباره كلها غريبة عجيبة ، والله أعلم بالصواب .

٧٢٦

ابن طرارا الجريري

القاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى بن حميد بن حماد بن داود المعروف بابن طرارا الجريري النهرواني ؛ كان فقيهاً أديباً شاعراً ، عالماً بكل فن ، ولي القضاء ببغداد ، بباب الطاق نيابة عن ابن صبر القاضي ، وروى عن جماعة من الأئمة ، منهم أبو القاسم البغوي وأبو بكر بن أبي داود ويحيى بن

٧٢٦ – ترجمته في طبقات الشيرازي : ٩٣ وعبر الذهبي ٣ : ٤٧ وانباه الرواة ٣ : ٢٩٦ (وراجع الحاشية) .

صاعد وأبو سعيد العدوي وأبو حامد محمد بن هارون الحضرمي وغيرهم . وأخذ الأدب عن أبي عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة المعروف بنفطويه وغيره . وروى عنه جماعة من الأئمة أيضاً ، منهم أبو القاسم الأزهري والقاضي أبو الطيب الطبري الفقيه الشافعي وأحمد بن علي التوّزي وأحمد بن عمر بن روح .

وذكر أحمد بن عمر بن روح أن أبا الفرج المذكور حضر في دار لبعض الرؤساء ، وكان هناك جماعة من أهل العلم والأدب ، فقالوا له : في أي نوع من العلوم نتذاكر ؟ فقال أبو الفرج لذلك الرئيس : خزانتك قد جمعت أنواع العلوم ، وأصناف الأدب ، فإن رأيت أن تبعث الغلام إليها ، تأمره أن يفتح بابها ، ويضرب بيده إلى أي كتاب رأى[1] منها ، فيحمله ثم يفتحه ، وينظر في أي العلوم هو ، فنتذاكره ونتجارى فيه . قال ابن روح : وهذا يدل على أن أبا الفرج كان له أنسة بسائر العلوم . وكان أبو محمد عبد الباقي يقول : إذا حضر القاضي أبو الفرج فقد حضرت العلوم كلها ، وقال : لو أوصى رجل بثلث ماله لأعلم الناس[2] لوجب أن يدفع إلى أبي الفرج المعافى .

وكان ثقة مأموناً في روايته ، وله شعر حسن ، فمن ذلك ما رواه عنه القاضي أبو الطيب الطبري الفقيه الشافعي ، وهو :

ألا قل لمن كان لي حاسداً ... أتدري على من أسأت الأدبْ
أسأت على الله في فعله ... لأنك لم ترض لي ما وهب
فجازاك عنه بأن زادني ... وسد عليك وجوه الطلب

وذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في كتاب « طبقات الفقهاء » وأثنى عليه ثم قال : وأنشدني قاضي بلدنا أبو علي الداودي ، قال : أنشدني أبو الفرج لنفسه :

أأقتبس الضياء من الضباب ... وألتمس الشراب من السرابِ

---

١ - لي : أراد .
٢ ر : الخلق .

أريد من الزمان النذل بذلاً ... وأرياً من جنى سَلَع وصاب
أرجّي أن ألاقي لاشتياقي ... خيار الناس في زمن الكلاب

ومن شعره أيضاً :

مالك العالمين ضامن رزقي ... فلماذا أملّك الخلق رقي
قد قضى لي بما عليّ وما لي ... خالقي جل ذكره قبل خلقي
صاحبي البذل والندى في يَساري ... ورفيقي في عُسْرتي حسن رفق
وكما لا يردُّ عجزيَ رزقي ... فكذا لا يجر رزقيَ حذقي

وذكر أنه عملها في معنى قول علي بن الجهم[1] :

لعمرك ما كل التعطل ضائر ... ولا كلُّ شغلٍ فيه للمرء مَنْفَعَه
إذا كانت الأرزاق في القرب والنوى ... عليك سواء فاغتنم راحَة الدَّعَه

ومن غريب ما اتفق له ما حكاه أبو عبد الله الحميدي ، صاحب « الجمع بين الصحيحين » – المقدم ذكره – قال : قرأت بخط أبي الفرج المعافى بن زكريا النهرواني : حججت سنة ، وكنت بمنى أيام التشريق ، فسمعت منادياً ينادي : يا أبا الفرج ، فقلت : لعله يريدني ، ثم قلت : في الناس خلق كثير ممن يكنى أبا الفرج ، ولعله ينادي غيري ، فلم أجبه ، فلما رأى أنه لا يجيبه أحد نادى : يا أبا الفرج المعافى ، فهممت أن أجيبه ثم قلت : قد يتفق أن يكون آخر اسمه المعافى ، ويكنى أبا الفرج ، فلم أجبه ، فرجع فنادى : يا أبا الفرج المعافى بن زكريا النهرواني ، فقلت : لم يبق شك في مناداته إياي إذ ذكر اسمي وكنيتي واسم أبي وبلدي الذي أنسب إليه ، فقلت : ها أنا ذا فما تريد ؟ قال : لعلك من نهروان الشرق ، فقلت : نعم ، فقال : نحن نريد نهروان الغرب ، فعجبت من اتفاق الاسم والكنية واسم الأب وما أنتسب

---

[1] لم تورد لي بر من إلا بيتاً واحداً وبعده إحالة على بيتين آخرين ؛ وانظر ديوان ابن الجهم : ١٩٤ حيث لم يرد في التكملة إلا بيتان .

إليه ، وعلمت أن بالمغرب موضعاً يسمى التهروان ، غير النهروان الذي بالعراق.

ولأبي الفرج المذكور عدة تصانيف ممتعة في الأدب وغيره [وكتاب « الجليس الأنيس » تصنيفه أيضاً][1] .

وكانت ولادته يوم الخميس لسبع خلون من شهر رجب سنة ثلاث ، وقيل خمس ، وثلثمائة ؛ وتوفي يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة ، سنة تسعين وثلثمائة بالنهروان ، رحمه الله تعالى .

وطَرارا : بفتح الطاء المهملة والراء وبعد الألف راء ثانية مفتوحة ثم ألف مقصورة وبعضهم يكتبه بالهاء بدلاً من الألف ، فيقول : طرارة ، والله أعلم .

والجريري : بفتح الجيم وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء هذه النسبة إلى الإمام محمد بن جرير الطبري – المقدم ذكره – وإنما نسب إليه لأنه كان على مذهبه مقلداً له ، وقد تقدم في ترجمته أنه كان مجتهداً صاحب مذهب مستقل ، وكان له أتباع ، وأخذ بمذهبه جماعة منهم أبو الفرج المذكور .

وقد سبق الكلام على النهرواني[2] فأغنى عن الإعادة ، والله تعالى أعلم .

٧٢٧
المعز العبيدي

أبو تميم معد ، الملقب المعز لدين الله ، بن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد الله . قد تقدم ذكر والده وجده وجد أبيه وطرف من أخبارهم ؛ وكان

---

١ انفردت به لي بر من .

٢ ن : النهروان .

٧٢٧ – أخباره في المنتظم ٧ : ٨٢ وأعمال الاعلام ٣ : ٥٥ والبيان المغرب ١ : ٢٢١ والدرة المضية : ١١٩ والخطط ١ : ٣٥١ واتعاظ الحنفا : ٩٣ وابن خلدون ٤ : ٤٦ وابن الأثير (ج : ٨) والنجوم الزاهرة ٤ : ٦٩ وعبر الذهبي ٢ : ٣٣٩ والشذرات ٣ : ٥٢ ، وابتداء من هذه الترجمة تشترك مخطوطة آيا صوفيا رقم : ٣٥٣٣ مع سائر المخطوطات (ورمزها ص) ؛ وبترجمة المعز يبدأ الجزء الثاني من المختار الذي صنعه ابن المؤلف .

المعز المذكور قد بويع بولاية العهد في حياة أبيه المنصور إسماعيل ثم جددت له البيعة بعد وفاته[1] في التاريخ المذكور في ترجمته ، ودبر الأمور وساسها وأجراها على أحسن أحكامها إلى يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وثلثمائة ، فجلس يومئذ على سرير ملكه ، ودخل عليه الخاصة وكثير من العامة ، وسلموا عليه بالخلافة ، وتسمى بالمعز ، ولم يظهر على أبيه حزناً .

ثم خرج إلى بلاد إفريقية يطوف فيها ، ليمهد قواعدها ويقرر أسبابها ، فانقاد له العصاة من أهل تلك البلاد ودخلوا في طاعته ، وعقد لغلمانه وأتباعه على الأعمال ، واستندب لكل ناحية من يعلم كفايته وشهامته ، وضم إلى كل واحد منهم جمعاً كبيراً من الجند وأرباب السلاح .

ثم جهز أبا الحسن جوهراً[2] القائد – المذكور في حرف الجيم – ومعه جيش كثيف ، ليفتح ما استعصى عليه من بلاد[3] المغرب ، فسار إلى فاس ، ثم منها إلى سجلماسة ففتحها ، ثم توجه إلى البحر المحيط وصاد من سمكه وجعله في قلال الماء[4] ، وأرسله إلى المعز ، ثم رجع إلى المعز ومعه صاحب سجلماسة وصاحب فاس أسيرين في قفصَي حديد ، والشرح في ذلك يطول . وخلاصة الأمر : أنه ما رجع القائد جوهر إلى مولاه المعز إلا وقد وطد له البلاد ، وحكم على أهل الزيغ والعناد من باب إفريقية إلى البحر المحيط في جهة الغرب ، وفي جهة الشرق من باب إفريقية إلى أعمال مصر ، ولم يبق بلد من هذه البلاد إلا أقيمت فيه دعوته وخطب له في جمعته[5] وجماعته ، إلا مدينة سبتة فإنها بقيت لبني أمية أصحاب الأندلس .

ولما وصل الخبر إلى المعز المذكور بموت كافور الإخشيدي صاحب مصر – حسبما شرحناه في ترجمته من هذا الكتاب – تقدم المعز إلى القائد جوهر المذكور

---

١ ص : وفاة أبيه .

٢ في أكثر النسخ « جوهر » دون تنوين .

٣ ن : ديار .

٤ ر : قلل من الماء .

٥ ق ن ص بر من : جميعه : جمعته ؛ ر : جميع جمعته .

ليتجهز للخروج إلى مصر ، فخرج أولاً إلى جهة المغرب لإصلاح أموره ، وكان معه جيش عظيم ، وجمع قبائل العرب الذين يتوجه بهم إلى مصر ، وجبى القطائع التي كانت على البربر فكانت خمسمائة ألف دينار .

وخرج المعز بنفسه في الشتاء إلى المهدية ، فأخرج من قصور آبائه خمسمائة حمل دنانير وعاد إلى قصره .

ولما عاد جوهر بالرجال والأموال ، وكان قدومه على المعز يوم الأحد لثلاث بقين من المحرم سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، أمره المعز بالخروج إلى مصر ، فخرج ومعه أنواع القبائل – وقد ذكرت في ترجمة جوهر تاريخ خروجه وتاريخ وصوله إلى مصر فأغنى عن الإعادة [مفصلاً ها هنا][1] – وأنفق المعز في العسكر المسيّر صحبته أموالاً كثيرة ، حتى أعطى من ألف دينار إلى عشرين ديناراً ، وغمر الناس بالعطاء ، وتصرفوا في القيروان وصبرة في شراء جميع حوائجهم[2] ، ورحلوا ومعه ألف[3] حمل من المال والسلاح ، ومن الخيل والعدد ما لا يوصف ، وكان بمصر في تلك السنة غلاء عظيم ووباء ، حتى مات في مصر وأعمالها في تلك المدة ستمائة ألف إنسان على ما قيل .

ولما كان منتصف شهر رمضان المعظم سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وصلت البشارة إلى المعز بفتح الديار المصرية ودخول عساكره إليها ، ثم وصلته النجُبُ بعد ذلك تخبر بصورة الفتح ، وكانت كتب جوهر ترد إلى المعز باستدعائه إلى مصر وتحثه كل وقت على ذلك ، ثم سير[4] إليه يخبره بانتظام الحال بمصر والشام والحجاز وإقامة الدعوة له بهذه المواضع ، فسر المعز بذلك سروراً عظيماً . ولما تقررت قواعده بالديار المصرية استخلف على إفريقية بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي – المذكور في حرف الباء – وخرج المعز متوجهاً بأموال جليلة المقدار ورجال عظيمة الأخطار . وكان خروجه من المنصورية دار ملكه يوم

---

١ زيادة من المختار .

٢ لي : ما يحتاجون .

٣ لي : الف الف .

٤ المختار : كتب .

ذاك يوم الاثنين ، لثمان بقين من شوال سنة إحدى وستين وثلثمائة ، وانتقل إلى سردانية ، وأقام بها ليجتمع رجاله وأتباعه ومن يستصحبه معه . وفي هذه المنزلة عقد العهد لبلكين في التاريخ المذكور في ترجمته ، ورحل عنها يوم الخميس خامس صفر سنة اثنتين وستين وثلثمائة . ولم يزل في طريقه يقيم ببعض الأوقات في بعض البلاد أياماً ويجدُّ السير في بعضها ، وكان اجتيازه على برقة ، ودخل الإسكندرية يوم السبت لست بقين من شعبان من السنة المذكورة وركب فيها[1] ودخل الحمام ، وقدم عليه بها قاضي مصر – وهو أبو طاهر محمد ابن أحمد – وأعيان أهل البلاد ، وسلموا عليه ، وجلس لهم عند المنارة وخاطبهم بخطاب طويل يخبرهم فيه أنه لم يرد دخول مصر لزيادة في ملكه ولا لمال ، وإنما أراد إقامة الحق والحج والجهاد وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة ، ويعمل بما أمر به جده صلى الله عليه وسلم ، ووعظهم وأطال حتى بكى بعض الحاضرين ، وخلع على القاضي وبعض الجماعة وحملهم ، وودعوه وانصرفوا ثم رحل منها في أواخر شعبان .

ونزل يوم السبت ثاني شهر رمضان المعظم على ميناء ساحل مصر بالجيزة[2] ، فخرج إليه القائد جوهر وترجل عند لقائه وقبل الأرض بين يديه ، وبالجيزة أيضاً اجتمع به الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات – المذكور في حرف الجيم – وأقام المعز هناك ثلاثة أيام ، وأخذ العسكر في التعدية بأثقالهم إلى ساحل مصر. ولما كان يوم الثلاثاء لخمس خلون من شهر رمضان المعظم من السنة ، عبر المعز النيل ودخل القاهرة ، ولم يدخل مصر ، وكانت قد زينت له ، وظنوا أنه يدخلها ، وأهل القاهرة لم يستعدوا للقائه لأنهم بنوا الأمر على دخوله مصر أولاً ، ولما دخل القاهرة ودخل القصر ودخل مجلساً منه خرّ ساجداً لله تعالى ، ثم صلى ركعتين وانصرف الناس عنه .

وهذا المعز هو الذي تنسب إليه القاهرة ، فيقال القاهرة المعزية ، لأنه الذي بناها القائد جوهر له .

---

١ ن : وركب فيها يوم السبت .

٢ المختار : ونزل على الجيزة تجاه مصر على الساحل .

وفي يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة أربع وستين عزل المعز القائد جوهراً عن دواوين مصر وجباية أموالها والنظر في سائر أمورها .

وقد ذكرنا في ترجمة الشريف عبد الله بن طَبَاطبا ما دار بينه وبين المعز من السؤال عن نسبه وما أجابه به وما اعتمده بعد الدخول إلى القصر .

وكان المعز عاقلاً حازماً سرياً أديباً حسن النظر في النجامة ، وينسب إليه من الشعر قوله :

لله مـا صنعت بنـا تلك المحاجر في المعاجرْ

أمضى وأقضى في النفو س من الخناجر في الحناجر

ولقد تعبت ببينكم تعب المهاجر في الهواجر

وينسب إليه أيضاً :

أطلع الحسن من جبينك شمساً فوق ورد في وجنتيك أطـلّا

وكأن الجمال خاف على الور د جفافاً فمـد بالشعر ظـلا

وهو معنى غريب بديع .

وقد مضى ذكر ولده تميم وشيء من شعره ، وسيأتي ذكر ولده العزيز نزار في حرف النون إن شاء الله تعالى .

وكانت ولادته بالمهدية يوم الاثنين حادي عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلثمائة . وتوفي يوم الجمعة الحادي عشر من شهر ربيع الآخر ، وقيل الثالث عشر ، وقيل لسبع خلون منه سنة خمس وستين وثلثمائة بالقاهرة ، رحمه الله تعالى.

ومَعَدّ : بفتح الميم والعين المهملة وتشديد الدال المهملة ، والله تعالى أعلم .

٧٢٨

المستنصر العبيدي

أبو تميم معد الملقب المستنصر بالله بن الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم بن العزيز بن المعز لدين الله المذكور قبله ، وقد تقدم بقية النسب ؛ بويع بالأمر بعد موت والده الظاهر ، وذلك يوم الأحد النصف من شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة ، وجرى على أيامه ما لم يجر على أيام أحد من أهل بيته ممن تقدمه ولا تأخره :

منها قضية أبي الحارث أرسلان البساسيري – المقدم ذكره في حرف الهمزة – فإنه لما عظم أمره وكبر شأنه ببغداد قطع خطبة الإمام القائم ، وخطب للمستنصر المذكور ، وذلك في سنة خمسين وأربعمائة ، ودعا له على منابرها مدة سنة .

ومنها أنه ثار في أيامه علي بن محمد الصليحي – المقدم ذكره – وملك بلاد اليمن كما شرحنا ، ودعا للمستنصر على منابرها بعد الخطبة ، وهو مشهور فلا حاجة إلى الإطالة في شرحه .

ومنها أنه أقام في الأمر ستين سنة ، وهذا أمر لم يبلغه أحد من أهل بيته ولا من بني العباس .

ومنها أنه ولي الأمر وهو ابن سبع سنين .

ومنها أن دعوتهم لم تزل قائمة بالمغرب منذ قام جدهم المهدي – المقدم ذكره – إلى أيام المعز المذكور قبله ، ولما توجه المعز إلى مصر واستخلف بلكين بن زيري حسبما شرحناه ، كانت الخطبة في تلك النواحي جارية على عادتها لهذا البيت ، إلى أن قطعها المعز بن باديس – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – في أيام

---

٧٢٨ – أخباره في تاريخ ابن خلدون ٤ : ٦٢ والخطط ١ : ٣٥٥ والدرة المضية : ٣٤٢ والنجوم الزاهرة ٥ : ١ – ٢٣ وعبر الذهبي ٣ : ٣١٨ والشذرات ٣ : ٣٨٢ ، وسقطت هذه الترجمة من بر .

المستنصر المذكور ، وذلك في سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة ، وقال في « تاريخ القيروان »[1]: إن ذلك كان في سنة خمس وثلاثين ، والله تعالى أعلم بالصواب .
وفي سنة تسع قطع اسمه واسم آبائه من الحرمين الشريفين ، وذكر اسم المقتدي خليفة بغداد ، والشرح في ذلك يطول .

ومنها أنه حدث في أيامه الغلاء العظيم الذي ما عهد مثله منذ زمان يوسف عليه السلام ، وأقام سبع سنين ، وأكل الناس بعضهم بعضاً ، حتى قيل إنه بيع رغيف واحد بخمسين ديناراً ، وكان المستنصر في هذه الشدة يركب وحده ، وكل من معه من الخواص مترجلون ليس لهم دواب يركبونها ، وكانوا إذا مشوا تساقطوا في الطرقات من الجوع ، وكان المستنصر يستعير من ابن هبة صاحب ديوان الإنشاء بغلته ليركبها صاحب مظلته ، وآخر الأمر توجهت أم المستنصر وبناته إلى بغداد من فرط الجوع ، وذلك في سنة اثنتين وستين وأربعمائة ، وتفرق أهل مصر في البلاد وتشتتوا ، ولم يزل هذا الأمر على شدته حتى تحرك بدر الجمالي والد الأفضل أمير الجيوش من عكا وركب البحر — حسبما شرحناه في ترجمة ولده الأفضل شاهنشاه — وجاء إلى مصر وتولى تدبير الأمور فانصلحت ، وشرح ذلك يطول .

وكانت ولادة المستنصر صبيحة يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة عشرين وأربعمائة[2] ، وتوفي ليلة الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، رحمه الله تعالى .

قلت : وهذه الليلة هي ليلة عيد الغدير ، أعني ليلة الثامن عشر من ذي الحجة وهو غدير خم — بضم الخاء وتشديد الميم — ورأيت جماعة كثيرة يسألون عن هذه الليلة متى كانت من ذي الحجة ؟ وهذا المكان بين مكة والمدينة ، وفيه غدير ماء ، ويقال إنه غَيْضَة هناك ، ولما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من

---

١ ر : التاريخ القيرواني .

٢ علق ابن المؤلف هنا بقوله : « قلت ، أعني كاتبها موسى بن أحمد لطف الله به : قد ذكر أنه ولي الأمر وهو ابن سبع سنين وأنه بويع في سنة أربع وعشرين فكيف يستقيم أن يكون مولده سنة عشرين ، والله أعلم » .

مكة ، شرفها الله تعالى ، عام حجة الوداع ، ووصل إلى هذا المكان وآخى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، قال : علي مني كهارون من موسى ، اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله ، وللشيعة به تعلق كبير[1] .

وقال الحازمي : هو وادٍ بين مكة والمدينة عند الجحفة به غدير عنده خطب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا الوادي موصوف بكثرة الوخامة وشدة الحر[2] .

وقد تقدم ذكر جماعة من أهل بيته وسيأتي ذكر الباقين كل واحد في موضعه إن شاء الله تعالى ، والله أعلم بالصواب .

٧٢٩
معروف الكرخي

أبو محفوظ معروف بن فيروز ، وقيل الفيروزان ، وقيل علي ، الكرخي الصالح المشهور ، وهو من موالي علي بن موسى الرضا — وقد تقدم ذكره .

وكان أبواه نصرانيين ، فأسلماه إلى مؤدبهم وهو صبي ، فكان المؤدب يقول له : قل ثالث ثلاثة ، فيقول معروف : بل هو الواحد ، فضربه المعلم على ذلك ضرباً مبرحاً فهرب منه . وكان أبواه يقولان : ليته يرجع إلينا على أي دين شاء فنوافقه عليه ، ثم إنه أسلم على يد علي بن موسى الرضا ، ورجع إلى أبويه

---

١ ص ق : كثير .

٢ قلت وهذه الليلة ...الحر : سقط من لي ن .

٧٢٩ – ترجمته في طبقات السلمي : ٨٣ وصفة الصفوة ٢ : ١٧٩ وطبقات الحنابلة ١ : ٣٨١ وتاريخ بغداد ١٣ : ١٩٩ وحلية الاولياء ٨ : ٣٦٠ والرسالة القشيرية ١ : ٦٠ وعبر الذهبي ١ : ٣٣٥ (وفيات سنة ٢٠٠) وشذرات الذهب ١ : ٣٣٥ .

فدق الباب ، فقيل له : من بالباب ؟ فقال : معروف ، فقيل له : على أي دين؟ فقال : على الإسلام ، فأسلم أبواه .

وكان مشهوراً بإجابة الدعوة ، وأهل بغداد يستسقون بقبره ويقولون : قبر معروف ترياق مجرب . وكان سري السَّقَطي المقدم ذكره تلميذه ، وقال له يوماً : إذا كانت لك حاجة إلى الله تعالى فأقسم عليه بي . وقال سري السقطي: رأيت معروفاً الكرخي في النوم[1] كأنه تحت العرش ، والباري جلت قدرته يقول للملائكته : من هذا ؟ وهم يقولون : أنت أعلم يا ربنا منا ، فقال : هذا معروف الكرخي سكر من حبي فلا يفيق إلا بلقائي .

وقال معروف : قال لي بعض أصحاب داود الطائي : إياك أن تترك العمل ، فإن ذلك الذي يقربك إلى رضا مولاك ، فقلت : وما ذلك العمل ؟ قال : دوام الطاعة لمولاك[2] ، وحرمة المسلمين ، والنصيحة لهم .

وقال محمد بن الحسين ، سمعت أبي يقول : رأيت معروفاً الكرخي في النوم بعد موته فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي ، فقلت : بزهدك وورعك ؟ فقال : لا ، بل بقبول موعظة ابن السماك ولزومي الفقر ومحبتي للفقراء . وكانت موعظة ابن السماك ما رواه معروف قال : كنت ماراً بالكوفة فوقفت على رجل يقال له ابن السماك وهو يعظ الناس ، فقال في خلال كلامه : مَنْ أعرض عن الله بكليته أعرض عنه الله جملة ، ومن أقبل على الله تعالى بقلبه أقبل الله تعالى برحمته عليه ، وأقبل بوجوه الخلق إليه ، ومن كان مرة ومرة فالله تعالى يرحمه وقتاً ما ، فوقع كلامه في قلبي وأقبلت على الله تعالى وتركت جميع ما كنت عليه إلا خدمة مولاي علي بن موسى الرضا ، وذكرت هذا الكلام لمولاي فقال : يكفيك هذا موعظة إن اتعظت .

وقد تقدم ذكر ابن السماك في المحمدين .

وقيل لمعروف في مرض موته : أوْصِ ، فقال : إذا مت فتصدقوا بقميصي ، فاني أريد أن أخرج من الدنيا عرياناً كما دخلتها عرياناً ؛ ومر معروف بسقاء وهو

---

[1] ن : رأيت يوماً في المنام معروفاً الكرخي .

[2] لي : دوام طاعة مولاك ؛ ر : داوم على طاعة مولاك .

يقول : رحم الله من يشرب ، فتقدم وشرب ، وكان صائماً ، فقيل له : ألم تك صائماً ؟ قال : بلى ، ولكن رجوت دعاءه .

وأخبار معروف ومحاسنه أكثر من أن تعد ؛ وتوفي سنة مائتين ، وقيل إحدى ومائتين ، وقيل أربع ومائتين ببغداد ، وقبره مشهور بها يزار ، رحمه الله تعالى .

والكرخي : بفتح الكاف وسكون الراء وبعدها خاء معجمة ، هذه النسبة إلى الكَرْخ ، وهو اسم تسع مواضع ذكرها ياقوت الحموي في كتابه ، وأشهرها كرخ بغداد ، والصحيح أن معروفاً الكرخي منه ، وقيل إنه من كرخ جُدّان - بضم الجيم وتشديد الدال المهملة وبعد الألف نون - وهي بليدة بالعراق تفصل بين ولاية خانقين وشهرزور ، والله تعالى أعلم بالصواب .

٧٣٠

المعز بن باديس الصنهاجي

المعز بن باديس بن المنصور بن بُلُكّين بن زيري بن مَناد الحميري الصنهاجي ، صاحب إفريقية وما والاها من بلاد المغرب ، وقد سبق تمام نسبه عند ذكر ولده الأمير تميم ، وكان الحاكم صاحب مصر قد لقبه شرف الدولة ، وسير له تشريفاً وسجلاً يتضمن اللقب المذكور ، وذلك في ذي الحجة سنة سبع وأربعمائة . وكان ملكاً جليلاً عالي الهمة ، محباً لأهـــل العلم كثير العطاء ، وكان واسطة عقد بيته - وقد تقدم ذكر أبيه وجده وجد أبيه - ومدحه الشعراء وانتجعه الأدباء ، وكانت حضرته محط بني الآمال . وكان مذهب أبي حنيفة رضي الله

٧٣٠ - أخباره في تاريخ ابن خلدون ٦ : ١٥٨ وابن الاثير (ج : ١٠) والبيان المغرب ١ : ٢٦٧ وأعمال الأعلام ٣ : ٧٢ ورحلة التجاني : ١٣ - ١٦ وعبر الذهبي ٣ : ٢٣٣ والشذرات ٣ : ٢٩٤ .

عنه بإفريقية أظهر المذاهب ، فحمل المعز المذكور جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك بن أنس ، رضي الله عنه ، وحَسَم مادة الخلاف في المذاهب واستمر الحال في ذلك إلى الآن .

وقد تقدم في خبر المستنصر بالله العبيدي أن المعز المذكور قطع خطبته وخلع طاعته ، فلما فعل ذلك خطب للإمام القائم بأمر الله خليفة بغداد ، فكتب إليه المستنصر يتهدده ويقول له : هلا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء ، في كلام طويل ، فأجابه المعز : إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن تملكه أسلافك ، ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ، ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم ؛ واستمر على قطع الخطبة ، ولم يخطب بعد ذلك بإفريقية لأحد من المصريين إلى اليوم .

وأخبار المعز كثيرة وسيرته مشهورة ، فلا حاجة إلى الإطالة ، وله شعر قليل لم أقف منه على شيء .

وكان المعز يوماً جالساً في مجلسه وعنده جماعة من الأدباء ، وبين يديه أترجة ذات أصابع ، فأمرهم المعز أن يعملوا فيها شيئاً ، فعمل أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الشاعر المقدم ذكره[1] :

أترجة سَبْطَة الأطراف ناعمة ... تلقى العيون بحسن غير منحوسِ
كأنما بسطت كفا لخالقها ... تدعو بطول بقاء لابن باديس

فاستحسن ذلك منه وفَضَّله على من حضر من الجماعة الأدباء .

وكانت ولادته بالمنصورية ، ويقال لها صبرة ، من أعمال إفريقية ، يوم الخميس لخمس مضين من جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وثلثمائة ، وملك بعد أبيه باديس في التاريخ المذكور في ترجمته ، وبويع بالمحمدية من أعمال إفريقية أيضاً يوم السبت لثلاث مضين من ذي الحجة سنة ست وأربعمائة . وتوفي رابع شعبان سنة أربع وخمسين وأربعمائة بالقيروان ، من مرض أصابه وهو ضعف الكبد ، ولم تطل مدة أحد من أهل بيته في الولاية كمدته ، ورثاه أبو علي الحسن بن

---

[1] ديوان ابن رشيق : ٩٢ .

رشيق – المقدم ذكره – بأبيات على رَويّ الكاف[1] ، أضربت عن ذكرها[2] خوف الإطالة .

وهذا المعز لا يعرف له اسم سوى المعز ، مع أني كشفت عنه كشفاً تاماً من الكتب وأفواه العلماء وأهل المغرب ، فلم يذكر أحد سوى المعز ، ولا تعرف كنيته أيضاً ، والظاهر أن هذا اسمه ، فإن أهل بيته لم يكن فيهم من تلقب حتى يقال هذا لقب ، فأثبته على قدر ما وجدته ، والله تعالى أعلم بالصواب .

٧٣١

أبو عبيدة معمر بن المثنى

أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى، التَّيمي بالولاء ، تَيْم قريش ، البصري النحوي العلامة ؛ قال الجاحظ في حقه : لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه . وقال ابن قتيبة في كتاب « المعارف »[3] : كان الغريب أغلب عليه وأخبار العرب وأيامها ، وكان مع معرفته ربما لم يقم البيت إذا أنشده حتى يكسره ، وكان يخطىء إذا قرأ القرآن الكريم نظراً ، وكان يبغض العرب ، وألف في مثالبها كتباً ، وكان يرى رأي الخوارج .

وقال غيره : إن هارون الرشيد أقدمه من البصرة إلى بغداد سنة ثمان وثمانين ومائة ، وقرأ عليه بها أشياء[4] من كتبه ، وأسند الحديث إلى هشام بن عروة وغيره ، وروى عنه علي بن المغيرة الأثرم وأبو عبيد القاسم بن سلام – المقدم

---

١ انظر ديوان ابن رشيق : ١٣٧ ، ومطلع الأبيات الكافية :

لكل حي وان طال المدى هلك ... لا عز مملكة يبقى ولا ملك

٢ ق : عنها وعن ذكرها .

٧٣١ – ترجمته في نور القبس : ١٠٩ وعبر الذهبي ١ : ٣٥٩ وانباه الرواة ٣ : ٢٧٦ (والحاشية) .

٣ المعارف : ٥٤٣ .

٤ لي ص : شيئاً .

ذكره – وأبو عثمان المازني وأبو حاتم السجستاني وعمر بن شبة النميري وغيرهم ، وقد تقدم ذكر هؤلاء جميعهم .

وقال أبو عبيدة : أرسل إليّ الفضل بن الربيع إلى البصرة في الخروج إليه ، فقدمت عليه ، وكنت أخبر عن تجبره ، فأذن لي ، فدخلت عليه وهو في مجلس طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه ، وفي صدره فُرُش عالية لا يرتقى عليها إلا بكرسي وهو جالس على الفرش ، فسلمت عليه بالوزارة ، فرد وضحك إلي واستدناني حتى جلست معه على فرشه ، ثم سألني وبسطني وتلطف بي وقال : أنشدني ، فأنشدته من عيون أشعار أحفظها جاهلية ، فقال لي : قد عرفت أكثر هذه وأريد من ملح الشعر ، فأنشدته ، فطرب وضحك وزاد نشاطاً ، ثم دخل رجل في زي الكتاب وله هيئة حسنة ، فأجلسه إلى جانبي ، وقال له : أتعرف هذا ؟ قال : لا ، فقال : هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه ، فدعا له الرجل وقرظه لفعله هذا ، ثم التفت إلي وقال لي : كنت إليك مشتاقاً ، وقد سُئلت عن مسألة ، أفتأذن لي أن أعرفك إياها ؟ قلت : هات ، فقال : قال الله تعالى ﴿ طَلْعها كأنه رءوس الشياطين ﴾ (الصافات: ٦٥) وإنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عُرف مثله ، وهذا لم يعرف ، قال : فقلت : إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرىء القيس :

أيقتلني والمشرفيُّ مُضاجعي ومسنونة زرقٌ كأنيابِ أغوالِ

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنه لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به ، فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل ، وأزمعت منذ ذلك اليوم أن أضع كتاباً في القرآن لمثل هذا وأشباهه ، ولما يحتاج إليه من علمه ، ولما رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سميته « المجاز » وسألت عن الرجل فقيل لي : هو من كتاب الوزير وجلسائه .

وقال أبو عثمان المازني[1] ، سمعت أبا عبيدة يقول : أدخلت على هارون الرشيد

---

١ سقطت هذه الفقرة من لي ر بر من ، وذلك لأنها تكررت ، إذ ورد ما يشبهها في ترجمة الأصمعي ٣ : ١٧٢ .

فقال لي : يا معمر ، بلغني أن عندك كتاباً حسناً في صفة الخيل أحب أن أسمعه منك ، فقال الأصمعي : وما تصنع بالكتب ؟ يحضر فرس ونضع أيدينا على عضو عضو منه ونسميه ونذكر ما فيه ، فقال الرشيد : يا غلام، فرس، فأحضر فرس[1] فقام الأصمعي فجعل يضع يده على عضو عضو منه ويقول : هذا كذا ، قال فيه الشاعر كذا ، حتى انقضى قوله ، فقال لي الرشيد : ما تقول فيما قال؟ فقلت: أصاب في بعض وأخطأ في بعض، والذي أصاب فيه منّي تعلمه ، والذي أخطأ فيه ما أدري من أين أتى به .

وبلغ أبا عبيدة أن الأصمعي يعيب عليه كتاب « المجاز» ، فقال : يتكلم في كتاب الله تعالى برأيه ؛ فسأل عن مجلس الأصمعي في أي يوم هو ، فركب حماره في ذلك اليوم ومر بحلقته ، فنزل عن حماره وسلم عليه ، وجلس عنده وحادثه ثم قال له : أبا سعيد، ما تقول في الخبز، أي شيء هو ؟ فقال : هو الذي تخبزه وتأكله ، فقال أبو عبيدة : فقد فسرت كتاب الله تعالى برأيك ، فإن الله تعالى قال ﴿ وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً ﴾ (يوسف : ٣٦) فقال الأصمعي : هذا شيء بان لي فقلته ولم أفسره برأيي ، فقال أبو عبيدة : والذي تعيب علينا كله شيء بان لنا فقلناه ولم نفسره برأينا ، وقام فركب حماره وانصرف .

وزعم الباهلي صاحب كتاب « المعاني » أن طلبة العلم كانوا إذا أتوا مجلس الأصمعي اشتروا البعر في سوق الدر ، وإذا أتوا مجلس أبي عبيدة اشتروا الدر في سوق البعر ، لأن الأصمعي كان حسن الإنشاد والزخرفة لرديء الأخبار والأشعار حتى يحسن عنده القبح ، وإن الفائدة عنده مع ذلك قليلة ، وإن أبا عبيدة كان معه سوء عبارة مع فوائد كثيرة وعلوم جمة ، ولم يكن أبو عبيدة يفسر الشعر .

وقال المبرد : كان أبو زيد الأنصاري أعلم من الأصمعي وأبي عبيدة بالنحو ، وكانا بعده يتقاربان ، وكان أبو عبيدة أكمل القوم ، وكان علي بن المديني يحسن ذكر أبي عبيدة ويصحح روايته ، وقال : كان لا يحكي عن العرب إلا الشيء

---

١ ق : يا غلام أحضر فرساً فأحضر فرساً .. الخ .

الصحيح . وحُمِل أبو عبيدة والأصمعي إلى هارون الرشيد للمجالسة ، فاختار الأصمعي لأنه كان أصلح للمنادمة .

وكان أبو نواس يتعلم من أبي عبيدة ويصفه ويشنأ الأصمعي ويهجره ، فقيل له : ما تقول في الأصمعي ؟ فقال : بلبل في قفص ، قيل له : فما تقول في خلف الأحمر ؟ فقال : جمع علوم الناس وفهمها ، قيل : فما تقول في أبي عبيدة ؟ فقال : ذاك أديم طُوي على علم[1] .

وقال إسحاق بن إبراهيم النديم الموصلي يخاطب الفضل بن الربيع ، يمدح أبا عبيدة ويذم الأصمعي[2] :

عليك أبا عبيدة فاصطنعه فإن العلم عند أبي عبيده
وقدمه وآثره عليه ودع عنه القُرَيد بن القُرَيده

وكان أبو عبيدة إذا أنشد بيتاً لا يقيم وزنه ، وإذا تحدث أو قرأ لحن اعتماداً منه لذلك ، ويقول : النحو محدود .

ولم يزل يصنف حتى مات ؛ وتصانيفه تقارب مائتي تصنيف : فمنها كتاب «مجاز القرآن الكريم» وكتاب « غريب القرآن » وكتاب « معاني القرآن » وكتاب « غريب الحديث » وكتاب « الديباج » وكتاب « التاج » وكتاب « الحدود » وكتاب « خراسان » وكتاب « خوارج البحرين واليمامة » وكتاب « الموالي » وكتاب « البله » وكتاب « الضيفان » وكتاب « مَرْج[3] راهط » وكتاب « المنافرات » وكتاب « القبائل » وكتاب « خبر البراض » وكتاب « القرائن » وكتاب « البازي » وكتاب « الحمام » وكتاب « الحيات » وكتاب « العقارب » وكتاب « النواكح »[4] وكتاب

---

١ مر شبيه بهذا من قبل ، انظر ٢ : ١٠٠ وما ثبت هنالك زيادة من نسختي ص ر ، فلعله وقع هنالك تحشية من أحد المعلقين .

٢ لي بر من : بمدح أبي عبيدة وذم الأصمعي .

٣ ق لي ص : شرح .

٤ ن : المناكح .

« النواشز »[1] وكتاب « حُضْر الخيل » وكتاب « الأعيان » وكتاب « بيان باهلة » وكتاب « أيادي الأزد » وكتاب « الخيل » وكتاب « الإبل » وكتاب « الإنسان » وكتاب « الزرع » وكتاب « الرحل » وكتاب « الدلو » وكتاب « البكرة » وكتاب « السرج » وكتاب « اللجام » وكتاب « الفرس » وكتاب « السيف » وكتاب « الشوارد » وكتاب « الاحتلام » وكتاب « مقاتل الفرسان » وكتاب « مقاتل الأشراف » وكتاب « الشعر والشعراء » وكتاب « فعل وأفعل » وكتاب « المثالب » وكتاب « خلق الإنسان » وكتاب « الفرق » وكتاب « الخف » وكتاب « مكة والحرم » وكتاب « الجمل وصفّين » وكتاب « بيوتات العرب » وكتاب «اللغات» وكتاب «الغارات» وكتاب « المعاتبات » وكتاب «الملاومات» وكتاب « الأضداد » وكتاب « مآثر العرب » وكتاب « مآثر غطفان » وكتاب « أدعية العرب » وكتاب « مقتل عثمان رضي الله عنه » وكتاب أسماء الخيل » وكتاب « العَقَقَة » وكتاب « قضاة[2] البصرة » وكتاب «فتوح الأهواز» وكتاب « فتوح أرمينية » وكتاب « لصوص العرب » وكتاب « أخبار الحجاج » وكتاب «قصة الكعبة» وكتاب «الحُمْس من قريش» وكتاب «فضائل الفرس»[3] وكتاب « ما تلحن فيه العامة » وكتاب « السواد وفتحه » وكتاب « من شكر من العمال وحمد »[4] وكتاب « الجمع والتثنية » و[كتاب « الجلة » الأولى والثانية ، وكتاب « البيضة »][5] وكتاب « الأوس والخزرج » وكتاب « محمد وإبراهيم ابني عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين » وكتاب « الأيام » الصغير ، خمسة وسبعون يوماً ، وكتاب « الأيام » الكبير ، ألف ومائتا يوم ، وكتاب « أيام بني مازن وأخبارهم » وغير ذلك من الكتب النافعة ، ولولا خوف الإطالة لذكرت[6] جميعها .

---

١ ق : النواشير .
٢ ن ص ق : فضالة .
٣ ق لي ر ن بر من : العرش .
٤ بر : من شكي من العمال وحمل .
٥ زيادة من ق .
٦ ن : لذكرتها ؛ ص : لذكرت لك .

[ولما جمع كتاب المثالب ، قال له رجل مطعون النسب : بلغني أنك عبت العرب جميعها ، فقال : وما يضرك ؟ أنت من ذلك بريء ، يعني أنه ليس منهم][1] .

وقال أبو عبيدة: لما قدمت على الفضل بن الربيع قال لي : مَنْ أشعر الناس؟ فقلت : الراعي ، قال : وكيف فضلته على غيره ؟ فقلت : لأنه ورد على سعيد ابن عبد الرحمن الأموي فوصله في يومه الذي لقيه فيه وصرفه ، فقال يصف حاله معه :

وأنضاءٍ تحنُّ إلى سعيد طروقاً ثم عجلن ابتكارا
حمدن مناخه وأصبن منه عطاء لم يكن عِدَةً ضِمارا

فقال الفضل : ما أحسن ما اقتضيتنا يا أبا عبيدة ، ثم غدا إلى هارون الرشيد فأخرج لي صلة ، وأمر لي بشيء من ماله وصرفني .

وكان أبو عبيدة من موالي بني عبيد الله بن معمر التيمي ، وقال له بعض الأجلاء : تقع في الناس فمن أبوك ؟ فقال : أخبرني أبي عن أبيه أنه كان يهودياً من أهل باجَرْوان ، فمضى الرجل وتركه .

وكان أبو عبيدة جبّاناً ، لم يكن بالبصرة أحد إلا وهو يداجيه ويتقيه على عرضه ؛ وخرج إلى بلاد فارس قاصداً موسى بن عبد الرحمن الهلالي ، فلما قدم عليه قال لغلمانه : احترزوا من أبي عبيدة ، فإن كلامه كله دق ، ثم حضر الطعام فصب بعض الغلمان على ذيله مرقة ، فقال له موسى : قد أصاب ثوبك مرق ، وأنا أعطيك عوضه عشر[2] ثياب ، فقال أبو عبيدة : لا عليك ، فإن مرقكم لا يؤذي ، أي ما فيه دهن ، ففطن لها موسى وسكت .

وكان الأصمعي إذا أراد دخول المسجد قال : انظروا لا يكون فيه ذاك ، يعني أبا عبيدة ، خوفاً من لسانه ، فلما مات لم يحضر جنازته أحد ، لأنه لم يكن يسلم من لسانه شريف ولا غيره .

وكان وسخاً ألثغ مدخول النسب مدخول الدين يميل إلى مذهب الخوارج ،

---

١ ورد في ن ص ، وتأخر في ر إلى ما بعد حكاية موسى بن عبد الرحمن الهلالي .

٢ لي ر ن والمختار : عشرة .

قال أبو حاتم السجستاني : كان أبو عبيدة يكرمني على أنني من خوارج سجستان . وقال الثوري : دخلت المسجد على أبي عبيدة وهو ينكت الأرض جالساً وحده فقال لي : من القائل :

أقول لها وقد جشأت وجاشت   مكانك تُحْمَدي أو تستريحي

فقلت له : قَطَريُّ بن الفُجاءة ، فقال : فَضَّ الله فاك ! هلا قلت : هو لأمير المؤمنين أبي نَعامة ، ثم قال لي : اجلس ، واكتم عليَّ ما سمعت مني ، قال : فما ذكرته حتى مات .

قلت أنا : وهذه الحكاية فيها نظر ، لأن البيت من جملة أبيات لعمرو ابن الإطنابة الخزرجي الأنصاري ، والإطنابة أمه ، واسم أبيه زيد مَناة ، لا يكاد يخالف فيه أحد من أهل الأدب ، فانها أبيات مشهورة للشاعر المذكور .

وذكر المبرد في كتاب « الكامل »[1] أن معاوية بن أبي سفيان الأموي قال : اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم ، فإن فيه مآثر أسلافكم ، ومواضع إرشادكم ، فلقد رأيتني يوم الهرير وقد عزمت على الفرار فما ردني إلا قول ابن الإطنابة الأنصاري :

أبت لي عفّتي وأبى بلائي   وأخذي الحمدَ بالثمن الربيحِ
وإجشامي على المكروه نفسي   وضربي هامَةَ البطل المُشيح
وقَوْلي كلما جشأت وجاشت   مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفعَ عن مآثرَ صالحاتٍ   وأحمي بعد عن عرضٍ صريح

رجعنا إلى حديث أبي عبيدة :

وكان لا يقبل شهادتهُ أحدٌ من الحكام لأنه كان يتهم بالميل إلى الغلمان ؛ قال الأصمعي : دخلت أنا وأبو عبيدة يوماً المسجد ، فإذا على الاسطوانة التي

---

[1] الكامل ٤ : ٦٨ .

يجلس إليها أبو عبيدة مكتوب على نحو من سبعة أذرع :

صلى الإله على لوط وشيعته ... أبا عبيدة قـل بالله آمينا

فقال لي : يا أصمعي ، امحُ هذا ، فركبت على ظهره ومحوته بعد أن أثقلته إلى أن قال : أثقلتني وقطعت ظهري ، فقلت له : قد بقيت الطاء ، فقال : هي شر حروف هذا البيت ؛ وقيل إنه لما ركب ظهره وأثقله قال له : عجل ، فقال : قد بقي لوط ، فقال : من هذا نَفِرّ . وكان الذي كتب البيت أبو نواس الحسن بن هانىء المقدم ذكره .

وقيل إنه وجدت رقاع في مجلس أبي عبيدة هذا البيت فيها ، وبعده :

فأنت عندي بلا شك بقيتهم ... منذُ احتلمتَ وقد جاوزت سبعينا[1]

وقال الزمخشري في كتاب « ربيـع الأبرار » في باب الأسمـاء والكنى والألقاب : سأل رجل أبا عبيدة عن اسم رجل ، فما عرفه ، فقال كيسان : أنا أعرف الناس به ، هـو : خداش ، أو خراش أو رياش أو شيء آخر ، فقال أبو عبيدة : ما أحسن ما عرفته ! فقال : إي والله ، وهو قرشي أيضاً ، قال : فما يدريك ؟ قال : أما ترى كيف احتوشته الشينات من كل جانب[2] ؟

وأخبار أبي عبيدة كثيرة ؛ وكانت ولادته في رجب سنة عشر ومائة ، في الليلة التي توفي فيها الحسن البصري ، رضي الله عنه ، وقد تقدم ذكره ، وقيل في سنة إحدى عشرة ومائة ، وقيل أربع عشرة ، وقيل ثمان ، وقيل تسع ، والأول أصح ؛ والذي يدل عليه أن الأمير جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه سأله عن مولده فقال : قد سبقني إلى الجواب عن مثل هذا عمر بن أبي ربيعة المخزومي وقد قيل له : متى ولدت ؟ فقال : في الليلة التي مات فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأي خير رفع وأي شر وضع ؟ وإني ولدت في الليلة التي مات فيها الحسن البصري وجوابي

---

١ بر من : تسعينا .

٢ النص المنقول عن الزمخشري لم يرد في : لي بر من ، وهو في المختار .

جواب عمر بن أبي ربيعة . وقد تقدم في ترجمة ابن أبي ربيعة هذا الجواب منسوباً إلى الحسن البصري رضي الله عنه، فلينظر هناك، وتوفي سنة تسع ومائتين بالبصرة وقيل سنة إحدى عشرة ، وقيل سنة عشر ، وقيل سنة ثلاث عشرة ومائتين رحمه الله تعالى . وكان سبب موته أن محمد بن القاسم بن سهل النُّوشجاني أطعمه موزاً فمات منه ، ثم أتاه أبو العتاهية فقدم إليه موزاً ، فقال له : ما هذا يا أبا جعفر ؟ قتلت أبا عبيدة بالموز ، وتريد أن تقتلني به ؟ لقد استحليت قتل العلماء !.

وأبو عبيدة : بضم العين المهملة وإثبات الهاء في آخره ، بخلاف القاسم بن سلاّم المقدم ذكره فإنه أبو عبيد ، بغير هاء .

ومَعْمر : بفتح الميمين بينهما عين مهملة وفي آخره الراء .

والمثنى : بضم الميم وفتح الثـاء المثلثة وتشديد النون المفتوحة وفي آخره ياء مثناة من تحتها .

وباجَرْوان التي والده منها : بفتح الباء الموحدة وبعد الألف جيم مفتوحة ثم راء ساكنة وبعدها واو مفتوحة وبعد الألف نون ، وهو اسم لقرية من بلاد البليخ من أعمال الرقة ، واسم لمدينة بنواحي أرمينية من أعمال شروان عندها — فيما قيل — عينُ الحياة التي وجدها الخضر عليه السلام ، وغالب ظني أن أبا عبيدة من هذه المدينة . وقيل إن باجَرْوان اسم للقرية التي استطعم أهلَها موسى والخضرُ عليهما السلام .

والنُّوشجاني : بضم النون وسكون الواو والشين المعجمة وفتح الجيم وبعد الألف نون ، هذه النسبة إلى نُوشجان ، وهي بلدة من بلاد فارس ، والله تعالى أعلم بالصواب .

٧٣٢

معن بن زائدة

أبو الوليد معن بن زائدة بن عبد الله بن زائدة بن مطر بن شريك بن الصُّلب – بضم الصاد المهملة وسكون اللام وآخره الباء الموحدة[١] – واسمه عمرو بن قيس بن شراحيل بن همام بن مرة بن ذُهل بن شيبان، الشيباني، وبقية النسب معروف؛ وقال ابن الكلبي في كتاب «جمهرة النسب»: هو معن بن زائدة بن مطر بن شريك بن عمرو بن قيس بن شراحيل بن مرة بن هَمَّام بن مرة بن ذهل ابن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر[٢] بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان[٣].

كان جواداً شجاعاً جزل العطاء كثير المعرف ممدحاً مقصوداً؛ [حكى الأصمعي قال: وفد أعرابي على معن بن زائدة فمدحه وطال مقامه على بابه ولم يحصل له جائزة، فعزم على الرحيل، فخرج معن راكباً فقام إليه وأمسك بزمام دابته وقال:

وما في يديك الخير يا معنُ كله ... وفي الناس معروف وعنك مذاهبُ
ستدري بنات العم ما قد أتيته ... إذا فتشت عند الإياب الحقائب

فأمر معن بإحضار خمس نوق من كرام إبله وأوقرهم[٤] له ميرة وبُرّاً

---

٧٣٢ – ترجمته في تاريخ بغداد ١٣: ٢٣٥ ومعجم المرزباني: ٣٢٤ وتاريخ ابن الاثير (ج: ٥) وأمالي المرتضى ١: ٢٢٢ وخزانة الأدب ١: ١٨٢ واسماء المغتالين (نوادر المخطوطات ٢: ١٩٥) ورغبة الآمل ٨: ١٦٨ وعبر الذهبي ١: ٢١٧ والشذرات ١: ٢٣١.

١ هذا الضبط لم يرد في ق لي ص بر من؛ وفي النسختين الأخيرتين: بن شريك بن قيس.

٢ ص: تبر.

٣ الرواية عن ابن الكلبي لم ترد في: لي بر من.

٤ كذا في النسخ.

وثياباً وقال : انصرف يا ابن أخي في حفظ الله إلى بنات عمك ، فلئن فتشن الحقائب ليجدن فيها ما يسرهن ، فقال له : صدقت ، وبيت الله][1] . وقد سبق في ترجمة مروان بن أبي حفصة الشاعر طرف من أخباره ، وكان مروان خصيصاً به وأكثر مدائحه فيه .

وكان معن في أيام بني أمية متنقلا في الولايات ، ومنقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقين ، فلما انتقلت الدولة إلى بني العباس وجرى بين أبي جعفر المنصور وبين يزيد بن عمر المذكور من محاصرته بمدينة واسط ما هو مشهور —وسيأتي في ترجمة يزيد المذكور طرف من هذه الواقعة إن شاء الله تعالى— أبلى يومئذ معن مع يزيد بلاء حسناً ، فلما قتل يزيد خاف معن من المنصور[2] فاستتر عنه مدة ، وجرى له مدة استتاره غرائب .

فمن ذلك ما حكاه مروان بن أبي حفصة الشاعر المذكور قال : أخبرني معن بن زائدة ، وهو يومئذ متولي بلاد اليمن ، أن المنصور جد في طلبي وجعل لمن يحملني إليه مالاً ، قال : فاضطررت لشدة الطلب إلى أن تعرضت للشمس حتى لوحت وجهي ، وخففت عارضي ولبست جبة صوف ، وركبت جملا وخرجت متوجهاً إلى البادية لأقيم بها ، قال : فلما خرجت من باب حرب ، وهو أحد أبواب بغداد ، تبعني أسود متقلد بسيف ، حتى إذا غبت عن الحرس قبض على خطام الجمل فأناخه ، وقبض على يدي ، فقلت له : ما بك ؟ فقال : أنت طلبة أمير المؤمنين ؟ فقلت : ومن أنا حتى أطلب[3] ؟ فقال : أنت معن ابن زائدة ، فقلت له : يا هذا اتق الله عز وجل ، وأين أنا من معن ؟ فقال : دع هذا ، فوالله إني لأعرَفُ بك منك ، فلما رأيت منه الجد قلت له : هذا جوهر قد حملته معي بأضعاف ما جعله المنصور لمن يجيئه بي ، فخذه ولا تكن سبباً في سفك دمي ، قال : هاته ، فأخرجته إليه ، فنظر فيه ساعة وقال : صدقت في قيمته ، ولست قابله حتى أسألك عن شيء ، فإن صَدَقتني أطلقتك ،

---

١ زيادة من لي بر من ، أوردها أيضاً وستنفيلد .

٢ لي بر من : أبي جعفر المنصور .

٣ ر : ومن أنا حتى أكون طلبة أمير المؤمنين .

فقلت[1] : قل[2] ، قال : إن الناس قد وصفوك بالجود ، فأخبرني هل وهبتَ مالك كله قط ؟ قلت : لا ، قال : فنصفه ؟ قلت : لا ، قال : فثلثه ؟ قلت : لا ، حتى بلغ العشر ، فاستحييت وقلت : أظن أني قد فعلت هذا ، قال : ما ذاك بعظيم ، أنا والله راجل ورزقي من أبي جعفر المنصور كل شهر عشرون درهماً ، وهذا الجوهر قيمته ألوف دنانير ، وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور[3] بين الناس ، ولتعلم أن في هذه[4] الدنيا من هو أجود منك ، فلا تعجبك نفسك ، ولتحقر[5] بعد هذا كل جود فعلته ولا تتوقف عن مكرمة ، ثم رمى العقد في حجري وترك خطام الجمل وولى منصرفاً ، فقلت : يا هذا ، قد والله فضحتني ولَسفك دمي أهونُ علي مما فعلت ، فخذ ما دفعته لك فإني غنيٌّ عنه ، فضحك وقال : أردت أن تكذبني في مقالي هذا ، والله لا أخذته ولا آخذ لمعروف ثمناً أبداً ، ومضى لسبيله ، فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت ، وبذلت لمن يجيء به ما شاء ، فما عرفت له خبراً ، وكأن الأرض ابتلعته .

ولم يزل معن مستتراً حتى كان يوم الهاشمية ، وهو يوم مشهور ثار فيه جماعة من أهل خراسان على المنصور فوثبوا عليه ، وجرت مَقْتَلة[6] بينهم وبين أصحاب المنصور بالهاشمية ، وهي مدينة بناها السفاح بالقرب من الكوفة . ذكر غرْسُ النعمة بن الصابي في كتاب « الهفوات » ما مثاله[7] : لما فرغ السفاح من بناء مدينته بالأنبار ، وذلك في ذي القعدة سنة أربع وثلاثين ومائة ، وكان معن متوارياً بالقرب منهم ، فخرج متنكراً معتماً ملثماً ، وتقدم إلى القوم وقاتل قدام المنصور قتالاً أبان فيه عن نجدة وشهامة وفرقهم ، فلما أفرج عن المنصور

---

١ ر : فقلت له .

٢ بر : نعم قل .

٣ ق : المأثور عنك .

٤ هذه : سقطت من بر من والمختار .

٥ ر ص لي : ولتحتقر .

٦ بر من : مقتلة عظيمة .

٧ لم ترد هذه الحكاية في كتاب الهفوات المطبوع .

قال له : من أنت ويحك ؟ فكشف لثامه فقال : أنا طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة ، فأمنه المنصور وأكرمه وكساه وزيّنه ، وصار من خواصه ، ثم دخل عليه بعد ذلك في بعض الأيام فلما نظر إليه قال : هيه يا معن ، تعطي مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم على قوله :

معن بن زائدة الذي زيدت به   شرفاً على شرف بنو شيبانِ

فقال : كلا يا أمير المؤمنين ، إنما أعطيته على قوله في هذه القصيدة :

ما زلت يوم الهاشمية مُعْلِناً   بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه   من وقع كل مهنّدٍ وسنان

فقال : أحسنت يا معن .

وقال له يوماً : يا معن ، ما أكثر وقوع الناس في قومك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين :

إن العرانين تلقاها محسدة   ولا ترى للئام الناس حسادا

ودخل عليه يوماً وقد أسن فقال له : كبرت يا معن ، فقال : في طاعتك يا أمير المؤمنين ، فقال : وإنك لجلْد ، فقال : على أعدائك يا أمير المؤمنين ، فقال : وفيك بقية ، فقال : هي لك يا أمير المؤمنين .

وعُرض هذا الكلام على عبد الرحمن بن زيد زاهد أهل البصرة ، فقال : ويح هذا ، ما ترك لربه شيئاً .

وأشهر قصائد مروان فيه وأحسنها القصيدة اللامية التي ذكرتُ بعضها في ترجمة مروان ، وهي طويلة تزيد على خمسين بيتاً ، ولولا خوف الإطالة لذكرتها ، وله فيه من قصيدة :

قد آمن الله من خوف ومن عَدَمٍ   من كان معنٌ له جاراً من الزمنِ
مَعْن بن زائدة المُوفي بذمّته   والمشتري المجد بالغالي من الثمن
يرى العطايا التي تبقى محامدُها   غُنْماً إذا عدّها المعطي من الغَبن

بنى لشيبان مجداً لا زَوال له   حتى تزولَ ذرى الأركان من حَضَن

حَضَن : بفتح الحاء المهملة والضاد المعجمة وبعدها نون، اسم جبل عظيم بين نجد وتهامة ، بينه وبين تهامة مرحلة ، يقال في المثل : أنجد من رأى حَضَناً ، وله ذكر كثير في الأشعار والأخبار[1] .

ودخل على معن بعض الفصحاء يوماً فقال له : إني لو أردت أن استشفع إليك ببعض مَنْ يثقل عليك لوجدت ذلك سهلاً ، ولكنني استشفعت إليك بقدرك ، واستغنيت بفضلك ، فإن رأيت ان تضعني من كرمك بحيث وضعتُ نفسي من رجائك فافعل ، وإني لم أكرم نفسي عن مسألتك فأكرم وجهي عن ردك .

ولمعن أشعار جيدة وأكثرها في الشجاعة ، وقد ذكره أبو عبد الله ابن المنجم في كتاب « البارع » وأورد له عدة مقاطيع ، فمن ذلك قوله في خطاب ابن أخي عبد الجبار بن عبد الرحمن ، وقد رآه يتبختر بين السماطين ، وكان قبل ذلك لقي الخوارج ففر منهم :

هلا مشيت كذا غداة لقيتَهُمْ   وصَبرت عند الموت يا خَطّابُ
نجّاك خَوّارُ العِنان كأنه   تحت العجاج إذا استحثّ عقاب
وتركتَ صحبكَ والرماحُ تنوشُهم   وكذاك مَنْ قعدَتْ به الأحساب

وقال أبو عثمان المازني النحوي : حدثني صاحب شرطة معن قال : بينما أنا على رأس معن إذا هو براكب يُوضع ، فقال معن : ما أحسب الرجل يريد غيري ، ثم قال لحاجبه : لا تحجبه ، قال : فجاء حتى مثل بين يديه وأنشد :

أصلحك الله قلّ ما بيدي   فما أطيقُ العيالَ إذ كثروا
ألحّ دَهْر رَمى بكلكلِه   فأرسلوني إليـك وانتظروا

قال ، فقال معن وأخذته الأريحية : لا جرم والله لأعجلنّ أوبَتَك ، ثم قال :

---

[1] وله فيه . . . والأخبار : سقط من : لي بر من .

يا غلام ، ناقتي الفلانية وألف دينار ، فادفعها إليه ، فدفعها إليه وهو لا يعرفه، هكذا روى هذا الخطيب في تاريخه[1] .

وأخبار معن ومحاسنه كثيرة .

وكان قد ولي سجستان في أواخر أمره ، وانتقل إليها ، وله فيها آثار وماجرايات، وقصده الشعراءُ بها ، فلما كانت سنة إحدى وخمسين ، وقيل اثنتين وخمسين، وقيل ثمان وخمسين ومائة ، كان في داره صناع يعملون له شغلاً، فاندس بينهم قوم من الخوارج ، فقتلوه بسجستان وهو يحتجم ، ثم تتبعهم ابن أخيه يزيد بن مزيد بن زائدة — الآتي ذكره إن شاء الله تعالى — فقتلهم بأسرهم ، وكان قتله بمدينة بُسْت . ولما قتل معن رثاه الشعراء بأحسن المراثي ، فمن ذلك قول مروان بن أبي حفصة شاعره المذكور ، وهي قصيدة من أفخر الشعر وأحسنه ، وأولها :

مضى لسبيله معن ، وأبقى ... مكارم لن تَبيدَ ولن تُنالا
كأن الشمس يوم أصيب معن ... من الإظلام مُلبَسةٌ جلالا
هو الجبل الذي كانت نزار ... تهد من العدوّ به الجبالا
وعطلت الثغورِ لفقد معن ... وقد يروي بها الأسل النهالا[2]
وأظلمت العراق وأورثتها ... مصيبته المجللة اختلالا
وظل الشام يرجف جانباه ... لركن العز حين وَهى فمالا[3]
وكادت من تهامة كل أرض ... ومن نجد تزول غداة زالا
فإن يَعلُ[4] البلادَ له خشوعٌ ... فقد كانت تطول به اختيالا
أصاب الموتُ يوم أصاب معناً ... من الأحياء أكرمهم فعالا
وكان الناس كلهمُ لمعن ... إلى أن زار حفرته عيالا

---

١ سقطت رواية المازني من النسخ لي بر من .

٢ ق ن والمختار : النبالا .

٣ لي ق : ومالا .

٤ ص والمختار : يعرُ .

ولم يكُ طالب العرف يَنْوي | إلى غير ابن زائدة ارتحالا
مضى من كان يحمل كل ثقل | ويسبق فيض نائله السؤالا
وما عمد الوفود لمثـل معن | ولا حَطـُّوا بساحته الرحالا
ولا بَلغت أكفُّ ذوي العطايا | يميناً من يديه ولا شمالا
وما كانت تجفُّ له حياضٌ | من المعروف مُتْرَعة سجالا
لأبيض لا يعُدُّ المال حق | يعم بـه بغـاة الخير مالا[1]
فليت الشامتين به فَدَوْهُ | وليت العمر مُدَّ له فطالا
ولم يكُ كنزه ذهباً ، ولكن | سيوف الهند والحلقَ المذالا
ومارنةً من الخطّيّ سمراً | ترى فيهن ليناً واعتدالا
وذخراً من محامد باقيات | وفَضلٍ تُقَى به التفضيلَ نالا

ومنها[2] :

مضى لسبيله من كنت ترجو | به عَثرات دهرك أن تُقالا
فلست بمالك عبَرات عينٍ | أبت بدموعها إلا انهمالا
وفي الأحشاء منك غليلُ حزنٍ | كحرّ النار تشتعل اشتعالا
وقائلة رأت جسمي ولوني | معاً عن عهدها قُلِبا فحالا
أرى مروان عاد كذي نحول | من الهندي قد فَقدَ الصّقالا
رأت رجلاً براه الحزن حتى | أضر بـه وأورثـه خبالا
فقلت لها : الذي أنكرت مني | لفجع مصيبة أنكى وعالا[3]
وأيام المنون لهـا صروف | تَقَلّبُ بالفتى حالاً فحالا

ومنها[4] :

---

١ سقط البيت من أكثر النسخ .
٢ ن : ومن القصيدة .
٣ في أكثر النسخ : وغالا .
٤ ن : ومن قصيدته .

كأن الليل واصل بعد معن ليالِيَ قد قُرِنَّ به فطالا
فلهف أبي عليك إذا العطايا جعلن مُنًى كواذب واعتلالا
ولهف أبي عليك إذا اليتامى غدوا شعثاً كأن بهم سلالا[1]
ولهف أبي عليك إذا القوافي لممتدح بها ذهبت ضلالا
ولهف أبي عليك لكل هيجا لها تلقي حواملها السخالا
أقمنا باليمامة إذ يئسنا مقاماً لا نريد له زيالا
وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا
وما شهد الوقائع منك أمضى وأكرم مقدماً وأشد بالا
سيذكرك الخليفة غير قال إذا هو في الأمور بَلا الرجالا
ولا ينسى وقائعك اللواتي على أعدائه جعلت وبالا
ومعتركاً شهدت به حفاظاً وقد كرهت فوارسه النزالا
حباك أخو أمية بالمراثي مع المدح الذي قد كان قالا
أقام وكان نحوك كل عام يطيل بواسط الرحل اعتقالا
وألقى رحله أسفاً وآلى يميناً لا يشد له حبالا

وهذه المرثية من أحسن المراثي . وقال عبد الله بن المعتز في كتاب «طبقات الشعراء»[2] : دخل مروان بن أبي حفصة على جعفر البَرْمكي فقال له : ويحك، أنشدني مرثيتك في معن بن زائدة ، فقال : بل أنشدك مديحي فيك ، فقال جعفر : أنشدني مرثيتك في معن ، فأنشأ يقول :

وكان الناس كلهم لمعن إلى أن زار حفرته عيالا

حتى فرغ من القصيدة ، وجعل جعفر يرسل دموعه على خديه ، فلما فرغ قال له جعفر : هل أثابك على هذه المرثية أحد من ولده وأهله شيئاً ؟ قال :

---

١ ق : غدوا غرثى وقد راحوا ثكالى ؛ لي ر : غدوا سغباً .

٢ طبقات ابن المعتز : ٤٥ .

لا ، قال جعفر : فلو كان معن حياً ثم سمعها منك كم كان يثيبك عليها ؟ قال : أصلح الله الوزير ، أربعمائة دينار ، قال جعفر : فانا نظن أنه كان لا يرضى لك بذلك ، قد أمرنا لك عن معن ، رحمه الله تعالى ، بالضعف مما ظننت ، وزدناك نحن مثل ذلك ، فاقبض من الخازن ألفاً وستمائة دينار قبل أن تنصرف إلى رحلك ، فقال مروان يذكر جعفراً وما سمح به عن معن :

نفحت مكافئاً عن قبر معن ... لنا مما تجود به سجالا
فعجلت العطيةَ يا ابن يحيى ... لنادِبه ولم ترد المطالا
فكافأ عن صدى معن جوادٌ ... بأجودِ راحة بذِل النوالا
بنى لك خالد وأبوك يحيى ... بناء في المكارم لن ينالا
كأن البرمكي بكل مال ... تجود به يداه يفيد مالا

ثم قبض المال وانصرف .

وحكى أبو الفرج الأصبهاني في كتاب « الأغاني » عن محمد البيذق النديم أنه دخل على هارون الرشيد ، فقال له : أنشدني مرثية مروان بن أبي حفصة في معن ابن زائدة ، فأنشده بعض هذه القصيدة ، فبكى الرشيد ، قال : وكان بين يديه سكرجة فملأها من دموعه .

ويقال : إن مروان بعد هذه القصيدة المرثية[1] لم ينتفع بشعره ، فإنه كان إذا مدح خليفة أو من دونه قال له : أنت قلت في مرثيتك :

وقلنا أين نرحل بعد معن ... وقد ذهب النوال فلا نوالا

فلا يعطيه الممدوح شيئاً ، ولا يسمع قصيدته .

حدث الفضل بن الربيع قال[2] : رأيت مروان بن أبي حفصة وقد دخل على المهدي بعد موت معن بن زائدة في جماعة من الشعراء فيهم سَلْم الخاسر وغيره ، فأنشده مديحاً ، فقال له : من أنت ؟ فقال : شاعرك مروان بن أبي حفصة ،

---

١ القصيدة : سقطت من : لي ر بر من ؛ المرثية : سقطت من المختار .
٢ الأغاني ١٠ : ٩١ .

فقال له المهدي : ألست القائل :

وقلنا أين نرحل بعد معن

وأنشده البيت المذكور ، وقد جئت تطلب نوالنا وقد ذهب النوال ؟! لا شيء لك عندنا ، جروا برجله ، قال : فجروا برجله حتى أخرجوه ، فلما كان في العام المقبل تلطف حتى دخل مع الشعراء ، وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء في ذلك الحين في كل عام مرة ، قال : فمثل بين يديه وأنشده قصيدته التي أولها :

طرقتك زائرة فحي خيالها [بيضاء تخلط بالحياء دلالها
قادت فؤادك فاستقاد ومثلها قاد القلوب إلى الصبا فأمالها

فأنصت له حتى بلغ إلى قوله :

هل تطمسون من السماء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها][1]

وقد تقدم ذكر بعضها في ترجمة مروان ، قال : فأنصت له المهدي ، ولم يزل يزحف كلما سمع شيئاً فشيئاً منها ، حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع ، ثم قال له : كم بيت هي ؟ فقال : مائة بيت ، فأمر له بمائة ألف درهم ، وهذا يخالف ما ذكرناه في ترجمته ، لكنه يختلف باختلاف الروايات ، ويقال إنها أول مائة ألف أعطيها شاعر في خلافة بني العباس . قال الفضل بن الربيع فلم تلبث الأيام أن[3] افضت الخلافة إلى هارون الرشيد ، ولقد رأيت مروان ماثلاً مع الشعراء بين يديه ، وقد أنشده شعراً ، فقال له : من أنت ؟ فقال : شاعرك مروان بن أبي حفصة ، فقال له : ألست القائل في معن كذا ، وأنشده البيت ، ثم قال : خذوا بيده فأخرجوه فإنه لا شيء له عندنا ، ثم تلطف حتى دخل عليه بعد ذلك ، فأنشده فأحسن جائزته[2] .

١ ما بين معقفين انفردت ر بايراده ؛ وهو متابع لما في الأغاني .

٢ ق : فلم تلبث الأيام والليالي حتى .

٣ حدث الفضل ... جائزته : سقط كله من : لي بر من ، والمختار .

ومن المراثي النادرة أيضاً أبيات الحسين بن مطير بن الأشيم الأسدي في معن ابن زائدة أيضاً ، وهي من أبيات « الحماسة »[1] :

ألمّا علـى معنٍ وقولا لقـبره سقتك الغوادي مربعاً ثم مربعا
فيا قبرَ معنٍ كيف واريْتَ جودَهُ وقد كان منه البر والبحر مُتْرعا
ويا قبرَ معن أنت أولُ حفرةٍ من الأرض خُطّتْ للمكارم مضجعا
بلى قد وَسِعْتَ الجودَ ، والجودُ ميت ولو كان حياً ضقتَ حتى تصدعا
فتى عيش في معروفه بعـد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
ولما مضى معنٌ مضى الجودُ وانقضى وأصبـح عرنـينُ المكارم أجدعا

وقد سبق لمعن في ترجمة الصاحب بن عباد نادرة مستظرفة[2] فلا حاجة إلى إعادتها هنا ، ولولا خوف الإطالة لأتيت من محاسنه بكل نادرة بديعة .

(258) والحوفزان بن شريك الشيباني الموصوف بالكرم والشجاعة أخو جده مطر بن شريك ، وإنما قيل له الحوفزان لأن قيس بن عاصم المنقري حفزه بالرمح حين خاف أن يفوته ، ومعنى حفزه أي دفعه من خلفه ، واسم الحوفزان الحارث بن شريك ، وقيل إن الذي حفزه بسطام بن قيس الشيباني ، والأول أصح ، والله تعالى أعلم بالصواب .

---

١ انظر شرح المرزوقي : الحماسية رقم : ٣١٩ .
٢ انظر ج ١ : ٢٢٩.

٧٣٣
مقاتل صاحب التفسير

أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير ، الأزدي بالولاء الخراساني المروزي ، أصله من بلخ وانتقل إلى البصرة ودخل بغداد وحدث بها ، وكان مشهوراً بتفسير كتاب الله العزيز ، وله التفسير المشهور .

وأخذ الحديث عن مجاهد بن جبر وعطاء بن أبي رباح – المقدم ذكره – وأبي إسحاق السبيعي – وقد تقدم ذكره أيضاً – والضحاك بن مزاحم ومحمد ابن مسلم الزهري وغيرهم . وروى عنه بقية بن الوليد الحمصي[1] وعبد الرزاق بن همام الصنعاني – المقدم ذكره – وحرمي بن عمارة وعلي بن الجعد ، وغيرهم .

وكان من العلماء الأجلاء ، حكي عن الإمام الشافعي ، رضي الله عنه ، أنه قال : الناس كلهم عيال على ثلاثة : على مقاتل بن سليمان في التفسير ، وعلى زهير ابن أبي سلمى في الشعر ، وعلى أبي حنيفة في الكلام .

وروي أن أبا جعفر المنصور كان جالساً ، فسقط عليه الذباب فطيره ، فعاد إليه وألح عليه ، وجعل يقع على وجهه ، وأكثر من السقوط عليه مراراً حتى أضجره ، فقال المنصور : انظروا من بالباب ، فقيل له : مقاتل بن سليمان ، فقال : عليّ به ، فأذن له ، فلما دخل عليه قال له : هل تعلم لماذا خلق الله تعالى الذباب ؟ قال : نعم ليذل الله عز وجلّ به الجبابرة ، فسكت المنصور .

وقال إبراهيم الحربي : قعد مقاتل بن سليمان فقال : سلوني عما دون العرش ، فقال له رجل : آدم صلى الله عليه وسلم حين حج مَنْ حلق رأسه ؟ فقال له : ليس هذا من علمكم ، ولكن الله تعالى أراد أن يبتليني لما أعجبتني نفسي . وقال

---

٧٣٣ – ترجمته في الجرح والتعديل ٤/١ : ٣٥٤ وتاريخ بغداد ١٣ : ١٦٠ وتهذيب التهذيب ١٠ : ٢٧٩ وميزان الاعتدال ٤ : ١٧٣ والشذرات ١ : ٢٢٧ .

١ الحمصي : سقطت من : بر من لي .

سفيان بن عيينة ، قال مقاتل بن سليمان يوماً : سلوني عما دون العرش ، فقال له إنسان : يا أبا الحسن ، أرأيت الذرة والنملة مِعاها في مقدمها أو في مؤخرها ؟ قال : فبقي الشيخ لا يدري ما يقول له ، قال سفيان : فظننت أنها عقوبة عوقب بها .

وقد اختلف العلماء في أمره ، فمنهم من وثقه في الرواية ، ومنهم من نسبه إلى الكذب . قال بقية بن الوليد : كنت كثيراً أسمع شعبة بن الحجاج وهو يسأل عن مقاتل ، فما سمعته قط ذكره إلا بخير . وسئل عبد الله بن المبارك عنه فقال : رحمه الله ، لقد ذكر لنا عنه عبادة . وروي عن عبد الله بن المبارك أيضاً أنه ترك حديثه . وسئل إبراهيم الحربي عن مقاتل : هل سمع من الضحاك ابن مزاحم شيئاً ؟ فقال : لا ، مات الضحاك قبل أن يولد مقاتل بأربع سنين . وقال مقاتل : أغلق علي وعلى الضحاك باب أربع سنين ؛ قال إبراهيم : وأراد بقوله « باب » يعني باب المدينة ، وذلك في المقابر . وقال إبراهيم أيضاً : ولم يسمع مقاتل عن مجاهد شيئاً ولم يلقه .

وقال أحمد بن سيار : مقاتل بن سليمان كان من أهل بلخ ، وتحول إلى مرو ، وخرج إلى العراق ، وهو متهم متروك الحديث مهجور القول ، وكان يتكلم في الصفات بما لا تحل الرواية عنه . وقال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني : مقاتل بن سليمان كان دجالاً جسوراً . وقال أبو عبد الرحمن النسائي : الكذابون المعروفون بوضع الحديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة : ابن أبي يحيى بالمدينة ، والواقدي ببغداد ، ومقاتل بن سليمان بخراسان ، ومحمد بن سعيد — ويعرف بالمصلوب — بالشام .

وذكر وكيع يوماً مقاتل بن سليمان فقال : كان كذاباً . وقال أبو بكر الآجري : سألت أبا داود سليمان بن الأشعث عن مقاتل بن سليمان ، فقال : تركوا حديثه . وقال عمرو بن علي الفلاس : مقاتل بن سليمان كذاب متروك الحديث . وقال البخاري : مقاتل بن سليمان سكتوا عنه . وقال في موضع آخر : لا شيء ألبتة . وقال يحيى بن معين : مقاتل بن سليمان ليس حديثه بشيء . وقال أحمد بن حنبل : مقاتل بن سليمان صاحب التفسير ما يعجبني أن أروي عنه

شيئاً . وقال أبو حاتم الرازي : هو متروك الحديث . وقال زكريا بن يحيى الساجي : مقاتل بن سليمان من أهـل خراسان قالوا : كان كذاباً متروك الحديث . وقال أبو حاتم محمد بن حبّان البستي : مقاتل بن سليمان كان يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن العزيز الذي يوافق كتبهم ، وكان مشبهاً يشبه الرب بالمخلوقين ، وكان يكذب مع ذلك في الحديث .

وبالجملة فإن الكلام في حقه كثير ، وقد خرجنا عن المقصود ، لكن أردت ذكر اختلاف أقاويل العلماء في شأنه .

وتوفي سنة خمسين ومائة بالبصرة ، رحمه الله تعالى .

وقد تقدم الكلام على الأزدي والمروزي فأغنى عن الإعادة .

٧٣٤
شبل الدولة

أبو الهيجاء مقاتل بن عطية بن مقاتل البكري الحجازي ، الملقب شبل الدولة؛ كان من أولاد أمراء العرب، فوقع بينه وبين إخوته وحشة أوجبت رحيله عنهم، ففارقهم ووصل إلى بغداد ثم خرج إلى خراسان وانتهى إلى غَـزنة ، وعاد إلى خراسان ، واختصّ بالوزير نظام الملك وصاهره ، ولما قتل نظام الملك رثاه أبو الهيجاء المذكور ببيتين ، تقدم ذكرهما في ترجمته .

ثم عاد إلى بغداد وأقام بها مدة ، وعزم على قصد كرمان مسترفداً وزيرها ناصر الدين مكرم بن العلاء ، وكان من الأجواد المشاهير ، فكتب إلى الإمام المستظهر بالله قصة يلتمس فيها الإنعام عليه بكتاب إلى الوزير المذكور ، مضمونه الإحسان إليه ، فوقع المستظهر على رأس قصته : « يا أبا الهيجاء ، أبعدت النُّجْعة ، أسرع الله بك الرجعة ، وفي ابن العلاء مقنع ، وطريقه في الخـير

---

٧٣٤ – انظر النجوم الزاهرة ٥ : ٢٠٤ ؛ ولم يرد من هذه الترجمة في المختار إلا بعض أبيات الغزي.

مَهْيَع ، وما يسديه إليك تستحلي ثمرة شكره ، وتستعذب مياه بره ، والسلام »
فاكتفى أبو الهيجاء بهذه الأسطر ، واستغنى عن الكتاب .

وتوجه إلى كرمان ، فلما وصلها قصد حضرة الوزير واستأذن في الدخول فأذن له ، فدخل عليه وعرض على رأيه القصة ، فلما رآها قام وخرج عن دسته إجلالاً لها وتعظيماً لكاتبها ، وأطلق لأبي الهيجاء ألف دينار في ساعته ثم عاد إلى دَسْته ، فعرفه أبو الهيجاء أن معه قصيدة يمدحه بها ، فاستنشده إياها فأنشده:

دع العيسَ تذرع عرض الفلا   إلى ابن العلاء ، وإلا فلا

فلما سمع الوزير هذا البيت أطلق له ألف دينار أخرى ، ولما أكمل إنشاده القصيدة أطلق له ألف دينار أخرى ، وخلع عليه ، وقاد إليه جواداً بمركبه ، وقال له : دعاء أمير المؤمنين مسموع مرفوع ، وقد دعا لك بسرعة الرجوع ، وجهزه بجميع ما يحتاج إليه .

فرجع إلى بغداد وأقام بها قليلاً ، ثم سافر إلى ما وراء النهر وعاد إلى خراسان ونزل إلى مدينة هَرَاة ، وهوي بها امرأة وأكثر من التشبيب فيها ، ثم رحل إلى مرو واستوطنها ؛ ومرض في آخر عمره وتسودن ، وحمل إلى البيمارستان ، وتوفي به في حدود سنة خمس وخمسمائة ، رحمه الله تعالى .

وكان من جملة الأدباء الظرفاء ، وله النظم البديع الرائق ، وبينه وبين العلامة أبي القاسم الزمخشري – المقدم ذكره – مكاتبات ومداعبات ، وكتب إليه قبل الاجتماع به :

هذا أديب كامل   مثل الدراري دررُهْ
زمخشريٌّ فاضلٌ   أنجبه زمخشره
كالبحر إن لم أره   فقد أتاني خبره

فكتب إليه الزمخشري :

شعره أمطر شعري شرفا   فاعتلى منه ثياب الحسدِ[1]

---

[1] ق ن ر : ثياب الجسد .

كيف لا يستأسد النبت إذا بات مسقياً بنَوْء الأسد[1]

وله كل مقطوع لطيف ، رحمه الله تعالى .

والوزير المذكور هو الذي تقدم ذكره في ترجمة أبي إسحاق إبراهيم الغزي ، الشاعر المشهور ، فإنه قصده بكرمان وامتدحه بقصيدة بائية طنانة ذكرت منها في ترجمة الغزي بيتين هما من الشعر العجيب ، وضمنها المعنى الغريب . وأول هذه القصيدة :

ورود ركايا الدمع يكفي الركائبا وشم تراب الربع يشفي الترائبا
إذا شمت من برق العقيق عقيقه فلا تنتجع دون الجفون[2] السحائبا

ومنها عند الخروج إلى المديح :

وعيسٍ لها برهان عيسى بن مريم إذا قتل الفج العميق المطالبا
يُرقّصهن الآلُ إما طوافيا تراهن في آذيّه أو رواسبا
سوانح[3] كالبنيان تحسب أنني مسحت المطايا إذ مسحت السباسبا
تنسمن من كرمان عرفاً عرفنه فهن يُلاعبن النشاط لواغبا
يرين وراء الخافقين من المنى مشارق لم يُؤْبَه لها ومغاربا
إلى ماجد لم يقبل المجد وارثاً ولكن سعى حتى حوى المجد كاسبا
تبسم ثغر الدهر منه بصاحب إذا جد لم يصحب سوى العزم صاحبا

ومنها :

تصيخ له الأسماع ما دام قائلاً وتعنو له الأبصار ما دام كاتبا
ولم أر ليثاً خادراً قبل مكرم ينافس في العليا ويعطي الرغائبا
ولو لم يكن ليثاً مع الجود لم يكن إذا صال بالأقلام صارت مخالبا

---

١ يتلاعب الزمخشري على لفظة « أسد » اسم البرج ، والممدوح هو « شبل » الدولة .
٢ لي : البروق ؛ ق ن : الخفوق .
٣ كذا في النسخ ، ولعلها « شوامخ » .

ومنها :

إذا زان قوماً بالمناقب واصف ذكرنا له فضلاً يزين المناقبا
له الشيم الشمُّ التي لو تجسمت لكانت لوجه الدهر عيناً وحاجبا
ثنى نحو شمطاء الوزارة طرفه فصارت بأدنى لحظة منه كاعبا
تناول أولاها وما مدَّ ساعداً وأحرز أخراها وما قام واثبا

وهي من غرَر القصائد ، وفي هذا الأنموذج منها دلالة على الباقي .

٧٣٥

المقلد العقيلي

أبو حسان المقلد بن المسيب بن رافع بن المقلد بن جعفر بن عمرو بن المهنّا عبد الرحمن بن بُرَيد – بالتصغير – ابن عبد الله بن زيد بن قيس بن جوثة[١] بن طهفة بن حزن بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ، العقيلي ، الملقب حسام الدولة ، صاحب الموصل .

كان أخوه أبو الدواد[٢] محمد بن المسيب أول من تغلب على الموصل وملكها من أهل هذا البيت ، وذلك في سنة ثمانين وثلثمائة . وتزوج بهاء الدولة أبو نصر ابن عضد الدولة بن بويه الديلمي ابنته . فلما مات أبو الدواد في سنة سبع وثمانين قام أخوه المقلد المذكور بالملك من بعده ، وكان أعور . وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه أن ذلك في سنة ست وثمانين ، وأن أبا الدواد لما توفي طمع

---

٧٣٥ – أخباره في تاريخ ابن الاثير (ج : ٩) والنجوم الزاهرة ٤ : ٢٠٣ وعبر الذهبي ٣ : ٥١ والشذرات ٣ : ١٣٨ .

١ ص : جوية ؛ وفي ق غير معجمة ؛ لي : حونة ؛ بر : حوثة .

٢ ق : الذواد ؛ ص : الزواد .

المقلد في الملك ، فلم يساعده بنو عقيل ، وقدموا أخاه علياً لكبر سنه ، ثم توصل بالخديعة حتى ملك ، وأطال القول في ذلك فاختصرته ، وهذا حاصله .

وقال غير ابن الأثير : إنه كان فيه عقل وسياسة وحسن تدبير ، فغلب على سقي الفرات واتسعت مملكته . ولقبه الإمام القادر بالله وكناه ، وأنفذ إليه باللواء والخلع فلبسها بالأنبار . واستخدم من الديلم والأتراك ثلاثة آلاف رجل وأطاعته خفاجة ، وكان فيه فضل ومحبة لأهل الأدب ، وينظم الشعر .

حكى أبو الهيجاء ابن عمران بن شاهين قال : كنت أساير معتمد الدولة أبا المنيع قرواش بن المقلد المذكور ما بين سنجار ونصيبين ، فنزلنا ، ثم استدعاني بعد الزوال ، وقد نزل بقصر هناك يعرف بقصر[1] العباس بن عمرو الغنوي ، وكان مطلاً على بساتين ومياه كثيرة ، فدخلت عليه فوجدته قائماً يتأمل كتابة على الحائط ، فقرأتها فإذا هي :

يا قصر عباس بن عمـ ـرو كيف فارقك ابن عمرك
قد كنت تغتال الدهو ر فكيف غالك رَيْب دهرك
واهاً لعزك بل لجو دك بل لمجدك بل لفخرك

وتحتها مكتوب « وكتب علي بن عبد الله بن حمدان بخطه في سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة » - قلت : وهذا الكاتب هو سيف الدولة بن حمدان ممدوح المتنبي ، وقد تقدم ذكره - قال الراوي : وكان تحت ذلك مكتوب :

يا قصر ضعضعك الزما ن وحَطّ من علياء فخرك
ومحا محاسن أسطر شرفت بهن متون جُدْرك
واهاً لكاتبها الكريـ ـم وقدره الموفي بقدرك

وتحت الأبيات مكتوب « وكتب الغضنفر بن الحسن بن علي بن حمدان بخطه في سنة اثنتين وستين وثلثمائة » - قلت : وهذا الكاتب هو عدة الدولة بن ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان ابن أخي سيف الدولة ، وقد سبق ذكر

---

١ لي : بقصير .

والده أيضاً في حرف الحاء – وتحت ذلك مكتوب :

يا قصر ما فعل الألى ضُربت قبابهم بعقرك
أخنى الزمان عليهمُ وطواهمُ بطويل نَشرك
واهاً لقاصر عمر من يختال فيك وطول عمرك

وتحته مكتوب « وكتب المقلد بن المسيب بن رافع بخطه في سنة ثمان وثمانين وثلثمائة » – قلت : وهذا الكاتب هو المقلد المذكور صاحب هذه الترجمة – وتحت ذلك مكتوب :

يا قصر ما صنع الكرا م الساكنون قديم عصرك
عاصرتهم فبذذتهم وشأوتهم طراً بصبرك
ولقد أثار تفجعي يا ابن المسيب رقم سطرك
وعلمت أني لاحق بك دائب في قَفْو أثرك

وتحته مكتوب « وكتب قرواش بن المقلد بن المسيب بخطه في سنة إحدى وأربعمائة » قال الراوي : فعجبت من ذلك ، وقلت لقرواش : الساعة كتبت هذا ؟ فقال : نعم ، وقد هممت بهدم القصر فإنه مشئوم قد دفن الجماعة ، فدعوت له بالسلامة وانصرفت ، ورحلت بعد ثلاثة أيام ، ولم يهدم القصر .

(259) وهذا العباس بن عمرو الغنوي من أهل تل بني سيار الذي بين الرقة ورأس عين بالقرب من حصن مَسْلمة بن عبد الملك بن مروان الحكمي ، وكان يتولى اليمامة والبحرين ، وسيره المعتضد بالله لحرب القرامطة في أول أمرهم ، فقاتلوه وكسروه وأسروه ، ثم أطلقوه فرجع إلى المعتضد ودخل بغداد ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة مضت من شهر رمضان سنة سبع وثمانين ومائتين . وقال أبو عبد الله العظيمي الحلبي في تاريخه الصغير : مات العباس بن عمرو الغنوي في سنة خمسين وثلثمائة ، ومن العجائب أنه توجه إليهم في عشرة آلاف ، فقتل الجميع وسلم وحده ، وعمرو بن الليث الصفار حارب إسماعيل بن أحمد صاحب خراسان

وهو في خمسين ألفاً ، فأخذوه ونجا الباقون[1] .

وكان بين ما كتبه سيف الدولة وبين ما كتبه قرواش سبعون سنة ؛ وقد سبق نظير هذه الحكاية في ترجمة عبد الملك بن عمير وما جرى له مع عبد الملك ابن مروان ، فلينظر هناك .

وبينما المقلد المذكور في مجلس أنسه وهو بالأنبار إذ وثب عليه غلام تركي فقتله ، وذلك في صفر سنة إحدى وتسعين وثلثمائة ، ويقال : إنه مدفون على الفرات بمكان يقال له شيفيا[2] بين الأنبار وهيت ، وحكي أن هذا التركي سمعه وهو يقول لرجل ودعه وهو يريد الحج : إذا جئت ضريح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقف عنده وقل له عني : لولا صاحباك لزرتك ؛ ولما مات رثاه الشريف الرضي بقصيدتين ورثاه جماعة من الشعراء .

(260) وكان ولده معتمد الدولة أبو المنيع قرواش غائباً عنه ، ثم تقلد الأمر من بعده وكان له عمان ينازعانه في الأمر : أحدهما أبو الحسن ابن المسيب ، والآخر أبو مرح[3] مصعب بن المسيب ، فتوفي أبو الحسن سنة اثنتين وتسعين ، وتوفي أبو مرح سنة سبع وتسعين ، فتفرد قرواش بالملك واستراح خاطره منهما ، وكانت له بلاد الموصل والكوفة والمدائن وسقي الفرات ، وخطب في بلاده للحاكم صاحب مصر – وسيأتي ذكره[4] – في سنة إحدى وأربعمائة ، ثم رجع عن ذلك ، ووصلت الغز إلى الموصل ونهبوا دار قرواش ، وأخذوا منها ما يزيد على مائتي ألف دينار ، فاستنجد بنور الدولة أبي الأغر دبيس بن صَدَقة – المقدم ذكره[5] – فأنجده واجتمعا على محاربة الغز فنصروا عليهم وقتل الكثير منهم .

ومدحه أبو علي ابن الشبل البغدادي الشاعر المشهور بقصيدة ذكر فيها هذه الواقعة ، فمنها قوله :

---

١ وهذا العباس ... الباقون : سقط من : لي بر من .

٢ ر ن ق ص : شيقيا .

٣ ن : مرج ؛ وفي المطبوعة المصرية ودي سلان : مرخ .

٤ ن : المقدم ذكره ، وهو خطأ .

٥ ج ٢ : ٢٦٣ .

نزهت أرضك عن قبورٍ[1] جسومهم   فَتَغدَت قبورُهمُ بطونَ الأنسُر
من بعد ما وطئوا البلاد وظفروا   من هـذه الدنيـا بكل مظفر
فضوا رتاج السَّدِّ عن يأجوجه   ولقُوا ببأسك سطوة الإسكندر

وكان قرواش المذكور [يلقب مجد الدين ، وهو ابن أخت الأمير أبي الهيجاء الهذباني صاحب إربل ، وكان][2] أديباً شاعراً ظريفاً ، وله أشعار سائرة ، فمن ذلك مـا أورده له أبو الحسن الباخَرْزي في أول كتاب « دمية القصر »[3] وهو قوله :

لله در النائبات فإنهـا   صَدَأُ اللئام وصيقلُ الأحرارِ
ما كنت إلا زُبرة فطبعنني   سيفاً وأطلق صرفهن غراري

وأورد له أيضاً :

من كان يحمَدُ أو يذم مُورّثاً   للمـال من آبائه وجدوده
فأنا امرؤ لله أشكر وحـده   شكراً كثيراً جالبـاً لمزيده
لي أشقر مـلء العنان مغاور   يعطيك ما يرضيك من مجهوده
ومهنـد عضب إذا جَرَّدته   خلتَ البروق تموج في تجريده
ومثقف لدْن السنان كإنما   أم المنايا رُكِّبت في عوده
وبذا حَوَيْتُ المالَ إلا أنني   سلطت جود يدي على تبديده

ما أحسن هذا الشعر وأمتنه !

ومن المنسوب إليه أيضاً :

وآلفة للطيب ليست تغبه   مُنعَّمة الأطراف ليِّنةُ اللمس

---

١ لي بر من : قبول .

٢ زيادة من ر ، وردت عند وستنفيلد .

٣ دمية القصر : ١٣ – ١٤ .

إذا ما دخان الند من جيبها علا   على وجهها أبصرت غيما على شمس

(261) وذكر الباخرزي المذكور في « دمية القصر » أيضاً لأبي جوثة[1] ابن عم الأمير قرواش المذكور :

قوم إذا اقتحموا العجاج رأيتهم   شمساً وخلت وجوههم أقمارا
لا يعدلون برفدهم عن سائـــل   عدل الزمان عليهم أو جارا
وإذا الصريخ دعاهُمُ لملمــة   بذلوا النفوس وفارقوا الأعمارا
وإذا زناد الحرب أخمد نارها   قدحوا بأطراف الأسنة نارا

(262) ومن جملة شعراء « دمية القصر » أيضاً الطاهر الجزري[2]، وقد مدح قرواشاً المذكور بقوله، وهو في نهاية الحسن في باب الاستطراد :

وليل كوجه البرقعيدي ظلمةً   وبرد أغانيــه وطول قرونهِ
سريتُ ونومي فيه نوم مشرَّدٌ   كعقل سليمان بن فهــد ودينه
على أولقٍ فيه مَضاء[3] كأنه   أبو جــابر في طيشه وجنونه
إلى أن بدا ضوء الصباح كأنه   سنا وجه قرواش وضوء جبينه

ولشرف الدين ابن عنين الشاعر المقدم ذكره على هذا الأسلوب في فقيهين كانا بدمشق ينبز أحدهما بالبغل والآخر بالجاموس[4] :

البغلُ والجاموس في جدليهما   قد أصبحا عظةً لكل مناظرِ
برزا عشية ليــلة فتباحثا   هذا بقرنيه وذا بالحافرِ
ما أتقنا غير الصياحِ كأنما   لقنا جدال المرتضى بن عساكرِ

---

١ بر من : حوثة ؛ ق لي : حونة ؛ ر : جوشنة .
٢ دمية القصر : ٥٠ .
٣ ن : انزعاج .
٤ ديوان ابن عنين : ٢٠٥ .

لفظ طويل تحت معنى قاصر كالعقل في عبد اللطيف الناظر
اثنان ما لهما وحقك ثالث إلا رقاعة مدلويه[1] الشاعر

ولقد حكى لي بعض الأصحاب أنه سأل ابن عنين عن أبيات الطاهر الجزري واستحسن بناءه[2] عليها ، فحلف أنه ما كان سمعها ، والله أعلم .

(263) ومدلويه المذكور : لقب كان ينبز به الرشيد أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن بدر بن الحسن بن المفرج بن بكار الشاعر المعروف بابن النابلسي ، وكان مقيماً بدمشق ، ولابن عنين فيه عدة مقاطيع هجو . وتوفي في منتصف صفر سنة تسع عشرة وستمائة بدمشق المحروسة ، ودفن بباب الصغير ، رحمه الله تعالى .

وذكر في كتاب « الدمية » أيضاً للطاهر الجزري المذكور أبياتاً لطيفة أحببت ذكرها ، وهي :

انظر إلى حظ ابن شبل في الهوى إذ لا يزال لكل قلب شائقا
شغل النساء عن الرجال ، وطالما شغل الرجال عن النساء مراهقا
عشقوه أمرد والتحى فعشقنه الله أكبر ليس يعدم عاشقا

ثم وجدت في كتاب « الخريدة » في ترجمة أبي نصر ابن النحاس الحلبي البيتين الأخيرين من هذه الأبيات الثلاثة وقال : أورده أبو الصلت في «الحديقة»[3] له ، يعني لابن النحاس ، والله أعلم .

رجعنا إلى حديث الأمير قرواش :

وكان كريماً وهاباً نهاباً جارياً على سنن العرب ، نقل أنه جمع بين أختين في النكاح[4] ، فلامته العرب على ذلك فقال : خبروني ما الذي نستعمله مما

١ ص ق : مدكويه .
٢ لي بر من : ثناءه .
٣ ص ق ن : الخريدة ، وهو سهو . ٤ ن : نكاح .

تبيحه الشريعة ؟ وكان يقول : ما في رقبتي غير خمسة أو ستة من أهل البادية قتلتهم ، فأما الحاضرة فما يعبأ الله بهم . ودامت إمارة قرواش مدة خمسين سنة فوقع بينه وبين أخيه بركة بن المقلد — وكان[1] خارج البلد — فقبض بركة عليه في سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ، وقيده وحبسه في الجراحية إحدى قلاع الموصل ، وتولى مكانه .

(264) ولقب بركة بزعيم الدولة وأقام في الإمارة سنتين ، وتوفي في ذي الحجة سنة ثلاث وأربعين .

(265) فقام مقامه ابن أخيه أبو المعالي قريش بن أبي الفضل بدران بن المقلد — وكان بدران المذكور صاحب نصيبين ، وتوفي في رجب سنة خمس وعشرين وأربعمائة — فأول ما فعل قريش أنه قتل عمه قرواشاً المذكور في محبسه في مستهل رجب سنة أربع وأربعين وأربعمائة ، ودفن بتلّ توبة شرقي الموصل ، وكان فصيحاً شاعراً كريماً شجاعاً .

وقِرواش : بكسر القاف وسكون الراء وفتح الواو وبعد الألف شين معجمة ، وهو فعْوَال من القرْش ، وهو في اللغة الكَسْب والجمع ، وبه سميت قريش أيضاً لأنها كانت تعاني التجارة .

واجتمع قريش مع أرسلان البساسيري — المقدم ذكره — على نهب دار الخلافة ، ثم إن الإمام القائم بأمر الله جرى على سجيته في الحلم ، وكتب إلى السلطان طُغْرُلبَك — المقدم ذكره في المحمدين — ليرضى عنه ، وورد الخبر بعد ذلك بموته — أعني قريش بن بدران — في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة في أوائلها بالطاعون بمدينة نصيبين ، وكان عمره إحدى وخمسين سنة .

(266) وولي بعده إمارة بني عقيل ولدُه أبو المكارم مسلم بن قريش الملقب شرف الدولة ، وكان قد طمع في الاستيلاء على بغداد بعد وفاة السلطان طغرلبك السلجوقي — المقدم ذكره — ثم رجع عن ذلك ، واستولى على ديار ربيعة ومضر وملك حلب وأخذ الاتاوة من بلاد الروم ، وقصد دمشق وحاصرها وكاد يأخذها ،

---

١ ن لي بر من : وكانا .

٢ ج ١ : ١٩٢ .

فبلغه أن حَرّان عصى عليه أهلها فرحل إليهم وحاربوه ، ففتحها وقتل خلقاً كثيراً من أهلها ، وذلك في سنة ست وسبعين وأربعمائة ، واتسعت له المملكة ، ولم يكن من أهل بيته من ملك مثله ، وكانت سيرته من أحسن السير وأعدلها ، وكانت الطرقات آمنة في بلاده .

ومن جملة ما نقل عنه أن ابن حَيّوس الشاعر – المقدم ذكره – مات عنده وخلف أكثر من عشرة آلاف دينار ، فحمل ذلك على خزانته فرده وقال : لا يتحدث عني أحد أنني أعطيت شاعراً مالاً ثم شرهت فيه وأخذته ، وأنه دخل خزانتي مال جمع من أوساخ الناس . وكان يصرف الجزية في جميع بلاده إلى الطالبيين[1] ولا يأخذ منها شيئاً ، وهو الذي عمر سور الموصل ، وكان ابتداء عمارته يوم الأحد ثالث شوال سنة أربع وسبعين ، وفرغ من عمارته في ستة أشهر ؛ واخباره كثيرة .

وجرى بينه وبين سليمان بن قتلمش السلجوقي صاحب الروم مصاف ، قتل فيه على باب أنطاكية في خامس عشر صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، يوم الجمعة ، وعمره خمس وأربعون سنة وشهور ، هكذا قاله محمد بن عبد الملك الهمداني في كتابه الذي سماه « المعارف المتأخرة » ؛ وذكر أيضاً ابن الصابي في تاريخه أن مولد مسلم بن قريش يوم الجمعة الثالث والعشرين من رجب سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة ، والله أعلم ؛ وذكر المأموني في تاريخه أنه وثب عليه خادم من خواصه فخنقه في الحمام ، وذكر له واقعة في ذلك ، وذلك في سنة أربع وسبعين ، والله أعلم بالصواب .

(267) ورتب السلطان ملكشاه السلجوقي – المقدم ذكره – ولده أبا عبد الله محمداً في الرحبة وحران وسروج وبلد الخابور ، وزوجه أخته زليخا بنت السلطان ألب أرسلان ، وكان والده مسلم بن قريش اعتقل أخاه أبا سالم إبراهيم ابن قريش بقلعة سنجار مدة أربع عشرة سنة ، فلما هلك مسلم وتقرر أمر ولده محمد في الإمارة اجتمع أهله على إبراهيم المذكور فأخرجوه وقدموه عليهم ، ثم اعتقله ملكشاه وولى ابن أخيه محمداً المذكور ، فلما مات ملكشاه أطلق[2] ،

---

١ ر ن بر من : الطالبيين .

٢ ن : اطلقوه ؛ ق ر لي بر من : اطلقا .

وجمع إبراهيم العرب وحارب[1] تاج الدولة تُتُش السلجوقي – المذكور في حرف التاء – بمكان يعرف بالمصنع وقتله تاج الدولة تُتُشُ صبرا في سنة ست وثمانين وأربعمائة .

(268) ومن أمراء بني عقيل أيضاً أبو الحارث مهارش بن المجلي بن عليب ابن قيان[2] بن شعيب[3] بن المقلد الأكبر بن جعفر بن عمرو بن المهنّا المذكور في أول هذه الترجمة ؛ ومهارش المذكور هو صاحب الحديثة ، وهو الذي نزل عليه الإمام القائم في قصة البساسيري لما خرج من بغداد ، وبالغ في إكرامه وإجلاله والإحسان إليه ، وأقام عنده سنة ، وهي واقعة مشهورة فلا حاجة إلى شرحها .

وكان مهارش المذكور كثير الصدقة والصلوات[4] ، ملازم الجمع والجماعات ، وتوفي في صفر سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، وعمره ثمانون سنة ، رحمهم الله أجمعين .

٧٣٦

مخلص الدولة ابن منقذ

أبو المتوج مقلد بن نصر بن منقذ الكناني ، الملقب مخلص الدولة ، والد الأمير سديد الدولة أبي الحسن علي صاحب قلعة شَيْزَر – المقدم ذكره – ؛ كان رجلاً نبيل القدر سائر الذكر ، رُزِق السعادة في بنيه وحَفَدته ، وقد تقدم في ترجمة ولده المذكور طرف من بدء أمرهم ، وكيف ملك القلعة المذكورة .

وكان والده مقلد المذكور في جماعة كثيرة من أهل بيته مقيمين بالقرب من

---

١ ن ق : وداور .

٢ ن : عكيث ؛ بر من : عكيب ؛ ق ص : عليث ، ر : عكيث ؛ ص : قبان ؛ ن : قنان ؛ ر : فتان ؛ وفي لي دون اعجام إلا الباء ؛ بر من : قيار .

٣ لي ن ر : شعب ؛ ق : أشعب .

٤ ن : والصلات .

قلعة شَيْزر عند جسر بني مُنقذ المنسوب إليهم ، وكانوا يتردّدون إلى حلب وحماة وتلك النواحي ، ولهم بها الآدر[1] النفيسة والأملاك المثمنة ، وذلك كله قبل أن ملكوا[2] قلعة شيْزر ، وكان ملوك الشام يكرمونهم ويبجلون أقدارهم ، وشعراء عصرهم يقصدونهم ويمدحونهم ، وكان فيهم جماعة أعيان روساء كرماء علماء ، وقد سبق ذكر أسامة بن منقذ[3] ، وهو من أحفاده .

ولم يزل مخلص الدولة في رياسته وجلالته ، إلى أن توفي في ذي الحجة سنة خمسين وأربعمائة بحلب ، وحمل إلى كفرطاب ؛ ورأيت في ديوان ابن سنان الخفاجي الشاعر عقيب أشعار له في المذكور[4] ، يقول ما صورته : وقال يرثيه وقد توفي في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ، والله أعلم بالصواب ، رحمه الله تعالى . ورثاه القاضي أبو يعلى حمزة بن عبد الرزاق بن أبي حصين[5] بهذه القصيدة ، وهي من فائق الشعر ، وأنشدها لولده أبي الحسن علي المذكور ، وسأذكرها كلها إن شاء الله تعالى ، وإن كانت طويلة ، لكنها غريبة قليلة الوجود بأيدي الناس ، وما رأيت أحداً قط يحفظ منها إلا أبياتاً يسيرة فأحببت ذكرها لذلك ، وهي هذه :

ألا كلُّ حيٍّ مُقصَدات مَقاتِله ... وآجلُ ما يُخْشى من الدهر عاجلُه

وهل يفرحُ الناجي السليمُ وهذه ... خُيول الردى قُدّامَه[6] وحبائله

لعمرُ الفتى إن السلامة سُلّمٌ ... إلى الحين والمغرورُ بالعيش آمله

فتسلب أثواب الحياة مُعارُها ... ويقضي غريم الدين ما هو ماطله

مضى قيصرٌ لم تغن عنه قُصوره ... وجُدّل كِسْرى ما حَمَتْهُ مجادله

---

١ ر : الأدؤر ، وهما بمعنى واحد .

٢ لي بر من : تملكوا .

٣ ر لي بر من : أسامة بن مرشد .

٤ عقيب . . . المذكور : سقطت من : ر لي بر من .

٥ لي : ابن أبي حصينة ؛ ن : ابن أبي حفص .

٦ ق : حبال الردى تقتاده .

وما صد هلكاً عن سليمانَ ملكه ... ولا مَنَعَتْ منه أباه سرابله
ولم يبق إلا مَنْ يروح ويغتدي ... على سَفَر ينأى عن الأهل قافله
وما نفس الإنسان إلا خِزامة ... بأيدي المنايا والليالي مراحله
فهل غال بدءاً مخلص الدولة الردى ... وهل تنزوي عمن سواه غوائله
ولكنه حوض الحمام ، ففارط ... إليه ، وتالٍ مسرعاتٌ رواحله
لقد دفن الأقوامُ أروع لم تكن ... بمدفونةٍ طول الزمان فضائله
سقى جَدَثاً هالت عليه ترابه ... أكفهُم طلٌّ الغمام ووابله
ففيه سحابٌ يرفع المحلَ هدبه ... وبحرُ ندًى يستغرقُ البرّ ساحله
كأن ابن نصر سائراً في سريره ... حيٌّ[1] من الوسميّ أقشَع هاطله
يمرُّ على الوادي فتثني رماله ... عليه ، وبالنادي فتبكي أرامله
سرى نعشه فوق الرقاب وطالما ... سرى جوده فوق الركاب ونائله
أناعِيَه إن النفوس منوطةٌ ... بقولك فانظر ما الذي أنت قائله
بفيك الثرى لم تدر من حل بالثرى ... جهلت وقد يستصغرُ الأمر جاهله
هو السيد المهتز للمتم بدره ... وللجود عطفاه وللطعن عامله
أفاض عيون الناس حتى كأنما ... عيونهم مما تفيض أنامله
فيا عين سُحّي لا تشحي بسائل ... على ماجد لم يعرف الشحّ سائله
متى يسألوه المال تَنْدَ بنانه ... وإن يسألوه الضيم تَبْدُ عوامله
وكم عاد عنه بالخسار مقنع ... وكم نال منه قانع ما يحاوله
له الغَلَبُ القاضي على كل باسل ... يجالده أو كلّ خصم يجادله
محاسنه في روضةٍ طَلّها الندى ... ولكنه في المجد مات مساجله
فيا عمره أنى قصرت ولم تطل ... منازله بل كفه بل حمائله
جرت تحته العلياء ملء فروجها ... إلى غاية طالت على من يطاوله

---

[1] ق : حياء .

فما مــات حتى نال أقصى مراده | كما يستسر البدر تمت منازله[1]
فتى طالمـا يعتاده الجيش عافيـاً | فينزله أو عاديـاً فينازله
صَفُوحٌ عن الجاني وصفحةُ سيفه | إذا هي لم تقتله فالصفح قاتله
وأدمى عسيبَ الطِّرف بعدك هلبه | وعادته أن يقذف الدمَ كاهله
فيا طرفه ما كان عجزك حاملاً | أدى[2] صارم لو أنَّ ظهرك حامله
لقد كثر الملبوس بعـد مروع | جرت ببيان المشكلات شواكله
إذا ظن لا يخطي كأن ظنونه | على ما يضلّ الناس عنه دلائله
فلا رحلت عنـه نوازلُ رحمـةٍ | ضحاه بهـا موصولة وأصائله
وروّى ثراه منهل العفو في غـد | فقد روّتِ العافين أمس مناهله
قضى الله أن يُرْزا الأميرُ وهذه | صوافنـه موقورة[3] ومناصله
وكل فتى كالبرق إبريق غمده[4] | إذا شامه[5] ، أو كالذبالة ذابله
فليت ظبـاه صَلَّتِ اليوم خلفه | وظلت على غير الصيام صواهله
بني منقذ صبراً فإن مصابكم | يصاب بـه حافي الأنام وناعله
لقد جل حتى كلُّ واجد لوعة | إذا لج فيها ليس يوجد عاذله
إذا صوحت أيدي الرجال فأنتمُ | بني منقذ روضُ الندى وخمائله
وإن فرَّ من وزر الزمان مُفَرَّحٌ | فإنكمُ أوزاره ومعاقـلـه
وصاحبْ ،عليُّ ،الصبرَ عنه فما غوى | مصاحبُ صبرٍ عن حبيب يزايله
وما نام حتى قـام منك وراءه | أخو يقَظات وافر العزم[6] كامله
كأنكما نوءان في فلك العـلا | فطالعه هـــذا وذلك آفـلـه

---

١ ق ن والمختار : أقصى منازله .
٢ ص ن : أذى ؛ لي : أرى صارماً .
٣ ص : صوافيه ؛ ق لي ن : موفورة .
٤ ق : عهده .
٥ ر بر من ن : سامه .
٦ ق : العقل .

وما كَفَلوكَ[1] الأمر إلا لعلمهم قيامك بالأمر الذي أنت كافله
سعيت إلى نيـــل المكارم سعيه ولو كنت لا تسعى كفتك فواضله
ولم تر أنْ ترقى بما كان فاعلاً أجلْ إنما المرفوع بالفعل فاعله
لعمرك إني في الذي عنّ كله شريكُ عنانٍ ناصحُ الود ناخله
وكيف خُلو القلب من ذلك الهوى وقد خُلّدت بين الشغاف دواخله

نجزت القصيدة بتمامها وكمالها . وقد تقدم في ترجمة الصالح طلائع بن رُزّيك وزير مصر مرثية رثاه بهـا الفقيه عمارة اليمني ، وهي على وزن هذه المرثية ورويها ، ولم أذكر منها هناك سوى أبيات قلائل لكثرة وجود ديوان عمارة بأيدي الناس ، وهذه لا تكاد توجد بكمالها ، فلهذا أتممتها هاهنا ، وقد تقدم منها ذكر بيتين في ترجمة الوزير جمال الدين أبي جعفر محمـد المعروف بالجواد الأصبهاني وزير الموصل .

(269) وتوفي أخوه أبو الغيث منقذ بن نصر بن منقذ سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ، ورثاه الشيخ الأديب أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن يحيى بن الحسين بن محمد بن الربيـع بن سنان بن الربيـع الخفاجي الحلـبي الشاعر المشهور صاحب الديوان الشعر بقوله ، وهو من شعره القديم زمن الصبا :

غربت خلائقك الحسانُ غريبةً ورمى الزمانُ دنوهـا ببعادِ
ذهبتْ كما ذهب الربيـعُ وخلفت فيضَ الدموع حرارة الأكبادِ

والخفاجي المذكور رثى مخلص الدولة المذكور أيضاً بقصيدة طويلة رائية ، ومدحه بأخرى حائية أجاد فيها وتركتها لطولها ، والله تعالى أعلم بالصواب .

---

[1] لي ر ص بر من : كلفوك .

٧٣٧

مكي بن أبي طالب

أبو محمد مكي بن أبي طالب بن حَمُّوش بن محمد بن مختار القَيْسي المقرىء ؛ أصله من القيروان ، وانتقل إلى الأندلس وسكن قرطبة ، وهو من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية ، [كان] حسن الفهم والخلق جيد الدين والعقل ، كثير التواليف في علم القرآن محسناً لذلك ، مجوداً للقراءات السبع عالماً بمعانيها .

ولد بالقيروان عند طلوع الشمس أو قبل طلوعها بقليل ، لسبع بقين من شعبان سنة خمس وخمسين وثلثمائة ، وقال أبو عمرو المقرىء الداني : إنه ولد سنة أربع وخمسين ، ونشأ بالقيروان وترعرع ، وسافر إلى مصر وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، واختلف بها إلى المؤدبين والعارفين بعلوم الحساب ، ثم رجع إلى القيروان ، وكان إكماله لاستظهار القرآن بعد كماله وفراغه من الحساب وغيره من الآداب ، وذلك في سنة أربع وسبعين وثلثمائة ، ثم عاد إلى مصر ثانية بعد استكماله القراءات بالقيروان وذلك في سنة سبع وسبعين ، فحج في تلك السنة حجة الإسلام ، ثم ابتدأ بالقراءات على أبي الطيب عبد المنعم بن عبيد الله بن غلبون الحلبي المقرىء نزيل مصر بمصر في أول سنة ثمان وسبعين ، فقرأ عليه بقية السنة وبعض سنة تسع ، ورجع إلى القيروان وقد بقي عليه بعض القراءات . ثم عاد إلى مصر مرة ثالثة في سنة اثنتين وثمانين ، فاستكمل ما بقي له ، ثم عاد إلى القيروان في سنة ثلاث وثمانين وأقام بها يقرىء إلى سنة سبع وثمانين ، ثم خرج إلى مكة وأقام بها إلى آخر سنة تسعين ، وحج أربع حجج متوالية ، ثم رجع من مكة في سنة إحدى وتسعين ، فوصل إلى مصر ، ثم رحل منها إلى القيروان في سنة اثنتين وتسعين ، ثم ارتحل إلى الأندلس وقدمها في رجب سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، وجلس للاقراء بجامع قرطبة ،

---

٧٣٧ – ترجمته في عبر الذهبي ٣ : ١٨٧ وانباه الرواة ٣ : ٣١٣ (وفي الحاشية ذكر لمصادر أخرى) .

فانتفع به خلق كثير وجودوا عليه القرآن ، وعظم اسمه في البلدة وجلّ فيها قدره ، ونزل عند دخوله قرطبة في مسجد النخيلة[1] الذي بالزقاقين[2] عند باب العطارين ، فأقرأ به ، ثم نقله المظفر عبد الملك بن أبي عامر إلى جامع الزاهرة ، وأقرأ فيه حتى انصرمت دولة آل عامر ، فنقله محمد بن هشام المهدي إلى المسجد الخارج بقرطبة ، وأقرأ فيه مدة الفتنة كلها إلى أن قلده أبو الحسن ابن جَهْور[3] الصلاة والخطبة بالمسجد الجامع بعد وفاة يونس بن عبد الله ، وكان ضعيفاً عليها على أدبه وفهمه ، وأقام في الخطابة إلى أن مات ، رحمه الله تعالى .

وكان خيراً فاضلاً متواضعاً متديناً مشهوراً بإجابة الدعاء ، وله في ذلك أخبار ، فمن ذلك ما حكاه أبو عبد الله الطرفي المقرىء[4] قال : كان عندنا بقرطبة رجل فيه بعض الحدة ، وكان له على الشيخ أبي محمد المذكور تسلط ، وكان يدنو منه إذا خطب فيغمزه ويحصي عليه سقطاته ، وكان الشيخ كثيراً ما يتلعثم ويتوقف ، فحضر ذلك الرجل في بعض الجمع ، وجعل يحد النظر إلى الشيخ ويغمزه ، فلما خرج معنا ونزل في الموضع الذي كان يقرأ فيه قال لنا : أمنوا على دعائي ، ثم رفع يديه وقال : اللهم اكفنيه ، اللهم اكفنيه[5] ، فأمنا ، قال : فأقعد ذلك الرجل ، وما دخل الجامع بعد ذلك اليوم .

وله تصانيف كثيرة نافعة فمنها : « الهداية إلى بلوغ النهاية » في معاني القرآن الكريم وتفسيره وأنواع علومه ، وهو سبعون جزءاً ، و « منتخب الحجة » لأبي علي الفارسي ، ثلاثون جزءاً ، وكتاب « التبصرة في القراءات » في خمسة أجزاء ، وهو من أشهر تواليفه[6] ، و « الموجز في القراءات » جزءان ، وكتاب

---

١ الانباه : النخيلية .

٢ كذا في ن ر ص ق ؛ لي : بالزفانين ؛ وستنفيلد : بالرقاقين ؛ القفطي : بالزواقين .

٣ كذا في جميع النسخ ، والقفطي . وفي وستنفيلد : ابن جوهر : قلت والصواب : أبو الحزم ابن جهور كما ذكره الجزري في طبقات القراء نقلا عن الصلة .

٤ هو محمد بن أحمد بن مطرف الكتاني القرطبي المقرىء (٣٨٧ - ٤٥٤) عرف بالطرفي لكونه كان يؤم في جامع طرفة (غاية النهاية ٢ : ٨٩) .

٥ اللهم اكفنيه : كررت ثلاث مرات في ر ن .

٦ ق ن : وهو من أحسن تواليفه وأشهرها .

« المأثور عن مالك في أحكام القرآن وتفسيره » عشرة أجزاء ، وكتاب « الرعاية لتجويد القراءة » أربعة أجزاء ، وكتاب « اختصار أحكام القرآن » أربعة أجزاء ، وكتاب « الكشوف عن وجوه القراءات وعللها » عشرون جزءاً ، وكتاب « الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه » ثلاثة أجزاء ، وكتاب « الإيجاز في ناسخ القرآن ومنسوخه » جزء ، وكتاب « الزاهي في اللمع الدالة على مستعملات الإعراب » أربعة أجزاء ، وكتاب « التنبيه على أصول قراءة نافع وذكر الاختلاف عنه » جزءان ، وكتاب « الانتصاف ، فيما رده على أبي بكر الأدفوي وزعم أنه غلط فيه في كتاب الإبانة » ثلاثة أجزاء ، وكتاب « الرسالة إلى أصحاب الأنطاكي في تصحيح المدّ لورش » ثلاثة أجزاء ، وكتاب « الإبانة عن معاني القراءة » جزء ، وكتاب « الوقف على كلا وبلى في القرآن » جزءان ، وكتاب « الاختلاف في عدد الأعشار » جزء ، وكتاب « الإدغام الكبير في المخارج » جزء ، وكتاب « بيان الصغائر والكبائر » جزء ، وكتاب « الاختلاف في الذبيح من هو » جزء ، وكتاب « دخول حروف الجر بعضها مكان بعض » جزء ، وكتاب « تنزيه الملائكة عن الذنوب وفضلهم على بني آدم » جزء ، وكتاب « الياءات المشددة في القرآن والكلام » جزء ، وكتاب « اختلاف العلماء في النفس والروح » جزء ، وكتاب « إيجاب الجزاء على قاتل الصيد في الحرم خطأ على مذهب الإمام مالك ، والحجة في ذلك » جزء ، وكتاب « مشكل غريب القرآن » ثلاثة أجزاء ، وكتاب «بيان العمل في الحج أول الإحرام إلى زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم » جزء ، وكتاب « فرض الحج على من استطاع إليه سبيلاً » جزء ، وكتاب « التذكرة لاختلاف القراء » جزء ، وكتاب « تسمية الأحزاب » [جزء][1] ، وكتاب « منتخب كتاب الإخوان لابن وكيع » جزءان ، وكتاب « الحروف المدغمة » جزءان ، وكتاب « شرح التمام والوقف » أربعة أجزاء ، وكتاب « مشكل المعاني والتفسير » خمسة عشر جزءاً ، وكتاب « هجاء المصاحف » جزءان ، وكتاب « الرياض » مجموع خمسة أجزاء ، وكتاب « المنتقى في الأخبار » أربعة أجزاء ، وله في القراءات واختلاف القراء وعلوم

---

[1] زيادة من ن بر من ؛ وفي القفطي « قسمة الأحزاب » .

القرآن تصانيف كثيرة ، ولولا خوف التطويل لاستوعبت ذكرها .

وتوفي يوم السبت عند صلاة الفجر[1] ، ودفن يوم الأحد ضحوة لليلتين خلتا من المحرم سنة سبع وثلاثين وأربعمائة بقرطبة ، ودفن بالرَّبض ، وصلى عليه ولده أبو طالب محمد ، رحمه الله تعالى .

وحموش : بفتح الحاء المهملة وتشديد الميم المضمومة وسكون الواو وبعدها شين معجمة .

وقد تقدم الكلام على القيسي والقيروان وقرطبة ، فأغنى عن الإعادة .

(270) وأبو الطيب عبد المنعم بن غلبون المقرىء المصري[2] المذكور في هذه الترجمة ذكره الثعالبي في كتاب « اليتيمة » فقال : كان على دينه وفضله وعلمه بالقرآن ومعانيه وإعرابه متفننا في سائر علوم الأدب ، أنشدت له قصيدة منها قوله :

عليك باقلال الزيارة إنها ... إذا كثرت كانت إلى الهجر مسلكا
ألم تر أن الغيث يُسأم دائماً ... ويطلب بالأيدي إذا هو أمسكا

وقال غير الثعالبي : ولد أبو الطيب المذكور في رجب سنة تسع وثلثمائة ، وتوفي بمصر يوم الجمعة لسبع خلون من جمادى الأولى سنة تسع وثلثمائة ، رحمه الله تعالى .

---

١ ن من بر : عند طلوع ؛ ق : قبل طلوع الفجر .

٢ انظر اليتيمة ٢ : ١٢٩ (الطبعة الشامية) وطبقات القراء لابن الجزري ١ : ٤٧٠ .

٧٣٨
مكي الماكسيني النحوي

أبو الحرم[1] مكي بن رَيّان بن شبّة بن صالح ، الماكِسيني المولد الموصلي الدار ، المقرىء النحوي الضرير ، الملقب صائن الدين[2] ؛ كان والده يصنع الأنطاع بماكسين ، ومات فقيراً لم يخلف شيئاً ، وترك ولده أبا الحرم المذكور وأمه وبنتاً ، فلم تقدر أمه على القيام بمصالحه بسبب الفقر ، وتضجرت منه ففارقها ، وخرج من بلده وقصد الموصل ، واشتغل بها بعلم القرآن والأدب ، ثم رحل إلى بغداد واجتمع بأئمة الأدب ، وقرأ على أبي محمد ابن الخشاب وابن العصار وابن الأنباري وأبي محمد سعيد بن الدهان – وقد تقدم ذكرهم – ثم عاد إلى الموصل وتصدر بها للإفادة ، وأخذ الناس عنه ، وانتشر ذكره في البلاد وبعُد صيته وانتفع به خلق كثير .

وذكره أبو البركات ابن المستوفي في « تاريخ إربل » فقال : هو جامع فنون الأدب ، وحجة كلام العرب ، المجمع على دينه وعقله ، والمتفق على علمه وفضله ؛ رحل إلى بغداد ولقي بها مشايخ النحو واللغة والحديث ، وكان واسع الرواية ، قد نصب نفسه للانتفاع عليه بالقرآن العزيز[3] وجميع ضروب الأدب ، ثم قال : وأنشدني من شعره ، وكان قد اشتغل عليه بالموصل ، أعني ابن المستوفي المذكور :

سئمت من الحياة فلم أردها ... تسالمني وتشجيني بريقي
عدوي لا يقصر في أذاتي ... ويفعل مثل ذلك بي صديقي

---

٧٣٨ – ترجمته في البدر السافر ، الورقة : ٢٠٠ وانباه الرواة ٣ : ٣٢٠ (وبقية المصادر الهامة مذكورة في الحاشية) .

١ لي : الحزم .

٢ ق : ضياء الدين .

٣ زاد في لي : ومعانيه واعرابه متقناً في سائر علوم الأدب ، أنشدت له قصيدة منها ... الخ .

وقد أضحت لي الحدباء داراً وأهل مودتي بِـلِوَى العقيق

والحدباء : كنية الموصل .

ومن شعره أيضاً :

إذا احتاج النوالُ إلى شفيع فلا تقبله تضحِ قريرَ عينِ
إذا عيف النوال لفرد مَنٍّ فأولى أن يعاف لمنّتين

وله أيضاً :

على البابِ عبدٌ يسألُ الإذنَ طالباً به أدباً لا أنْ نعماك تحجبُ
فإن كان إذنٌ فهو كالخير داخلٌ عليك وإلا فهو كالشرّ يذهبُ

وهذا مأخوذ من قول بعضهم :

على البــاب عبدٌ من عبيدك واقفٌ بنعماك مغمورٌ بشكرك معــترفْ
أيدخلُ كالإقبــالِ لا زلتَ مقبلاً مدى الدهر أم مثل الحوادث ينصرف[1]

ثم قال ابن المستوفي : وكان قد أضر وهو ابن ثمان أو تسع سنين ، وكان أبداً يتعصب لأبي العلاء المعري ، ويطرب إذا قرىء عليه شعره ، للجامع بينهما من العمى والأدب ، فسلك مسلكه في النظم ؛ انتهى كلام ابن المستوفي .

قلت : وحكى لي بعض من أخذ عنه أنــه لما كان ببلده كان جيرانهم ومعارفهم يسمونه مكيك تصغير مكي ، فلما ارتحل واشتغل وحصّل اشتاقت نفسه إلى وطنه ، فعاد إليه ، فتسامع به من بقي ممن كان يعرفه ، فزاروه وفرحوا به لكونه فاضلاً من أهل بلدهم ، وبات تلك الليلة ، فلما كان سحر خرج إلى الحمام فسمع امرأة في غرفتها تقول لأخرى : ما تدرين مَنْ جاء ؟ فقالت : لا ، فقالت : مكيك ابن فلانة ، فقال : والله لا قعدت في بلد أدعى فيه مكيك وسافر من غير تربُّث بعد أن كان قد نوى الإقامة بها مدة وعاد إلى الموصل ، ثم

١ ومن شعره . . . ينصرف : سقط من : لي بر من .

خرج إلى الشام في أواخر عمره لزيارة بيت المقدس ، فانتهى إليه وقضى منه وطره .

ورجع إلى الموصل من حلب . وكان دخوله إلى الموصل في شهر رمضان ، وتوفي ليلة السبت السادس من شوال سنة ثلاث وستمائة بالموصل ، وخلف ولداً صغيراً . ودفن بصحراء باب الميدان في مقبرة المعافى بن عمران جوار أبي بكر القرطبي وابن الدهان النحوي ، رحمهم الله تعالى ؛ ويقال إنه مات مسموماً من جهة صاحب الموصل نور الدين أرسلان شاه -المقدم ذكره في حرف الهمزة- لسبب اقتضى ذلك ، والله أعلم .

وريّان : بفتح الراء وتشديد الياء المثناة من تحتها وبعد الألف نون .

وشبة : بفتح الشين المعجمة وتشديد الباء الموحدة وبعد هاء ساكنة .

والماكِسيني : بفتح الميم وبعد الألف كاف مكسورة وسين مهملة مكسورة أيضاً ثم ياء ساكنة مثناة من تحتها وبعدها نون ، هذه النسبة إلى ماكسين ، وهي بليدة من أعمال الجزيرة الفراتية على نهر الخابور ، وهي على صغرها تشابه المدن في حسن بنائها ومنازلها .

٧٣٩

مكحول الشامي

أبو عبد الله مكحول بن عبد الله الشامي ، من سبي كابل [ذكره ابن ماكولا في كتاب « الإكمال » في ترجمة شاذل فقال في نسبه: وهو مكحول بن أبي

---

٧٣٩ - ترجمته في طبقات ابن سعد ٧ : ٤٥٣ والمعارف : ٤٥٢ وطبقات الشيرازي : ٧٥ وحلية الأولياء ٥ : ١٧٧ والجرح والتعديل ٤/١ : ٤٠٧ وتذكرة الحفاظ : ١٠٧ وميزان الاعتدال ٤ : ١٧٧ وتهذيب التهذيب ١٠ : ٢٨٩ وحسن المحاضرة ١ : ١١٩ والشذرات ١ : ١٤٦ .

مسلم – واسمه شهراب – ابن شاذل بن سند بن سروان بن بزدك بن يغوب ابن كسرى][1] .

قال ابن عائشة : كان مولى لامرأة من قيس ، وكان سندياً لا يفصح ؛ وقال الواقدي : كان مولى لامرأة من هذيل ، وقيل هو مولى سعيد بن العاص ، وقيل مولى لبني ليث .

قال الخطيب[2] : كان جده شاذل من أهل هَراة ، فتزوج ابنة ملك من ملوك كابل ، ثم هلك عنها وهي حامل ، فانصرفت إلى أهلها ، فولدت شهراب[3] فلم يزل في أخواله بكابل حتى ولد له مكحول ، فلما ترعرع سبي ، ثم وقع إلى سعيد ابن العاص فوهبه لامرأة من هذيل فأعتقته .

وكان معلم الأوزاعي – المقدم ذكره في حرف الهمزة – وسعيد بن عبد العزيز ، قال الزهري : العلماء أربعة ، سعيد بن المسيب بالمدينة ، والشعبي بالكوفة ، والحسن البصري بالبصرة ، ومكحول بالشام . ولم يكن في زمنه أبصر منه بالفتيا ، وكان لا يفتي حتى يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، هذا رأي والرأي يخطىء ويصيب . وسمع أنس بن مالك وواثلة بن الأسقع وأبا هند الداري[4] وغيرهم ، وكان مقامه بدمشق .

وكان في لسانه عجمة ظاهرة ، ويبدل بعض الحروف بغيره ، قال نوح بن قيس : سأله بعض الأمراء عن القَدَر ، فقال : أساهر أنا ؟ يريد أساحر أنا . وكان يقول بالقدر ورجع عنه ، وقال معقل بن عبد الأعلى القرشي : سمعته يقول لرجل : ما فعلت تلك الهاجة ؟ يريد الحاجة ؛ وهذه العجمة تغلب على أهل السند .

---

١ زيادة من ر ، وانظر الاكمال ٥ : ١ وعنه أثبتنا صور الأسماء إذ أنها في ر : مروان بن برديك بن يعقوب .. الخ .

٢ لم يرد النقل عن الخطيب في : لي بر من .

٣ ق ص : شهران .

٤ في المختار : الرازي .

(271) يحكى عن أبي عطاء السندي الشاعر[1] المشهور ، واسمه مرزوق ، وهو من موالي أسد بن خزيمة ، أنه كان في لسانه هذه العجمة ، فاجتمع حماد الراوية وحماد عجرد الشاعر – المقدم ذكرهما[2] – وحماد بن الزبرقان النحوي وبكر بن مصعب المزني ، في بعض الليالي ليتذاكروا فقالوا : ما بقي شيء إلا وقد تهيأ لنا في مجلسنا هذا ، فلو بعثنا إلى أبي عطاء السندي ليحضر عندنا ويكمل به المجلس ، فارسلوا إليه ، فقال حماد بن الزبرقان : أيكم يحتال لأبي عطاء حتى يقول : جرادة وزج وشيطان ؟ وإنما اختار له هذه الألفاظ لأنه كان يُبْدِل من الجيم زاياً ومن الشين سيناً ، فقال حماد الراوية : أنا أحتال في ذلك ، فلم يلبثوا أن جاءهم أبو عطاء فقال لهم : هياكم الله ، يريد حياكم الله ، فقالوا له : مرهبا مرهبا ، يريدون مرحباً مرحبا على لغته ، فقالوا له : ألا تتعشى ؟ فقال : قد تعسيت ، فهل عندكم نبيذ نشرب ؟ فقالوا : نعم ، فأتوا له بنبيذ فشرب حتى استرخى[3] فقال له حماد الراوية : يا أبا عطاء ، كيف معرفتك باللغز ؟ فقال : هسن ، يريد حسن ، فقال له ملغزاً في جرادة :

فما صَفْراء تُكنى أم عوفٍ ... كأنَّ رجيلتيها منجلانِ

فقال : زرادة ، فقال : صدقت ، ثم قال ملغزاً في زُجٍّ :

فما اسم حديدةٍ في الرمح ترسى ... دُوَيْنَ الصدرِ ليستْ بالسنانِ

فقال أبو عطاء : زُزٌّ ، فقال حماد : أصبت ، ثم قال ملغزاً في مسجد بجوار بني شيطان ، وهو بالبصرة :

أتعرف مسجداً لبني تميم ... فويق الميل دون بني أبان

---

١ ترجمة أبي عطاء السندي في معجم المرزباني : ٤٥٦ والشعر والشعراء : ٦٥٢ والأغاني ١٧ : ٢٤٥ والخزانة ٤ : ١٦٧ والعيني ١ : ٥٦٠ والسمط : ٦٠٢ والقصة المروية هنا متابعة للشعر والشعراء .

٢ انظر ج ٢ : ٢٠٦ ، ٢١٠ .

٣ الشعر والشعراء : حتى استرخت ؛ أي أعصاب عنقه .

فقال : هو في بني سيطان ، فقال : أحسنت ، ثم تنادموا وتفاكهوا إلى سحرة في أرغد عيش .

وهذا أبو عطاء من الشعراء المجيدين ، وكان عبداً أَخْرَب ، والأخرب : المشقوق الأذن ، وله في كتاب «الحماسة»[1] مقاطيع نادرة ، ولولا خشية التطويل والخروج عن المقصود لذكرت جملة من شعره ونوادره .

وتوفي مكحول المذكور سنة ثماني عشرة ، وقيل ثلاث عشرة ، وقيل ست عشرة ، وقيل اثنتي عشرة ، وقيل أربع عشرة ومائة ، رضي الله عنه .

وكابُل : بفتح الكاف وبعد الألف باء موحدة مضمومة ثم لام ، وهي ناحية معروفة ببلاد السند .

٧٤٠

ملكشاه السلجوقي

أبو الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سَلجُوق بن دُقاق ، الملقب جلال الدولة — وقد تقدم ذكر أبيه وجماعة من أهل بيته .

ولما توفي أبوه — في التاريخ المذكور في ترجمته — كان ملكشاه المذكور في صحبته ، ولم يصحبه قبلها في سفر غير هذه المرة ، فولي الأمر من بعده بوصية والده وتحليف الأمراء والأجناد على طاعته ، ووصى وزيره نظام الملك أبا علي الحسن — المقدم ذكره في حرف الحاء[2] — على تفرقة البلاد بين أولاده ، ويكون مرجعهم إلى ملكشاه المذكور ، ففعل ذلك وعَبَر بهم نهر جيحون راجعاً إلى

---

١ - انظر مثلا شرح التبريزي للحماسة ٢ : ١٥١ .

٧٤٠ - انظر المنتظم ٩ : ٦٩ وتاريخ ابن الأثير (ج : ١٠) والنجوم الزاهرة ٥ : ١٣٤ وعبر الذهبي ٣ : ٣٠٩ والشذرات ٣ : ٣٧٦ وأخبار الدولة السلجوقية : ٥٥ .

٢ ج ٢ : ١٢٨ .

البلاد ، وقد شرحت الواقعة في ترجمة والده فلا حاجة إلى الإعادة .

فلما وصل إلى البلاد وجد بعض أعمامه وهو قاروت بك[1] صاحب كرمان قد خرج عليه ، فعاجله وتصافا بالقرب من همذان ، فنصره الله عليه وانهزم عمه ، فتبعه بعض جند ملكشاه فأسروه وحملوه إلى ملكشاه ، فبذل التوبة ورضي بالاعتقال وأن لا يقتل ، فلم يجبه ملكشاه إلى ذلك ، فأنفذ له خريطة مملوءة من كتب أمرائه ، وأنهم حملوه على الخروج عن طاعته وحَسَّنوا له ذلك ، فدعا السلطان بالوزير نظام الملك فأعطاه الخريطة ليفتحها ويقرأ ما فيها ، فلم يفتحها، وكان هناك كانون نار فرمى الخريطة فيه فاحترقت الكتب ، فسكنت قلوب العساكر وأمِنوا ، ووطنوا أنفسهم على الخدمة ، بعد أن كانوا قد خافوا من الخريطة لأن أكثرهم كان قد كاتبه ، وكان ذلك سبب ثبات قدم ملكشاه في السلطنة ، وكانت هذه معدودة في جميل آراء نظام الملك .

ثم إن ملكشاه أمر بقتل عمه فخنق بوتر قوسه ، واستقرت القواعد للسلطان وفتح البلاد واتسعت عليه المملكة ، وملك ما لم يملكه أحد من ملوك الإسلام بعد الخلفاء المتقدمين فكان في مملكته جميع بلاد ما وراء النهر وبلاد الهياطلة وباب الأبواب والروم وديار بكر والجزيرة والشام وخطب له على جميع منابر الإسلام سوى بلاد المغرب ، فإنه ملك من كاشغر – وهي مدينة في أقصى بلاد الترك – إلى بيت المقدس طولاً ، ومن القسطنطينية إلى بلاد الخزر وبحر الهند عرضاً ، وكان قد قدر لممالكه ملك الدنيا .

وكان من أحسن الملوك سيرة حتى كان يلقب بالسلطان العادل ، وكان منصوراً في الحروب ، ومغرماً بالعمائر ، فحفر كثيراً من الأنهار ، وعمر على كثير من البلدان الأسوار ، وأنشأ في المفاوز رباطات وقناطر ، وهو الذي عمر جامع السلطان ببغداد ابتدأ بعمارته في المحرم من سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وزاد في دار السلطنة بها ، وصنع بطريق مكة مصانع ، وغرم عليها أموالاً كثيرة خارجة عن الحصر ، وأبطل المكوس والخفارات في جميع البلاد .

وكان لهجاً بالصيد ، حتى قيل إنه ضبط ما اصطاده بيده فكان عشرة

---

[1] أخبار الدولة السلجوقية : قاورد .

آلاف ، فتصدق بعشرة آلاف دينار بعد أن نسي كثيراً منه ، وقال : إنني خائف من الله سبحانه وتعالى لإزهاق الأرواح لغير مأكلة ، وصار بعد ذلك كلما قتل صيداً تصدق بدينار .

وخرج من الكوفة لتوديع الحاج ، فجاوز العذيب وشيعهم بالقرب من الواقصة وصاد في طريقه وحشاً كثيراً فبنى هناك منارة من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء التي صادها في ذلك الطريق ، والمنارة باقية إلى الآن وتعرف بمنارة القرون ، وذلك في سنة ثمانين وأربعمائة .

وكانت السبل في أيامه ساكنة والمخاوف آمنة ، تسير القوافل من ما وراء النهر إلى أقصى الشام وليس معها خفير ، ويسافر الواحد والاثنان من غير خوف ولا رَهَب .

وحكى محمد بن عبد الملك الهمداني في تاريخه أن السلطان ملكشاه المذكور توجه لحرب أخيه تكش فاجتاز بمشهد علي بن موسى الرضا رضي الله عنهما بطوس ودخل مع نظام الملك الوزير وصليا فيه وأطالا الدعاء ، ثم قال لنظام الملك : بأي شيء دعوت ؟ قال : دعوت الله تعالى أن ينصرك ويظفرك بأخيك ، فقال: أما أنا فلم أدع بهذا بل قلت : اللهم انصر أصلحنا للمسلمين وأنفعنا للرعية .

ثم قال الهمداني أيضاً عقيب[1] هذا : وحكي أن واعظاً دخل عليه ووعظه ، فكان من جملة ما حكى له أن بعض الأكاسرة اجتاز منفرداً عن عسكره على باب بستان ، فتقدم إلى الباب[2] وطلب ماء يشربه ، فأخرجت له صبية إناء فيه ماء السكر والثلج ، فشربه واستطابه ، فقال لها : هذا كيف يعمل ؟ فقالت : إن قصب السكر يزكو عندنا حتى نعصره بأيدينا ، فيخرج منه هذا الماء ، فقال : ارجعي وأحضري شيئاً آخر ، وكانت الصبية غير عارفة به ، ففعلت ، فقال في نفسه : الصواب أن أعوضهم عن هذا المكان وأصطفيه لنفسي ، فما كان بأسرع من خروجها باكية ، وقالت : إن نية سلطاننا قد تغيرت ، فقال : ومن أين علمتِ ذلك ؟ قالت : كنت آخذ من هذا ما أريد من غير تعسف ، والآن

---

١ ق ن : بعد .

٢ فتقدم إلى الباب : سقطت من ر والمختار ؛ وفي بر : إلى البستان .

فقد اجتهدت في عصر القصب فلم يسمح ببعض ما كان يأتي ، فعلم صدقها ، فرجع عن تلك النية ، ثم قال لها : ارجعي الآن فإنك تبلغين الغرض ، وعقد على نفسه أن لا يفعل ما نواه ، فخرجت الصبية ومعها ما شاءت من ماء السكر وهي مستبشرة . فقال السلطان للواعظ : فلم لا تذكر للرعية أن كسرى اجتاز على بستان فقال للناطور : ناولني عنقوداً من الحصرم ، فقال له : ما يمكنني ذلك ، فإن السلطان لم يأخذ حقه ولا تجوز لي خيانته ، فعجب الحاضرون من مقابلته الحكاية بمثلها ، ومعارضته بما أوجب الحق له ما أوجب الحق عليه .

وحكى الهمداني أيضاً أن سوادياً لقيه وهو يبكي ، فسأله السلطان عن سبب بكائه ، فقال[1] : ابتعت بطيخاً بدريهمات لا أملك غيرها ، فلقيني ثلاثة أغلمة أتراك فأخذوه مني ، ومالي حيلة سواه ، فقال : أمسك ، واستدعى فراشاً ، وكان ذلك عند باكورة البطيخ ، وقال له : إن نفسي قد تاقت إلى البطيخ ، فطف في العسكر وانظر من عنده شيء فأحضره ، فعاد ومعه بطيخ ، فقال : عند من رأيته ؟ قال : عند الأمير فلان ، فأحضره وقال : من أين لك هذا البطيخ ؟ فقال : جاء به الغلمان ، فقال : أريدهم الساعة ، فمضى وقد عرف نية السلطان فيهم ، فهربهم وعاد فقال : لم أجدهم ، فالتفت إلى السوادي وقال : هذا مملوكي وقد وهبته لك حين لم يحضر القوم الذين أخذوا متاعك ، والله لئن خليته لأضربن عنقك ، فأخذه السوادي بيده ، وأخرجه من بين يدي السلطان فاشترى الأمير نفسه بثلثمائة دينار ، وعاد السوادي وقال : يا سلطان ، قد بعت المملوك بثلثمائة دينار ، فقال : أو قد رضيت ؟ قال : نعم ، قال : امض مصاحباً[2] .

وكانت البركة واليُمن مقرونين بناصيته ، فكان إذا يدخل أصبهان أو بغداد أو أي بلد من البلاد كان ، دخل مع عدد لا يحصى لكثرته فيرخص السعر وتنحط أثمان الأشياء عما كانت عليه قبله ، ويكتسب المتعيشون مع عسكره الكسب الكثير .

وحكى الهمداني أيضاً أنه أحضرت إليه مغنية وهو بالري ، فأعجب بها

---

١ انظر أخبار الدولة السلجوقية : ٧٣ .

٢ ر : مصاحباً بالسلامة .

واستطاب غناءها ، فهم بها فقالت : يا سلطان ، إني أغار على هذا الوجه الجميل أن يعذب بالنار ، وإنّ الحلال أيسر ، وبينه وبـــين الحرام[1] كلمة ، فقال : صدقت ، واستدعى القاضي فتزوجها منه وابتنى بها ، وتوفي عنها .

[وقال صاحب « الدول المنقطعة » : ومن جملة ما سعى تاج الملك[2] في نظام الملك الوزير أن قال للسلطان: إنه ينفق في كل سنة على أرباب المدارس والرباطات ثلثمائة ألف دينار، ولو جيش بها جيشاً لبلغ باب القسطنطينية، فاستحضر النظام واستفسره عن الحال ، فقال : يا سلطان العالم اني أنا رجل شيخ ، ولو نودي عليّ لما زادت قيمتي على ثلاثة دنانير ، وأنت حدث لو نودي عليك لما زادت قيمتك على ثلاثين ديناراً ، وقد أعطاك الله تعالى وأعطاني بك ما لم يعطه أحداً من خلقه ، أفلا نعوضه عن ذلك في حَمَلة دينه وحَفَظة كتابه ثلاثمائة ألف دينار ؟ ثم إنك تنفق على الجيوش المحاربة في كل سنة أضعاف هذا المال ، مع أن أقواهم وأرماهم لا تبلغ رميته ميلاً ولا يضرب بسيفه إلا ما قرب منه ، وأنا أجيش لك بهذا المال جيشاً تصل من الدعاء سهامه إلى العرش لا يحجبها شيء عن الله تعالى ، فبكى السلطان وقـــال : يا أبت استكثر من الجيش ، والأموال مبذولة لك ، والدنيا بين يديك][3] .

وعيون محاسنه أكثر من أن تحصى .

وحكى الهمداني أيضاً أن نظـام الملك الوزير وقع للملاحين الذين عبروا بالسلطان والعسكر نهر جيحون على العامل بأنطاكية ، وذلك لسعة المملكة ، وكان مبلغ أجرة المعابر أحد عشر ألف دينار .

وتزوج الإمام المقتدي بأمر الله أمير المؤمنين ابنة السلطان ، وكان السفير في الخطبة الشيخ أبا إسحاق الشيرازي صاحب « المهذب » و « التنبيه » رحمه الله تعالى ، وأنفذه الخليفة إلى نيسابور لهذا السبب ، فإن السلطان كان هناك ، فلما وصل إليه أدى الرسالة ونجز الشغل . قال الهمداني أيضاً : وعاد الشيخ أبو إسحاق إلى بغداد في أقل من أربعة أشهر ، وناظر إمام الحرمين هناك ، فلما

---

١ لي : وبينك وبين الحلال .

٢ هو تاج الملك أبو الغنائم صاحب خزانة السلطان والناظر في أمر دوره وفي وزارة أولاده .

٣ زيادة انفردت بها النسخة ر ، وانظر أخبار الدولة السلجوقية : ٦٧ .

أراد الانصراف من نيسابور خرج إمام الحرمين للوداع ، وأخذ بركابه حتى ركب أبو إسحاق ، وظهر له في خراسان منزلة[1] عظيمة ، وكانوا يأخذون التراب الذي وطئته بغلته فيتبركون به .

وكان زفاف ابنة السلطان إلى الخليفة في سنة ثمانين وأربعمائة ، وفي صبيحة دخولها عليه أحضر الخليفة المقتدي عسكر السلطان على سماط صنعه لهم كان فيه أربعون ألف منّاً سكراً ، وفي بقية هذه السنة في ذي القعدة منها رزق الخليفة ولداً من ابنة السلطان سماه أبا الفضل جعفراً ، وزينت بغداد لأجله .

وكان السلطان قد دخل إلى بغداد دفعتين ، وهي من جملة بلاده التي تحتوي عليها مملكته ، وليس للخليفة فيها سوى الاسم ، فلما عاد إليها الدفعة الثالثة دخلها في أوائل شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وخرج من فوره إلى ناحية دجيل لأجل الصيد ، فاصطاد وحشاً وأكل من لحمه ، فابتدأت به العلة ، وافتصد ، فلم يكثر من إخراج الدم ، فعاد إلى بغداد مريضاً ، ولم يصل إليه أحد من خاصته ، فلما دخلها توفي ثاني يوم دخوله ، وهو السادس عشر من شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وكانت ولادته في التاسع من جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، رحمه الله تعالى ، وقيل انه سم في خلال تخلل به ، وحمل تابوته إلى أصبهان ودفن بها في مدرسة عظيمة موقوفة على طائفة الشافعية والحنفية ، ولم يشهد أحد جنازته ببغداد ولا صلي عليه في الصورة الظاهرة ولا جلسوا للعزاء ، ولا حذف عليه ذنب فرس كعادة أمثاله ، بل كأنه اختلس من العالم[2] .

ومن عجيب الاتفاق أنه لما دخل بغداد في هذه المرة ، وكان للخليفة المقتدي ولدان أحدهما الإمام المستظهر بالله والآخر أبو الفضل جعفر ابن بنت السلطان وقد تقدم ذكر ولادته ، وكان الخليفة قد بايع لولده المستظهر بالله بولاية العهد من بعده لأنه كان الأكبر ، فألزم السلطان الخليفة أن يخلعه ويجعل ابن بنته جعفراً ولي العهد ، ويسلم بغداد إليه ، ويخرج الخليفة إلى البصرة ، فشق ذلك

---

١ ق : بركة .

٢ وكانت ولادته ..العالم : اتبعنا في ترتيب النص هنا ما جاء في المختار ؛ وفيه بعض اختلاف عن النسخ الأخرى في الترتيب العام .

على الخليفة ، وبالغ في استنزال السلطان عن هذا الرأي ، فلم يفعل ، فسأل المهلة عشرة أيام ليتجهز فأمهله ، فقيل إن الخليفة في تلك الأيام جعل يصوم ويطوي وإذا أفطر جلس على الرماد للإفطار ، وهو يدعو الله سبحانه وتعالى على السلطان ، فمرض السلطان في تلك الأيام ومات ، وكفي الخليفة أمره ، وتزوج ابنه الإمام المستظهر بالله ابنة السلطان خاتون العصمة[1] في سنة اثنتين وخمسمائة .

وقد تقدم ذكر أولاده الثلاثة الملوك ، وهم بركياروق وسنجر ومحمد ، كل واحد له ترجمة في حرفه ، رحمهم الله تعالى أجمعين .

وكاشْغَر : بفتح الكاف وبعد الألف شين معجمة ساكنة وغين معجمة مفتوحة وبعدها راء ، وقد ذكرت أين هي فلا حاجة إلى الإعادة ، وهي قصبة بلاد تركستان .

والواقصة : بفتح الواو وبعد الألف قاف مكسورة وبعدها صاد مهملة مفتوحة ثم هاء ساكنة ،وهي منزل معروف بطريق مكة يقال لها واقصة الحرون .

والباقي معروف فلا حاجة إلى تفسيره ، والله أعلم بالصواب .

٧٤١

منصور الفقيه

أبو الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر التميمي المصري الفقيه الشافعي الضرير ؛ أصله من رأس عين ، البلدة المشهورة بالجزيرة ، وأخذ الفقه عن أصحاب الشافعي ، رضي الله عنه وعن أصحاب أصحابه . وله مصنفات في المذهب مليحة منها

---

١ ق ن : العظمة .

٧٤١ – ترجمته في معجم الأدباء ١٩ : ١٨٥ ونكت الهميان : ٢٩٧ والمغرب (قسم مصر) ١ : ٢٦٢ والمنتظم ٦ : ١٥٢ وطبقات السبكي ١ : ٣١٧ وحسن المحاضرة ١ : ١٦٨ والشذرات ٢ : ٢٤٩ ، وهذه الترجمة شديدة الايجاز في : مج بر من ، على تفاوت بينها .

« الواجب » و « المستعمل » و « المسافر» و « الهداية » وغير ذلك من الكتب، وله شعر جيد سائر ، وذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازي ، رحمه الله تعالى ، في « طبقات الفقهاء »[1] وأنشد له :

عاب التفقهَ قومٌ لا عقولَ لهم وما عليه إذا عابوه من ضررِ
ما ضر شمسَ الضحى والشمسُ طالعةٌ أن لا يرى ضوءها مَنْ ليس ذا بصر

ومن هنا أخذ أبو العلاء المعري قوله من قصيدته المشهورة[2] :

والنجمُ تستصغرُ الأبصارُ رؤيتهُ والذنبُ للطرفِ لا للنجم في الصغر

ومن شعره أيضاً :

لي حيلةٌ فيمن ينمُّ وليس في الكذاب حيله
من كان يخلقُ ما يقو لُ فحيلتي فيه قليله

وله أيضاً :

الكلبُ أحسن عشرةً وهو النهاية في الخساسه
ممن ينازعُ في الريا سة قبل أوقات الرياسه

وحكي أنه أصابته مسغبة في سنة شديدة القحط ، فرقي سطح داره ونادى بأعلى صوته في الليل :

الغياثَ الغياث يا أحرار نحن خلجانكم وأنتم بحارُ
إنما تحسن المواساة في الشـ ـدة لا حين ترخص الأسعار

فسمعه جيرانه ، فأصبح على بابه مائة حمل برٍّ .

وحكاياته وأخباره مشهورة ؛ وتوفي في جمادى الأولى سنة ست وثلثمائة بمصر ،

1 طبقات الشيرازي : ١٠٧ .
2 شروح السقط : ١٦٢ .

وقال الشيخ أبو إسحاق في « الطبقات » : إنه مات قبل العشرين والثلثمائة ، رحمه الله تعالى .

وذكره القاضي أبو عبد الله القضاعي في كتاب « خطط مصر » فقال : أصله من رأس عين وسكن الرملة ، وقدم إلى مصر وسكنها ، وتوفي سنة ست وثلثمائة ، وكان فقيهاً جليل القدر ، متصرفاً في كل علم ، شاعراً مجيداً ، لم يكن في زمانه مثله بمصر .

وكان من أكرم الناس على أبي عبيد القاضي ، حتى كان منهما ما كان بسبب المسألة ، وكان لأبي عبيد في كل عشية مجلس يذاكر فيه رجلاً من أهل العلم ويخلو به ، خلا عشية الجمعة فإنه كان يخلو بنفسه فيها ، فكان من العشايا عشية يخلو فيها بمنصور ، وعشية يخلو فيها بأبي جعفر الطحاوي ، وعشية يخلو فيها بمحمد بن الربيع الجيزي ، وعشية يخلو فيها بعفان بن سليمان ، وعشية يخلو فيها بالسجستاني ، وعشية يخلو فيها للنظر مع الفقهاء ، وربما حدث ، فجرى بينه وبين منصور في بعض العشايا ذكر الحامل المطلقة ثلاثا ، ووجوب نفقتها ، فقال أبو عبيد : زعم قوم أن لا نفقة لها في الثلاث ، وأن نفقتها في الطلاق غير الثلاث ، فأنكر ذلك منصور ، وقال : قائل هذا ليس من أهل القبلة . ثم انصرف منصور فحدث بذلك أبا جعفر الطحاوي ، فحكاه أبو جعفر لأبي عبيد فأنكره ، وبلغ ذلك منصوراً فقال : أنا أكذبه ، واجتمع الناس عند القاضي وتواعدوا لحضور ذلك ، فلما حضروا لم يتكلم أحد ، فابتدأ أبو عبيد وقال : ما أريد أحداً يدخل عليّ ، ما أريد منصوراً ولا نصاراً ولا منتصراً ، قوم عميت قلوبهم كما عميت أبصارهم يحكون عنا ما لم نقله ، فقال له منصور : قد علم الله أنك قلت كذا وكذا ، فقال أبو عبيد : كذبت، فقال له منصور: قد علم الله الكاذب ، ونهض فلم يأخذ أحد بيده غير أبي بكر ابن الحداد فإنه أخذ بيده وخرج معه حتى ركب ، وزاد الأمر فيما بينهما ، وتعصب الأمير ذكا وجماعة من الجند وغيرهم لمنصور ، وتعصب للقاضي جماعة ، وشهد على منصور محمد بن الربيع الجيزي بكلام سمعه منه يقال إن منصوراً حكاه عن النظام ، فقال القاضي : إن شهد عليه آخر مثل ما شهد به عليه محمد بن الربيع ضربت عنقه ، فخاف

على نفسه ومات في جمادى الأولى من السنة المذكورة . وخاف أبو عبيد أن يصلي عليه لأجل الجند الذين تعصبوا لمنصور ، فتأخر عن جنازته لهذا السبب ، وحضرها الأمير ذكا وابن بسطام صاحب الخراج ، وأوعب الناس ولم يتخلف كبير أحد ، وذكر لأبي عبيد أن منصوراً قال عند موته :

قضيت نَحْبي فسر قوم حمقى بهم غفلة ونومُ
كأن يومي عليّ حتم وليس للشامتين يوم
تموت قبلي ولو بيوم ونحن يوم النشور توم

فأطرق أبو عبيد ساعة ثم قال :

فقد فرحنا وقد شمتنا وليس للشامتين لوم

والله أعلم بالصواب .

٧٤٢
الحاكم العبيدي

أبو علي المنصور الملقب الحاكم بأمر الله بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم ابن المهدي صاحب مصر – وقد تقدم ذكر أجداده وجماعة من أحفاده ، وسيأتي ذكر أبيه في حرف النون إن شاء الله تعالى – وكلهم كانوا يَتسمّون بالخلفاء .

وتولى الحاكم المذكور عهد أبيه في حياته ، وذلك في شعبان سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة ، ثم استقل بالأمر يوم وفاة والده – على ما سيأتي في تاريخه إن شاء الله تعالى ؛ وكان جواداً بالمال سفاكاً للدماء ، قتل عدداً كثيراً من أماثل

٧٤٢ – أخباره في الخطط ١ : ٣٥٤ ، ٢ : ٢٨٥ والنجوم ٤ : ١٧٦ وتاريخ ابن خلدون ٤ : ٥٦ والاشارة إلى من نال الوزارة : ٣١ وتاريخ ابن الأثير (ج : ٩) والدرة المضية : ٢٥٦ وعبر الذهبي ٣ : ١٠٤ والشذرات ٣ : ١٩٢ .

أهل دولته وغيرهم صبراً .

وكانت سيرته من أعجب السير ، يخترع كل وقت أحكاماً يحمل الناس على العمل بها ، منها أنه أمر الناس في سنة خمس وتسعين وثلثمائة بكتب سب الصحابة[1] رضوان الله عليهم في حيطان المساجد والقياسر والشوارع ، وكتب إلى سائر عمال الديار[2] المصرية يأمرهم بالسب، ثم أمر بقطع ذلك ونهى عنه وعن فعله في سنة سبع وتسعين ، ثم تقدم بعد ذلك بمدة يسيرة بضرب من يسب الصحابة وتأديبه ثم يشهره ؛ ومنها أنه أمر بقتل الكلاب في سنة خمس وتسعين وثلثمائة فلم ير كلب في الأسواق والأزقة والشوارع إلا قتل ؛ ومنها أنه نهى عن بيع الفُقّاع والملوخيا وكبب الترمس المتخذة لها والجرجير والسمكة التي لا قشر لها ، وأمر بالتشديد في ذلك والمبالغة في تأديب من يتعرض لشيء منه ، فظهر على جماعة أنهم باعوا أشياء منه ، فضربوا بالسياط وطيف بهم ، ثم ضربت أعناقهم ، ومنها أنه في سنة اثنتين وأربعمائة نهى عن بيع الزبيب[3] قليله وكثيره على اختلاف أنواعه ، ونهى التجار عن حمله إلى مصر ، ثم جمع بعد ذلك منه جملة كثيرة وأحرق جميعها ، ويقال إن مقدار النفقة التي غرموها على إحراقه كانت خمسمائة دينار[4] ، وفي هذه السنة منع من بيع العنب وأنفذ الشهود إلى الجيزة حتى قطعوا كثيرا من كرومها[5] ورموها في الأرض وداسوها بالبقر ، وجمع ما كان في مخازنها من جرار العسل فكانت خمسة آلاف جرة ، وحملت إلى شاطىء النيل وكسرت وقلبت في بحر النيل ؛ وفي هذه السنة أمر النصارى واليهود إلا الخيابرة بلبس العمائم السود ، وأن يعمل النصارى في أعناقهم الصلبان ما يكون طوله ذراعاً ووزنه خمسة أرطال . وأن تحمل اليهود في أعناقهم قرامي

---

١ زاد في ر : أبي بكر وعمر وعثمان .

٢ ر : العمال بالديار ؛ ق والمختار : سائر أعمال .

٣ ق والمختار : الرطب .

٤ مج : وذكر أن ثمنها كان ألفي قطعة وثمانمائة قطعة وأحرق جميعها بظاهر الحمراء على شاطىء النيل ، وذكر أن مقدار النفقة . . . . . دينار .

٥ ن : قطعوا كروماً كثيرة .

الخشب على وزن صلبان النصارى ، ولا يركبوا شيئاً من المراكب المحلاة ، وأن تكون ركبهم من الخشب ، ولا يستخدموا أحداً من المسلمين، ولا يركبوا حماراً لمكار مسلم ولا سفينة نوتيها مسلم ، وأن يكون في أعناق النصارى إذا دخلوا الحمام الصلبان ، وفي أعناق اليهود الجلاجل ليتميزوا عن المسلمين ، ثم أفرد حمامات اليهود والنصارى من حمامات المسلمين[1] وحط على حمامات النصارى الصلبان ، وعلى حمامات اليهود القرامي ، وذلك في سنة[2] ثمان وأربعمائة . وفيها أمر بهدم الكنيسة المعروفة بقمامة وجميع الكنائس بالديار المصرية ، ووهب جميع ما فيها من الآلات وجميع ما لها من الارباع والأحباس لجماعة من المسلمين، وتتابع إسلام جماعة من النصارى ؛ وفي هذه السنة نهى عن تقبيل الأرض له وعن الدعاء له والصلاة عليه في الخطب والمكاتبات[3] ، وأن يجعل عوض ذلك « السلام على أمير المؤمنين »[4] . وفي سنة أربع وأربعمائة أمر أن لا ينجم أحد ولا يتكلم في صناعة النجوم ، وأن ينفى المنجمون من البلاد[5] ، فحضر جميعهم إلى القاضي مالك بن سعيد الحاكم بمصر — كان — وعقد عليهم توبة[6]، وأعفوا من النفي وكذلك أصحاب الغناء . وفي شعبان من هذه السنة منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلاً ونهاراً ، ومنع الأساكفة من عمل الخفاف للنساء ، ومحيت صورهن من الحمامات[7] ، ولم تزل النساء ممنوعات عن الخروج إلى أيام ولده الظاهر المقدم ذكره ، وكانت مدة منعهن سبع سنين وسبعة أشهر . وفي شعبان سنة إحدى عشرة وأربعمائة تنصّر جماعة ممن كان أسلم من النصارى ، وأمر ببناء ما كان قد هدم من كنائسهم وردّ ما كان أخذ من أحباسها ، وبالجملة فهذه نبذة

---

١ زاد في مج : ونهوا عن الاجتماع مع المسلمين في الحمامات .

٢ مج : وكان افرادهم الحمامات في سنة . . . الخ .

٣ زاد في مج : والمخاطبات .

٤ زاد في مج : ونهى أن يقبل التراب له وتشدد في ذلك .

٥ مج : وأن ينفى جميع المعروفين بهذه الصناعة .

٦ مج : وعقد أيضاً التوبة مع جماعة كانوا مشهورين بصناعة الغناء .

٧ زاد في مج : ومنع من بيع اللعب .

من أحواله ، وإن كان شرحها يطول .

وكان أبو الحسن علي المعروف بابن يونس المنجم قد صنع له الزيج المشهور المعروف بالحاكمي ، وهو زيج كبير مبسوط .

ونقلت من خط الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السِّلفي ، رحمه الله تعالى ، أن الحاكم المذكور كان جالساً في مجلسه العام وهو حفل بأعيان دولته ، فقرأ بعض الحاضرين قوله تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ (النساء : ٦٥) والقارىء في أثناء ذلك يشير إلى الحاكم ، فلما فرغ من القراءة قرأ شخص آخر يعرف بابن المُشَجَّر وكان رجلاً صالحاً ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز ﴾ (الحج : ٧٣) فلما أنهى[1] قراءته تغير وجه الحاكم ، ثم أمر لابن المشَجَّر المذكور بمائة دينار ، ولم يطلق للآخر شيئاً ؛ ثم إن بعض أصحاب ابن المشَجَّر قال له : أنت تعرف خلق الحاكم ، وكثرة استحالاته ، وما نأمن أن يحقد عليك ، وأنه لا يؤاخذك في هذا الوقت ثم يؤاخذك بعد هذا فتتأذى معه ، ومن المصلحة عندي أن تغيب عنه ، فتجهز ابن المشَجَّر للحج ، وركب في البحر فغرق ، فرآه صاحبه في النوم ، فسأله عن حاله ، فقال : ما أقصر الرُّبّان معنا أرسى بنا على باب الجنة ، رحمه الله تعالى ؛ وذلك ببركة جميل نيته[2] وحسن قصده .

[ومن أخباره المستطرفة التي تدخل في أبواب الفرج بعد الشدة ما حدّث به بعض الرؤساء أن ولي الدولة ابن خيران استحضره الحاكم ذات يوم وقال له : يا ولي الدولة ، إني أريد أن أزوج مملوكي فلاناً على جاريتي فلانة بعد عتقها وكذلك آخر لأخرى فخذ هاتين الشقتين واخطب فيهما خطبتين حسنتين وانسق الصداق والمهر بعد ذلك على ما تقتضيه صناعة الوراق ، وبكر إلينا من الفجر

---

١ ق : أنهى القارىء .

٢ ق ن : ببركة نيته .

ولا تتأخر . فقبل ذلك من الحاكم بالسمع والطاعة وانصرف ، ووصل إلى داره بمصر وأسهر نفسه واستنتج قريحته وجود فكرته وعمل ما أشار له في الكتابين ولم يزل في السهر إلى وقت السحر ، فاستحثه الرسل فقام ليتوضأ ويتهيأ إليه فعثرت رجله في المحبرة فتطرطش الكتابين ، فلطم وجهه ووقع مغشياً عليه وانقبض أهله ، وعلم أنه مقتول ، فوصى أهله الوصية التامة وركب وأخذ الكتابين في كمه مطويين ، ولم يزل إلى أن دخل من باب القاهرة ووصل إلى القصر مغلساً ، والرسل والحجاب منتظرون قدومه ، وحين وصل أذن له في الدخول ، فوجد الحاكم في الإيوان الكبير جالساً على سرير ، وبين يديه طشطان وعليها قوارتان[1] ، فلما رأى الحاكم قبل الأرض ووقف صامتاً فقال له : يا ولي الدولة اكشف هذين الطشطين، فكشف عنهما فإذا في كل منهما رأس رجل ورأس امرأة ، فقال : هؤلاء اطلعنا منهم على قضية منحوسة وفساد لا ينبغي الصبر عليه ففعلنا بهم ما فعلنا ، وتلك الثوبان خذهما فصّلهما لأهلك ، امض لشأنك ، فخرج من بين يديه مغشياً عليه ، فأقام في الديوان إلى أن سكنت نفسه وهدأ روعه ، وكتب إلى أهله رقعة يأمرهم فيها بالسكون والسكوت إلى أن يجتمع بهم][1] .

والحاكم المذكور هو الذي بنى الجامع الكبير بالقاهرة ، بعد أن كان قد شرع فيه والده العزيز بالله – كما سيأتي ذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى – وأكمله وأبّده ، وبنى جامع راشدة بظاهر مصر ، وكان شروعه في عمارته يوم الاثنين سابع عشر شهر ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، وكان متولي بنائه الحافظ أبا محمد عبد الغني بن سعيد ، والمصحح لمحرابه أبا الحسن علي بن يونس المنجم ، وقد تقدم ذكرهما ، وأنشأ عدة مساجد بالقرافة وغيرها ، وحمل إلى الجوامع من المصاحف والآلات الفضية والستور والحصُر السامان ما له قيمة طائلة.

وكان يفعل الشيء وينقضه .

[وخرج عليه في سنة خمس وتسعين وثلثمائة أبو ركوة الوليد بن هشام العثماني

---

١ انفردت مج بهذه القصة ، وقد أبقيناها على حالها مع ما فيها مما لا يتفق والصحة اللغوية .

٢ التاء غير معجمة في النسخة .

الأندلسي ، وكان خروجه في نواحي برقة ، ومال إليه خلق عظيم ، وسير إليه الحاكم المذكور جيشاً كبيراً وانتصر عليهم وملك ، ثم تكاثروا عليه وأمسكوه، ويقال إنه قتل من أصحابه مقدار سبعين ألفاً ، وكان قبضهم إياه في سنة سبع وتسعين ، وحمل إلى الحاكم فشهره وقتله، يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة ، وحديثه مستوفّى في تاريخ ابن الصابي][1] .

وكانت ولادته بالقاهرة ليلة الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلثمائة .

وكان يحب الانفراد والركوب على بهيمة وحده ، فاتفق أنه خرج ليلة الاثنين السابع والعشرين من شوال سنة[2] إحدى عشرة وأربعمائة إلى ظاهر مصر، وطاف ليلته كلها وأصبح عند قبر الفُقّاعي ، ثم توجه إلى شرقي حُلوان ومعه ركابيان، فأعاد أحدهما مع تسعة من العرب السويديين ، ثم أعاد الركابي الآخر ، وذكر هذا الركابي أنه خلفه عند القبر والمقصبة ، وبقي الناس على رسمهم يخرجون يلتمسون رجوعه ومعهم دواب الموكب إلى يوم الخميس سلخ الشهر المذكور ، ثم خرج يوم الأحد ثاني ذي القعدة مُظَفَّر صاحب المظلة وخطى الصقلي ونسيم متولي الستر وابن بشتكين[3] التركي صاحب الرمح وجماعة من الأولياء الكتاميين والأتراك[4]، فبلغوا دير القصير والموضع المعروف بسلوان[5] ، ثم أمعنوا في الدخول في الجبل فبينما هم كذلك إذ أبصروا حماره الأشهب الذي كان راكباً عليه المدعو بالقمر ، وهو على قرنة الجبل[6] ، وقد ضربت يداه بسيف فأثر فيهما ، وعليه سرجه ولجامه، فتتبعوا الأثر فإذا أثر الحمار في الأرض وأثر راجل خلفه وراجل

---

١ ما بين معقفين ورد في ص ن ر ق وعند وستنفيلد ، ولم يرد في المختار ولي مج والمطبوعة المصرية .

٢ ر : من شهر شوال المبارك من شهور السنة .

٣ ق ن : نشتكين .

٤ زاد في مج : ومعهم ماضي القري .

٥ مج : بعسلان ، وغير واضحة في المختار ؛ وفي دي سلان : بحلوان .

٦ مج : فبصروا بالحمار الذي كان راكبه على قرنة الجبل .. فتتبع الأثر فاذا أثر الحمار .

قدامه ، فلم يزالوا يقصون هذا الأثر حتى انتهوا إلى البركة التي في شرقي حلوان ، فنزل إليها بعض الرجالة فوجد فيها ثيابه ، وهي سبع جباب[1] ، ووجدت مزررة لم تحل أزرارها ، وفيهـا آثار السكاكين فأخذت وحملت إلى القصر[2] بالقاهرة ، ولم يشك في قتله ، مع أن جماعة من المغالين في حبهم السخيفي العقول يظنون حياته ، وأنه لا بد أن سيظهر ، ويحلفون بغيبة الحاكم وتلك خيالات هذيانية[3] ، ويقال إن أخته دَسَّت عليه من يقتله لأمر يطول شرحه ، والله أعلم.

وابن المُشَجَّر : بضم الميم وفتح الشين المعجمة والجيم المشدّدة وبعدها راء .

وحُلوان : بضم الحاء المهملة وسكون الميم وفتح الواو وبعد الألف نون ، وهي قرية مليحة كثيرة النزه فوق مصر بمقدار خمسة أميال ، كان يسكنها عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي لما كان والياً بمصر نيابة عن أخيه عبد الملك أيام خلافته ، وبها توفي ، وبها وُلد ولده عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه[4] .

---

١ مج : سبع جبب .

٢ مج : فأخذها ماضي وجاء بها إلى القصر .

٣ لا بد أن نشير هنا إلى أن قتل الحاكم قد اتخذ في حينه صورة قضية واقعية يتعقب فاعلوها ، إذ يذكر المسبحي في تاريخه (الجزء ٤٠ : ١٤٨) أن ثائراً في الصعيد أخذ فقرر « فأقر أنه قتل الحاكم بأمر الله عليه السلام في جملة أربعة أنفس تفرقوا في البلاد فمنهم من مضى إلى برقة ومنهم من مضى إلى العراق ، وأنه أظهر (لمقرره) قطعة من جلد رأسه عليه السلام وقطعة من الفوطة التي كانت عليه ، فقال له حيدرة (المقرر) ولم قتلته ؟ فقال : غرت لله وللاسلام ، فقال كيف قتلته ، فأخرج سكيناً فضرب بها فؤاد نفسه فقتل نفسه وقال : هكذا قتلته .. الخ ، وانظر الخطط ٢ : ٢٨٩ .

٤ هنا تنتهي النسخة مج .

٧٤٣

الآمر بأحكام الله

أبو علي المنصور الملقب الآمر بأحكام الله بن المستعلي بن المستنصر بن الظاهر ابن الحاكم العبيدي المذكور قبله ، وقد تقدم بقية نسبه ، وسبق ذكر والده في الأحدين في حرف الهمزة .

وبويع الآمر بالولاية يوم مات أبوه – في التاريخ المذكور في ترجمته – وقام بتدبير دولته الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش –المذكور في حرف الشين– وكان وزير والده ، وقد ذكرنا في ترجمته طرفاً من أخبار الآمر المذكور ، ولما اشتد الآمر وفطن لنفسه قتل الأفضل – حسبما تقدم شرحه – واستوزر المأمون أبا عبد الله محمد بن أبي شجاع فاتك بن أبي الحسن مختار المعروف بابن فاتك البطائحي[1] ، فاستولى هذا الوزير عليه ، وقبح سمعته وأساء السيرة ، ولما كثر ذلك منه قبض عليه الآمر أيضاً ليلة السبت رابع شهر رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة واستصفى جميع أمواله ، ثم قتله في رجب سنة إحدى وعشرين ، وصلب بظاهر القاهرة وقتل معه خمسة من إخوته ، أحدهم يقال له المؤتمن ، وكان متكبراً متجبراً خارجاً عن طوره ، وله أخبار مشهورة .

[ثم ظهر في مدة القبض على المأمون المصادرات على يد الراهب المسمى أبا شجاع بن قسا[2]، فلم يبق أحد إلا وناله بمكروه من ضرب ونهب مال، وكان هذا الراهب الملعون في ابتداء حاله يخدم ولي الدولة أبا البركات بن يحيى بن أبي الليث ثم اتصل بالآمر وبذل له في مصادرة قوم من النصارى مائة ألف دينار ، فأطلق يده فيهم ، وتسلسل الحال إلى أن عم البلاد جميع رؤساء مصر وقضاتها وكتابها

---

٧٤٣ – أخباره في النجوم الزاهرة ٥ : ١٧٠ وابن الأثير (ج : ١٠) والخطط ٢ : ٢٩٠ والدرة المضية : ٤٦١ وتاريخ ابن خلدون ٤ : ٦٨ وعبر الذهبي ٤ : ٦٢ والشذرات ٤ : ٧٣ .

١ ترجمته في الاشارة : ٦٢ والدرة : ٤٨٨ .

٢ كذا ، وعند المقريزي : ابن أبي نجاح .

وشهودها وسوقتها إلى أن صادر رجلاً حمّالاً فأخذ عشرين ديناراً ثمن جمل باعه لم يكن يملك سواه ، وارتفع عنده إلى أن كان يستعمل بتنس ودمياط ملابس مخصوصة من الصوف الأبيض معلمة بالذهب، فكان يلبسها ويلبس فوقها الدماقس والديباج ، وكان يتطيب من المسك بعدة من المثاقيل كلّ يوم، وكان يشم رائحة طيبه من مكان بعيد، وكان يركب الحمر بالسروج المحلاة بالذهب والفضة، ويدخل إلى دهليز القاعة المعروفة بلباس الخطباء بالجامع العتيق بمصر ، فيجلس هناك ويستدعي الناس للمصادرة ، وأقام كذلك مدة إلى أن قتل في سنة ثلاث وعشرين ، على يد المقداد الوالي بمصر ثم صلب عند الجسر . ذكر أنه لما قبض على دار الراهب وجد فيها مكان فيه ثمانمائة طراحة جدد لم تستعمل قدّرت إلى السقف ، هذا نوع واحد قليل الاستعمال فكيف ما عداه من الديباج وأنواع المتاع الفاخر][1] .

وكان الآمر سيء الرأي[2] جائر السيرة مستهتراً متظاهراً باللهو واللعب ، وفي أيامه أخذ الفرنج مدينة عكا في شعبان سنة سبع وتسعين وأربعمائة ، وأخذوا طرابلس الشام بالسيف يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وخمسمائة ، وكان أخذهم لها بالسيف[3] ، ونهبوا ما فيها ، وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها ، وحصل في أيديهم من أمتعتها وذخائرها وكتب دار علمها وما كان في خزائن أربابها ما لا يحد عدده ولا يحصى ، وعوقب من بقي من أهلها ، واستصفيت أموالهم ، ثم وصلتها نَجْدَة المصريين بعد فوات الامر فيها ، وفي هذه السنة ملكوا عرْقَة وكان نزولهم عليها أول شعبان من السنة المذكورة ، وفيها ملكوا بانياس ، وفيها تسلموا جبيل بالأمان ، وتسلموا قلعة تِبنِينَ يوم الجمعة لثمان بقين من ذي الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة، ثم تسلموا مدينة صُور يوم الاثنين لسبع بقين من جمادى الأولى سنة ثمان عشرة وخمسمائة ، وكان الوالي بها من جهة الأتابك ظهير الدين طغتكين – المذكور في حرف التاء

---

١ ما بين معقفين زيادة من ر .

٢ ر : سيء الخلق والرأي .

٣ هذا مكرر .

في ترجمة تُتُش بن ألب أرسلان – وكان يومئذ صاحب دمشق ومـا والاها .
ولما ملكوا صور ضربوا السكة باسم الآمر المذكور مدة ثلاث سنين ، ثم قطعوا ذلك، وأخذوا بيروت يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال سنة ثلاث وخمسمائة بالسيف ، وأخذوا صَيدا لعشر بقين من جمادى الآخرة[1] سنة أربع وخمسمائة .

(273) وفي أيام الآمر أيضاً سنة أربع وخمسمائة ، وقيل سنة إحدى عشرة، والله أعلم ، قصد بردويل الافرنجي الديار المصرية ليأخذها ، وانتهى إلى الفَرَما ودخلها وأحرقها وأحرق جامعها ومساجدها [وأبواب البلد وقتل بهـا رجلاً مقعداً وابنته ، فذبحها على صدره][2] ورحل عنها وهو مريض، فهلك في الطريق قبل وصوله إلى العريش، فشق أصحابه بطنه ورموا حُشْوَته هناك، فهي ترجم إلى اليوم ، ورحلوا بجثته فدفنوهـا بقمامة[3] . وسبخَةُ بردويل التي في وسط الرمل على طريق الشام منسوبة إلى بردويل المذكور ، والحجارة الملقاة هناك ، والناس يقولون : هذا قبر بردويل وإنما هو هذه الحشوة ، وكان بردويل صاحب البيت المقدس وعكا ويافا وعدة بلاد من ساحل الشام ، وهو الذي أخـذ هذه البلاد المذكورة من المسلمين .

وفي هذه السنة أيضاً خرج المهدي محمد بن تُومَرْت – المقدم ذكره – من مصر وصاحبها الآمر المذكور إلى بلاد المغرب في زي الفقهاء ، وجرى له هناك ما سبق شرحه في ترجمته .

وكانت ولادة الآمر يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرم وقيل ثاني المحرم سنة تسعين وأربعمائة بالقاهرة ، وتولى وعمره خمس سنين . ولما انقضت أيامـه خرج من القاهرة صبيحة يوم الثلاثاء ثالث ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة ونزل إلى مصر وعدى على الجسر إلى الجزيرة[4] التي قبالة مصر ، فكمن له قوم بالأسلحة وتواعدوا على قتله في السكة التي يمر فيها إلى فرن هناك ، فلـما مر بهم وثبوا

---

١ ر ن : الأولى .

٢ زيادة من ر .

٣ ر : بقمامة بيت المقدس ؛ ق : بقمامة جهنم .

٤ ر ص لي : الجيزة .

عليه فلعبوا عليه بأسيافهم ، وكان قد جاوز الجسر وحده مع عـدة قليلة من غلمانه وبطانته وخاصته وشيعته ، فحمل في النيل في زورق ولم يمت ، وأدخل القاهرة وهو حيّ ، وجيء به إلى القصر من ليلته فمات ولم يعقب ، وهو العاشر من أولاد المهدي عبيد الله القائم بسِجلماسة المقدم ذكره[1] .

وانتقل الأمر إلى ابن عمه الحافظ عبد المجيد – المقدم ذكره – رحمهم الله تعالى ؛ وكان قبيح السيرة ظلم للناس وأخذ أموالهم وسفك دماءهم[2] ، وارتكب المحذورات ، واستحسن القبائح المحظورات ، فابتهج الناس بقتله ، وكان ربعة شديد الأدْمة جاحظ العينين ، حسن الخط والمعرفة والعقل .

وأما المأمون ابن البطائحي الوزير المذكور فهو الذي بنى الجامع الأقمر بالقاهرة سنة خمس عشرة وخمسمائة ، وكان الأفضل ابن أمير الجيوش قد شرع في عمارة جامع النيل بظاهر مصر عند الرصد المطل على بركة حبش في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة ، ولم يكمله ، فأكمله المأمون بعده في مدة وزارته ، والله أعلم بالصواب.

٧٤٤

قطب الدين مودود

قطب الدين مودود بن عمـــاد الدين زنكي بن آق سنقر ، المعروف بالأعرج صاحب الموصل – وقد تقدم طرف من خبره في ترجمة أخيه نور الدين محمود صاحب الشام، وذكر أولاده الثلاثة وهم : سيف الدين غازي الذي تولى السلطنة بعده ، وعز الدين مسعود ، وعماد الدين زنكي صاحب سنجار ، واستوعبت في

---

١ هنا تنتهي الترجمة في : بر من ، وبعد سطر تنتهي في : لي .

٢ زاد في ق : واستقبح الحسن .

٧٤٤ – أخباره في الباهر : ٩٤ وما بعدها وابن الوردي ٢ : ٧٨ ومفرج الكروب (ج : ١) وتاريخ ابن الأثير ١١ : ٣٥٥ ومرآة الزمان : ٢٨٠ والنجوم الزاهرة ٥ : ٣٨٣ وعبر الذهبي ٤ : ١٩١ والشذرات ٤ : ٢١٦ ، ولم يتوقف صاحب المختار عند هذه الترجمة .

ترجمة غازي ما جرى من نور الدين عقيب موت قطب الدين المذكور وأنه قصد الموصل ثم قرر أمر غازي المذكور فيها ، ورتب أحوال أولاد أخيه كلهم .

وفي تلك السفرة بنى نور الدين الجامع النوري داخل الموصل ، وهو مشهور هناك يُقام فيه الجمعة ، وكان سبب عمارته ما حكاه العماد الأصبهاني في « البرق الشامي » عند ذكره لوصول نور الدين إلى الموصل أنه كان بالموصل خربة متوسطة البلد واسعة ، وقد أشاعوا عنها ما ينفر القلوب منها ، وقالوا : ما شرع في عمارتها إلا من ذهب عمره ، ولم يتم على مراده أمره ، فأشار عليه الشيخ الزاهد معين الدين عمر الملا — وكان من كبار الصالحين — بابتياع الخربة وبنائها جامعاً ؛ وأنفق فيها أموالاً جزيلة ، ووقف على الجامع ضيعة من ضياع الموصل .

وكان قطب الدين قد تولى السلطنة بالموصل وتلك البلاد عقيب موت أخيه سيف الدين غازي الأكبر — المقدم ذكره أيضاً — وكان حسن السيرة ، عادلاً في حكمه . وفي دولته عظم شأن جمال الدين محمد الوزير الأصبهاني المعروف بالجواد — المقدم ذكره — وهو الذي قبض عليه حسبما سبق شرحه ، وكان مدبر دولته وصاحب رأيه الأمير زين الدين علي كجك والد مظفر الدين صاحب إربل ، وكان نعم المدبر والمشير لصلاحه وخيره وحسن مقاصده مع شجاعة تامة وفروسية مشهورة — وقد تقدم أيضاً ذكره في ترجمة ولده مظفر الدين في حرف الكاف .

ولم يزل قطب الدين المذكور على سلطنته ونفاذ كلمته إلى أن توفي في شوال سنة خمس وستين وخمسمائة ، وقيل في الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة .

وذكر أسامة بن منقذ في كتاب له صغير ذكر فيه من أدركه في عمره من ملوك البلاد أن قطب الدين المذكور توفي سلخ ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة ، وليس بصحيح ، فإن أخاه نور الدين كان بالموصل في شهر ربيع الآخر ، وجاءته رسل الخليفة وهو مخيم على الموصل في الشهر المذكور ، ولم يتوجه نور الدين إليها إلا بعد وفاة أخيه قطب الدين . وكانت وفاته بالموصل ، ومدة عمره أكثر من أربعين سنة بقليل ، وخلف عدة أولاد ، وأكثرهم ملك البلاد .

وقد تقدم ذكر أبيه وجده وجماعة من أهل بيته ، رحمهم الله تعالى .

٧٤٥

مؤرج السدوسي

أبو فَيْد مُؤَرِّج بن عمرو بن الحارث بن ثور بن حرملة بن علقمة بن عمرو بن سَدُوس بن شيبان بن ذُهْل بن ثعلبة بن عكابة ، السَّدُوسي النحوي البصري ؛ أخذ العربية عن الخليل بن أحمد، وروى الحديث عن شعبة بن الحجاج وأبي عمرو ابن العلاء وغيرهما ، وكان يقول : قدمت من البادية ولا معرفة لي بالقياس في العربية ، وإنما كانت معرفتي قريحة ، وأول ما تعلمت القياس في حلقة أبي زيد الأنصاري بالبصرة .

ودخل الأخفش سعيد بن مسعدة على محمد بن المهلب ، فقال له محمد : من أين جئت ؟ فقال الأخفش : من عند القاضي يحيى بن أكثم ، قال : فما جرى عنده ؟ قال : سألني عن الثقة المأمون المقدَّم من أصحاب الخليل بن أحمد من هو ؟ ومن الذي كان يوثق بعلمه ؟ فقلت : النضر بن شميل وسيبويه ومؤرج السدوسي .

وكان الغالب على مؤرج المذكور اللغة والشعر ، وله عدة تصانيف : منها كتاب « الأنواء » وهو كتاب حسن، وكتاب « غريب القرآن » وكتاب « جماهير القبائل » وكتاب « المعاني » وغير ذلك ، واختصر نسب قريش في مجلد لطيف سماه « حذف نسب قريش »[1] .

وكان قد رحل مع المأمون من العراق إلى خراسان ، وسكن مدينة مَرْو ، وقدم نيسابور وأقام بها وكتب عنه مشايخها ، وكان له شعر ، فمن ذلك ما أنشده هارون بن علي بن يحيى المنجم في كتابه المسمى بـ « البارع » ، وهو :

رُوِّعْتُ بالبين حتى ما أراع له وبالمصائب من أهلي وجيراني

---

٧٤٥ – ترجمته في نور القبس : ١٠٤ والمؤتلف والمختلف : ٥٤ وانباه الرواة ٣ : ٣٢٧ وتاريخ بغداد ١٣ : ٢٥٨ (وفي حاشية الانباه مصادر أخرى) .

١ نشر هذا الكتاب بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد (القاهرة ١٩٦٠)؛ وقوله : واختصر ... قريش : سقط من : بر من لي .

لم يترك الدهر لي علقاً أضنُّ به   إلا اصطفاه بنأيٍ أو بهجرانِ

ثم قال ابن المنجم المذكور : وهذان البيتان من أملح ما قيل في معناهما ، ومثلها في معناهما لبعض المحدثين :

وفارقت حتى ما أراع من النوى   وإن غاب جيران عليّ كرامُ
فقد جعلَتْ نفسي على اليأس تنطوي   وعيني على هجر الصديق[1] تنام

ومن هاهنا أخذ ابنُ التعاويذي – المقدم ذكره – قوله :

وما أنا لا قلبي يُراع لفائت   فيأسى ولا يلهيه حظ فيفرحُ

وهذا البيت من جملة قصيدة يذكر فيها توجعه لذهاب بصره ، فمنها قوله مشيراً إلى زوجته[2] :

وباكيةٍ لم تشكُ فقداً ولا رمى   بجيرتها الأدنَيْنَ نأيٌ مطوّحُ
رمتها يدُ الأيام في ليثِ غابها   بفادح خطبٍ والحوادثُ تفدح
رأت جللاً لا الصبرُ يجمل بالفتى   على مثله يوماً ، ولا الحزنُ يقبح
فلا غروَ أن تبكي الدماء لكاسب   لها كان يسعى في البلاد ويكدح
عزيزٌ عليها أن تراني جاثماً   وما لي في الأرض البسيطة مَسرح
وأن لا أقودَ العِيس تنفح في البرى   وجُرْدَ المذاكي في الأعنة تمرح
أظلُّ حبيساً في قرارة منزل   رهينَ أسى أمسي عليه وأصبح
مقاميَ منه مظلم الجو قاتم   ومسعايَ ضنك وهو صمحان[3] أفيح
أقاد به قود الجنيبة مُسْمِحاً   وما كنت لولا غدرة الدهر أسمح
كأنيَ مَيْتٌ لا ضريح لجنبه   وما كل ميت لا أبالك يضرح

---

١ المختار : فقد الحبيب .
٢ ديوان ابن التعاويذي : ٧٩ .
٣ لي ن بر من : ضحيان .

وهـا أنا لا قلبي يراع لفائت فيأسى ، ولا يلهيه حظ فيفرح
فلله نَصْلٌ فَلٌّ مني غراره وعود شباب عاد وهو مُصَوَّح
وسَقْياً لأيام ركبت بها الهوى جموحاً ومثلي في هوى الغيد يجمح
وماضي صبا قَضَّيت منه لُبانتي خِلاساً وعين الدهر زرقاء تلمح
ليـاليَ لي عند الغواني مكانة فألحاظهـا ترنو إليَّ وتطمـح
ولَيلى بها أضعاف ما بي من الهوى أعرّض بالشكوى لهـا فتصرح

وهي طويلة طنانة يمدح بها الإمام الناصر لدين الله خليفة بغداد .

وقال المرزباني : وجدت بخط محمد بن العباس اليزيدي ما مثاله : أهدى أبو فَيْد مؤرجٌ السدوسي إلى جدي محمد بن أبي محمد كساء ، فقال جدي فيه يمدحه :

سأشكر ما أولى ابنُ عمرو مؤرجٌ وأمنحه حسنَ الثناء معَ الودّ
أغَـرُّ سَدُوسيٌّ نمـاه إلى العلى أبٌ كان صبّاً بالمكارم والمجد
أتينـا أبا فيدٍ نؤملُ سَيْبه ونقدحُ زنداً غير كابٍ ولا صلد
فأصدرنا بالريّ والبذلِ واللهى وما زال محمودَ المصادر والورد
كساني ولم أستكسه متبرعـاً وذلك أهنى ما يكونُ من الرفد
كسانيه فضفاضاً إذا ما لبسته تروحتُ مختالاً وجرتُ عن القصد
كساء جمال إن أردت جمـالة وثوب شتاء إن خشيت من البرد
ترى حُبُكاً فيه كأن اطرادها فرند حديثٌ صَقْله سُلَّ من غمد
سأشكر ما عشت السدوسيَّ بره وأوصي بشكرٍ للسدوسيّ من بعدي

وأخبار مؤرج كثيرة .

وقال ابن النديم[1] : وجدت بخط عبد الله بن المعتز: مؤرج بن عمرو السدوسي كان من أصحاب الخليل بن أحمد ، وتوفي سنة خمس وتسعين ومائة ، في اليوم الذي توفي فيه أبو نواس ، وهذا إنما يستقيم على قول من ذهب إلى أن أبا نواس

---

١ الفهرست : ٤٨ .

توفي سنة خمس وتسعين ومائة ، وقد سبق الخلاف فيه .

ورأيت في كتاب « الأنوار » في أوله ما مثاله ، قال أبو علي إسماعيل بن يحيى بن المبارك اليزيدي : قرأنا هذا الكتاب على المؤرج بجرجان ثم قدمنا مع المأمون العراق ، سنة أربع ومائتين ، فخرج المؤرج إلى البصرة ثم مات بها رحمه الله تعالى . وهذا خلاف للأول ، والله أعلم بالصواب . وأما مؤرج فلا خلاف أنه مات في هذه السنة. وقد ذكره ابن قتيبة في كتاب «المعارف»[1] وغيره.

وفَيد : بفتح الفاء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة ، وهو في الأصل ورد الزعفران ، وقيل هو الزعفران بعينه .

ومؤرج : بضم الميم وفتح الواو المهموزة وكسر الراء المشددة وبعدها جيم ، وهو اسم فاعل من قولهم « أرجت بين القوم » إذا أغريت بينهم .

وقد تقدم الكلام على السدوسي في ترجمة قتادة في حرف القاف[2] .

وقيل : إن اسمه مَرْثَد ، ومؤرج لقب له ، ومرثد : بفتح الميم والثاء المثلثة وراء ساكنة وفي الآخر دال مهملة ، قال الجوهري في كتاب « الصحاح »[3] : يقال رثدت المتاع : نضدته ووضعت بعضه على بعض أو إلى جنب [بعض] ، ثم قال بعد ذلك : تركت بني فلان مرتثدين ما تحملوا بعد، أي ناضدين متاعهم، قال ابن السكيت : ومنه اشتق مَرْثَد ، وهو اسم رجل ، والمرثد اسمٌ من أسماء الأسد[4]. وكان مؤرج يقول: اسمي وكنيتي غريبان، اسمي مؤرج، والعرب تقول « أرجت بين القوم » و « أرشت »[5] وأنا أبو فَيْد، والفيد : ورد الزعفران[6]، ويقال : فادَ الرجل يفيد فَيْداً ، إذا مات ، والله أعلم بالصواب .

---

١ المعارف : ٥٤٣ .

٢ هنا تنتهي الترجمة في : لي بر من .

٣ الصحاح ١ : ٤٦٩ .

٤ هنا ينتهي النقل عن الصحاح .

٥ زاد في ق : إذا حرشت .

٦ ق : الورد من الزعفران .

٧٤٦
موسى الكاظم

أبو الحسن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهم ، أحد الأئمة الاثني عشر ، رضي الله عنهم أجمعين .

قال الخطيب في « تاريخ بغداد »[١] : « كان موسى يدعى العبد الصالح ، من عبادته واجتهاده . روي أنه دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسجد سجدة في أول الليل ، وسمع وهو يقول في سجوده : عظم الذنب عندي فليحسن العفو من عندك يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة ، فجعل يرددها حتى أصبح . وكان سخياً كريماً ، وكان يبلغه عن الرجل أنه يؤذيه فيبعث إليه بصرة فيها ألف دينار ، وكان يَصُرُّ الصرر ثلثمائة دينار وأربعمائة دينار ومائتي دينار ، ثم يقسمها بالمدينة . وكان يسكن المدينة فأقدمه المهدي بغداد وحبسه ، فرأى في النوم علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يقول[٢] : يا محمد ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم ﴾ (محمد : ٢٢) قال الربيع : فأرسل إليّ ليلاً ، فراعني ذلك ، فجئته فإذا هو يقرأ هذه الآية ، وكان أحسن الناس صوتاً ، وقال : عليّ بموسى بن جعفر ، فجئته به فعانقه وأجلسه إلى جنبه وقال : يا أبا الحسن ، إني رأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في النوم يقرأ عليّ كذا ، فتؤمنني أن تخرج علي أو على أحد من أولادي ، فقال : والله

---

٧٤٦ – ترجمته في « الأئمة الاثنا عشر » : ٨٧ وعلى الصفحة المقابلة ثبت بمصادر أخرى يضاف اليها صفة الصفوة ٢ : ١٠٣ وميزان الاعتدال ٤ : ٢٠١ ومنهاج السنة ٢ : ١١٥ ، ١٢٤ وعبر الذهبي ١ : ٢٨٧ وتاريخ ابن خلدون ٤ : ١١٥ وفرق الشيعة (صفحات متفرقة) .

١ تاريخ بغداد ١٣ : ٢٧ .

٢ تاريخ بغداد ١٣ : ٣٠ – ٣١ .

لا فعلت ذلك ولا هو من شأني ، قال : صدقت ، أعطه ثلاثة آلاف دينار ، ورده إلى أهله إلى المدينة ، قال الربيع : فأحكمت أمره ليلاً فما أصبح إلا وهو في الطريق خوف العوائق .

وأقام بالمدينة إلى أيام هارون الرشيد ، فقدم هارون منصرفاً من عمرة شهر رمضان سنة تسع وسبعين ومائة ، فحمل موسى معه إلى بغداد وحبسه بها إلى أن توفي في محبسه[1]. وذكر أيضاً أن هارون الرشيد حج فأتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم زائراً وحوله قريش ورؤساء القبائل ، ومعه موسى بن جعفر ، فقال : السلام عليك يا رسول الله يا ابن عم ، افتخاراً على من حوله ، فقال موسى : السلام عليك يا أبت ، فتغير وجه هارون الرشيد وقال : هذا هو الفخر يا أبا الحسن حقاً » ؛ انتهى كلام الخطيب .

وقال أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي في كتاب « مروج الذهب »[2] في أخبار هارون الرشيد : « إن عبد الله بن مالك الخزاعي كان على دار هارون الرشيد وشرطته ، فقال : أتاني رسول الرشيد وقتاً ما جاءني فيه قط ، فانتزعني من موضعي ومنعني من تغيير ثيابي ، فراعني ذلك ، فلما صرت إلى الدار سبقني الخادم فعرف الرشيد خبري ، فأذن لي في الدخول عليه فدخلت فوجدته قاعداً على فراشه فسلمت عليه فسكت ساعة ، فطار عقلي وتضاعف الجزع علي ، ثم قال : يا عبد الله أتدري لم طلبتك في هذا الوقت ؟ قلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، قال : إني رأيت الساعة في منامي كأن حبشياً قد أتاني ومعه حربة فقال : إن خليت عن موسى بن جعفر الساعة وإلا نحرتك بهذه الحربة ، فاذهب فخل عنه ، قال : فقلت : يا أمير المؤمنين، أطلق موسى بن جعفر ؟ ثلاثاً، قال: نعم امض الساعة حتى تطلق موسى بن جعفر ، وأعطه ثلاثين ألف درهم ، وقل له : إن أحببت المقام قبلنا فلك عندي ما تحب ، وإن أحببت المضي إلى المدينة فالإذن في ذلك لك ، قال : فمضيت إلى الحبس لأخرجه ، فلما رآني موسى

---

١ ورد في النسخ : لي بر من هنا ، انتهى كلام الخطيب ؛ وسقط الكلام بعده حتى بدء النقل عن المسعودي .

٢ مروج الذهب ٣ : ٣٥٦ .

وثب إلي قائماً وظن أني قد أمرت فيه بمكروه ، فقلت : لا تخف ، فقد أمرني بإطلاقك وأن أدفع لك ثلاثين ألف درهم ، وهو يقول لك إن أحببت المقام قبلنا ، فلك كل ما تحب ، وإن أحببت الانصراف إلى المدينة فالأمر في ذلك مطلق لك ، وأعطيته ثلاثين ألف درهم ، وخليت سبيله وقلت له : لقد رأيت من أمرك عجباً ، قال : فإني أخبرك ، بينما أنا نائم إذ أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا موسى ، حبست مظلوماً فقل هذه الكلمات فإنك لا تبيت هذه الليلة في الحبس ، فقلت : بأبي وأمي ما أقول ؟ قال : قل يا سامع كل صوت ، ويا سابق الفوت ، ويا كاسي العظام لحماً ومنشرها بعد الموت ، أسألك بأسمائك الحسنى وباسمك الأعظم الأكبر المخزون المكنون الذي لم يطلع عليه أحد من المخلوقين ، يا حليماً ذا أناة لا يقوى على أناته ، يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبداً ولا يحصى عدداً ، فرج عني ؛ فكان ما ترى » .

وله أخبار ونوادر كثيرة . وكانت ولادته يوم الثلاثاء قبل طلوع الفجر سنة تسع وعشرين ومائة ، وقال الخطيب : سنة ثمان وعشرين بالمدينة ؛ وتوفي لخمس بقين من رجب سنة ثلاث وثمانين ومائة ، وقيل سنة ست وثمانين ببغداد ، وقيل إنه توفي مسموماً . وقال الخطيب : توفي في الحبس ودفن في مقابر الشونيزيين خارج القبة ، وقبره هناك مشهور يزار ، وعليه مشهد عظيم فيه قناديل الذهب والفضة وأنواع الآلات والفرش ما لا يحد ، وهو في الجانب الغربي ، وقد سبق ذكر أبيه وأجداده وجماعة من أحفاده ، رضي الله عنهم وأرضاهم ، وكان الموكل به مدة حبسه السندي بن شاهك جد كشاجم الشاعر المشهور .

٧٤٧

كمال الدين ابن يونس

أبو الفتح موسى بن أبي الفضل يونس بن محمد بن منعة بن مالك بن محمد ، الملقب كمال الدين ، الفقيه الشافعي ؛ تفقه بالموصل على والده ، ثم توجه إلى بغداد سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، وأقام بالمدرسة النظامية يشتغل على المعيد بها السديد السلماسي – المقدم ذكره – وكان المدرسَ بها يومئذ الشيخ رضي الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن العباس القزويني ، فقرأ الخلاف والأصول وبحث الأدب على الكمال أبي البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري – المقدم ذكره – فتميز ومهر ، وكان قد قرأ أولاً على الشيخ أبي بكر يحيى بن سَعْدُون القرطبي – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – وهو بالموصل ثم أصعد إلى الموصل وعكف على الاشتغال ، ودرس بعد وفاة والده – في التاريخ الآتي ذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى – في موضعه بالمسجد المعروف بالأمير زين الدين صاحب إربل ، وهذا المسجد رأيته وهو على وضع المدرسة ، ويعرف الآن بالمدرسة الكمالية لأنه نسب إلى كمال الدين المذكور لطول إقامته به .

ولما اشتهر فضله انثال عَليه الفقهاء ، وتبحر في جمع الفنون ، وجمع من العلوم ما لم يجمعه أحد ، وتفرد بعلم الرياضة ، ولقد رأيته بالموصل في شهر رمضان سنة ست وعشرين وستمائة ، وترددت إليه دفعات[1] عديدة لما كان بينه وبين الوالد رحمه الله من المؤانسة والمودة الأكيدة ، ولم يتفق لي الأخذ عنه لعدم الإقامة وسرعة الحركة إلى الشام ، وكان الفقهاء يقولون : إنه يدري أربعة

---

٧٤٧ – ترجمته في طبقات السبكي ٥ : ١٥٨ والحوادث الجامعة : ١٤٩ وذيل الروضتين : ١٧٢ والفلاكة والمفلوكون : ٨٤ والبداية والنهاية ١٣ : ١٥٨ وعبر الذهبي ٥ : ١٦٢ والشذرات ٥ : ٢٠٦ .

١ ق ن : دفيعات .

وعشرين فناً دراية متقنة ، فمن ذلك المذهب وكان فيه أوحد الزمان ، وكان جماعة من الطائفة الحنفية يشتغلون عليه بمذهبهم ، ويحل لهم مسائل « الجامع الكبير »[1] أحسن حل مع ما هي عليه من الإشكال المشهور ؛ وكان يتقن فنّي الخلاف العراقي والبخاري ، وأصول الفقه وأصول الدين . ولما وصلت كتب فخر الدين الرازي إلى الموصل وكان بها إذ ذاك جماعة من الفضلاء لم يفهم أحد منهم اصطلاحه فيها سواه ، وكذلك « الإرشاد » للعميدي لما وقف عليها حلها في ليلة واحدة وأقرأها على ما قالوه .

وكان يدري فن الحكمة : المنطق والطبيعي والإلهي ، وكذلك الطب ، ويعرف فنون الرياضة من اقليدس والهيئة والمخروطات والمتوسطات[2] والمجسطي -المجسطي لفظة يونانية معناها بالعربي الترتيب، ذكر ذلك الوكري[3] في كتابه- وأنواع الحساب : المفتوح[4] منه والجبر والمقابلة والأرثماطيقي وطريق الخطأين[5] ، والموسيقى والمساحة، معرفة لا يشاركه فيها غيره إلا في ظواهر هذه العلوم دون دقائقها والوقوف على حقائقها ، وبالجملة فلقد كان كما قال الشاعر :

وكان من العلوم بحيث يقضى له في كل فن بالجميع

واستخرج في علم الأوفاق طرقاً لم يهتد إليها أحد ؛ وكان يبحث في العربية والتصريف بحثاً تاماً مستوفّى ، حتى إنه كان يقرىء كتاب سيبويه و «الإيضاح» و « التكملة » لأبي علي الفارسي ، و « المفصل » للزمخشري ، وكان له في التفسير والحديث وأسماء الرجال وما يتعلق به يدٌ جيدة ؛ وكان يحفظ من التواريخ وأيام العرب ووقائعهم ، والأشعار والمحاضرات ، شيئاً كثيراً . وكان أهل الذمة يقرءون عليه التوراة والإنجيل ، ويشرح لهما هذين الكتابين شرحاً يعترفون

---

١ الجامع الكبير من تأليف أبي الحسن عبيد الله بن الحسين الكرخي (- ٣٤٠) في الفقه الحنفي .
٢ ر : والمبسوطات .
٣ ر : الكوكري .
٤ ن : الفتوح .
٥ ق : بطريق الخطأين .

أنهم لا يجدون من يوضحها لهم مثله . وكان في كل فن من هذه الفنون كأنه لا يعرف سواه لقوته فيه . وبالجملة فإن مجموع ما كان يعلمه من الفنون لم يسمع عن أحد ممن تقدمه أنه قد جمعه .

ولقد جاءنا الشيخ أثير الدين المفضل بن عمر بن المفضل الأبهري ، صاحب التعليقة في الخلاف والزيج والتصانيف المشهورة ، من الموصل إلى إربل في سنة ست وعشرين وستمائة وقبلها في خمس وعشرين وستمائة ، ونزل بدار الحديث ، وكنت أشتغل عليه بشيء من الخلاف ، فبينما أنا يوماً عنده إذ دخل عليه بعض فقهاء بغداد ، وكان فاضلاً ، فتجاريا في الحديث زماناً ، وجرى ذكر الشيخ كمال الدين في أثناء الحديث ، فقال له الأثير : لما حج الشيخ كمال الدين ودخل بغداد كنت هناك ؟ فقال : نعم ، فقال : كيف كان إقبال الديوان العزيز عليه ؟ فقال ذلك الفقيه : ما أنصفوه على قدر استحقاقه ، فقال الأثير : ما هذا إلا عجب ، والله ما دخل إلى بغداد مثل الشيخ ، فاستعظمت منه هذا الكلام ، وقلت له : يا سيدنا كيف تقول كذا[1] ؟ فقال : يا ولدي ما دخل إلى بغداد مثل أبي حامد الغزالي ، والله ما بينه وبين الشيخ نسبة .

وكان الأثير – على جلالة قدره في العلوم – يأخذ الكتاب ويجلس بين يديه يقرأ عليه ، والناس يوم ذاك يشتغلون في تصانيف الأثير . ولقد شاهدت هذا بعيني ، وهو يقرأ عليه كتاب « المجسطي »[2] .

ولقد حكى لي بعض الفقهاء أنه سأل الشيخ كمال الدين عن الأثير ومنزلته في العلوم فقال : ما أعلم ، فقال : وكيف هذا يا مولانا . وهو في خدمتك منذ سنين عديدة ، ويشتغل عليك ؟ فقال : لأني مهما[3] قلت له تلقاه بالقبول وقال : نعم يا مولانا ، فما جاذبني في مبحث قط حتى أعلم حقيقة فضله ، ولا شك أنه كان يعتمد هذا القدر مع الشيخ تأدباً ، وكان معيداً عنده في المدرسة البدرية ، وكان يقول : ما تركت بلادي وقصدت الموصل إلا للاشتغال على الشيخ .

---

١ بر من : هذا .

٢ ر : المجريطي .

٣ بر من : كلما .

وكان شيخنا تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح – المقدم ذكره[1] – يبالغ في الثناء على فضائله وتعظيم شأنه وتوحده في العلوم ؛ فذكره يوماً وشرع في وصفه على عادته ، فقال له بعض الحاضرين : يا سيدنا ، على من اشتغل ؟ ومن كان شيخه ؟ فقال : هذا الرجل خلقه الله تعالى عالماً إماماً في فنونه ، لا يقال على من اشتغل ولا من شيخه ، فإنه أكبر من هذا .

وحكى لي بعض الفقهاء بالموصل أن ابن الصلاح المذكور سأله أن يقرأ عليه شيئاً من المنطق سرّاً ، فأجابه إلى ذلك ، وتردد إليه مدة فلم يفتح عليه فيه بشيء فقال له : يا فقيه ، المصلحة عندي أن تترك الاشتغال بهذا الفن ، فقال له: ولم ذاك يا مولانا ؟ فقال : لأن الناس يعتقدون فيك الخير ، وهم ينسبون كل من اشتغل بهذا الفن إلى فساد الاعتقاد ، فكأنك تفسد عقائدهم فيك ولا يحصل لك من هذا الفن شيء ؛ فقبل إشارته وترك قراءته[2] .

ومن يقف على هذه الترجمة فلا[3] ينسبني إلى المغالاة في حق الشيخ . ومن كان من أهل تلك البلاد وعرف ما كان عليه الشيخ ، عرف أني ما أعرته وصفاً ونعوذ بالله من الغلو والتساهل في النقل .

ولقد ذكره أبو البركات المبارك بن المستوفي – المقدم ذكره[4] – في « تاريخ إربل » فقال : هو عالم مقدم ، ضرب في كل علم ، وهو في علم الأوائل : كالهندسة والمنطق وغيرهما ممن يشار إليه ، حل اقليدس[5] والمجسطي على الشيخ شرف الدين المظفر بن محمد بن المظفر الطوسي الفارابي ، يعني صاحب الاصطرلاب الخطي المعروف بالعصا .

ثم قال ابن المستوفي : وردت عليه مسائل من بغداد في مشكلات هذا العلم ، فحلها واستصغرها ، ونبه على براهينها ، بعد أن احتقرها ، وهو في الفقه والعلوم

---

١ انظر ج ٣ : ٢٤٣ .

٢ وكان شيخنا ... قراءته : سقط من بعض النسخ ومن المطبوعة المصرية .

٣ ر لي : قد .

٤ ج ٤ : ١٤٧ .

٥ لي : أوقليدس .

الإسلامية نَسيجُ وحْدِهِ ، ودرس في عدة مدارس بالموصل ، وتخرج عليه خلق كثير في كل فن .

ثم قال : أنشدنا لنفسه ، وأنفذها إلى صاحب الموصل يشفع عنده :

لئن شَرُفَت أرضٌ بمالك رقها ... فمملكة الدنيا بكم تتشرف[1]

بقيتَ بقاء الدهر أمرُكَ نافذ ... وسعيك مشكور وحكمك منصف

ومكنت في حفظ البسيطة مثل ما ... تمكن في أمصار فرعون يوسف

قلت أنا : ولقد أنشدني هذه الأبيات عنه أحد أصحابنا بمدينة حلب ، وكنت بدمشق سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، وبها رجل فاضل في علوم الرياضة ، فأشكل عليه مواضع في مسائل الحساب والجبر والمقابلة والمساحة واقليدس ، فكتب جميعها في دَرْج وسيرها إلى الموصل ، ثم بعد أشهر عاد جوابه ، وقد كشف عن خفيها وأوضح غامضها وذكر ما يعجز الإنسان عن وصفه ، ثم كتب في آخر الجواب : فليمهد العذر في التقصير في الأجوبة ، فإن القريحة جامدة ، والفطنة خامدة ، قد استولى عليها كثرة النسيان ، وشغلتها حوادث الزمان ، وكثير مما استخرجناه وعرفناه نسيناه ، بحيث صرنا كأنا ما عرفناه ؛ وقال لي صاحب المسائل المذكورة : ما سمعت مثل هذا الكلام إلا للأوائل المتقنين[2] لهذه العلوم ، ما هذا من كلام أبناء هذا الزمان .

وحكى لي الشيخ الفقيه الرياضي علم الدين قيصر بن أبي القاسم عبد الغني بن مسافر الحنفي المصري المعروف بتعاسيف ، وكان إماماً في علوم الرياضة ، قال[3] : لما أتقنت علوم الرياضة بالديار المصرية ودمشق ، تاقت نفسي إلى الاجتماع بالشيخ كمال الدين لما كنت أسمعه من تفرده بهذه العلوم ، فسافرت إلى الموصل قصد الاجتماع به ، فلما حضرت في خدمته وجدته على حلية الحكماء المتقدمين ، وكنت

---

١ علق على هامش ن بخط مختلف : « ولقد كتبت هذه الأبيات في مكتوب إلى أمير الأمراء بالقاهرة حضرة سنان باشا وأصاب فخرها (؟)وذلك في سنة ست وسبعين وتسعمائة » .

٢ ق : المتقدمين المتقنين .

٣ بعض هذا النص ورد في الطالع السعيد نقلا عن المؤلف .

قد طالعت أخبارهم ، فسلمت عليه وعرفته قصدي له للقراءة عليه ، فقال لي : في أي العلوم تريد تشرع ؟ فقلت : في الموسيقى ، فقال : مصلحة هو ، فلي زمان ما قرأه أحد عليّ ، فأنا أوثر مذاكرته ، وتجديد العهد به ، فشرعت فيه ثم في غيره حتى شققت عليه أكثر من أربعين كتاباً في مقدار ستة أشهر ، وكنت عارفاً بهذا الفن ، لكن كان غرضي الانتساب في القراءة إليه ، وكان إذا لم أعرف المسألة أوضحها لي ، وما كنت أجد من يقوم مقامه في ذلك[1] .

وقد أطلت الشرح في نشر علومه ، ولعمري لقد اختصرت .

ولما توفي أخوه الشيخ عماد الدين محمد – المقدم ذكره – تولى الشيخ المدرسة العلائية موضع أخيه ، ولما فتحت المدرسة القاهرية تولاها . ثم تولى المدرسة البدرية في ذي الحجة سنة عشرين وستمائة . وكان مواظباً على إلقاء الدروس والإفادة . وحضر في بعض الأيام دروسه جماعة من المدرسين أرباب الطيالس ، وكان العماد أبو علي عمر بن عبد النور بن ماجوج[2] بن يوسف الصنهاجي اللّزْني النحوي البجائي حاضراً ، فأنشد على البديهة قوله :

كمال كمال الدين للعلم والعلى ... فهيهات ساعٍ في مساعيك يطمعُ
إذا اجتمع النظّار في كل موطن ... فغاية كلٍّ أن تقول ويسمعوا
فلا تحسبوهم من عَناء[3] تطيلسوا ... ولكن حياء واعترافاً تقنعوا

وللعماد المذكور فيه أيضاً :

تجر الموصلُ الأذيالَ فخراً ... على كل المنازل والرسومِ
بدجلة والكمال ، هما شفاء ... لِهيمٍ أو لذي فهم سقيم
فذا بحرٌ تدفق وهو عذب ... وذا بحر ولكن من علوم

وكان الشيخ – سامحه الله تعالى – يتهم في دينه لكون العلوم العقلية غالبة

---

[1] وحكى لي الشيخ ... في ذلك : سقط هذا النص من : لي بر من والمطبوعة المصرية .
[2] ر : ماخوخ ، وكذلك أثبته دي سلان ، وسقط من بقية النسخ .
[3] بر من لي : عناد .

عليه ، وكانت تعتريه غفلة في بعض الأحيان لاستيلاء الفكرة عليه بسبب هذه العلوم ، فعمل فيه العماد المذكور :

أجدّكَ أن قد جاد بعد التعبس غزال بوصلٍ لي وأصبح مؤنسي
وعاطيتهُ صَهباء مِن فيه مَزْجها كرقة شعري أو كدين ابن يونس

وقد خرجنا عن المقصود إلى ما لا حاجة بنا إليه .

وكانت ولادته يوم الخميس ، خامس صفر سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، بالموصل . وتوفي بها رابع عشر شعبان سنة تسع وثلاثين وستمائة ، ودفن في تربتهم المعروفة بهم عند تربة عنّاز[1] ، خارج باب العراق .

وقد سبق ذكر ولده شرف الدين أحمد في حرف الهمزة ، وأخيه عماد الدين في حرف الميم ، وسيأتي ذكر والده في حرف الياء إن شاء الله تعالى ، رحمهم الله أجمعين .

ولما كنت أتردد إلى خدمته بالموصل أوقع الله في نفسي أنه إن رزقت ولداً ذكراً سميته باسمه ، ثم سافرت في بقية السنة المذكورة إلى الشام وأقمت به عشر سنين ، ثم سافرت إلى الديار المصريـة في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة وتقلبت الأحوال ثم حصل التأهل ، فرزقني الله ولدي الأكبر في بكرة يوم السبت حادي عشر صفر سنة إحدى وخمسين وستمائـة بالقاهرة المحروسة فسميته موسى[2] ، وعجبت من موافقته للشيخ في الولادة ، في الشهر والسنة ، فكان بين مولدهما سنة . وذكرت ذلك للشيخ الحافظ زكي الدين عبد العظيم المحدث فعجب من هذا الاتفاق ، وجعل يكرر التعجب ويقول : والله ان هذا لشيء غريب[3] .

(274) وتوفي الشيخ رضي الدين القزويني[4] مدرس المدرسة النظامية ، المذكور

---

١ ر : عنان .

٢ قلت : هو الذي انتقى من كتاب أبيه ما أسماه « المختار من وفيات الأعيان » وزوده بتعليقات قيمة (انظر مقدمة الجزء الرابع) .

٣ ولما كنت .... غريب : سقط من : لي بر من والمطبوعة المصرية .

٤ ترجمة رضي الدين في الشذرات ٤ : ٣٠٠ ومرآة الزمان : ٤٤٣ .

في أول هذه الترجمة ، في الثالث والعشرين من المحرم سنة تسعين وخمسائة . وكانت ولادته في شهر رمضان سنة اثنتي عشرة وخمسائة بقزوين ، وموته بها أيضاً .

ولولا خوف الإطالة لذكرت من مناقب الشيخ كمال الدين ما يستغرق الوصف. وقد تقدم الكلام على الصنهاجي .

وأما اللَّزْني : فهو بفتح اللام وسكون الزاي وبعدها نون ، هذه النسبة إلى لَزْنَة ، وهي قبيلة من البربر تسكن بالقرب من بَجايَة من عمل إفريقية .

(275) وتوفي علم الدين تعاسيف[1] المذكور يوم الأحد ثالث عشر رجب من سنة تسع وأربعين وستمائة بدمشق ، ودفن خارج باب شرقي ، ثم نقل إلى باب الصغير . ومولده في سنة أربع وسبعين وخمسائة بأصفون[2] ، من شرقي صعيد مصر ، رحمه الله تعالى .

٧٤٨

موسى بن نصير

أبو عبد الرحمن موسى بن نُصَير ، اللَّخْمي بالولاء ، صاحب فتح الأندلس ؛ كان من التابعين ، رضي الله عنهم ، وروى عن تميم الداري ، رضي الله عنه ،

---

١ ترجمة قيصر بن عبد الغني المعروف بتعاسيف في الطالع السعيد : ٤٦٩ (الطبعة الثانية) ، وكان فقيهاً حنفي المذهب ، اشتغل بالرياضيات بالديار المصرية والشامية ، ثم أقام بحماة ، وتولى تدريس المدرسة النورية ؛ وقد كان هو الذي أجاب عن أسئلة الانبرور صاحب صقلية ؛ وانظر أيضا مختصر أبي الفدا ٣ : ١٨٦ وتاريخ ابن الوردي : ٢ : ١٨٨ والسلوك ١ : ٣٨٢ وحسن المحاضرة ١ : ٢٥٦ .

٢ عند الأدفوي : أسفون ، بالسين لا بالصاد .

٧٤٨ – أخباره في كتب التاريخ العامة كالطبري وابن الأثير والامامة والسياسة وابن خلدون..الخ وانظر جذوة المقتبس : ٣١٧ وتاريخ ابن الفرضي ٢ : ١٤٤ وأخبار مجموعة : ٣ وبغية الملتمس : ٤٤٢ والبيان المغرب ١ : ٤٦ وتاريخ ابن عبد الحكم : ٢٠٣ والحلة السيراء ٢ : ٣٣٢ ونفح الطيب (ج : ١) وتاريخ دمشق لابن عساكر .

وكان عاقلاً كريماً شجاعاً ورعاً تقياً لله تعالى ، لم يهزم له جيش قط .

(276) وكان والده نُصَير على حَرَس معاوية بن أبي سفيان ، ومنزلته عنده مكينة . ولما خرج معاوية لقتال علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، لم يخرج معه ، فقال له معاوية : ما منعك من الخروج معي ولي عندك يد لم تكافئني عليها ؟ فقال : لم يمكني أن أشكرك بكفر مَنْ هو أولى بشكري ، فقال: ومن هو ؟ قال : الله عز وجل، فقال : وكيف لا أم لك ؟ قال : وكيف لا أعلمك هذا ، فأعض وأمص"[1] ، قال : فأطرق معاوية ملياً ، ثم قال: أستغفر الله ، ورضي عنه .

وكان عبد الله بن مروان أخو عبد الملك بن مروان والياً على مصر وإفريقية ، فبعث إليه ابن أخيه الوليد بن عبد الملك أيام خلافته يقول له : أرسل موسى بن نصير إلى إفريقية ، وذلك في سنة تسع وثمانين للهجرة .

وقال الحافظ أبو عبد الله الحميدي في كتاب « جذوة المقتبس » : إن موسى ابن نصير تولى إفريقية والمغرب سنة سبع وسبعين ، فأرسله إليها ، فلما قدمها ومعه جماعة من الجند ، بلغه أن بأطراف البلاد جماعة خارجين عن الطاعة ، فوجه ولده عبد الله ، فأتاه بمائة ألف رأس من السبايا ، ثم وجه ولده مروان إلى جهة أخرى فأتاه بمائة ألف رأس .

قال الليث بن سعد : فبلغ الخمس ستين ألف رأس ، وقال أبو شبيب[2] الصدفي: لم يسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير . ووجد أكثر مدن إفريقية خالية لاختلاف أيدي البربر عليها ، وكانت البلاد[3] في قحط شديد ، فأمر الناس بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البين ، وخرج بهم إلى الصحراء ، ومعه سائر الحيوانات ، وفرق بينها وبين أولادها ، فوقع البكاء والصراخ والضجيج ، وأقام على ذلك إلى منتصف النهار ، ثم صلى وخطب بالناس ، ولم يذكر الوليد بن عبد الملك ، فقيل له : ألا تدعو لأمير المؤمنين ؟ فقال : هذا مقام لا يدعى فيه لغير

---

١ في أكثر النسخ : فأغض وأمض .

٢ ن : شيث .

٣ لي : وكان الناس .

الله عز وجل ، فسُقوا حتى رَوُوا .

ثم خرج موسى غازياً ، وتتبع البربر وقتل فيهم قتلاً ذريعاً ، وسبى سبياً عظيماً ، وسار حتى انتهى إلى السوس الأدنى لا يدافعه أحد . فلما رأى بقية البربر ما نزل بهم استأمنوا وبذلوا له الطاعة فقبل منهم ، وولى عليهم والياً ، واستعمل على طنجَة وأعمالها مولاه طارق بن زياد البربري ، ويقال إنه من الصَّدِف ، وترك عنده تسعة عشر ألف فارس من البربر بالأسلحة والعدد الكاملة ، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وترك موسى عندهم خلقاً يسيراً من العرب لتعليم البربر القرآن وفرائض الإسلام ، ورجع إلى إفريقية ، ولم يبق بالبلاد من ينازعه من البربر ولا من الروم .

فلما استقرت له القواعد كتب إلى طارق وهو بطَنْجة يأمره بغزو بلاد الأندلس في جيش من البربر ليس فيه من العرب إلا قدر يسير ، فامتثل طارق أمره ، وركب البحر[1] من سبتة إلى الجزيرة الخضراء من بر الأندلس ، وصعد إلى جبل يعرف اليوم بجبل طارق لأنه نسب إليه لما حصل عليه ، وكان صعوده إليه يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنتين وتسعين للهجرة في اثني عشر ألف فارس من البربر خلا اثني عشر رجلا .

وذكر عن طارق أنه كان نائماً في المركب وقت التعدية ، وأنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الأربعة رضي الله عنهم يمشون على الماء ، حتى مروا به فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفتح ، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد ، ذكر ذلك ابن بشكوال – المقدم ذكره في حرف الخاء – في « تاريخ الأندلس » .

وكان صاحب طليطلة ومعظم بلاد الأندلس ملك يقال له لذريق[2] . ولما احتل[3] طارق بالجبل المذكور كتب إلى موسى بن نصير : إني فعلت ما أمرتني به ، وسهل الله سبحانه وتعالى بالدخول . فلما وصل كتابه إلى موسى ندم على تأخره ،

---

١ زاد في ر : في من معه .

٢ ق : الذريق ؛ صف : أزريق ؛ لي : لذريس .

٣ لي بر من : صار ، ق ص : أحفل .

وعلم أنه إن فتح نسب الفتح إليه دونه ، فأخذ في جَمْع العساكر ، وولى على القيروان ولده عبد الله ، وتبعه فلم يدركه إلا بعد الفتح . وكان لذريق المذكور قد قصد عدوّاً له ، واستخلف في المملكة شخصاً يقال له تُدْمير ، وإلى هذا الشخص تنسب بلاد تُدمير بالأندلس – وهي مرسية وما والاها ، وهي خمسة مواضع تسمى بهذا الاسم ، واستولى الفرنج على مرسية سنة اثنتين وخمسين وستمائة[1] – فلما نزل طارق من الجبل بالجيش الذي معه كتب تدمير إلى لذريق الملك إنه قد وقع بأرضنا قوم لا ندري من السماء هم أم من الأرض ، فلما بلغ ذلك لذريق رجع عن مقصده في سبعين ألف فارس ، ومعه العَجَلُ يحمل الأموال والمتاع ، وهو على سريره بين دابتين عليه قبة مكللة بالدر والياقوت والزبرجد .

فلما بلغ طارقاً دنوه قام في أصحابه فحمد الله سبحانه وتعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حث المسلمين على الجهاد ورغبهم في الشهادة ، ثم قال : أيها الناس ، أين المفر والبحر من ورائكم والعدو أمامكم ؟ فليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيعُ من الأيتام في مآدب اللئام ، وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم ، ولا أقوات[2] لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم ، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب برعبها منكم الجراءة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية[3] ، فقد ألقت به إليكم مدينته المحصنة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن لكم إن سمحتم بأنفسكم للموت . وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة[4] ، ولا حملتكم على خطة أرخصُ متاع فيها النفوس أبدأ فيها بنفسي ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً ، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً ، فلا ترغبوا

---

١ وهي مرسية .... وستمائة : سقط من : لي بر من .

٢ ق ن ص : أثواب .

٣ ر ن ق لي : هذه الطاغية .

٤ ق : بنجاة ؛ ن : بمنجاة .

بأنفسكم عن نفسي ، فيما حظكم فيه أوفر من حظي ، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عربانا[1] ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه معكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، ويكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المسلمين سواكم ، والله تعالى وليّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين. واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية قومه لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معي ، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم[2] أمره ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا المهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخذلون .

فلما فرغ طارق من تحريض أصحابه على الصبر في قتال[3] لذريق وأصحابه وما وعدهم من النيل الجزيل ، انبسطت نفوسهم وتحققت آمالهم وهبت ريح النصر عليهم وقالوا : قد قطعنا الآمال مما يخالف ما عزمت عليه ، فاحضر إليه فأنا معك وبين يديك . فركب طارق وركبوا وقصدوا مُناخ لذريق ، وكان قد نزل بمتسع من الأرض ، فلما تراءى الجمعان نزل طارق وأصحابه ، فباتوا ليلتهم في حرس إلى الصبح .

فلما أصبح الفريقان تلبّبوا[4] وعَبّوا كتائبهم[5] وحُمل لذريق على سريره ، وقد رفع على رأسه رواق ديباج يظله ، وهو مقبل[6] في غاية من[7] البنود والأعلام

---

١ ق ص بر من : عزبانا ؛ لي : غزيانا .
٢ ق : كفيتم .
٣ ص : على قتال ؛ بر من : من قتال .
٤ لي : تلبسوا ؛ النفح : تكتبوا .
٥ ن : كنائنهم ؛ بر : مواكبهم .
٦ ص : متحمل .　　　٧ ق : على غاية من ؛ من : سقطت من لي .

وبين يديه المقاتلة والسلاح ، وأقبل طارق وأصحابه عليهم الزرد ، ومن فوق رؤوسهم العمائم البيض وبأيديهم القسي العربية ، وقد تقلدوا السيوف واعتقلوا الرماح ، فلما نظر إليهم لذريق قال : أما والله إن هذه الصور التي رأينا ببيت الحكمة ببلدنا ، فداخله منهم رُعب .

ونتكلم هاهنا على بيت الحكمة ما هو ، ثم نتكلم على حديث[1] هذه الواقعة :

وأصل خبر بيت الحكمة أن اليونان – وهم الطائفة المشهورة بالحكمة – كانوا يسكنون ببلاد المشرق قبل عهد الإسكندر ، فلما ظهرت الفرس واستولت على البلاد ، وزاحمت اليونان على ما كان بأيديهم من الممالك ، انتقل اليونان إلى جزيرة الأندلس ، لكونها طرفاً في آخر العمارة ، ولم يكن لها ذكر يوم ذاك ، ولا ملكها أحد من الملوك المعتبرة ، ولا كانت عامرة ، وكان أول من عمر فيها واختطها أندلس بن يافث بن نوح عليه السلام ، فسميت باسمه ، ولما عمرت الأرض بعد الطوفان كان صورة المعمور منها عندهم على شكل طائر رأسه المشرق والجنوب والشمال جناحاه ، وما بينهما بطنه ، والمغرب ذنبه ، فكانوا يزدرون المغرب لنسبته إلى أخس أجزاء الطائر .

قلت[2] : وجرى في مجلس الحافظ أبي طاهر السلفي نادرة تصلح أن نذكرها هاهنا وهي أن أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله المعروف بابن الجمش البلبيسي كان في مجلسه ، وعبد العزيز الشريشي يقرأ حديث عمرو بن العاص : خلقت الدنيا على صورة طير ... الحديث المذكور ؛ فقال الشريشي لأبي إسحاق يمازحه : اسمع يا أبا إسحاق ، وشرُّ ما في الطير ذنبه ، فقال أبو إسحاق : هيهات ما عرفت أنت ما كان ذلك الطائر المشبه ؟ كان طاووساً ، وما فيه أحسن من ذنبه .

وكانت اليونان لا ترى فناء الأمم بالحروب لما ترى فيه من الإضرار والاشتغال

---

١ ر بر من : ثم نكمل حديث .

٢ هذه القصة لم ترد في النسخ : لي بر من والمطبوعة المصرية ودي سلان .

عن العلوم التي كان أمرها عندهم من أهم الأمور ، فلذلك انحازوا من بين يدي الفرس إلى الأندلس . فلما صاروا إليها أقبلوا على عمارتها ، فشقّوا الأنهار وبنوا المعاقل ، وغَرَسوا[1] الجنات والكروم ، وشيدوا الأمصار ، وملؤوها حرثاً ونسلاً وبنياناً ، فعظمت وطابت حتى قال قائلهم لما رأى بهجتها : إن الطائر الذي صورت العمارة على شكله ، وكان المغرب ذنبه ، كان طاوساً معظم جماله في ذَنَبه . فاغتبطوا بها أتم اغتباط واتخذوا دار الملك والحكمة بها مدينة[2] طُلَيطُلَة لأنها وسط البلاد ، وكان أهم الأمور عندهم تحصينها عمن يتصل به خبرها من الأمم ، فنظروا فإذا ليس ثَمّ من يَحْسُدهم على أرغد العيش إلا أرباب الشَّظَف والشقاء ، وهم يوم ذاك طائفتان : العرب والبربر[3] ، فخافوهم على جزيرتهم المعمورة ، فعزموا أن يتخذوا لدفع هذين الجنسين من الناس طِلَّسْماً ، فرصدوا لذلك أرصاداً .

ولما كان البربر بالقرب منهم ، وليس بينهم سوى تعدية البحر ، ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع خارجة عن الأوضاع ، ازدادوا منهم نفوراً ، وكثر تحذيرهم من مخالطتهم في نسب أو مجاورة ، حتى انبثّ ذلك في طبائعهم ، وصار بغضهم مركباً في غرائزهم ، فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس لهم وبغضهم ، أبغضوهم وحسدوهم ، فلا تجد أندلسياً إلا مبغضاً بربرياً ولا بربرياً إلا مبغضاً أندلسياً ، إلا أن البربر أحوج إلى أهل الأندلس من أهل الأندلس إلى البربر ، لكثرة وجود الأشياء بالأندلس وعدمها ببلاد البربر .

وكان بنواحي غرب جزيرة الأندلس ملك يوناني بجزيرة يقال لها قادس ، وكانت له ابنة في غاية الجمال ، فتسامع بها ملوك الأندلس ، وكانت جزيرة الأندلس كثيرة الملوك ، لكل بلدة أو بلدتين ملك تناصفاً منهم في ذلك ، فخطبها كل واحد منهم[4] ، وكان أبوها يخشى من تزويجها لواحد منهم وإسخاط[5]

---

[1] ق : وعرشوا .
[2] مدينة : سقطت من ص ن ق .
[3] ق : البربر والعرب .
[4] وقع هنا خرم في النسخة (لي) ضاعت به عدة أوراق ؛ وفي ص ر بر من : كل منهم .
[5] ص : أن يسخط ؛ ن ق : اسخاطاً .

الباقين ، فتحير في أمره ، وأحضر ابنته المذكورة ، وكانت الحكمة مركبة في طباع القوم ذكورهم وإناثهم[1] — ولذلك قيل إن الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل الأرض : على أدمغة اليونان وأيدي أهل الصين وألسنة العرب — فلما حضرت بين يديه قال لها : يا بنية ، إني قد أصبحت في حيرة من أمري ، قالت : وما حيَّرك ؟ قال : قد خطبك جميع ملوك الأندلس ، ومتى أرضيت واحداً أسخطت الباقين ، فقالت : اجعل الأمر إلي تخلص من اللوم ، قال : وما تصنعين ؟ قالت : أقترح لنفسي أمراً مَنْ فعله كنت زوجته ، ومن عجز عنه لم يحسن به السخط قال : وما الذي تقترحين ؟ قالت : أقترح أن يكون ملكاً حكيماً ، قال : نعم ما اخترتيه[2] لنفسك ، وكتب في أجوبة الملوك الخُطاب : إني جعلت الأمر إليها فاختارت من الأزواج الملك الحكيم . فلما وقفوا على الأجوبة سكت عنها كل من لم يكن حكيماً .

وكان في الملوك رجلان حكيمان ، فكتب كل واحد منهما إليه : أنا الرجل الحكيم . فلما وقف على كتابيهما قال : يا بنية بقي الأمر على إشكاله ، وهذان ملكان حكيمان ، أيهما أرضَيْته أسخطت الآخر ، قالت : سأقترح على كل واحد منهما أمراً يأتي به ، فأيهما سبق إلى الفراغ مما التمسته تزوجت به ، قال : وما الذي تقترحين عليهما ؟ قالت : إننا ساكنون بهذه الجزيرة ، ونحن محتاجون إلى رحى تدور بها ، وإني مقترحة على أحدهما إدارتها بالماء العذب الجاري إليها من ذلك البر ، ومقترحة على الآخر أن يتخذ طِلسماً يحصن[3] به جزيرة الأندلس من البربر ، فاستظرف أبوها اقتراحها ، وكتب إلى الملكين بما قالته ابنته ، فأجابا إلى ذلك ، وتقاسماه على ما اختارا ، وشرع كل واحد في عمل ما ندب[4] إليه من ذلك .

فأما صاحب الرحى فإنه عمد إلى خَرز عظام اتخذها من الحجارة ، ونضد

---

١ ن ق : ذكرهم وأنثاهم .

٢ ر : اقترحتيه .

٣ ر : نحصن ؛ ق ؛ لتحصين .

٤ ندب : سقطت من : ق ص ن ؛ النفح : أسند .

بعضها في بعض في البحر المالح الذي بين جزيرة الأندلس والبر الكبير في الموضع المعروف بزُقاق سَبْتة ، وسدّ الفروج التي بين الحجارة بما اقتضته حكمته ، وأوصل تلك الحجارة من البر إلى الجزيرة ، وآثارها باقية إلى اليوم في الزقاق الذي بين سَبتة والجزيرة الخضراء ، وأكثر أهل الأندلس يزعمون أن هذا أثر قنطرة كان الإسكندر قد عملها ليعبر عليها الناس من سَبتة إلى الجزيرة ، والله أعلم أي القولين أصح . فلما تم تنضيد الحجارة للملك الحكيم ، جلب إليها الماء العذب من موضع عالٍ في الجبل بالبر الكبير ، وسلطه في ساقية محكمة البناء ، وبنى بجزيرة الأندلس رحى على هذه الساقية .

وأما صاحب الطلسم فإنه أبطأ عمله بسبب انتظار الرصد الموافق لعمله ، غير أنه أعمل أمره وأحكه ، وابتنى بنياناً مربعاً من حجر أبيض على ساحل البحر في رمل حفر أساسه إلى أن جعله تحت الأرض بمقدار ارتفاعه فوق الأرض ليثبت ، فلما انتهى البناء المربع إلى حيث اختار صوّر من النحاس الأحمر والحديد المصفى المخلوطين بأحكم الخلط صورة رجل بربري له لحية ، وفي رأسه ذؤابة من شعر جعد قائم في رأسه لجعودتها، متأبط بصورة كساء قد جمع طرفيه على يده اليسرى ، بألطف[1] تصوير وأحكه ، في رجليه نعل ، وهو قائم في رأس البناء على مستدق[2] بمقدار رجليه فقط ، وهو شاهق في الهواء طوله نيف عن ستين ذراعاً أو سبعين ، وهو محدد الأعلى إلى أن ينتهي إلى ما سمته قدر الذراع ، وقد مد يده اليمنى بمفتاح قفل قابضاً عليه مشيراً إلى البحر كأنه يقول : لا عبورَ . وكان من تأثير هذا الطلسم في البحر الذي تجاهه أنه لم ير قط ساكناً ولا كانت تجري فيه قط سفينة بربري[3] حتى سقط المفتاح من يده .

وكان الملكان العاملان للرحى والطلسم يتسابقان إلى التمام من عملهما إذ كان بالسبق يستحق التزويج ، وكان صاحب الرحى قد فرغ لكنه يخفي أمره عن صاحب الطلسم حتى لا يعلم به فيبطل عمل الطلسم ، وكان يود عمل الطلسم حتى

---

[1] ن ق بر من : بأرطب .

[2] ص : مسترق ؛ ر : مستند .

[3] ق ص : ببربري .

يحظى بالمرأة والرحى والطلسم ، فلما علم اليوم الذي يفرغ صاحب الطلسم في آخره أجرى الماء بالجزيرة من أوله وأدار الرحى ، واشتهر ذلك واتصل الخبر بصاحب الطلسم وهو في أعلاه يصقل وجهه ، وكان الطلسم مذهباً ، فلما تحقق أنه مسبوق ضعفت نفسه فسقط من أعلى البناء ميتاً ، وحصل صاحب الرحى على الرحى والمرأة والطلسم .

وكان مَنْ تقدم مِنْ ملوك اليونان يخشى على جزيرة الأندلس من البربر للسبب الذي قدمنا ذكره ، فاتفقوا وعملوا الطلسمات[1] في أوقات اختاروا أرصادها ، وأودعوا تلك الطلسمات تابوتاً من الرخام وتركوه في بيت بمدينة طليطلة ، وركبوا على ذلك البيت باباً وأقفلوه ، وتقدموا إلى كل مَنْ ملك منهم بعد صاحبه أن يلقي على ذلك الباب قُفْلاً ، تأكيداً لحفظ ذلك البيت ، فاستمر أمرهم على ذلك .

ولما كان[2] وقت انقراض دولة اليونان ودخول العرب والبربر إلى جزيرة الأندلس ، وذلك بعد مضي ستة وعشرين ملكاً من ملوك اليونان من يوم عملهم الطلسمات بمدينة طليطلة ، وكان الملك لذريق المذكور السابع والعشرين من ملوكهم ، فلما جلس في ملكه قال لوزرائه وأهل الرأي من دولته : قد وقع في نفسي من أمر هذا البيت الذي عليه ستة وعشرون قفلاً شيء ، وأريد أن أفتحه لأنظر ما فيه ، فإنه لم يعمل عبثاً ، فقالوا : أيها الملك ، صدقت لم يعمل عبثاً ولا أقفل سدى ، بل المصلحة أن تلقي عليه قفلاً كما فعل مَنْ تقدمك من الملوك ، وكانوا آباءك وأجدادك ولم يهملوا هذا فلا تهمله وسر سيرهم ، فقال : إن نفسي تنازعني إلى فتحه ، ولا بد لي منه ، فقالوا : إن كنت تظن فيه مالاً فقدره ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره ، ولا تحدث علينا بفتحه حدثاً لا نعرف عاقبته ، فأصر على ذلك ، وكان رجلاً مهيباً فلم يقدروا على مراجعته ، وأمر بفتح الأقفال ، وكان على كل قفل مفتاحه معلقاً ، فلما فتح الباب لم ير في البيت شيئاً إلا مائدة عظيمة من ذهب وفضة مكللة بالجواهر ، وعليها مكتوب[3] :

---

١ ن ص ق بر من : طلسمات .

٢ ر : حان .   ٣ ن ق : مكتوب عليها .

هذه مائدة سليمان بن داود عليهما السلام ، ورأى في البيت ذلك التابوت ، وعليه قفل ومفتاحه معلق ، ففتحه فلم يجد فيه سوى رَق ، وفي جوانب التابوت صور فرسان مصورة بأصباغ محكمة التصوير على أشكال العرب ، وعليهم الفراء وهم معممون على ذوائب جعد ، ومن تحتهم الخيل العربية ، وبأيديهم القسي العربية وهم متقلدون بالسيوف[1] المحلاة ، معتقلون بالرماح[2] ، فأمر بنشر ذلك الرّق ، فإذا فيه : متى فتح هذا البيت وهذا التابوت المقفلان بالحكمة دخل القوم الذين صورهم في التابوت إلى جزيرة الأندلس ، وذهب مُلك اليونان من أيديهم ، ودَرَسَت حكمتهم ، فهذا هو بيت الحكمة المقدم ذكره ؛ فلما سمع لذريق ما في الرق ندم على ما فعل ، وتحقق انقراض دولتهم ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى سمع أن جيشاً وصل من المشرق جهزه ملك العرب يستفتح بلاد الأندلس ؛ انتهى الكلام على بيت الحكمة .

ونعود الآن إلى تتمة حديث لذريق وجيش طارق بن زياد :

فلما رأى طارق لذريق قال لأصحابه : هذا طاغية القوم ، فحمل وحمل أصحابه معه ، فتفرقت المقاتلة من بين يدي لذريق ، فخلص إليه طارق ، وضربه بالسيف على رأسه فقتله على سريره ، فلما رأى أصحابه مصرع ملكهم اقتحم الجيشان ، وكان النصر للمسلمين ، ولم تقف هزيمة اليونان على موضع ، بل كانوا يسلمون بلداً بلداً ومعقلاً معقلاً .

فلما سمع بذلك موسى بن نصير المذكور أولاً عبر الجزيرة بمن معه ، ولحق بمولاه طارق ، فقال له : يا طارق ، إنه لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يبيحك جزيرة الأندلس ، فاستبحه هنيئاً مريئاً ، فقال طارق : أيها الأمير ، والله لا أرجع عن قصدي هذا ما لم أنته إلى البحر المحيط وأخوض فيه بفرسي ، يعني البحر الشماليّ الذي تحت بنات نعش ، فلم يزل طارق

---

١ ن ص : متقلدو السيوف ؛ بر من : متقلدون السيوف .

٢ ر ص ن : معتقلو الرماح ؛ بر من : معتقلون الرماح .

يفتح وموسى معه إلى أن بلغ جلّيقية ، وهي على ساحل البحر المحيط ، ثم رجع .

قال الحميدي في « جذوة المقتبس » : إن موسى بن نصير نقم على طارق إذ غزا بغير إذنه ، وسجنه وهمّ بقتله ، ثم ورد عليه كتاب الوليد بإطلاقه فأطلقه، وخرج معه إلى الشام . وكان خروج موسى من الأندلس وافداً على الوليد يخبره بما فتح الله سبحانه وتعالى على يديه وما معه من الأموال في سنة أربع وتسعين للهجرة ، وكان معه مائدة سليمان بن داود عليهما السلام التي وجدت في طليطلة على ما حكاه بعض المؤرخين ، فقال : كانت مصنوعة من الذهب والفضة ، وكان عليها طوق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد ، وكانت عظيمة بحيث إنها حملت على بغل قوي فما سار قليلاً حتى تفسخت قوائمه ، وكان معه تيجان الملوك الذين تقدموا من اليونان ، وكلها مكللة بالجواهر ، واستصحب ثلاثين ألف رأس من الرقيق .

ويقال إن الوليد كان قد نقم عليه أمراً ، فلما وصل إليه وهو بدمشق أقامه في الشمس يوماً كاملاً في يوم صائف حتى خر مغشياً عليه .

وقد أطلنا هذه الترجمة كثيراً لكن الكلام انتشر فلم يمكن قطعه ، مع أني تركت الأكثر وأتيت بالمقصود .

وقال الليث بن سعد : ان موسى بن نصير حين فتح الأندلس كتب إلى الوليد ابن عبد الملك ، إنها ليست الفتوح ولكنها الجنة[1] .

ولما وصل موسى إلى الشام ومات الوليد بن عبد الملك وقام من بعده سليمان أخوه ، وحج في سنة سبع وتسعين للهجرة – وقيل سنة تسع وتسعين – حجّ معه موسى بن نصير ، ومات في الطريق بوادي القرى ، وقيل بمر الظهران ، على اختلاف فيه . وكانت ولادته في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سنة تسع عشرة للهجرة ، رحمه الله تعالى .

---

١ ر والنفح : الحشر .

٧٤٩

الملك الأشرف موسى الأيوبي

أبو الفتح موسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ، الملقب الملك الأشرف مظفر الدين ؛ أول شيء ملكه من البلاد مدينة الرها ، سيره إليها والده من الديار المصرية في سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، ثم أضيفت إليه حران . وكان محبوباً إلى الناس مسعوداً مؤيداً في الحروب من يومه ، لقي نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل – المذكور في حرف الهمزة – وكان يوم ذاك من الملوك المشاهير الكبار ، وتواقعا في مصاف فكسره ، وذلك في سنة ستمائة يوم السبت تاسع عشر شوال بموضع يقال له بين النهرين من أعمال الموصل وهي وقعة مشهورة فلا حاجة إلى تفصيلها ؛ ولما توفي أخوه الملك الأوحد نجم الدين أيوب صاحب خِلاط وميافارقين وتلك النواحي ، أخذ الملك الأشرف مملكته مضافة إلى ملكه ، وتوفي الملك الأوحد في شهر ربيع الأول سنة تسع وستمائة وكانت وفاته بملازكرد من أعمال خلاط ودفن بها ، وكان الملك الأوحد قد ملك خلاط في سنة أربع وستمائة .

فاتسعت حينئذ مملكته وبسط العدل على الناس وأحسن إليهم إحساناً لم يعهدوه ممن كان قبله ، وعظم وقعه في قلوب الناس ، وبعد صيته ، وكان قد ملك نصيبين الشرق في سنة ست وستمائة ، وأخذ سنجار سنة سبع عشرة في رابع جمادى الأولى ، ورأيت في موضع آخر أنه أخذها في مستهل صفر من السنة ، والله أعلم ، وكذلك الخابور ، وملك[1] معظم بلاد الجزيرة ، وكان يتنقل

---

٧٤٩ – أخباره في مفرج الكروب (ج : ٣) وذيل الروضتين : ١٦٥ والسلوك ١ : ٢٥٦ والحوادث الجامعة : ١٠٥ ومرآة الزمان : ٧١١ والنجوم الزاهرة ٦ : ٣٠٠ وعبر الذهبي ٥ : ١٤٦ والشذرات ٥ : ١٧٥ والزركشي ٣ ، الورقة : ٢٣٦ ؛ وقد انفردت النسخ ص ن ر ق بزيادات في عدة مواضع من هذه الترجمة لم ترد في المطبوعة المصرية .

[1] ن : فإنه أخذها وملك....

فيها ، وأكثر إقامته بالرقة لكونها على الفرات .

ولما مات ابن عمه الملك الظاهر غازي صاحب حلب – في التاريخ المذكور في ترجمته في حرف الغين – عزم عز الدين كيكاوس بن غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان صاحب الروم على قصد حلب فسير أرباب الأمر بحلب إلى الملك الأشرف وسألوه الوصول إليهم لحفظ البلد ، فأجابهم إلى سؤالهم وتوجه إليهم وأقام بالياروقية بظاهر حلب مدة ثلاث سنين، وجرت له مع صاحب الروم وابن عمه الملك الأفضل بن صلاح الدين صاحب سُمَيْساط وقائع مشهورة لا حاجة إلى الإطالة في شرحها .

ولما أخذت الفرنج دمياط في سنة ست عشرة وستمائة – حسبما شرحناه في ترجمة الملك الكامل – توجهت جماعة من ملوك الشام إلى الديار المصرية ، لإنجاد الملك الكامل ، وتأخر عنه الملك الأشرف لمنافرة كانت بينهما ، فجاءه أخوه الملك المعظم – المقدم ذكره في حرف العين – بنفسه ، وأرضاه ، ولم يزل يلاطفه حتى استصحبه معه ، فصادف عقيب وصوله إليها بأشهر – كما ذكرناه في ترجمة الكامل محمد – انتصار المسلمين على الفرنج وانتزاع دمياط من أيديهم ، وكانوا يرون ذلك بسبب يُمْنِ غرته . وكان وصوله إليها في المحرم سنة ثماني عشرة وستمائة ، واستناب أخاه الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل في خلاط ، فعصى عليه ، فقصده في عساكره وأخذها منه يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وستمائة .

ولما مات الملك المعظم – في التاريخ المذكور في ترجمته – قام بالأمر من بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين داود ، فقصده عمه الملك الكامل من الديار المصرية ليأخذ دمشق منه ، فاستنجد بعمه الملك الأشرف ، وكان يومئذ ببلاد الشرق ، فوصل إليه ، واجتمع به في دمشق ، ثم خرج منها متوجهاً إلى أخيه الملك الكامل ، واجتمع بـه وجرى الاتفاق بينهما على أخذ دمشق من الملك الناصر وتسليمها إلى الملك الأشرف ، ويبقى للملك الناصر الكرك والشوبك ونابلس وبيسان وتلك النواحي، وينزل الملك الأشرف عن حران والرها وسروج والرقة ورأس عين، ويسلمها إلى الملك الكامل، فاستتب الحال على ذلك.

وتسلم الملك الكامل دمشق لاستقبال شعبان من السنة بنوابه ، ورحل الناصر إلى بلاده التي بقيت عليه يوم الجمعة ثاني عشر شعبان ، ثم دخل الملك الكامل إلى دمشق في سادس عشر الشهر المذكور وعاد وخرج إلى مكانه الذي كان فيه ، ثم دخل هو والأشرف إلى القلعة في ثامن عشر شعبان ثم سلمها إلى أخيه الملك الأشرف على ما تقرر بينهما ، في أواخر شعبان من سنة ست وعشرين وستمائة ، وانتقل الملك الكامل إلى بلاده التي تسلمها بالشرق ، ليكشف أحوالها ويرتب أمورها ، واجتزت في التاريخ المذكور بحرّان وهو بها .

وانتقل الأشرف إلى دمشق واتخذها دار إقامة وأعرض عن بقية البلاد ، ونزل جلال الدين خوارزم شاه على خِلاط وحاصرها وضايقها أشد مضايقة ، وأخذها في جمادى الآخرة من سنة ست وعشرين من نواب الملك الأشرف ، وهو مقيم بدمشق ، ولم يمكنه في ذلك الوقت قصدها للدفع عنها لأعذار كانت له . ثم عقيب ذلك دخل إلى بلاد الروم باتفاق مع سلطانها علاء الدين كيقباذ أخي عز الدين كيكاوس المذكور ، وتعاقدا[1] على قصد خوارزم شاه ، وضرب المصاف معه ، فإن صاحب الروم أيضاً كان يخاف على بلاده منه لكونه مجاوره ، فتوجها نحوه في جيش عظيم من جهة الشام والشرق في خدمة الملك الأشرف ، وعسكر صاحب الروم ، والتقوا بين خِلاط وأرزنكان ، بموضع يقال له : يا للرحمان[2] في يوم الجمعة ثاني عشر شهر رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة ، وانكسر خوارزم شاه ، وهي واقعة مشهورة ، وعادت خِلاط إلى الملك الأشرف وقد خربت .

ثم رجع إلى الشام وتوجه إلى الديار المصرية ، وأقام عند أخيه الملك الكامل مدة ، ثم خرج في خدمته قاصدين آمد ، ونزلوا عليها وفتحوها في مدة يسيرة وذلك في سنة تسع وعشرين وستمائة ، وأضافها الملك الكامل إلى ممالكه ببلاد الشرق ، ورتب فيها ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب - المذكور في ترجمة

---

١ ر بر من : وتظافرا ؛ (والصواب : وتضافرا أو وتظاهرا) .

٢ ر : يا سي جمان ؛ دي سلان : يني جمان ، وأشار إلى اضطراب النسخ في الاسم ، وسقط الاسم من نسختي بر من .

والده – وفي خدمته الطواشي شمس الدين صواب الخادم العادلي ، ثم عاد كل واحد إلى بلاده .

ثم كانت واقعة ببلاد الروم والدربندات في أواخر سنة إحدى وثلاثين وستمائة وهي مشهورة ، ورجع الكامل والأشرف ومن معهما من الملوك بغير حصول مقصود ، ولما رجعا خرج عسكر صاحب الروم على بلاد الكامل بالشرق فأخذها وأخربها ، ثم عاد الكامل والأشرف وأتباعهما ومن معهما من الملوك إلى بلاد الشرق ، واستنقذوها من نواب صاحب الروم . ثم رجعوا إلى دمشق في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، وكنت يومئذ بدمشق ، وفي تلك الوقعة[1] رأيت الكامل والأشرف ، وكانا يركبان معاً ويلعبان بالكرة في الميدان الاخضر الكبير كل يوم ، وكان شهر رمضان ، فكانا يقصدان بذلك تعبير النهار لأجل الصوم ؛ ولقد كنت أرى من تأدب كل واحد منهما مع الآخر شيئاً كثيراً ، ثم وقعت بينهما وحشة ، وخرج الأشرف عن طاعة الكامل ، ووافقته الملوك بأسرها ، وتعاهد هو وصاحب الروم وصاحب حلب وصاحب حماة وصاحب حمص وأصحاب الشرق ، على الخروج على الملك الكامل ، ولم يبق مع الملك الكامل سوى ابن أخيه الملك الناصر صاحب الكرك ، فإنه توجه إلى خدمته بالديار المصرية ، فلما تحالفوا وتحزبوا واتفقوا وعزموا على الخروج على الملك الكامل ، مرض الملك الأشرف مرضاً شديداً ، وتوفي يوم الخميس رابع المحرم سنة خمس وثلاثين وستمائة بدمشق ، ودفن بقلعتها ثم نقل إلى التربة التي أنشئت له بالكلاسة في الجانب الشمالي من جامع دمشق . وكانت ولادته سنة ثمان وسبعين وخمسمائة بالديار المصرية بالقاهرة ، وقيل بقلعة الكرك ، رحمه الله تعالى . وقد ذكرت في ترجمة أخيه الملك المعظم عيسى ما ذكره سبط ابن الجوزي في مولدهما ؛ وتوفي أخوه شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين في رجب سنة خمس وأربعين وستمائة بميافارقين .

هذه خلاصة أحواله ؛ وكان سلطاناً كريماً حليماً واسع الصدر كريم الأخلاق كثير العطاء ، لا يوجد في خزانته شيء من المال مع اتساع مملكته ، ولا تزال

---

١ ن بر من : الدفعة .

عليه الديون للتجار وغيرهم . ولقد رأى يوماً في دواة كاتبه وشاعره الكمال أبي الحسن علي بن محمد المعروف بابن النبيه المصري قلماً واحداً ، فأنكر عليه ذلك ، فأنشده في الحال دوبيت :

قال الملك الأشرف قولاً رشدا   أقلامك يا كمال قلّت عددا
جاوبت لعظم كَتْبِ ما تطلقه   تحفى فتقطُّ فهي تفنى أبدا

ويقال إنه طرب ليلة في مجلس أنسه على بعض الملاهي ، فقال لصاحب الملهى : تمن عليّ ، فقال : تمنيت مدينة خِلاط ، فأعطاها له ، وكان نائبه بها الأمين حسام الدين المعروف بالحاجب علي بن حماد الموصلي ، فتوجه ذلك الشخص إليه ليتسلمها منه ، فعوضه الحاجب عنها جملة كثيرة من المال وصالحه عنها ، وكان له في ذلك غرائب .

وكان يميل إلى أهل الخير والصلاح ويحسن الاعتقاد فيهم ، وبنى بدمشق دار حديث ، فوض تدريسها إلى الشيخ تقي الدين عثمان المعروف بابن الصلاح ، المقدم ذكره .

وكان بالعقيبة ظاهر دمشق خان يعرف بابن الزنجاري ، قد جمع أنواع أسباب الملاذ ، ويجري فيه من الفسوق والفجور ما لا يحد ولا يوصف ، فقيل له عنه : إن مثل هذا لا يليق أن يكون في بلاد المسلمين ، فهدمه وعمره جامعاً غرم عليه جملة مستكثرة ، وسماه الناس « جامع التوبة » كأنه تاب إلى الله تعالى وأناب مما كان فيه . وجرت في خطابته نكتة لطيفة ، أحببت ذكرها ، وهي : أنه كان بمدرسة ست الشام التي خارج البلد ، إمام يعرف بالجمال السبتي ، أعرفه شيخاً حسناً ، ويقال كان في صباه يلعب بشيء من الملاهي ، وهي التي تسمى الجغانة ، ولما كبر حسنت طريقته وعاشر العلماء وأهل الصلاح ، حتى صار معدوداً في الأخيار ، فلما احتاج الجامع المذكور إلى خطيب ذكر للملك الأشرف جماعة ، وشُكر الجمال المذكور ، فتولى خطابته ، فلما توفي تولى موضعه العماد الواسطي الواعظ ، وكان يتهم باستعمال الشراب ، وكان صاحب دمشق يومئذ الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك العادل بن أيوب ، فكتب إليه الجمال عبد

الرحيم المعروف بابن زويتينة الرحبي أبياتاً ، وهي :

يا مليكاً أوضح الحق لدَيْنا وأبانَه
جامع التوبة قد قلدني منه أمانه
قال قل للملك الصالح أعلى الله شانه
يا عماد الدين يا من حمد الناسُ زمانه
كم إلى كم أنا في ضر وبؤس وإهانه ؟
لي خطيب واسطي* يعشق الشرب ديانه
والذي قد كان من قبل يغني بجفانه
فكلا نحن فيا زلنا وما نبرح حانه
رُدَّني للنَّمَط الأول واستبق ضمانه

وهذه الأبيات في بابها في غاية الظرف[1] ، وكان ابن الزويتنية المذكور قد

---

١ كتب في النسخة ق في ورقة صغيرة ملحقة ما يلي : « ثم لم يزل الجامع المذكور على ذلك الحال إلى أن تولى مولانا السلطان الملك المؤيد شيخ نصره الله تعالى ، والجامع المذكور كأنه يقول بلسان الحال : ألا هل من مبلغ قصتي إلى المقام الشريف لعله ينظر في أمري ، ثم كتبت قصته وأرسل بها من الشام المحروس إلى القاهرة المحروسة وفيها ما صورته :

يا مليكاً هو فحل أطلق الله عنانه
جامع التوبة كم ذا يشتكي فينا هوانه
ان صلاح الدين ولى فبكم نرجو الاعانه
قال بالله اذكروني فزماني في زمانه
واشرحوا حالي لشيخ عظم الرحمن شانه
فهو سلطان سعيد وله عندي مكانه
ليرى لي بخطيب وإمام ذي صيانه
مثلما عمر غيري ليتني كنت الخزانه
فارحموني يا لقومي ضاع في الناس الامانه
في قوم قد أقاموا للمعاصي طبلخانه
نقضوا التوبة مني واستباحوا للخيانه

وصل إلى الديار المصرية في رسالة من عند صاحب حمص ، وأنشدني هذه الأبيات وحكى السبب الحامل عليها ، وذلك في بعض شهور سنة سبع وأربعين وستمائة .

ومدح الملك الأشرف أعيانُ شعراء عصره ، وخلدوا مدائحه في دواوينهم فمنهم :

شرف الدين محمد بن عُنَيْن – وقد سبق ذكره .

والبهاء أسعد السنجاري – وقد سبق ذكره أيضاً .

والشرف راجح الحلي وقد ذكرته في ترجمة الملك الظاهر .

(277) والكمال ابن النبيه المذكور وكانت وفاته سنة تسع عشرة وستمائة ، بمدينة نصيبين الشرق ، وعمره تقديراً مقدار ستين سنة[1] ، كذا أخبرني صهره بالقاهرة .

(278) والمهذب[2] محمد بن أبي الحسين[3] بن يمن بن علي بن أحمد بن محمد بن عثمان ابن عبد الحميد الأنصاري ، المعروف بابن الأردخل الموصلي الشاعر المشهور ، ومولده سنة سبع وسبعين وخمسمائة بالموصل ، وتوفي في شهر رمضان ، سنة ثمان وعشرين وستمائة بميافارقين ، رحمه الله تعالى .

وغير هؤلاء خلق كثير ، والله أعلم بالصواب .

=

يشتموا أو يبلموا أو	مع فلان أو فلانه
فانتفوا ذقن خطيبي	نتف كس بلبانه
واصفعوا ظهر إمامي	بالبراطيش المهانه
فعلى هذا وهذا	لعنة الله كمانه

تمت ١٥ بيتاً .

١ هنا تنتهي الترجمة في ر .

٢ ص : صهره بالقاهرة أبو المهذب....الخ .

٣ ص ق : الحسن .

٧٥٠

موسى بن عبد الملك الأصبهاني

أبو عمران[١] موسى بن عبد الملك [بن هشام][٢] الأصبهاني صاحب ديوان الخراج ؛ كان من جلة الرؤساء ، وفضلاء الكتاب وأعيانهم ، تنقل في الخدم في أيام جماعة من الخلفاء . وكان إليه ديوان[٣] السواد وغيره في أيام المتوكل ، وكان مترسلاً ، وله ديوان رسائل . وقد سبق طرف من خبره مع أبي العَيْناء في ترجمته ، وما دار بينهما من المحاورة في قضية نجاح بن سلمة[٤] . وله شعر رقيق حسن فمن ذلك قوله :

لما وردنا القادسية حيث مُجْتَمَعُ الرفاقِ
وشممت من أرض الحجا ز نسيم أنفاس العراق
أيقنت لي ولمن أحبُ بجمع شمل واتفاق
وضحكت من فرح اللقا ء كما بكيت من الفراق
لم يبق لي إلا تجشُّمُ هذه السبع الطباق
حتى يطول حديثنا بصفات ما كنا نلاقي

[يروى : لما وردنا الثعلبية ، وكلتاهما من منازل الحاج على طريق العراق ، والثعلبية منسوبة إلى ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، قاله ابن الكلبي في « جمهرة النسب »][٥] .

---

١ ر : أبو عمران والحسين .

٢ زيادة من ر .

٣ ر : اليه النهاية في ديوان .

٤ انظر ج ٤ : ٣٤٦ .

٥ زيادة من ر وهامش ن .

ولهذه الأبيات حكاية مستطرفة أحببت ذكرها هاهنا وقد سردها الحافظ أبو عبد الله الحميدي ، في كتاب « جذوة المقتبس »[1] ، وغيره من أرباب تواريخ المغاربة ، وهي أن أبا علي الحسن بن الأشكري[2] المصري قال : كنت رجلاً من جلاس الأمير تميم بن أبي تميم ، وممن يخف عليه جداً – وهذا تميم هو أبو المعز بن باديس المذكور في حرف التاء – قال : فأرسلني إلى بغداد ، فابتعت له جارية رائقة فائقة الغناء ، فلما وصلت إليه دعا جلساءه ، قال : وكنت فيهم ، ثم مُدّتِ الستارة ، وأمرها بالغناء فغنت :

وبدا له من بعد ما اندمل الهوى ... برق تألق موهناً لمَعانُهُ
يبدو كحاشية الرداء ودونه ... صعب الذرا متمنع أركانُه
فمضى لينظر كيف لاح فلم يطق ... نظراً إليه وصدّه[3] سَجّانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه ... والماء ما سمحت به أجفانه

وهذه الأبيات ذكرها صاحب « الأغاني »[4] للشريف أبي عبد الله محمد بن صالح الحسني ، قال ابن الأشكري : فأحسنت الجارية ما شاءت ، فطرب الأمير تميم ومن حضر ، ثم غنت :

سَيُسْليك عما فات دولة مفضِلٍ ... أوائله محمودة وأواخره
ثنى الله عطفيه وألّفَ شخصه ... على البر مذ شدت عليه مآزره

قال : فطرب الأمير تميم ومن حضر طرباً شديداً ، قال : ثم غنت :

أستودع الله في بغداد لي قمراً ... بالكَرْخ من فلَكِ الأزرار مطلعه

وهذا البيت لمحمد بن زريق الكاتب البغدادي ، من جملة قصيدة طويلة .

---

١ جذوة المقتبس : ٦٦ – ٦٨ وانظر المطرب : ٦٢ .

٢ ر : الاسكبري ، حيثما ورد .

٣ ر : ورده ، وكذلك في الأغاني .

٤ الأغاني ١٦ : ٢٨٣ .

قال الراوي : فاشتد طرب الأمير تميم وأفرط جداً ، ثم قال لها : تمنّي ما شئت ، فقالت ، أتمنى عافية الأمير وسلامته ، فقال : والله لا بد أن تتمني، فقالت : على الوفاء أيها الأمير بما أتمنى ؟ قال ، نعم ، فقالت : أتمنى أن أغني بهذه النوبة ببغداد ، قال : فانتقع لون الأمير تميم وتغير وجهه وتكدر المجلس ، وقام وقمنا .

قال ابن الأشكري : فلقيني بعض خدمه وقال لي : ارجع فالأمير يدعوك، فوجدته جالساً ينتظرني ، فسلمت وقمت بين يديه ، فقال لي : ويحك ، رأيت ما امتحنا به ؟ فقلت : نعم أيها الأمير ، فقال : لا بد من الوفاء لها ، ولا أثق في هذا بغيرك ، فتأهب لتحملها إلى بغداد ، فإذا غنت هناك فاصرفها، فقلت : سمعاً وطاعة .

قال : ثم قمت فتأهبت ، وأمرها بالتأهب ، وأصحبها جاريةً سوداء له تعادلها وتخدمها ، وأمر بناقة ومحمل ، فأدخلت فيه ، وجعلتها معي ، وصرت إلى مكة مع القافلة وقضينا حَجّنا، ثم دخلنا في قافلة العراق وسرنا ، فلما وردنا القادسية أتتني السوداء ، وقالت لي : تقول لك سيدتي : أين نحن ؟ فقلت لها : نزول بالقادسية ، فانصرفت إليها وأخبَرَتها ، فلم أنشب أن سمعت صوتها قد ارتفع بالغناء ، وغنت الأبيات المذكورة ، قال : فتصايح الناس من أقطار القافلة : أعيدي بالله أعيدي قال : فما سمع لها كلمة . قال : ثم نزلنا الياسرية ، وبينها وبين بغداد نحو خمسة أميال في بساتين متصلة ، ينزل الناس بها فيبيتون ليلتهم ، ثم يبكرون لدخول بغداد . فلما كان وقت الصباح وإذا بالسوداء قد أتتني مذعورة ، فقلت : مالك ؟ قالت : إن سيدتي ليست بحاضرة ، فقلت : ويلك ، وأين هي ؟ قالت : والله ما أدري ، قال : فلم أحس لها أثراً بعد ذلك ، ودخلت بغداد وقضيت حوائجي منها ، وانصرفت إلى الأمير تميم فأخبرته خبرها ، فعَظُم ذلك عليه واغتم له غماً شديداً ، ثم ما زال بعد ذلك ذاكراً لها واجماً عليها .

والقادسية : بفتح القاف وبعد الألف دال مهملة مكسورة وسين مهملة مكسورة أيضاً وبعدها ياء مثناة من تحتها مشددة ثم هاء ساكنة ، وهي قرية فوق الكوفة،

وعندها كانت الوقعة المشهورة في زمن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه .

والياسرية : بفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف سين مهملة مكسورة وراء مكسورة أيضاً وبعدها ياء مثناة من تحتها مشددة ثم هاء ساكنة وقد ذكرنا أين هي ، فلا حاجة إلى الإعادة .

وحكى إسحاق بن إبراهيم أخو زيد بن إبراهيم أنه كان يتقلد بلاد السِّيروان نيابة عن موسى بن عبد الملك المذكور ، فاجتاز به إبراهيم بن العباس الصولي ، - الشاعر المقدم ذكره - وهو يريد خراسان، والمأمون يوم ذاك بها ، وقد بايع بالعهد علي بن موسى الرضا ، وهي قضية مشهورة، وقد امتدحه إبراهيم المذكور بقصيدة ذكر فيها آل علي ، وأنهم أحق بالخلافة من غيرهم . قال إسحاق بن إبراهيم المذكور : فاستحسنت القصيدة وسألت إبراهيم بن العباس أن ينسخها ففعل ، ووهبته ألف درهم وحملته على دابة ، وتوجه إلى خراسان . ثم تراخت الأيام إلى زمن المتوكل ، فتولى إبراهيم المذكور موضع موسى بن عبد الملك المذكور،وكان يحب أن يكشف أسباب موسى،فعزلني وأمر أن تعمل مؤامرة[1]، فعملت وحضرتُ للمناظرة عنها ، فجعلت أحتج بما لا يُدْفَع فلا يقبله ، ونحتكم إلى الكتاب فلا يلتفت إلى حكمهم ، ويُسمِعني في خلال ذلك غليظ الكلام ، إلى أن أوجب الكتاب اليمين على باب من الأبواب فحلفت ، فقال : ليست يمين السلطان عندك يميناً لأنك رافضي، فقلت له : تأذن لي في الدنو منك؟ فأذن لي ، فقلت له : ليس لي مع تعريضك بمهجتي للقتل صبر ، وهذا المتوكل إن كتبتَ إليه بما أسمعه منك لم آمنه على نفسي ، وقد احتملت كل ما جرى سوى الرفض . والرافضي مَنْ زعم أن علي بن أبي طالب أفضلُ من العباس ، وأن ولده أحق من ولد العباس بالخلافة . قال : ومن هو ذاك ؟ قلت : أنت ، وخَطُّكَ عندي به . فأخبرته بالشعر الذي عمله في المأمون وذكر فيه علي بن موسى ، فوالله ما هو إلا أن قلت له ذلك حتى سُقِط في يده ، ثم قال لي :

---

1 قال الخوارزمي في مفاتيح العلوم : ٣٨ « المؤامرة عمل تجمع فيه الأوامر الخارجة في مدة أيام الطمع ، ويوقع السلطان في آخره بإجازة ذلك ، وقد تعمل المؤامرة في كل ديوان تجمع جميع ما يحتاج إليه من استئمار واستدعاء توقيع » .

أحضر الدفتر الذي بخطي، فقلت له : هيهات ، لا والله أو تُوَثّقَ لي بما أسكن إليه أنك لا تطالبني بشيء مما جرى على يدي ، وتخرق هذه المؤامرة ولا تنظر لي في حساب ، فحلف لي على ذلك بما سكنت إليه وخرق العمل المعمول ، فأحضرت له الدفتر فوضعه في خفّه ، وانصرفت وقد زالت عني المطالبة .

ولموسى المذكور أخبار كثيرة أضربت عن ذكرها طلباً للاختصار . وتوفي في شوال سنة ست وأربعين ومائتين ، رحمه الله تعالى .

والسِّيرَوانُ : بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الراء والواو وبعد الألف نون ، وهي كورة ماسَبَذان من أعمال الجبل .

وماسبذان : بفتح الميم وبعد الألف سين مهملة وباء موحدة وذال معجمة والجميع مفتوح وبعد الألف نون ، وهي قرية كان يسكنها المهدي بن المنصور أبي جعفر ، والد هارون الرشيد ، وبها توفي ، وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة الشاعر – المقدم ذكره :

وأكرم قبر بعد قبر محمد نبيّ الهدى قبرٌ بماسَبَذان
عجبت لأيدٍ هالت الترب فوقه ضحى كيف لم ترجع بغير بَنان

والسيروان : اسم لأربعة مواضع هذا أحدها .

وبلاد الجبل عبارة عن عراق العجم الفاصل بين عراق العرب وخراسان ، وبلاده المشهورة : أصبهان وهمذان والري وزنجان .

٧٥١

أبو منصور الجواليقي

أبو منصور موهوب بن أبي طاهر أحمد بن محمد بن الخضر ، الجواليقي البغدادي الأديب اللغوي ؛ كان إماماً في فنون الأدب ، وهو من مفاخر بغداد قرأ الأدب على الخطيب أبي زكريا التبريزي – الآتي ذكره في حرف الياء إن شاء الله تعالى – ولازمه وتتلمذ له حتى برع في فنه .

وهو متدين ثقة غزير الفضل وافر العقل مليح الخط كثير الضبط ، صنف التصانيف المفيدة وانتشرت عنه ، مثل « شرح أدب الكاتب » و « المعرب » ولم يعمل في جنسه أكبر منه و تتمة « درة الغواص » تأليف الحريري صاحب المقامات سماه « التكملة فيما يلحن فيه العامة » إلى غير ذلك ، وكان يختار في بعض مسائل النحو مذاهب غريبة . وكان في اللغة أمثل منه في النحو ، وخطه مرغوب فيه ، يتنافس الناس في تحصيله والمغالاة فيه[1] .

وكان إماماً للإمام المقتفي بالله يصلي به الصلوات الخمس ، وألف له كتاباً لطيفاً في علم العروض ، وجرت له مع الطبيب هبة الله بن صاعد المعروف بابن التلميذ النصراني – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – واقعة عنده ، وهي أنه لما حضر إليه للصلاة به ودخل عليه أول دخلة فما زاده على أن قال : السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله تعالى ، فقال ابن التلميذ ، وكان حاضراً قائماً بين يدي المقتفي ، وله إدلال الخدمة والصحبة : ما هكذا يسلم[2] على أمير المؤمنين

---

٧٥١ – ترجمته في ذيل ابن رجب ١ : ٢٠٤ وعبر الذهبي ٤ : ١١٠ وانباه الرواة ٣ : ٣٣٥ (وفي الحاشية ذكر لمصادر أخرى) .

١ علق صاحب المختار هنا بقوله : « قلت ، أعني كاتبها موسى بن أحمد لطف الله به : رأيت بخزانة كتب والدي قدس الله روحه ، ملكاً له ، عشرة كتب بخط المذكور منها الكامل للمبرد في جزء واحد ومنها الحماسة والخطب النباتية وغير ذلك » .

٢ المختار : ما هكذا السلام .

يا شيخ ؟ فلم يلتفت ابن الجواليقي إليه، وقال للمقتفي: يا أمير المؤمنين ، سلامي هو ما جاءت به السنة النبوية ، وروى له خبراً في صورة السلام ثم قال : يا أمير المؤمنين لو حلف حالف أن نصرانياً أو يهودياً لم يصل إلى قلبه نوع من أنواع العلم على الوجه المرضي لما لزمته كفارة الحنث لأن الله تعالى ختم على قلوبهم ، ولن يفك ختم الله إلا الإيمان ، فقال له : صدقت وأحسنت فيما فعلت ، وكأنما ألجم ابن التلميذ بحجر مع فضله وغزارة أدبه .

وسمع ابن الجواليقي من شيوخ زمانه وأكثر ، أخذ الناس عنه علماً جماً ، وينسب إليه من الشعر شيء قليل ، فمن ذلك ما رأيته منسوباً إليه في بعض المجاميع ولم أتحققه له ، وهو :

ورد الورى سلسالَ جودك فارتووا ووقفتُ خلف الورد وقفة حائمِ
حيران أطلب غفلة من وارد والورد لا يزداد غير تزاحم

ثم وجدت هذين البيتين لابن الخشاب من جملة أبيات .

وحكى ولده أبو محمد إسماعيل ، وكان أنجب أولاده ، قال : كنت في حلقة والدي يوم الجمعة بعد الصلاة بجامع القصر ، والناس يقرؤون عليه ، فوقف عليه شابٌ وقال : يا سيدي ، قد سمعت بيتين من الشعر ولم أفهم معناهما ، وأريد أن تسمعهما مني وتعرفني معناهما ، فقال : قل ، فأنشده :

وَصْلُ الحبيب جِنانُ الخلد أسكنها وهجره النار يصليني به النارا
فالشمس بالقوس أمست وهي نازلة إن لم يزرني ، وبالجوزاء إن زارا

قال إسماعيل : فلما سمعهما والدي قال : يا بني ، هذا شيء من معرفة علم النجوم وتسييرها لا من صنعة أهل الأدب ، فانصرف الشاب من غير حصول فائدة ، واستحيا والدي من أن يُسأل عن شيء ليس عنده منه علم ، وقام ، وآلى على نفسه أن لا يجلس في حلقته حتى ينظر في علم النجوم ويعرف تسيير الشمس والقمر ، فنظر في ذلك وحصل معرفته ، ثم جلس .

ومعنى البيت المسئول عنه أن الشمس إذا كانت في آخر القوس كان الليل في غاية الطول ، لأنه يكون آخر فصل الخريف ، وإذا كانت في آخر الجوزاء

كان الليل في غاية القصر ، لأنه آخر فصل الربيع ، فكأنه يقول : إذا لم يزرني فالليل عندي في غاية الطول ، وإن زارني كان الليل عندي في غاية القصر ، والله أعلم .

ولبعض شعراء عصره فيه وفي المغربي مفسر المنامات[1] ، وذكرها في « الخريدة » لحيص بيص ، هكذا وجدتها في « مختصر الخريدة » للحافظ :

كلُّ الذنوب ببلدتي مغفورةٌ إلا اللذين تعاظما أن يُغْفَرا
كونُ الجواليقيِّ فيها ملقيا أدباً ، وكون المغربي مُعَبِّرا
فأسير لكنته يُمِلُّ[2] فصاحة وغفول يقظته يعبر عن كرى

ونوادره كثيرة .

وكانت ولادته سنة ست وستين وأربعمائة . وتوفي يوم الأحد منتصف المحرم سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ببغداد ، ودفن بباب حرب ، رحمه الله تعالى ، بعد أن صلى عليه قاضي القضاة الزينبي بجامع القصر .

والجواليقي : نسبة إلى عمل الجوالق وبيعها ، وهي نسبة شاذة لأن الجموع لا ينسب إليها ، بل ينسب إلى آحادها إلا ما جاء شاذاً مسموعاً في كلمات محفوظة مثل قولهم : رجل أنصاري ، في النسبة إلى الأنصار ، والجواليق في جمع جوالق شاذ لأن الياء لم تكن موجودة في مفرده ، والمسموع فيه جُوالق بضم الجيم وجمعه جَوالق بفتح الجيم ، وهو باب مطرد ، قالوا : رجل حُلاحل ، إذا كان وقوراً ، وجمعه حَلاحل ، وشجر عُدامل ، إذا كان قديماً ، وجمعه عَدامل ، ورجل عُراعر ، وهو السيد ، وجمعه عَراعر ، ورجل عُلاكد ، إذا كان شديداً ، وجمعه عَلاكد ، وله نظائر كثيرة . وهو اسم أعجمي معرب ، والجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة واحدة عربية ألبتة[3] .

---

١ ن ق : المفسر للمقامات ؛ وهو خطأ يدل عليه البيت الثاني .

٢ ن ص ق : يمد .

٣ علق ابن المؤلف هنا بقوله : قلت يعني موسى بن أحمد ، وكذلك الجيم والكاف نحو كيلجه ، والله أعلم .

٧٥٢

رضي الدين النيسابوري

أبو الحسن المؤيد بن محمد بن علي الطوسي الأصل النيسابوري الدار المحدث الملقب رضي الدين ؛ كان أعلى المتأخرين إسناداً ، لقي جماعة من الأعيان وأخذ عنهم ، وسمع « صحيح مسلم » من الفقيه أبي عبد الله محمد بن الفضل الفراوي – المقدم ذكره – وهو آخر من بقي من أصحابه ، وسمع « صحيح البخاري » من أبي بكر وجيه بن طاهر بن محمد الشحامي وأبي الفتوح عبد الوهاب بن شاه ابن أحمد الشاذياخي ، وسمع « الموطأ » رواية أبي مصعب إلا ما استثني منه من أبي محمد هبة الله بن سهل بن عمر[1] البسطامي المعروف بالسندي[2] ، وسمع « تفسير القرآن الكريم » تصنيف أبي إسحاق الثعلبي من أبي العباس محمد الطوسي المعروف بعباسة ، وسمع أيضاً من جماعة من شيوخ نيسابور منهم الفقيه أبو محمد عبد الجبار ابن محمد الخواري وأم الخير فاطمة بنت أبي الحسن علي بن المظفر بن زعبل[3] ، وحدث بالكثير ، ورحل إليه من الأقطار ، ولنا منه إجازة كتبها من خراسان باستدعاء الوالد رحمه الله تعالى في جمادى الآخرة سنة عشر وستمائة ، وإنما ذكرته لشهرته وتفرده في آخر عصره ؛ وكانت ولادته سنة أربع عشرين وخمسمائة ظناً . وتوفي ليلة العشرين من شوال سنة سبع عشرة وستمائة بنيسابور ، ودُفن من الغد ، رحمه الله تعالى .

ثم بعد إثبات هذه الترجمة على هذه الصورة بسنين رأيت بخط الشيخ المؤيد

---

٧٥٢ – انظر عبر الذهبي ٥ : ٧١ والشذرات ٥ : ٧٨ وزاد في ن ق في نسبه بعد علي : ابن الحسن ابن محمد بن أبي صالح ، وسيرد هذا في آخر الترجمة .

١ ن ص : عمرو .

٢ ن ق : بالسيدي ، وعند دي سلان : بالسدي .

٣ ق : رغبل ؛ ن : زغيل ؛ وانظر الضبط في تبصير المنتبه : ٦٠٧ .

المذكور في إجازة ، وقد رفع نسبه فقال : كتبه المؤيد بن محمد بن علي بن الحسن ابن محمد بن أبي صالح الطوسي .

٧٥٣
الألــوسي

أبو سعيد المؤيد بن محمد بن علي بن محمد[١] الألوسي ، الشاعر المشهور ؛ كان من أعيان شعراء عصره كثير الغزل والهجاء ، ومدح جماعة من رؤساء العراق ، وله ديوان شعر ، وكان منقطعاً إلى الوزير عَوْن الدين يحيى بن هبيرة ، وله فيه مدائح جيدة .

ذكره محب الدين ابن النجار في « تاريخ بغداد » فقال : هو عطاف بن محمد ابن علي بن أبي سعيد الشاعر المعروف بالمؤيد ، ولد بألوس، قرية بقرب الحديثة ، ونشأ بدجيل ودخل بغداد ، وصار جاووشاً[٢] في أيام المسترشد بالله ، وهجاه ابن الفضل الشاعر بأبيات ؛ ثم إن المؤيد نظم الشعر فأكثر منه حتى عرف بـه ومدح وهجا ، وكان قد لجأ إلى خدمة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه — وقد تقدم ذكره[٣] — قال : وتفسح في ذكر الإمام المقتفي وأصحابه بما لا ينبغي ، فقبض عليه وسجن .

وذكره العماد الكاتب في كتاب « الخريدة » فقال : ترفع قدره وأثرى حاله، ونفق شعره ، وكان له قبول حسن ، واقتنى أملاكاً وعقاراً وكثر رياشه ، وحسن معاشه ، ثم عثر به الدهر عثرة صعب منها انتعاشه ، وبقي في حبس الإمام المقتفي أكثر من عشر سنين إلى أن خرج في أول خلافة الإمام المستنجد

---

٧٥٣ — انظر اللباب (الألوسي) .

١ ق ص ر : أحمد .

٢ ر : جاويشاً .

٣ انظر ج ٥ : ٢٠٠ .

سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، ولقيته حينئذ وقد غشي بصره من ظلمة المطمورة[1] التي كان فيها محبوساً . وكان زيه زي الأجناد ، وسافر إلى الموصل ، وله شعر حسن غزل وأسلوب مطرب بنظم معجب ، وقد يقع له من المعاني المبتكرة ما يندر ، فمن ذلك قوله في صفة القلم :

ومثقف يُغْني ويُفني دائماً في طَوريّ الميعاد والإيعادِ
قلم يفلُّ الجيشَ وهو عرمرمٌ والبيض ما سلت من الأغماد
وهبت له الآجامُ حين نشا بها كرمَ السيول وهيبةَ الآساد

قلت أنا : ولقد رأيت هذه الأبيات منسوبة إلى غيره ، والله أعلم بالصواب . ولم يقُل في القلم أحسن من هذا المعنى . ولبعضهم في القلم أيضاً وهو في هذا المعنى :

وأرقشَ مرهوب الشَّباة مهفهف يشتِّتُ شملَ الخطب وهو جميعُ
تدينُ له الآفاق شرقاً ومغرباً وتعنو له أفلاكها وتطيع
حمى الملك مفطوماً كما كان يحتمي به الأسْدُ في الآجام وهو رضيع

ولبعضهم أيضاً في هذا المعنى :

له قلمٌ كقضاء الإله بالسعد طوراً وبالنحس ماضي
فما فارق الأسد في حالتيه يبيساً وذا ورقات غضاض
ففي كف ليث الوغى في الندى وفي وجه ليث الشرى في الغياض

ومعنى البيت الثالث مأخوذ من قول بعضهم في وصف طنبور :

وطنبورٍ مليح الشكل يحكي بنغمته الفصيحة عندليبا
روى لما ذوى نغماً فصاحاً حواها في تقلبه قضيبا
كذا مَنْ عاشر العلماء طفلا يكون إذا نَشا شيخاً أديبا

---

١ هنا ينتهي الخرم الذي أشرنا اليه سابقاً في النسخة لي .

وهذا معنى مطروق أكثرت الشعراء استعماله ، فمن ذلك قول بعضهم وهو أبو محمد عبد الله بن قاضي ميلة :

جاءت بعودٍ يُناغيها ويسعدها انظر بدائعَ ما يأتي به الشجرُ

غنت عليه ضروبُ الطير ساجعةً حيناً فلما ذَوَى غَنَّى به البشر

فلا يزال عليه الدهرَ مصطخبٌ يهيجه الأعجمان : الطير والوتر

ولبعضهم في المعنى أيضاً[1] :

وعود له نوعان من لذة المنى فبورك جانٍ يجتنيه وغارسُ

تغنت عليه وهو رطبٌ طيورها وغنت عليه قَيْنَةٌ وهو يابس

ولولا خوف الإطالة والخروج عمـا نحن بصدده لذكرت عدة مقاطيع في هذا المعنى .

ولبهاء الدين زهير المقدم ذكره من قصيدة يمدح بها اقسيس بن الملك الكامل :

وتهتز أعوادُ المنـابر باسمـه فهل ذكَـرَتْ أيامَها وهي أغصانُ

(279) ثم قال العماد في بقية الترجمة : وكان ولده محمد ذكياً، له شعر حسن، هاجر إلى الملك العادل نور الدين بالشام سنة أربع وستين، وكان يومئذ بصرخد، فمرض فأنفذه إلى دمشق ، فمات في الطريق بقرية يقال لها رشيدة[2] ؛ انتهى كلام العماد .

ومن شعر المؤيد المذكور من جملة قصيدة له ، رحمه الله تعالى :

فيا بَرْدَهـا من نفحة حاجرية على حَرِّ صدرٍ ليس تخبو سمائمُه

ويا حسنه طيفاً وشى نور وجهه بطَيفي فغطاني من الشَّعر فاحمُه

يجول وشاحـاه على غصن بانةٍ سقاها الحيا فاخضرَّ واهتز ناعمه

---

١ سقط البيتان من لي .

٢ لي : رسدة .

فلما رمى في شملنا الصبحُ بالنوى ولم يبق منها غير معنى ألازمه
وقفت بحُزْوى وهي منها معالم قَواء وجسمي قد تعفّتْ معالمه
وقوف بناني[1] في يميني ولم أقف وقوفَ شحيح ضاع في الترب خاتمه
ولم يُبْقِ لي رسماً بجسمي صدودُها فيشجى بدمعي كلما انهلّ طاسمه
ولا مقــلة أبقت فتغرم نظرة بثانية والمُتلِفُ الشيءَ غارمُه
فلله وجدي في الركاب كأنــه دموعي وقد حنت بليل روازمه
وقد مد من كف الثريا هلالهـا فقبّلتـُه حتى تهاوت مناظمه

وهي قصيدة طويلة أجاد فيها ، وقد وازن بها قصيدة المتنبي في سيف الدولة ابن حمدان التي أولها :

وفاؤكمـا كالربع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

وقد استعمل في قصيدته أنصافَ أبيات من قصيدة المتنبي على وجه التضمين وأكثر شعره جيد .

وله أيضاً من جملة أبيات قالها وهو محبوس :

رحلوا فأفنيت الدموع تشوقاً[2] من بَعْدِهم وعجبت إذ أنا باقي
وعلمت أن العود يقطر ماؤه عنـد الوقود لفرقـة الأوراق
وأبيت مأسوراً وفرحة ذكركم عندي تعادل فرحةَ الإطلاق
لا تنكر البلوى سواد مَفارقي فالحرق يحكم صنعة الحراق

وكانت[3] ولادته سنة أربع وتسعين وأربعمائة بألوس ، ونشأ بها . وتوفي يوم الخميس الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة سبع وخمسين وخمسمائة بالموصل ، وكان خروجه مُن بغداد سنة ست وخمسين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى .

---

١ ق ص : نبالي .
٢ كتب في المختار فوقها : تحرقاً ، وفي ر : تحرقاً .
٣ زاد قبل هذه اللفظة في ر : وكان اكثر شعره جيداً .

ولما ذكرت تاريخ ولاية المستنجد ذكرت نكتة غريبة أحببت ذكرها ، وهو ما أخبرني به بعض مشايخ العراق الفضلاء أن المستنجد رأى في منامه في حياة والده المقتفي كأن ملكاً نزل من السماء فكتب في كفه أربع خاءات ، فلما استيقظ طلب معبر الرؤيا ، فقص عليه ما رآه ، فقال له : تلي الخلافة في سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، فكان الأمر كذلك ، وكان ذلك قبل وفاة والده بمدة .

والألوسي : بضم الهمزة واللام وبعدها واو ساكنة ثم سين مهملة ، هذه النسبة إلى ألوس ، وهي ناحية عند حديثة عانة على الفرات ، هكذا ذكره عز الدين بن الأثير – المقدم ذكره – فيما استدركه على الحافظ ابن السمعاني ، لأنه قال : ألوس موضع بالشام في الساحل عند طرسوس[1] ، وهو بغدادي الدار والمنشأ – لأنه دخل بغداد في صباه – وقيدها ابن النجار « الآلسي » ومدّ الهمزة وضم اللام ، والله أعلم .

٧٥٤

المهلب بن أبي صفرة

أبو سعيد المهلَّبُ بن أبي صُفْرة – كانت له بنت اسمها صفرة وبها كان يكنى – واسمه ظالم بن سراق بن صبح بن كندي بن عمرو بن عدي بن وائل بن الحارث بن العتيك بن الأزد ، ويقال الأسد بالسين الساكنة ، ابن عمران بن عمرو مُزَيقياء ابن عامر ماء السماء بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد ، الأزدي العتكي البصري ؛ قال الواقدي : كان أهلُ دَبا أسلموا في عهد رسول الله صلى

---

١ اللباب ١ : ٦٦ .

٧٥٤ – أخباره في كتب التاريخ التي تتحدث عن عصر بني أمية أو عن حروب الخوارج ، كالطبري والمسعودي وابن الأثير وكامل المبرد ..الخ وانظر المعارف : ٣٩٩ والاصابة ٦ : ٢١٦ وسرح العيون : ١٠٣ والمحبر : ٢١٦ والجرح والتعديل ٤/١ : ٣٦٩ وعبر الذهبي ١ : ٩٥ والشذرات ١ : ٩٠ .

الله عليه وسلم ، ثم ارتدوا بعده ومنعوا الصدقة ، فوجَّه إليهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه عكرمة بن أبي جهل المخزومي رضي الله عنه ، فقاتلهم فهزمهم وأثخن فيهم القتل ، وتحصن فَلُّهم في حصن لهم وحصرهم المسلمون ، ثم نزلوا على حكم حُذَيفة بن اليمان ، فقتل مائة من رؤسائهم[1] ، وسبى ذَراريهم ، وبعثهم إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وفيهم أبو صُفْرة غلام لم يبلغ ، فأعتقهم أبو بكر رضي الله عنه وقال : اذهبوا حيث شئتم ، فتفرقوا ، فكان أبو صُفْرة ممن نزل البصرة .

وقال ابن قتيبة في كتاب « المعارف » : هذا الحديث باطل ، أخطأ فيه الواقدي لأن أبا صُفْرة لم يكن في هؤلاء ولا رآه أبو بكر قط ، وإنما وفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو شيخ أبيض الرأس واللحية ، فأمره أن يخضب فخضب ، وكيف يكون غلاماً في زمن أبي بكر وقد ولد المهلب وهو من أصاغر ولده قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين[2] . وقد كان في ولده من ولد قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بثلاثين سنة أو أكثر .

وكان المهلب المذكور من أشجع الناس ، وحمى البصرة من الخوارج ، وله معهم وقائع مشهورة بالأهواز استقصى أبو العباس المبرد في كتابه « الكامل » أكثرها ، فهي تسمى بصرة المهلب لذلك ، ولولا طولها وانتشار وقائعها لذكرت طرفاً منها .

وكان سيداً جليلاً نبيلاً ، روي أنه قدم على عبد الله بن الزبير أيام خلافته بالحجاز والعراق وتلك النواحي ، وهو يومئذ بمكة ، فخَلا به عبد الله يشاوره ، فدخل عليه عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف بن وهب القرشي الجمحي فقال : من هذا الذي قد شغلك يا أمير المؤمنين يومك هذا ؟ قال : أو ما تعرفه ؟ قال : لا ، قال : هذا سيد أهل العراق ، قال : فهو المهلب بن أبي صُفْرة ، قال : نعم ، فقال المهلب : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذا سيد قريش ، فقال : فهو عبد الله بن صفوان ، قال : نعم .

---

١ ر : فقتل أشرافهم ؛ بر من : مائة من أشرافهم .

٢ في بعض النسخ : بسنين .

قال ابن قتيبة في « المعارف »[1]: ولم يكن يعاب بشيء إلا بالكذب وفيه قيل: راح يكذب ، ثم قال ابن قتيبة بعد هذا : وأنا أقول : كان المهلب أتقى الناس لله عز وجل ، وأشرف وأنبل من أن يكذب ، ولكنه كان محرباً ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : الحرب خدعة ، وكان يعارض الخوارج بالكلمة فيورّي بها عن غيرها ، يرهب بها الخوارج ، وكانوا يسمونه الكذاب ويقولون : راح يكذب ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد حرباً ورى بغيرها .

وقال أبو العباس المبرد في « الكامل »[2] في شرح أبيات رمي فيها المهلب بالكذب ، ما صورته : وقوله « الكذاب » لأن المهلب كان فقيهاً ، وكان يعلم ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله « كل كذب يكتب كذباً إلا ثلاثة : الكذب في الصلح بين الرجلين ، وكذب الرجل لامرأته يَعِدُها ، وكذب الرجل في الحرب يتوعد ويتهدد » . وكان المهلب ربما صنع الحديث ليشدّ به أمر المسلمين ويضعف به من أمر الخوارج ، وكان حي من الأزد يقال لهم النَدَبُ إذا رأوا المهلب رائحاً قالوا : قد راح المهلب يكذب ، وفيه يقول رجل منهم :

أنت الفتى كل الفتى ... لو كنت تصدق ما تقول

وذكر المبرد في كتاب « الكامل »[3] في أواخره في فصل قتال الخوارج وما جرى بين المهلب والأزارقة : وكانت رُكُبُ الناس قديماً من الخشب ، فكان الرجل يَضْربُ بركابه فينقطع ، فإذا أراد الضرب والطعن لم يكن له معين أو معتمد ، فأمر المهلب فضربت الركُبُ من الحديد ، فهو أول من أمر بطبعها .

وأخبار المهلب كثيرة .

وتقلبت به الأحوال ، وآخر ما ولي خراسان من جهة الحجاج بن يوسف الثقفي –المقدم ذكره– فإنه كان أمير العراقين، وضم إليه عبد الملك بن مروان خراسان وسجستان ، فاستعمل على خراسان المهلب المذكور ، وعلى سجستان

---

١ المعارف : ٣٩٩ .

٢ الكامل ٣ : ٣١٨ .

٣ الكامل ٣ : ٣٧٨ .

عبيد الله بن أبي بكرة ، فورد المهلب خراسان واليـاً عليهـا سنة تسع وسبعين للهجرة .

وكان قد أصيب بعينه على سمرقند لـمـا فتحها سعيد بن عثمان بن عفان رضي الله عنه، في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه[1] ، فإنه كان معه في تلك الغزوة ، وفي تلك الغزوة تلك قلعت عين سعيد أيضاً ، وفيها قلعت أيضاً عين طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي المعروف بطلحة الطلحات المشهور بالكرم والجود ، وفي ذلك يقول المهلب :

لئن ذهبت عيني لقد بقيت نفسي وفيها بحمد الله عن تلك ما يُنسي
إذا جاء أمر الله أعيا خيولنا[2] ولا بد أن تعمى العيونُ لدى الرمس

وقيل إن المهلب قلعت عينه على الطالقان . ولم يزل المهلب والياً بخراسان حتى أدركته الوفاة هناك ، ولما حضره أجله عهد إلى ولده يزيد – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – وأوصاه بقضايا وأسباب ، ومن جملة ما قال له : يابني ، استعقل الحاجب ، واستظرف الكاتب ، فإن حاجب الرجل وجهه وكاتبه لسانه؛ ثم توفي في ذي الحجة سنة ثلاث وثمانين للهجرة ، بقرية يقال لها زاغول من أعمال مرو الروذ من ولاية خراسان ، رحمه الله تعالى .

وله كلمات لطيفة وإشارات مليحة تدل على مكارمه ورغبته في حسن السمعة والثناء الجميل ، فمن ذلك قوله : الحياة خير من الموت ، والثناء الحسن خير من الحياة ، ولو أعطيت ما لم يعطه أحد لأحببت أن تكون لي أذن أسمع بها ما يقال فيّ غداً إذا مت ؛ وقد قيل إن هذا الكلام لولده يزيد ، والله أعلم .

وكان المهلب يقول لبنيه : يابني ، أحسن ثيابكم ما كان على غيركم ، وقـد أشار إلى هذا أبو تمام الطائي فيما كتبه إلى من يطلب منه كسوة[3] :

فأنت العليم الطـّبّ أيُّ وصيةٍ بها كان أوصى في الثياب المهلبُ

---

[1] رضي الله عنه : سقطت من جميع النسخ ، ما عدا المختار .

[2] ق : أعيا حيولنا ؛ ر : تعيى خيولنا .

[3] ديوان أبي تمام ١ : ٢٨٦ .

وقد ذكر الطبري في تاريخه أنه توفي سنة اثنتين وثمانين ، والله أعلم ، والكلام على وفاته مذكور في ترجمة ابنه يزيد ، فلينظر هناك فإنه مستوفى .

ولما حضرته الوفاة جمع من حضره من بنيه ودعا بسهام فحزمت ، ثم قال : أترونكم كاسريها مُجَمَّعة ؟ قالوا لا ، قال : أفترونكم كاسريها مفرقة ؟ قالوا : نعم ، قال : هكذا الجماعة ، ثم مات[1] .

ولما مات رثاه الشعراء وأكثروا ، وفي ذلك يقول نهار بن توسعة الشاعر المشهور :

ألا ذهب الغَزوُ المقرِّبُ للغنى ... ومات الندى والجود بعد المهلَّبِ

أقاما بمَرْو الروذ لا يَبْرَحانها ... وقد قعدا من كل شرقٍ ومغرب

وخلف المهلبُ عدة أولاد نجباء كرماء أجواداً أمجاداً ، وقال ابن قتيبة في كتاب « المعارف » ويقالُ : إنه وقع إلى الأرض من صُلب المهلب ثلثمائة ولد — وقد تقدم في حرف الراء ذكر حفيديه روح ويزيد ابني حاتم بن قبيصة بن المهلب ، وسيأتي ذكر يزيد في حرف الياء إن شاء الله تعالى .

(280) ومن سراة أولاده أبو فراس المغيرة ، وكان أبوه يقدمه في قتال الخوارج ، وله معهم وقائع مأثورة تضمنتها التواريخ أبلى فيها بلاء أبان عن نجدته وشهامته وصرامته ، وتوجه صحبة أبيه إلى خراسان واستنابه عنه بمرو الشاهجان ، وتوفي بها في حياة أبيه سنة اثنتين وثمانين في شهر رجب ، ورثاه أبو أمامة زياد الأعجم ، وهو زياد بن سليمان ، ويقال ابن جابر ، وهو ابن عبد القيس الشاعر المشهور ، بقصيدته الحائية السائرة التي أولها :

قل للقوافل والغزاة إذا غزوا ... للباكرين وللمجدّ الرائحِ :

إن السماحة والمروءة ضمنا ... قبراً بمَرْو على الطريق الواضح

فإذا مررتَ بقبره فاعْقِرْ به ... كُومَ الهجان وكل طِرْفٍ سابح

وانضح جوانب قبره بدمائها ... فلقد يكون أخا دمٍ وذبائح

واظهر ببزّته وعقد لوائه ... واهتفْ بدعوة مُصلتِينَ شَرامح[2]

---

[1] بعد هذا في ر لي : بقرية يقال لها زاغول ، ثم أورد ما تقدم من كلمات له ....

[2] الشرمحي : الطويل القوي .

آب الجنود معاقباً أو قافلاً ... وأقام رَهْنَ حفيرةٍ وضرائح

وأرى المكارم يوم زيل بنعشه ... زالت بفضل فواضل ومدائح

رجفت لمصرعه البلادُ وأصبحت ... منا القلوبُ لذاك غير صحائح

الآن لما كنت أكرمَ من مشى ... وافتَرَّ نابك عن شَباة القارح

وتكاملت فيك المروءةُ كلها ... وأعنَتَّ ذلك بالفعال الصالح

وكفى بنا حزناً ببيتٍ حلّه ... أخرى المنون فليس عنه بنازح

فعفت منابره وحط سروجه ... عن كل طامحة وطرف طامح

وإذا يناح على امرىء فلتعلمنْ ... أن المغيرة فوق نوح النائح

تبكي المُغيرة خيلُنا ورماحُنا ... والباكيات برَنّةٍ وتَصايُح

مات المغيرةُ بعد طول تعرض ... للقتل بين أسنة وصفائح

وإذا الأمور على الرجال تشابهت ... وتنوزعت[1] بمغالقٍ ومفاتح

فتل[2] السحيلَ بمُبْرَم ذي مِرّةٍ ... دون الرجال بفضل عقل راجح

وأرى الصّعالكَ للمغيرة أصبحت ... تبكي على طَلْق اليدين مسامح

كان الربيعَ لهم إذا انتجعوا الندى ... وخَبَتْ لوامعُ كلّ برقٍ لائح

كان المهلبُ بالمغيرةِ كالذي ... ألقى الدلاء إلى قليب المائح

فأصاب جمة ما استقى فسقى له ... في حَوْضه بنوازع وموانح

أيام لو يَحْتَلُّ وَسْطَ مفازة ... فاضت معاطشُها بشرب سائح

إن المهلب لن يزال لها فتى ... يَمْري قوادمَ كل حرب لاقح

بالمقربات لواحقاً آطالها ... تجتابُ سهلَ سباسبٍ وصحاصح

مُتَلَبِّباً تهفو الكتائبُ حوله ... مُلحَ المُتُونِ من النضيح الراشح

ملكٌ أغر متوّجٌ يسمو له ... طرف الصديق بغض طرف الكاشح

رَفّاع ألوية الحروب إلى العدا ... بسُعُود طير سوانح وبوارح

---

١ ق ن بر من : وتوزعت .

٢ ق ص ن : فقد .

وهذه القصيدة من غرر القصائد ونُخَبها ، ولولا خوف الإطالة لأثبتها كلها وهي طويلة تزيد على خمسين بيتاً ، وقد ذكرها أبو علي القالي — المقدم ذكره في حرف الهمزة[1] — في كتابه الذي جعله ذيلاً على أماليه[2] ، وتكلم على بعض أبياتها، وقال : إنها قد تنسب إلى الصَّلَتان العبدي الشاعر المشهور ، ولكن الأصح أنها لزياد الأعجم . والبيت الثاني منها تستشهد به النحاة في كتبهم على جواز تذكير المؤنث إذا لم يكن له فرج حقيقي ، وهو أشهر بيت في هذه القصيدة لكثرة استعمالهم له ، وقد أخذ بعض الشعراء معنى البيت الثالث والرابع فقال[3] :

احملاني إن لم يكن لكما عَقْـ ـرٌ إلى جَنْبِ قبره فاعقِراني
وانضَحا من دمي عليه فقد كا ن دمي من نداه لو تعلمانِ

(281) وصاحب هذين البيتين هو الشريف أبو محمد الحسن بن محمد بن علي بن أبي الضوء العلوي الحسيني نقيب مشهد باب التبن ببغداد ، وهما من جملة قصيدة يرثي بها النقيب الطاهر والد عبيد الله ، ذكر ذلك العماد الكاتب في كتاب « الخريدة » وقال أيضاً : إن الشريف أبا محمد المذكور توفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ببغداد ، رحمه الله تعالى .

ثم بعد وقوفي على ما ذكره العماد في «الخريدة» وجدت هذين البيتين في كتاب « معجم الشعراء » تأليف المرزباني لأحمد بن محمد الخثعمي ، وكنيته أبو عبد الله، ويقال أبو العباس ، ويقال إنه الحسن ، وكان يتشيع ويُهاجي البحتري .

وكان المغيرة بن المهلب المذكور قد مزق قباء ديباجاً كان على زياد الأعجم فقال زياد في ذلك :

لعمرُكَ ما الديباجَ مزقْتَ وَحْدَه ولكنَّما مزقـتَ عرض المهلبِ

---

١ انظر ج ١ : ٢٢٦ .

٢ ذيل الأمالي : ٨ — ١١ .

٣ انظر ترجمة خالد الكاتب ج ٢ : ٢٣٦ حيث ورد البيتان ؛ والترجمة المذكورة مما انفردت به النسختان ص ر ، وبين ما قاله المؤلف هنا وما ثبت هنالك ما قد يشير إلى أن المؤلف لا علاقة له بترجمة خالد الكاتب .

فبلغ ذلك المهلب فأرضاه واستعطفه .

وذكر أبو الحسين علي بن أحمد السّلامي في كتاب « تاريخ ولاة خراسان » أن رجلاً سمع من زياد الأعجم هذه القصيدة قبل أن يسمعها المهلب فجاء إلى المهلب فأنشده إياها ، فأعطاه مائة ألف درهم ، ثم أتاه زياد الأعجم فأنشده إياها ، فقال له : قد أنشدنيها رجل قبلك ، فقال : إنما سمعها مني ، فأعطاه مائة ألف درهم .

وللمهلب عقب كثير بخراسان يقال لهم المهالبة وفيهم يقول بعض شعراءِ « الحماسة » وهو الأخنس الطائي يمدح المهلب[1] :

نزلتُ على آل المهلب شاتياً بعيداً عن الأوطان في الزمن المحلِ

فما زال بي مَعْرُوفهم وافتِقادُهم وبرُّهمُ حتى حسبتُهُمُ أهلي

والوزير أبو محمد المهلبي — المقدم ذكره في حرف الحاء[2] — من نسله أيضاً ، رحمهم الله أجمعين .

وفي أوائل هذه الترجمة أسماء تحتاج إلى الضبط والكلام عليها .

فأما العتيك والأزد فقد تقدم الكلام عليهما .

وأما مُزَيقياء فهو بضم الميم وفتح الزاي وسكون الياء المثناة من تحتها وكسر القاف وفتح الياء الثانية وبعدها همزة ممدودة ، وهو لقب عمرو المذكور وكان من ملوك اليمن ، وإنما لقب بذلك لأنه كان يلبس كل يوم حلتين منسوجتين بالذهب ، فاذا أمسى مزقهما وخلعهما ، وكان يكره أن يعود فيهما ، ويأنف أن يلبسهما أحد غيره ، وهو الذي انتقل من اليمن إلى الشام لقصة يطول شرحها ، والأنصار من ولده ، وهم الأوس والخزرج ، وحكى أبو عمر ابن عبد البر صاحب كتاب « الاستيعاب » في كتابه الذي سماه « القصد الأمم في أنساب العرب والعجم »[3] وهو كتاب لطيف الحجم أن الأكراد من نسل عمرو مزيقياء

---

١ شرح الحماسة للمرزوقي ، رقم : ٢٧٦ .

٢ انظر ج ٢ : ١٢٤ .

٣ القصد والأمم : ٣١ .

المذكور ، وأنهم وقعوا إلى أرض العجم فتناسلوا بها وكثر ولدهم ، فسموا الكرد ، وقال بعض الشعراء في ذلك وهو يعضد ما قاله أبو عمر ابن عبد البر :

لعمرك ما الأكراد أبناء فارس ولكنه كرد بن عمرو بن عامر

وأما أبوه عامر فإنما لقب بماء السما لجوده وكثرة نفعه ، فشبه بالغيث .

وأما المنذر بن ماء السماء اللخمي أحد ملوك الحيرة ، فإن أباه امرؤ القيس ابن عمرو بن عدي ، وماء السماء أمه ، وهي بنت عوف بن جُشَم بن النمر بن قاسط ، وإنما قيل لها ماء السماء لحسنها وجمالها .

وأما دَبا بفتح الدال المهملة والباء الموحدة وبعدها ألف مقصورة ، وهو اسم موضع بين عمان والبحرين أضيفت جماعة من الأزد إليه لما نزلوه ، وكان الأزد عند تفرقهم – حسبما ذكرناه في أول هذه الترجمة – أضيفت كل طائفة إلى شيء يميزها عن غيرها ، فقيل أزد دَبا ، وأزد شَنُوءَة ، وأزد عمان ، وأزد السَّراة ، ومرجع الكل إلى الأزد المذكور ، فلا يظن ظان أن الأزد مختلف باختلاف المضافين إليه ، وقد قال الشاعر – وهو النجاشي ، واسمه قيس بن عمرو بن مالك ابن حزن بن الحارث بن كعب بن الحارث الحارثي[1] – :

وكنت كذي رجلين رجل صحيحة ورجل بها ريبٌ من الحدثانِ
فأما التي صحت فأزد شنوءَة وأما التي شلت فأزد عمانِ

ولما هزم المهلب قَطَري بن الفُجاءة – المقدم ذكره[2] – بعث إلى مالك بن بشير فقال : إني موفدك إلى الحجاج فسِر فإنما هو رجل مثلك ، وبعث إليه بجائزة فردها وقال : إنما الجائزة بعد الاستحقاق ، وتوجه فلما دخل على الحجاج قال : ما اسمك ؟ قال : مالك بن بشير ، قال : ملك وبشارة ، ثم قال : كيف تركت المهلب ؟ قال : أدرك ما أمل وأمن ما خاف ، قال : فكيف هو بجنده ؟

---

١ ترجمة النجاشي في الاصابة ٦ : ٢٦٣ والخزانة ٤ : ٣٦٨ والسمط : ٨٩٠ والشعر والشعراء : ٢٤٦ .

٢ انظر ج ٤ : ٩٣ .

قال : والد رءوف ، قال : كيف رضاهم عنه ؟ قال : وسعهم بالفضل وأقنعهم بالعدل ، قال : كيف تصنعون إذا لقيتم عدوكم ؟ قال : نلقاهم بجدنا فنقطع فيهم ويلقوننا بجدهم فيطمعون فينا ، قال : فما حال قَطَري بن الفُجاءة ؟ قال : كادنا بمثل ما كدناه به ، قال : فما منعكم من اتباعه ؟ قال : رأينا المقام من ورائه خيراً من اتباعه ؟ قال : فأخبرني عن ولد المهلب ؟ قال : رعاة البيات حتى يؤمنوه وحماة السرح حتى يردوه ، قال : أيهم أفضل ؟ قال : ذلك إلى أبيهم ، قال : لتقولن ، قال : هم كحلقة مفرغة لا يعلم طرفاها ، قال : أقسمت عليك هل رَوَّيْتَ في هذا الكلام ؟ قال : ما أطلع الله أحداً على غَيْبِه . فقال الحجاج لجلسائه : هذا والله الكلام المطبوع لا الكلام المصنوع ، قلت : كان حق هذا الفصل أن يكون متقدماً ، لكنه كذا وقع ، والله تعالى أعلم بصوابه وصحته .

٧٥٥

مهيار الديلمي

أبو الحسين مِهْيار بن مَرْزَوَيه الكاتب الفارسي الديلمي الشاعر المشهور ؛ كان مجوسياً فأسلم ، ويقال إن إسلامه كان على يد الشريف الرضي أبي الحسن محمد الموسوي – المقدم ذكره – وهو شيخه ، وعليه تخرج في نظم الشعر ، وقد وازن كثيراً من قصائده . وذكر شيخنا ابن الأثير الجزري في تاريخه[١] أنه أسلم في سنة أربع وتسعين وثلثمائة ، فقال له أبو القاسم ابن برهان : يا مهيار قد انتقلت بأسلوبك في النار من زاوية إلى زاوية ، فقال : وكيف ذاك ؟ قال : كنت مجوسياً فصرت تسبّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعرك .

---

٧٥٥ – ترجمته في تاريخ بغداد ١٣ : ٢٧٦ والمنتظم ٧ : ٩٤ ودمية القصر : ٧٦ والبداية والنهاية ١٢ : ٤١ وعبر الذهبي ٣ : ١٦٧ والشذرات ٣ : ٢٤٢ .

١ تاريخ ابن الأثير ٩ : ٤٥٦ .

وكان شاعراً جَزْلَ القول ، مقدماً على أهل وقته ، وله ديوان شعر كبير يدخل في أربع مجلدات ، وهو رقيق الحاشية طويل النفس في قصائده .

ذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في « تاريخ بغداد » وأثنى عليه وقال : كنت أراه يحضر جامع المنصور في أيام الجمعات ، يعني ببغداد ، ويُقرأ عليه ديوان شعره ولم يقدر لي أسمع منه شيئاً .

وذكره أبو الحسن الباخَرْزي –المقدم ذكره– في كتاب « دمية القصر » فقال في حقه : هو شاعر ، له في مناسك الفضل مشاعر ، وكاتب ، تجلى تحت كل كلمة من كلماته كاعب ، وما في قصيدة من قصائده بيت ، يتحكم عليه لو وليت ، وهي مَصْبُوبة في قوالب القلوب ، وبمثلها يعتذر الزمان المذنب عن الذنوب ؛ ثم عقب هذا الكلام بذكر مقاطيع من شعره وأبيات من جملة قصائده .

وذكره أبو الحسن علي بن بَسّام في كتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » وبالغ في الثناء عليه وذكر شيئاً من شعره . ومن نظمه المشهور قصيدته التي أولها[1] :

سقى دارها بالرقمتَيْنِ وحيّاها ... مُلِثٌ يُحيلُ التربَ في الدار أمواها

ومنها :

وكيف بوصل الحبل من أمّ مالك ... وبين بلادينا زَرودُ وحبْلاها
يراها بعينِ الشوق قلبي على النوى ... فيحظى ، ولكن مَنْ لعيني برؤياها
فلله ما أصفى وأكدرَ حبها ... وأبعدها مني الغداة وأدناها
إذا استوحشت عيني أنستُ بأن أرى ... نظائرَ تصبيني إليها وأشباها
وأعتنِقُ الغصن الرطيب لِقَدّها ... وأرشف ثغر الكأس أحسبه فاها
ويومَ الكثيب استشرفت ليَ ظبيةٌ ... مولهة قد ضل بالقاع خشفاها
يُدَلّهُ خوفُ الثكل حبةَ قلبها ... فتزداد حسناً مقلتاها وليتاها
فما ارتاب طرفي فيكِ يا أم مالك ... على صحة التشبيه أنك إياها

---

[1] ديوانه ٤ : ١٨٣ .

فإن لم تكوني خدهـا وجبينها فإنك أنت الجيد أو أنت عيناها
ألوامـهُ في حب دار عزيزة[1] يشق على رجم المطامع مرماها
دعوه ونجداً إنهـا شأن قلبه فلو أن نجداً تَـلعةٌ ما تعدّاها
وهبكم منعتم أن يراها بعينـه فهـل تمنعون القلبَ أن يتمناها
وليلٍ بذات الأثل قَصّر طوله سُرى طيفِها ، آها لذكرته آها
تخطت إليّ الهول مشياً على الهوى وأخطارِه ، لا يصغر الله ممشاها
وقد كاد أسداف الدجى أن تضلها فما دَلّها إلا وميضُ ثناياها

وله من أبيات[2] :

إن التي عَلّقتَ قلبك حبّها راحت بقلب منك غير عَلُوقِ
عقدت ضمانَ وفائها من خصرها فوهى ، كلا العقدين غير وثيق

ومن سائر شعره أيضاً قوله رحمه الله تعالى[3] :

بكر العارض تحدوه النّعامي فسقاك الري يا دار أماما
[وتمشت فيكِ أنفاس الصبا يتناجين بأنفـاس الخزامى][4]

ومنها :

وبجرعاءِ الحمى قلبي فعج بالحمى واقرأ على قلـبي السلاما
وترّجل فتحدث عجبـا أن قلباً سار عن جسم أقاما
قل لجيران الغضى آها على طيب عيش بالغضى لو كان داما
نصلُ العـام ولا ننساكمُ وقصارى الوجد أن نسلخ عاما
حمّلوا ريـح الصبا نشركمُ قبل أن تحمـل شيحاً وثماما

---

١ الديوان : غريبة .
٢ ديوانه ٢ : ٢٩٧ .
٣ ديوانه ٣ : ٣٢٧ .
٤ زيادة من المختار .

وابعثوا أشباحكمْ لي في الكرى إن أذنتم لجفوني أن تناما

وهي قصيدة طويلة نقتصر من أطايبها على هذا القدر طلباً للاختصار .
ومن رقيق شعره قصيدته التي منها[1] :

أرقت فهل لهاجعة بسَلعٍ على الأرقِينَ أفئدة ترقُّ
نشدتك بالمودة يا ابن ودي فإنك بي من ابن أبي أحق
أسِلْ بالجزع دمعك إن عيني إذا استبررتها[2] دمعا تعق
وإن شق البكاء على المعافى فلم أسألك إلا ما يشق

وله في القناعة ، وقد أحسن[3] [فيها كل الاحسان][4] :

يُلحَى على البخل الشحيح بماله أفلا تكون بماء وجهك أبخلا
أكرم يديك عن السؤال فإنما قدر الحياة أقل من أن تسألا
ولقد أضم إليّ فضل قناعتي وأبيت مشتملاً بها متزملا
وأري العدوّ على الخصاصة شارةً تصف الغنى فيخالني متمولا
وإذا امرؤ أفنى الليالي حسرة وأمانيا أفنيتهن توكلا

ومن بديع مدائحه[5] قوله من جملة قصيدة :

وإذا رأوك تفرقت أرواحهم فكأنما عرفتك قبل الأعينِ
وإذا أردت بأن تفل كتيبة لاقيتها فتسمّ فيها واكتن

وله من جملة قصيدة أبيات تتضمن العتب[6] :

---

١ ديوانه ٢ : ٣٥٧ .
٢ ق : استبريتها ؛ لي : استنزرتها ؛ ص : استبرزتها ، ن : استبزرتها .
٣ ديوانه ٤ : ٣٢ .
٤ زيادة من ق ، وانظر الديوان ٣ : ١٣٨ .
٥ ن ر : مديحه .
٦ ديوانه ٣ : ٣٤٦ .

إذا صور الإشفاق لي كيف أنتمُ وكيف إذا ما عَنّ ذكريَ صرتمُ
تنفست عن عتب ، فؤاديَ مفصحُ به ، ولساني للحفاظ يجمجم
وفي فيّ ماءٌ من بقايا ودادكم كثيراً به من ماء وجهي أرقتم
أضمّ فمي ضنّاً عليه وبينه وبين انسكابٍ ريثما أتكلم

وديوانه مشهور فلا حاجة إلى الإطالة في إيراد محاسنه .
ويعجبني كثيراً قوله من جملة قصيدة طويلة بيت واحد وهو[1] :

بنا أنتمُ من ظاعنين وخلفوا قلوباً أبت أن تعرف الصبر عنهمُ

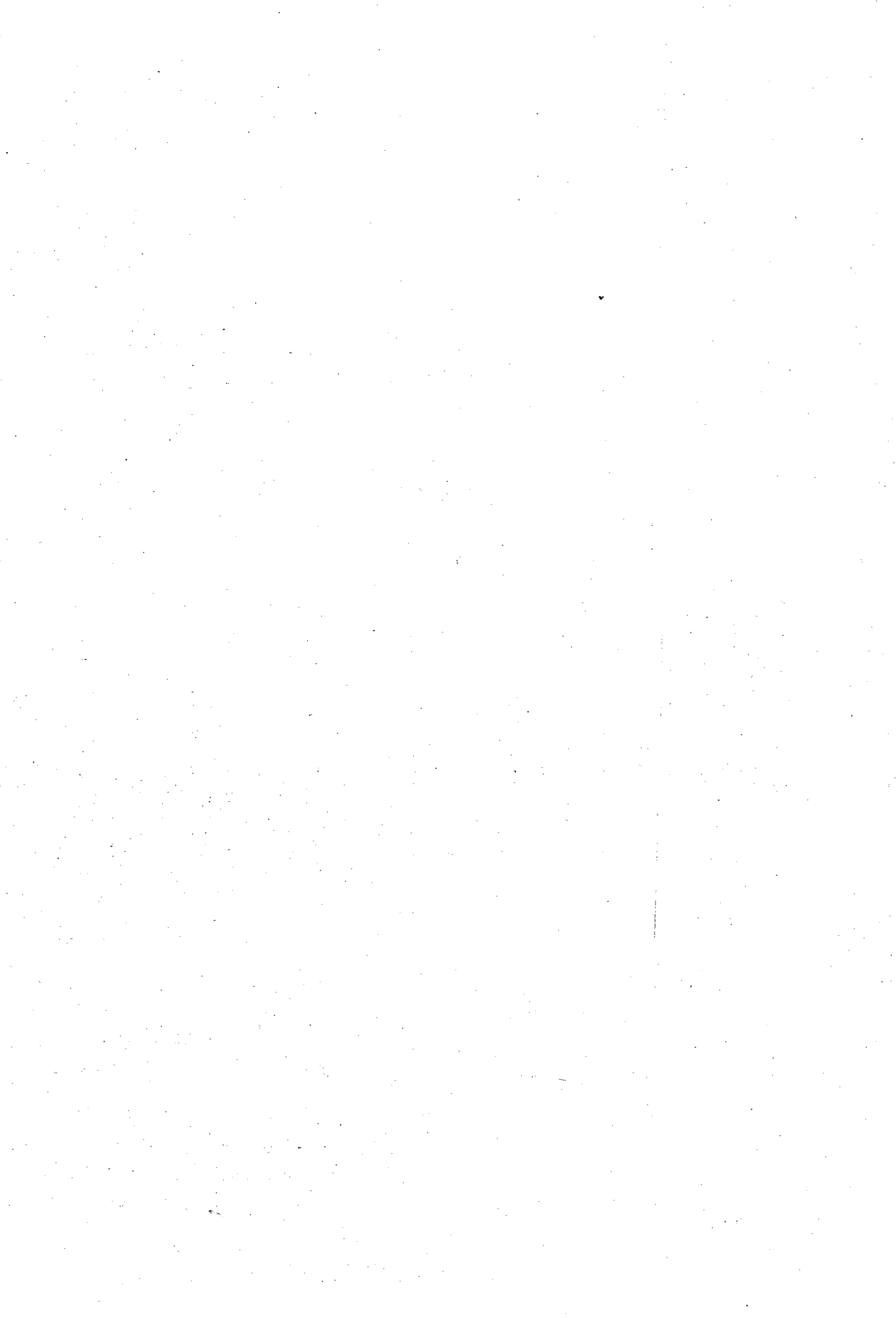
وتوفي ليلة الأحد لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة ثمان وعشرين وأربعمائة .
وفي تلك السنة توفي الرئيس أبو علي ابن سينا الحكيم المشهور – حسبما تقدم ذكره في ترجمته[2] – رحمهما الله تعالى؛ ورأيت في بعض التواريخ أنه توفي سنة ست وعشرين ، والأول أصح ، والله أعلم .
وذكر الباخرزي المذكور في كتابه « الدمية » أيضاً ولده الحسين بن مهيار ، ونسب إليه القصيدة الحائية التي من جملتها :

يا نسيم الريح من كاظمة شدّ ما هجتِ البكا والبرحا

وهي قصيدة طويلة ، وهي من مشاهير قصائد مهيار ، ولا أعلم من أين وقع له هذا الغلط .
ومهيار : بكسر الميم وسكون الهاء وفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف راء .
ومَرْزَويه : بفتح الميم وسكون الراء وفتح الزاي والواو وبعدها ياء مثناة من تحتها ثم هاء ساكنة ، وهما اسمان فارسيان لا أعرف معناهما .

---

١ ديوانه ٣ : ٣٤٤ وهو من القصيدة السابقة .
٢ انظر ج ٢ : ١٥٧ .




حرف النون



٧٥٦

نافع مولى ابن عمر

أبو عبد الله نافع مولى عبد الله بن عمر ، رضي الله عنهم ؛ كان ديلمياً ، وأصابه مولاه عبدالله بن عمر في غزاته ، وهو من كبار الصالحين[1] التابعين ، سمع مولاه وأبا سعيد الخدري ، وروى عنه الزهري وأيوب السختياني ومالك بن أنس ، رضي الله عنهم . وهو من المشهورين بالحديث ، ومن[2] الثقات الذين يؤخذ عنهم ويجمع حديثهم ويعمل به ، ومعظم حديث ابن عمر عليه دار . وقال مالك : كنت إذا سمعت حديث نافع عن ابن عمر لا أبالي ألا أسمعه من أحد ؛ وأهل الحديث يقولون : رواية الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر سلسلة الذهب لجلالة كل واحد من هؤلاء الرواة .

وحكى الشيخ أبو إسحاق الشيرازي ، رحمه الله تعالى ، في كتاب «المهذب» في باب الوليمة والنثر عن نافع قال : كنت أسير مع عبد الله بن عمر ، رضي الله عنهما ، فسمع زمارة راع ، فوضع إصبعيه في أذنيه ثم عدل عن الطريق ، فلم يزل يقول : يا نافع أتسمع ؟ حتى قلت : لا ، فأخرج إصبعيه عن أذنيه ثم رجع إلى الطريق ، ثم قال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع .

وفي هذا الأثر إشكال تسأل[3] عنه الفقهاء ، وهو أن ابن عمر كيف سد أذنيه

---

٧٥٦ – ترجمته في تذكرة الحفاظ : ٩٩ وعبر الذهبي ١ : ١٤٧ ومرآة الجنان ١ : ٢٥١ والمعارف : ٤٦٠ وتهذيب التهذيب ١٠ : ٤١٢ والشذرات ١ : ١٥٤ ، وأكثر المصادر لم تزد في نسبه عن ذكر اسمه ولكنه ورد في النسخ ر ن بر من : نافع بن عبد الله .

١ الصالحين : سقطت من ر بر من .

٢ ن : وهو من .

٣ ق ن : يسأل .

عن استماع صوت الزمارة، ولم يأمر مولاه نافعاً بفعل ذلك بل مكنه منه، وكان يسأله كل وقت: هل انقطع الصوت أم لا؟ وقد أجابوا عن الإشكال بأن نافعاً حينئذ كان صبياً، فلم يكن مكلفاً حتى يمنعه من الاستماع، ويرد على هذا الجواب سؤال آخر، وهو أن الصحيح أن إخبار الصبي غير مقبول، فكيف ركن ابن عمر إلى إخباره في انقطاع الصوت؟ وهذا الأثر يعضد حجة من قال: إن رواية الصبي مقبولة، وفي ذلك خلاف مشهور، وليس هذا موضع الكلام عليه.

وأخبار نافع كثيرة؛ وتوفي سنة سبع عشرة، وقيل سنة عشرين ومائة، رضي الله عنه.

٧٥٧

نافع المقرىء

أبو رُوَيم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نُعَيم، مولى جَعْوَنة بن شعُوب الشّجْعي، المقرىء المدني أحد القراء السبعة؛ كان إمام أهل المدينة والذي صاروا إلى قراءته ورجعوا إلى اختياره، وهو من الطبقة الثالثة بعد الصحابة، رضوان الله عليهم، وكان محتسباً فيه دُعابة، وكان أسود شديد السواد، قال ابن أبي أويس، قال لي مالك رضي الله عنه: قرأت على نافع، وقال الأصمعي، قال لي نافع: أصلي من أصبهان، هكذا قاله الحافظ أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» وكان قرأ على أبي ميمونة مولى أم سلمة زوج رسول الله[1] صلى الله عليه وسلم، وكان له راويان: وَرْش، وقنبل، وقد سبق ذكرهما في حرف العين[2]. وتوفي

---

٧٥٧ – ترجمته في المعارف: ٥٨٢ وميزان الاعتدال ٤: ٢٤٢ وعبر الذهبي ١: ٢٥٧ وغاية النهاية ٢: ٣٣٠ وتهذيب التهذيب ١٠: ٤٠٧ ومرآة الجنان ١: ٣٦٨ والشذرات ١: ٢٧٠.

١ ق: زوج النبي؛ ر: زوجة النبي.

٢ ذكر قنبل في حرف العين ٣: ٤٢.

نافع المذكور سنة تسع وخمسين ، وقيل غير ذلك ، بالمدينة ، والأول أصح . وقيل إن كنيته أبو الحسن ، وقيل أبو عبد الله ، وقيل أبو عبد الرحمن ، وقيل أبو نعيم ، والله أعلم بالصواب .

وجَعْوَنة : بفتح الجيم وسكون العين المهملة وفتح الواو والنون وبعدها هاء ساكنة ، وهو في الأصل اسم الرجل القصير ، ثم سمي به الرجل وإن لم يكن قصيراً وجعل علماً عليه ، وكان جَعْونة حليف حمزة بن عبد المطلب ، وقيل حليف العباس بن عبد المطلب ، رضي الله عنهما ، وقيل حليف بني هاشم .

وشَعُوب : بفتح الشين المعجمة وضم العين المهملة وسكون الواو وبعدها باء موحدة ، وهو في الأصل اسم المنية .

والشّجعي : بكسر الشين المعجمة وسكون الجيم وبعدها عين مهملة ، هذه النسبة إلى بني شِجْع ، وهم من بني عامر بن ليث ، ولم يتعرض السمعاني إلى ذكر هذه النسبة[1] .

٧٥٨

المطــرزي

أبو الفتح ناصر بن أبي المكارم عبـد السيد بن علي المطرّزي الفقيه الحنفي النحوي[2] الأديب الخوارزمي ؛ كانت له معرفة تامة بالنحو واللغة والشعر وأنواع الأدب ، قرأ ببلده على أبيه وعلى أبي المؤيد الموفق بن أحمد بن محمد المكي خطيب خوارزم وغيرها ، وسمع الحديث من أبي عبد الله محمد بن علي بن أبي سعد التاجر

---

١ يزاد في ن عند آخر كل ترجمة « والله أعلم » أو « والله أعلم بالصواب » وإذا انفردت بذلك فاننا لا نثبته .

٧٥٨ – ترجمته في مرآة الجنان ٤ : ٢٠ وانباه الرواة ٣ : ٣٣٩ وفي الحاشية ذكر لعدة مصادر أخرى .

٢ ر : النحوي الحنفي .

وغيره وكان تام المعرفة بفنه ، رأساً في الاعتزال داعياً إليه ، ينتحل مذهب الإمام أبي حنيفة ، رضي الله عنه في الفروع ، فصيحاً ، وكان في الفقه فاضلاً وله عدة تصانيف نافعة منها : « شرح المقامات » للحريري ، وهو على وجازته مفيد محصل للمقصود ، وله كتاب « المغرب »[1] تكلم فيه على الألفاظ التي يستعملها الفقهاء من الغريب ، وهو للحنفية بمثابة كتاب الأزهري للشافعية ، وما أقصر فيه ، فإنه أتى جامعاً للمقاصد ، وله « المعرب في شرح المغرب » وهو كبير وقليل الوجود ، وله « الاقناع » في اللغة و « مختصر الاقناع » و « مختصر إصلاح المنطق » و « المصباح » في النحو و « المقدمة » المشهورة في النحو أيضاً ، وله غير ذلك ، وانتفع الناس به وبكتبه .

ودخل بغداد حاجاً سنة إحدى وستمائة وكان معتزلي الاعتقاد ، وجرى له هناك مباحث مع جماعة من الفقهاء ، وأخذ أهل الأدب عنه . وكان سائر الذكر مشهور السمعة بعيد الصيت . وله شعر ، فمن ذلك – وفيه صناعة :

وزَنْدُ ندى فواضلهِ وَرِيٌ ... ورَنْدُ رُبا فضائلهِ نضيرُ
ودر جلاله أبداً ثمين ... ودر نواله أبداً غزير

وله أيضاً :

وإني لأستحيي من المجد أن أرَى ... حليفَ غوانٍ أو أليف أغاني

وله أيضاً :

تَعامى زماني عن حقوقي وإنه ... قبيح على الزرقاء تبدي تعاميا
فإن تنكروا فضلي فإن رغاءَهُ ... كفى لذوي الأسماع منكم مناديا

وله أشعار كثيرة يستعمل فيها التجانيس .

وكانت ولادته في رجب سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة بخوارزم ، وهو كما يقال خليفة الزمخشري ، فإنه توفي في تلك السنة بتلك البلدة كما سبق في ترجمته .

---

[1] ق ر ص : المعرب .

وتوفي المطرزي يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من جمادى الأولى سنة عشر وستمائة بخوارزم أيضاً ، رحمه الله تعالى ، ورثي بأكثر من ثلثمائة قصيدة عربية وفارسية .

والمُطَرِّزي : بضم الميم وفتح الطاء المهملة وتشديد الراء وكسرها وبعدها زاي ، هذه النسبة إلى من يطرز الثياب ويرقمها ، ولا أعلم هل كان يتعاطى ذلك بنفسه ، أم كان في آبائه من يتعاطى ذلك فنسب له ، والله أعلم .

(282) [وتوفي شيخه الموفق بن أحمد الخطيب المذكور في حادي عشر صفر الخير سنة ثمان وستين وخمسمائة بخوارزم ، رحمه الله تعالى][1] .

٧٥٩

نزار العبيدي

أبو المنصور نزار ، الملقب العزيز بالله ، ابن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي العُبَيدي ، صاحب مصر وبلاد المغرب ؛ قد تقدم ذكر والده وأجداده وولده وأحفاده . ولي العهد بمصر يوم الخميس رابع شهر[2] ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلثمائة واستقل بالأمر بعد[3] وفاة أبيـه ، وكان يوم الجمعة حادي عشر الشهر المذكور — وفيه الخلاف المذكور في ترجمته — وسترت وفاة أبيه وسلم عليه بالخلافة. وكان كريماً شجاعاً حسن العفو عند المقدرة ، وقصته مع أفتكين[4] التركي غلام معز الدولة مشهورة ، وعفا عنه لما ظفر به ، وكان قد غرم في محاربته مالاً جزيلاً ، ولم يؤاخذه بما صدر منه ، — وقد سبق في ترجمة عضد الدولة بن بُويه

---

١ انفردت به ق ص ن .

٧٥٩ — ترجمته وأخباره في تاريخ ابن الأثير (ج ٨ ، ٩) والمنتظم ٧ : ١٩٠ وابن خلدون ٤ : ٥١ وخطط المقريزي ١ : ٣٥٤ والدرة المضية : ١٧٤ ومرآة الجنان ٢ : ٤٢٠ وعبر الذهبي ٣ : ٣٤ والشذرات ٣ : ١٢١ وبلغة الظرفاء : ٧١ .

٢ ق ص ن : رابع عشر .

٣ ر ص ن : يوم .

٤ ن ص ق : الفتكين .

المقدم ذكره في حرف الفاء طرف من خبره فلا حاجة إلى إعادته[1] — وهي قضية تدل على حلمه[2] وحسن عفوه .

وذكر الأمير المختار المعروف بالمسبحي أنه الذي اختط أساس الجامع بالقاهرة مما يلي باب الفتوح ، وحفر وبني ، وبدىء بعمارته سنة ثمانين وثلثمائة في شهر رمضان . ثم قال المسبحي أيضاً : وفي أيامه بني قصر البحر بالقاهرة الذي لم يبن مثله في شرق ولا غرب ، وقصر الذهب وجامع القرافة والقصور بعين شمس.

وكان أسمر أصهب الشعر أعين أشهل العين عريض المنكبين حسن الخلق قريباً من الناس لا يؤثر سفك الدماء ، بصيراً بالخيل والجارح من الطير ، محباً للصيد مغرى به وبصيد السباع[3] ويعرف الجوهر والبز ، وكان أديباً فاضلاً .

ذكره أبو منصور الثعالبي في كتاب « يتيمة الدهر »[4] وأورد له شعراً قاله في بعض الأعياد وقد وافق موت بعض أولاده وعقد عليه المآتم ، وهو :

نحن بنو المصطفى ذوو محن ... يَجرَعها في الحياة كاظِمُنا

عجيبة في الأنام محنتنا ... أولنا مُبْتَلَى وخاتمنا[5]

يفرح هذا الورى بعيدهمُ ... طراً وأعيادنا مآتمنا

ثم قال بعد فصل طويل : وسمعت الشيخ أبا الطيب يحكي أن المرواني صاحب الأندلس كتب إليه نزار صاحب مصر كتاباً يسبه فيه ويهجوه ، فكتب إليه « أما بعد ، فإنك قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك ، والسلام » فاشتد على نزار وأفحمه عن الجواب .

وذكر أبو الحسن الروحي في كتاب «تحفة الظرفاء في تاريخ الخلفاء»[6] أن هذه

---

١ ص : الإعادة . ٢ ق : جميله .

٣ ن : الضباع ؛ ق : الضباع والسباع .

٤ اليتيمة ١ : ٣٠٩ .

٥ ر : وآخرنا ، وأثبت الروايتين في ق ؛ وفي اليتيمة « وآخرنا » .

٦ المطبوع من هذا الكتاب يحمل اسم « بلغة الظرفاء في ذكرى تواريخ الخلفاء » والقصة فيه ص : ٣٥ .

الواقعة كانت بين الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله ، وهو المرواني صاحب الأندلس وبين العزيز المذكور ، وأن المستنصر كتب إلى العزيز يسبه ويهجوه ، فكتب إليه العزيز هذه الكلمات[1] والله أعلم بالصواب .

وقد تقدم في ترجمة جده المهدي[2] عُبَيد الله طرف من أخبار نسَبهم والطعن فيه ، وأكثر أهل العلم بالنسب لا يصححونه ، وقد تقدم في ترجمة الشريف أبي محمد عبد الله بن طباطبا ما دار بينه وبين المعز والد هذا العزيز في أمر النسب وما أجاب به المعز ، وصار هذا كالمستفيض بين الناس . وفي مبادي ولاية العزيز المذكور صعد المنبر يوم الجمعة فوجد هناك ورقة فيها مكتوب :

إنا سمعنا نسباً منكراً ... يُتلى على المنبر في الجامعِ

إن كنت فيما تدّعي صادقاً ... فاذكر أباً بعد الأب الرابع[3]

وإن ترد تحقيق ما قلته ... فانسب لنا نفسك كالطائع

أو لا دع الأنساب مستورةً ... وادخلْ بنا في النسبِ الواسع

فإنّ أنسابَ بني هاشم ... يَقْصُرُ عنها طمعُ الطامع

وإنما قال : « فانسب لنا نفسك كالطائع » لأن هذه القضية[4] جرت في خلافة الطائع لله خليفة بغداد .

وصعد العزيز يوماً آخَرَ المنبر[5] ، فرأى ورقة فيها مكتوب :

بالظلم والجور قد رضينا ... وليس بالكفر والحماقه

---

١ لخص هذه الحكاية في المختار بقوله « وقيل إن هذه القضية بالعكس وأن العزيز نزاراً المجيب وأن المرواني الكاتب المبتدىء » وعلق معلق في الهامش بقوله : « لا ينبغي أن تكون بالعكس إذ لا خلاف في أمر الخلفاء الأمويين بالأندلس ولم يقدح أحد في نسبهم بخلاف الفاطميين إذ نسبهم مطعون فيه جداً » .

٢ المختار : في ترجمة أبيه المعز .

٣ ق ن ر : السابع .

٤ المختار : القصة .

٥ ق : وصعد المنبر يوماً آخر أعني العزيز .

إن كنت أعطيت علمَ غيبٍ   فقل لنـا كاتب البطاقه

وإنما كتب هذا لأنهم كانوا يدعون علم المغيبات ، وأخبارهم في ذلك مشهورة .

ولأبي الرقعمق أحمد بن محمد الأنطاكي – المقدم ذكره[1] – قصيدة رائية يمدح بها العزيز المذكور ، وهي من أجود مدائحه فيه .

وزادت مملكته على مملكة أبيه ، وفتحت له حمص وحماة وشَيْزَر وحلب ، وخطب له أبو الدواد محمد بن المسيب وهو أخو المقلد بن المسيب العقيلي ، صاحب الموصل بالموصل وأعمالها في المحرم سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة ، وضرب اسمه على السكة والبنود ، وخطب له باليمن ، ولم يزل في سلطانه وعظم شانه إلى أن خرج إلى بلبيس متوجهاً إلى الشام ، فابتدأت به العلة في العشر الأخير من رجب سنة ست وثمانين وثلثمائة ، ولم يزل مرضه يزيد وينقص ، حتى ركب يوم الأحد لخمس بقين من شهر رمضان من السنة المذكورة إلى الحمام بمدينة بلبيس ، وخرج منها إلى منزل الأستاذ أبي الفتوح برجوان – المقدم ذكره – وكان صاحب خزائنه بالقصر ، فأقام عنده ، وأصبح يوم الاثنين ، فاشتد به الوجع يومه ذلك وصبيحة نهار الثلاثاء ، وكان مرضه من حصاة وقولنج فاستدعى القاضي محمد بن النعمان وأبا محمد الحسن[2] بن عمار الكتامي الملقب أمين الدولة ، وهو أول من تلقب[3] من المغاربة ، وكان شيخ كتامة وسيدها ، وخاطبهما بما خاطبهما به في أمر ولده الملقب الحاكم – المقدم ذكره – ثم استدعى ولده المذكور وخاطبه أيضاً بذلك ، ولم يزل العزيز المذكور في الحمام والأمر يشتد به إلى بين الصلاتين من ذلك النهار ، وهو الثلاثاء الثامن[4] والعشرون من شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة ، فتوفي في مسلخ الحمام ، هكذا قال المسبحي .

وقال صاحب « تاريخ القيروان » : إن الطبيب وصف له دواء يشربه في

---

١ انظر ج ١ : ١٣١ .

٢ ق ن : وأبا الحسن محمد .

٣ ق : لقب .

٤ ص : الثالث .

حوض الحمام ، وغلط[1] فيه ، فشربه فمات من ساعته ، ولم ينكتم موته ساعة واحدة ، وترتب موضعه ولده الحاكم أبو علي المنصور – المقدم ذكره – وبلغ الخبر أهل القاهرة ، فخرج الناس غداة الأربعاء لتلقي الحاكم ، فدخل البلد وبين يديه البنود والرايات وعلى رأسه المظلة ، يحملها ريدان[2] الصقلبي – المذكور في ترجمة بَرجَوان – فدخل القصر بالقاهرة عند اصفرار الشمس ، ووالده العزيز بين يديه في عمارية ، وقد خرجت قدماه[3] منها ، وأدخلت العمارية القصر ، وتولى غسله القاضي محمد بن النعمان ، ودفن عند أبيه المعز في حجرة من القصر ، وكان دفنه عند العشاء الآخرة ، وأصبح الناس يوم الخميس سلخ الشهر ، والأحوال مستقيمة ، وقد نودي في البلد : أن لا مؤونة ولا كلفة ، وقد أمنكم الله تعالى على أموالكم وأرواحكم ، فمن عارضكم أو نازعكم فقد حل ماله ودمه .

وكانت ولادة العزيز المذكور يوم الخميس رابع عشر المحرم سنة أربع وأربعين وثلثمائة بالمهدية من أرض إفريقية [وقال الفرغاني في تاريخه الصغير : كان مولد العزيز بالله يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرم من السنة المذكورة][4] .

وقال المختار المسبحي صاحب التاريخ المشهور : قال لي الحاكم وقد جرى ذكر والده العزيز : يا مختار ، استدعاني والدي قبل موته ، وهو عاري الجسم ، وعليه الخرق والضماد ، فاستدناني وقبلني وضمني إليه وقال : واغمّي عليك يا حبيب قلبي ، ودمعت عيناه . ثم قال : امض يا سيدي والعب فأنا في عافية ، قال : فمضيت والتهيت بما يلتهي به الصبيان من اللعب إلى أن نقل الله سبحانه وتعالى العزيز إليه ، قال : فبادر إليّ برجَوان وأنا على[5] جُمّيزة كانت في الدار فقال : انزل ويحك ، الله الله فينا وفيك ، قال : فنزلت ، فوضع العمامة بالجوهر على رأسي ، وقبّل لي الأرض وقال : السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله تعالى

---

١ ق : فغلط .

٢ في أكثر النسخ : زيدان ، وقد ضبطه المؤلف بالراء المهملة في ترجمة برجوان ١ : ٢٧١ .

٣ ر : رجلاه .

٤ زيادة من ن ص ق .

٥ ر بر من : في أعلى .

وبركاته ، قال : وأخرجني حينئذ إلى الناس على تلك الهيئة ، فقبل جميعهم لي الأرض ، وسلموا علي بالخلافة .

وأخباره كثيرة ، والاختصار أولى ، رحمه الله تعالى .

٧٦٠
نصر الخبزأرزي

أبو القاسم نصر بن أحمد بن نصر[١] بن مأمون البصري، المعروف بالخبزأرزي[٢] الشاعر المشهور ؛ كان أمياً لا يتهجى ولا يكتب ، وكان يخبز خبز الأرز بمربد البصرة في دكان ، وكان ينشد أشعاره المقصورة على الغزل والناس يزدحمون عليه ويتطرفون باستماع شعره ويتعجبون من حاله وأمره، وكان أبو الحسين محمد بن محمد[٣] المعروف بابن لنكك ، البصري الشاعر المشهور – مع علو قدره عندهم – ينتاب دكانه ليسمع شعره ، واعتنى به ، وجمع له ديواناً ، وكان نصر المذكور قد وصل إلى بغداد وأقام بها دهراً طويلاً .

وذكره الخطيب في تاريخه وقال : قرأ عليه ديوانه ، وروى عنه مقطعات من شعره المعافى بن زكريا الجريري ، وأحمد بن منصور بن محمد بن حاتم[٤] النوشري ، وعدّ جماعة رووا عنه .

وذكره الثعالبي في كتاب « اليتيمة » وأورد له مقاطيع ، فمن ذلك قوله :

خليليّ هل أبصرتما أو سمعتما بأكرم من مولىً تمشّى إلى عبدِ

٧٦٠ – ترجمته في تاريخ بغداد ١٣ : ٢٩٦ والمنتظم ٦ : ٣٢٩ ومعجم الأدباء ١٩ : ٢١٨ واليتيمة ٢ : ٣٦٦ والنجوم الزاهرة ٣ : ٢٧٦ ومرآة الجنان ٢ : ٢٧٥ والشذرات ٢ : ٢٧٦ .

١ ابن نصر : سقطت من ر والمختار .

٢ بر : بابن الخبزأرزي .

٣ زاد في ص : ابن جعفر .

٤ ق ص : حاكم .

أتى زائراً من غير وعد وقال لي : أجلُّكَ عن تعليق قلبك بالوجد[1]
فما زال نجم الوصل بيني وبينه يدور بأفلاك السعادة والسعد
فطوراً على تقبيل نرجس ناظر وطوراً على تمضيض[2] تفاحة الخد

وأورد له أيضاً :

ألم يكفني ما نالني من هواكمُ إلى أن طفقتم بين لاهٍ وضاحكِ
شماتتكمْ بي فوق ما قد أصابني وما بي دخول النار بي طنز[3] مالك

وذكر له أيضاً :

كم أناس وَفَوْا لنا حين غابوا وأناس جَفَوا وهم حُضَّارُ
عرضوا ثم أعرضوا ، واستمالوا ثم مالوا ، وجاوروا ثم جاروا
لا تلمهم على التجني فلو لم يتجنَّوا لم يحسنِ الإعتذار

ومن شعره أيضاً[4] :

وكان الصديق يزور الصديق لشرب المدام وعزف القيانِ
فصار الصديق يزور الصديق لبثّ الهموم وشكوى الزمان

ومن شعره أيضاً :

كم أقامي لديك قالاً وقيلا وعِداتٍ[5] تترى ومطلاً طويلا
جمعةٌ تنقضي وشهر يولي وأمانيك بكرة وأصيلا
إن يَفُتْني منك الجميل من الفعـ ـل تعاطيتُ عنك صبراً جميلا

---

١ في أكثر النسخ : بالوعد .
٢ ق ن ص والمختار : تقبيل ، وفوق الكلمة في المختار « تعضيض » .
٣ ق بر من : بل طنز .
٤ يختلف ترتيب المقطعات التالية في ق ن عن النسخ الأخرى ؛ وسقط بعضها من : بر من .
٥ المختار : وعذاباً .

والهوى يستزيد حالاً فحالا وكذا ينسلي قليلاً قليلا
ويك لا تأمنَنْ صروف الليالي إنها تترك العزيز ذليلا
فكأني بحسن وجهك قد صا‍ حت به اللحية الرَّحيلَ الرحيلا
فتبدلتَ حين بدلت بالنو ر ظلاماً ، وساء ذاك بديلا
فكأن لم تكن قضيباً رطيباً وكأن لم تكن كثيباً مَهيلا
عندها يشمتُ الذي لم تَصِلهُ ويكون الذي وصلت خليلا

وله أيضاً :

رأيت الهلال ووجهَ الحبيب فكانا هلالين عند النظرْ
فلم أدرِ من حيرتي فيهما هلال الدجى من[1] هلال البشر
ولولا التوردُ في الوجنتين وما راعني مِنْ سوادِ الشعر
لكنت أظن[2] الهلالَ الحبيب وكنتُ أظنُّ[3] الحبيبَ القمر

وقال أحمد بن منصور بن محمد بن حاتم النوشري : أنشدنا أبو القاسم نصر ابن أحمد الخبزأرزي لِنفسه :

بات الحبيب منادمي والسكر يَصْبغ وَجْنتيهِ
ثم اغتدى وقد ابتدا صبغ[3] الخُمار بمقلتيه
وهبَت له عيني الكرى وتعوضت نظراً إليه
شكراً لإحسان الزما ن كما يساعدني عليه

وذكر الخطيب في « تاريخ بغداد »[4] ما مثاله : حكى أبو محمد عبد الله بن محمد الأكفاني البصري ، قال : خرجت مع عمي أبي عبد الله الأكفاني الشاعر

---

١ ر : هلال السما أم .

٢ ر : ظننت .

٣ كذا في ص ر ق وهي غير معجمة في المختار .

٤ تاريخ بغداد ١٣ : ٢٩٨ – ٢٩٩ .

وأبي الحسين ابن لنكك[1] وأبي عبد الله المفجع وأبي الحسن[2] السباك ، في بطالة عيد ، وأنا يومئذ صبي أصحبهم ، فمشوا حتى انتهوا إلى نصر بن أحمد الخبزأرزي ، وهو جالس يخبز على طابقه ، فجلست الجماعة عنده يهنونه بالعيد ويتعرفون خبره ، وهو يوقد السعف تحت الطابق ، فزاد في الوقود فدخنهم ، فنهضت الجماعة عند تزايد الدخان ، فقال نصر بن أحمد لأبي الحسين ابن لنكك : متى أراك يا أبا الحسين؟ فقال له أبو الحسين : إذا اتسخت ثيابي ، وكانت ثيابه يومئذ[3] جُدُداً على أنقى ما يكون من البياض للتجمل بها في العيد ، فمشينا في سكة بني سمرة ، حتى انتهينا إلى دار أبي أحمد ابن المثنى ، فجلس أبو الحسين ابن لنكك ، وقال : يا أصحابنا إن نصراً لا يخلي هذا المجلس الذي مضى لنا معه من شيء يقوله فيه ، ويجب أن نبدأه قبل أن يبدأنا ، واستدعى دواة وكتب :

لنصر في فؤادي فَرطُ حبٍّ ... أنيف به على كل الصحابِ
أتيناهُ فَبَخَّرَنا بخوراً ... مِنَ السعفِ المدخن للثياب
فقمتُ مبادِراً وظننتُ نصراً ... أرادَ بذاكَ طرْدي أو ذَهابي
فقال : متى أراك أبا حسين ؟ ... فقلت له : إذا اتسخت ثيابي

وأنفذ الأبيات إلى نصر ، فأملى جوابها ، فقرأناه فإذا هو قد أجاب :

منحتُ أبا الحسين صميم ودي ... فداعبني بألفاظ عذابِ
أتى وثيابه كقتير شَيْبٍ ... فعُدْنَ له كريْعان الشباب
ظننت جلوسه عندي لعرس ... فجدت له بتمسيك الثياب
فقلت : متى أراك أبا حسين؟ ... فجاوبني : إذا اتسخت ثيابي
فإن كان التزفه[4] فيه خير ... فلِمْ يُكنى الوصي أبا تراب

---

١ المختار : كنكل ، وتصحفت الكلمة حيث وقعت في المخطوطات ، وأثبتنا الصورة المشهورة للاسم حسب الضبط الذي انفردت به بعض النسخ في آخر الترجمة .

٢ ر ص ق : الحسين ؛ ق : السبال ؛ وفي تاريخ بغداد : السياك .

٣ ق : في غاية .

٤ ن : التقزز ؛ وفي ق ر صورة الكلمة مشابهة .

وحكى أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم الخالديان الشاعران المشهوران في كتاب « الهدايا والتحف »[1] أن الخبزأرزي أهدى إلى ابن يزداد والي البصرة فصاً وكتب معه :

أهديت ما لو أن أضعافه مُطَّرَحٌ عنـدك ما بانا
كمثل بلقيسَ التي لم يبِنْ إهداؤهـا عنـد سليمانا
هذا امتحانٌ لك إن ترضه بانَ لنـا أنـك ترضانا

والشيء بالشيء يذكر – وجدت في هـذا الكتاب نادرة طريفة فأحببت ذكرها ، وهي[2] : كان بأصبهان رجل حسن النعمة واسع النفس كامل المروءة يقال له سماك بن النعمان ، وكان يهوى مغنية من أهل أصبهان لها قدر ومعنى تعرف بأم عمرو . فلإفراط حبه إياها وصبَابته بها[3] وهبها عدةً من ضياعه ، وكتب عليه بذلك كتباً ، وحمل الكتب إليها على بغل ، فشاع الخبر بذلك ، وتحدث الناس به واستعظموه ؛ وكان بأصبهان رجل متخلف بيِّن الركاكة يهوى مغنية أخرى فلما اتصل به ذلك ظن بجهله وقلة عقله أن سماكاً أهدى إلى أم عمرو جلوداً بيضاً لا كتابة فيها ، وأن هذا من الهدايا التي تستحسن ويجلُّ موقعها عند من تهدى إليه ، فابتاع جلوداً كثيرة ، وحملها على بغلين لتكون هديته ضعف هدية سماك ، وأنفذها إلى التي يحب ، فلما وصلت الجلود إليهـا ووقفت على الخبر فيها تغيظت عليه ، وكتبت إليه رقعة تشتمه وتحلف أنها لا تكلمه أبداً ، وسألت بعض الشعراء أن يعمل أبياتاً في هذا المعنى لتودعها الرقعة ، ففعل ، وكانت الأبيات :

لا عاد طوعَكَ من عصاكا وحُرِمْتَ من وصلِ مُناكا[4]
فلقـد فضحتَ العاشقيـن بقبح ما فعلت يداكا

---

١ انظر الهدايا والتحف : ٢٢ – ٢٣ ؛ وفي ر : الهديات والتحف .

٢ المصدر السابق : ١٧٦ – ١٧٧ .

٣ ر : فلما أفرط حبه فيها وكثرت صبابته بها .

٤ ق : وعدمت ... رضاكا .

أرأيت من يُهْدِي الجلو د إلى عشيقتـه سواكا
وأظن أنك رُمْتَ أن تحكي بفعلك ذا سماكا
ذاك الذي أهدى الضيا ع لأم عمرو والصّكاكا
فبعثت منتنـةً كأنـ ـك قد مسحت بهنّ فاكا
من لي بقربك يا رقيـ ـع ، ولست أهوى أن أراكا
لكن لعلي أن أقطـ ـع مـا بعثتَ على قفاكا

ونقلت من هذا الكتاب أيضاً[1] أن اللبادي الشاعر خرج من بعض مدن أذربيجان يريد أخرى ، وتحته مهر له رائع ، وكانت السنة مجدبـة ، فضمه الطريق وغلاماً حدثاً على حمار له ، قال : فحادثته فرأيته أديباً راوية للشعر ، خفيف الروح حاضر الجواب جيد الحجة ، فسرنا بقية يومنا ، فأمسينا إلى خان على ظهر الطريق ، فطلبت من صاحبه شيئاً نأكله ، فامتنع[2] أن يكون عنده شيء ، فرفقت به إلى أن جاءني برغيفين ، فأخذت واحداً ودفعت إلى ذلك الغلام الآخر ، وكان غمّي على المهر أن يبيت بغير علف أعظم من غمي على نفسي ، فسألت صاحب الخان عن الشعير فقـال : ما أقدر منـه على حبة واحدة ، فقلت : فاطلب لي ، وجعلت له جعيلة على ذلك ، فمضى وجاءني بعد طويل وقال : قد وجدت مَكّوكين عند رجل حلف بالطلاق أنه لا ينقصها عن مائة درهم ، فقلت : ما بعد يمين الطلاق كلام ، فدفعت إليه خمسين درهماً ، فجاءني بمكوك ، فعلقته على دابتي وجلست أحادث الفتى ، وحماره واقف بغير علف ، فأطرق ملياً ثم قال : تسمع ، أيدك الله ، أبياتاً حضرت الساعة ؟ فقلت : هاتها ، فأنشد :

يا سيدي شعري نُفـاية شعركا فلذاك نظمي مـا يقوم بنثركا
وقد انبسطتُ إليك في إنشاد ما هو في الحقيقة قَطْرة من بحركا

---

[1] الهدايا والتحف : ٩٤ .
[2] المختار : فأبى ؛ ص : فأنكر .

آنستني وسررتني وبررتني وجعلت أمري من مقدَّم أمركا
وأريد أذكر حاجة إن تقضها أكُ عبدَ مدحك ما حييت وشكركا
أنا في ضيافتك العشيةَ ها هنا فاجعل حماري في ضيافة مهركا

فضحكت واعتذرت إليه من إغفالي أمر حماره ، وابتعت المَكّوك الآخر بخمسين درهماً ، ودفعته إليه .

وبالجملة فقد خرجنا عن المقصود .

وأخبار نصر المذكور ونوادره كثيرة . وتوفي سنة سبع عشرة وثلثمائة ، رحمه الله تعالى ، وتاريخ وفاته فيه نظر ، لأن الخطيب ذكر في تاريخه أن أحمد ابن منصور النوشري المذكور سمع منه سنة خمس وعشرين وثلثمائة [لكن نقلت تاريخ وفاته على هذه الصورة من تاريخ ابن الأزرق الفارقي ، والله أعلم][1] .

والخبزأرزي : بضم الخاء المعجمة وسكون الباء الموحدة وفتح الزاي وبعدها همزة ثم راء ثم زاي ؛ وفتح الهمزة وضمها وتشديد الزاي وتخفيفها في الأرز يختلف باختلاف اللغات في هذه الكلمة ، وفيها ست لغات : الواحدة بضم الهمزة والراء وتشديد الزاي ، والأخرى بفتح الهمزة والباقي مثل الأولى ، والثالثة أرز : بضم الهمزة وسكون الراء وتخفيف الزاي ، والرابعة مثل الثالثة لكن الراء مضمومة ، والخامسة رز ، بضم الراء وتشديد الزاي ، والسادسة رنز ، بضم الراء وسكون النون وتخفيف الزاي ؛ وإنما نسب نصر المذكور هذه النسبة لأنه كان يتعاطى هذه الحرفة كما تقدم ذكره في أول هذه الترجمة .

ابن لنكك : بفتح اللام وسكون النون وكافين متواليين ، وهو لفظ أعجمي ، معناه بالعربي أعيرج ، تصغير أعرج ، لأن كلمة لنك معناها أعرج ، وعادة العجم إذا صغروا اسماً ألحقوا في آخره كافاً .

ومِربَد البصرة : بكسر الميم وسكون الراء وفتح الباء الموحدة وبعدها دال مهملة ، وهو اسم موضع بالبصرة مشهور ، وهو في الأصل اسم لكل مكان تحبس فيه الإبل وغيرها ، ثم صار علماً على الموضع المذكور .

---

١ زيادة من ق ن ر ص ؛ وهنا تنتهي الترجمة في ق ص .

٧٦١

أبو المرهف النميري

أبو المرهف نصر بن منصور بن الحسن بن جوشن بن منصور بن حميد[1] بن أثال بن ورد[2] بن عطاف بن بشر بن جندل بن عُبَيْد الراعي بن الحصين بن معاوية بن جندل ابن قطن بن ربيعة بن عبد الله بن الحارث بن نُمَيْر بن عامر بن صعصعة بن معاوية ابن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان ، النميري ، الضرير الشاعر المشهور ؛ قدم بغداد في صباه ، وسكنها إلى حين وفاته ، وحفظ القرآن المجيد ، وتفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، رضي الله عنه ، وسمع الحديث من القاضي أبي بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري وأبي البركات عبد الوهاب بن المبارك الأنماطي وأبي الفضل محمد بن ناصر وغيرهم . وقرأ الأدب على أبي منصور ابن الجواليقي ، وقال الشعر ، ومدح الخلفاء والوزراء والأكابر ، وحدث ، وكان زاهداً ورعاً ، حسن المقاصد في الشعر ، له ديوان شعر .

وذكره العماد الأصبهاني في كتاب « الخريدة » وذكر شيئاً[3] من شعره ، وأورد نسبه على هذه الصورة وقال : هو الذي أملاه علي .

وعُبيد الراعي المذكور في عمود نسبه هو الشاعر المشهور ، صاحب الديوان الشعر ، وكان بينه وبين جرير مهاجاة[4] .

---

٧٦١ – ترجمته في الروضتين ٢ : ٢١١ ومرآة الزمان : ٤٢١ ومعجم الأدباء ١٩ : ٢٢٢ والبداية والنهاية ١٢ : ٣٥٣ ومرآة الجنان ٣ : ٤٣٨ ونكت الهميان : ٣٠٠ والنجوم الزاهرة ٦ : ١١٨ والشذرات ٤ : ٢٩٥ وقد جاء نسبه مختصراً في ق .

١ ق : حمدان .

٢ ن : ورز ، ق بر من : وزر ؛ ص : وزرين .

٣ ص ق : أشياء .

٤ وعبيد ... مهاجاة : سقط من ق .

وكان أبو المرهف المذكور قد كف بصره بالجدري وعمره أربع عشرة سنة ، وذكر له العماد في « الخريدة » هذا المقطوع من شعره ، وهو :

ترى يتألفُ الشملُ الصديعُ   وآمنُ من زماني ما يروعُ
وتأنس بعد وحشتنا بنجدٍ   منازلُنا القديمةُ والربوع
ذكرتُ بأيمن العلمين عصراً   مضى والشملُ ملتئمٌ جميع
فلم أملك لدمعي ردَّ غَرْبٍ   وعند الشوق تعصيك الدموع
ينازعني إلى خنساءَ قلبي   ودون لقائها بلدٌ شَسُوع
وأخوفُ ما أخاف على فؤادي   إذا ما أنجد البرقُ اللموع
لقد حُمِّلتُ من طول التنائي   عن الأحباب ما لا أستطيع

وشعره فيه رقة وجزالة ، وكان ببغداد كثير الانقطاع إلى الوزير عون الدين ابن هُبَيرة – الآتي ذكره إن شاء الله تعالى – وله فيه مدائح . وكانت ولادته يوم الثلاثاء بعد العصر ، ثالث عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسمائة بالرقة . وتوفي يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ببغداد ، ودفن بباب حرب ، رحمه الله تعالى [1] .

والنميري : بضم النون وفتح الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء ، هذه النسبة إلى نُمَير بن عامر المذكور في عمود النسب في أول الترجمة ، والباقي معروف .

---

[1] هنا تنتهي الترجمة في ق .

٧٦٢

ابن قلاقس

أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن علي بن عبد القوي بن قلاقس ، اللخمي الأزهري الإسكندري ، الملقب القاضي الأعز ، الشاعر المشهور ؛ كان شاعراً مجيداً وفاضلاً نبيلاً [ولم يكن له لحية بل كان سناطاً ، وقيل فيه أشعار بسبب ذلك فأضربت عن ذكرها لفحشها][1] . صحب الشيخ الحافظ أبا طاهر أحمد بن محمد السِّلفي – المقدم ذكره – وانتفع بصحبته ، وله فيه غرر المدائح ، وقد تضمنها ديوانه ، وكان الحافظ المذكور كثيراً ما يثني عليه ويتقاضاه بمديحه[2] ، وقصد القاضي الفاضل عبد الرحيم – المقدم ذكره – بقصيدة موسومة أحسن فيها كل الإحسان ، وأولها[3] :

ما ضر ذاك الرِّيمَ أن لا يَريمْ ... لو كان يرثي لسليم سليمْ

وما على مَن وصله جَنَّةٌ ... ألا أرى من صده في جحيم

أعندما همتُ به روضةً ... أعلّ جسمي لأكونَ النسيم

رقيمُ خد نام عن ساهرٍ ... ما أجدر النوم بأهل الرقيم

وكيف لا يصرم ظبيٌ وقدْ ... سمت في النسبة ظبي الصريم

وعاذلٍ دامَ ودام[4] الدجى ... بهيمة نادمتها في بهيم

---

٧٦٢ – ترجمته في الخريدة (قسم مصر) ١ : ١٤٥ والروضتين ١ : ٢٠٥ ومعجم الأدباء ١٩ : ٢٣٦ ومرآة الجنان ٣ : ٣٨٣ وحسن المحاضرة ١ : ٢٤٢ والبداية والنهاية ٢ : ٢٦٩ والشذرات ٤ : ٢٢٤ والبدر السافر ، الورقة : ٢١١ .

١ زيادة من ص ن ق .

٢ ق ر : بمدحه .

٣ ديوانه : ٩٦ .

٤ ق : عاد وعاد .

يغيظني وهـو على رِسْله والمرء في غيظ سواه حليم

قلت له لما عدا طوْرَهُ والقلبُ مني في العذاب الأليم

اعذر فؤادي إنـه شاعرٌ من حبـه في كل واد يهيم

يا رب خمر فـمُه كاسها لم أقتنع من شربها بالشّميم

أتبعت رشفاً قـُبلاً عندها وقلت هذا زمزمٌ والحطيم

فافترّ إما عن أقاحي الرُّبا يضحك أو درّ العقود النظيم

أو كان قد قبّل مستحسناً ما قبل الفاضل عبد الرحيم

وكان كثير الحركات والأسفار ، وفي ذلك يقول[1] :

والناس كثرٌ ولكن لا يُقَدّر لي إلا مرافقة المـلاح والحادي

وفي آخر وقته دخل بلاد اليمن ، وامتدح بمدينة عدن أبا الفرج ياسر بن أبي الندى بلال بن جرير المحمدي وزير محمد وأبي السعود ولدي عمران بن محمد بن الداعي سبأ بن أبي السعود بن[2] زريع بن العباس اليامي ، صاحب بلاد اليمن ، فأحسن إليه وأجزل صلته ، وفارقه وقد أثرى من جهته ، فركب البحر ، فانكسر المركب به ، وغرق جميع ما كان معه بجزيرة الناموس بالقرب من دهلك ، وذلك يوم الجمعة خامس ذي القعدة سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، فعاد إليـه وهو عريان ، فلما دخل عليه أنشده قصيدته التي أولها[3] :

صدرنا وقد نادى السماح بنا رِدُوا فعُدْنا إلى مغناك والعَوْدُ أحمدُ

وهذه القصيدة من القصائد المختارة ، ولو لم يكن فيها سوى هذا البيت لكفاه ، ثم أنشده بعد ذلك قصيدة يصف فيها غرقه ، وأولها[4] :

---

١ ديوانه : ٣١ .

٢ بن : سقطت من : بر ر من .

٣ ديوانه : ٣٠ .

٤ ديوانه : ٣٨ .

سافرٌ إذا حاولت قدرا سار الهلال فصار بدرا

والماء يكسب ما جرى طيباً ويخبث ما استقرا

وبنقلة الدررِ النفيـ سة بُدّلت بالبحر نحرا

ومنها :

يا راوياً عن ياسرٍ خبراً ولم يعرفه خُبرا

اقرأ بغرة وجهه صحف المنى إن كنت تقرا

والثم بنان يمينه وقلِ السلام عليك بحرا

وغلطت في تشبيهه بالبحر ، فاللهم غَفْرا

أو ليس نلتُ بذا غِنىً جَمّاً ونلت بذاك فقرا

وعهدت هذا لم يزل مداً ، وذاك يعود جَزْرا

وهي قصيدة طويلة أحسن فيها كل الإحسان ، ومعنى البيت الثاني منها مأخوذ من قول بديع الزمان صاحب المقامات – المقدم ذكره في حرف الهمزة – في أول رسالة قد ذكرتها في ترجمته، وهي « الماء إذا طال مكثه، ظهر خبثه » ، والبيت الثالث من هذه القصيدة أيضاً مأخوذ من قول صرّدُرّ الشاعر – المقدم ذكره في حرف العين – وهو[1]:

قَلقِل ركابك في الفلا ودع الغوانيَ للخدورِ

فمحالفو أوطانهم أمثالُ سكان القبور

لولا التنقل ما ارتقت درر البحور إلى النحور

وله في جارية سوداء ، وهو معنى غريب :

رب سوداء وهي بيضاء معنى نافَسَ[2] المسكَ عندها الكافورُ

مثلُ حَبّ العيون يحسبه النا سُ سواداً ، وإنما هو نور

١ ديوان صر در : ٢١٠ .

٢ بر : نافر .

ومحاسن ابن قلاقس نادرة[1] . وكانت ولادته بثغر الإسكندرية يوم الأربعاء رابع شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة . وتوفي ثالث شوال سنة سبع وستين وخمسمائة بعيذاب ، رحمه الله تعالى .

ودخل صقلية في شعبان سنة ثلاث وستين ، وكان وصوله إلى اليمن سنة خمس وستين ، وكان بصقلية بعض القواد ، يقال له القائد أبو القاسم ابن الحجر فاتصل به وأحسن إليه ، وصنف له كتاباً سماه « الزهر الباسم في أوصاف أبي القاسم » وأجاد فيه ، ولما فارق صقلية راجعاً إلى الديار المصرية ، وكان في زمن الشتاء ، ردته الريح إلى صقلية ، فكتب إلى أبي القاسم المذكور[2] :

منع الشتاء من الوصو ل مع الرسول إلى دياري

فأعادني وعلى اختيا ري جاء من غير اختياري[3]

ولربما وقع الحما ر وكان من غرض المكاري

وقَلاقِس : بقافين ، الأولى مفتوحة والثانية مكسورة وبينهما لام ألف وفي آخره سين مهملة ، وهو جمع قلقاس بضم القاف وهو معروف .

واللخمي : تقدم الكلام عليه وكذلك الأزهري .

وعَيْذاب : بفتح العين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الذال المعجمة وبعد الألف باء موحدة ، وهي بليدة على شاطىء بحر جدة ، يعدي منها الركب المصري المتوجه إلى الحجاز[4] ، على طريق قوص ، في ليلة واحدة ، في أغلب الأوقات ، فيصل إلى جدة ، ومنها إلى مكة — حرسها الله تعالى — مسافة

---

[1] ص بر من : كثيرة ؛ ر : ونوادره كثيرة .

[2] انظر دراسة عن ابن قلاقس في صقلية في كتاب « العرب في صقلية » ٢٨٧ — ٢٩٥ وقد نقل العماد في الخريدة كثيراً عن كتابه الزهر الباسم (مخطوطة نور عثمانية رقم ٣٧٧٤) .

[3] سقط البيت والذي يليه من ص ن ق .

[4] ص : تعدي منها المراكب إلى الحجاز ؛ ق : يعني يعدي المركب منها إلى الحجاز أعني الركب المصري إذا توجه إلى الحجاز .

يوم ، وبجدة قبر أم البشر حواء ، رضي الله عنها ، على ما يقال ، وقبرها هناك ظاهر يزار .

وياسر المذكور قتله شمس الدولة توران شاه – المقدم ذكره – عند دخوله اليمن .

٧٦٣

ضياء الدين ابن الأثير

أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ، المعروف بابن الأثير الجزري ، الملقب ضياء الدين ؛ كان مولده بجزيرة ابني[١] عُمَر ، ونشأ بها ، وانتقل مع والده إلى الموصل [في رجب سنة تسع وسبعين وخمسمائة][٢] وبها اشتغل وحصل العلوم وحفظ كتاب الله الكريم وكثيراً من الأحاديث النبوية وطرفاً صالحاً من النحو واللغة وعلم البيان وشيئاً كثيراً من الأشعار حتى قال في أول كتابه الذي سماه « الوشي المرقوم » ما مثاله : « وكنت حفظت من الأشعار القديمة والمحدثة ما لا أحصيه كثرة ، ثم اقتصرت بعد ذلك على شعر الطائيين : حبيب بن أوس ، يعني أبا تمام ، وأبي عبادة البحتري ، وشعر أبي الطيب المتنبي ، فحفظت هذه الدواوين الثلاثة ، وكنت أكرر عليها بالدرس مدة سنين ، حتى تمكنت من صَوْغ المعاني ، وصار الإدمان لي خلقاً وطبعاً » ، وإنما ذكر هذا الفصل في معرض أن المنشىء ينبغي أن يحمل

---

٧٦٣ – ترجمته في ذيل الروضتين : ١٦٩ والحوادث الجامعة : ١٣٦ والبدر السافر ، الورقة : ٢٠٥ ومرآة الجنان ٤ : ٩٧ وعبر الذهبي ٥ : ١٥٦ والشذرات ٥ : ١٨٧ وروضات الجنات : ٦٥٨ وللدكتور زغلول سلام دراسة عنه (القاهرة : مطبعة نهضة مصر) وفيه اشارة إلى مصادر اخرى .

١ هذا هو الوجه الذي اختاره المؤلف دائماً في المسودة ، ولكن النسخ ما عدا بر ظلت تكتبه « ابن عمر » وكذلك ورد في المختار .

٢ زيادة من ر ص ق .

دأبه في التوسّل حَلّ المنظوم ، ويعتمد عليه في هذه الصناعة .

ولما كملت لضياء الدين المذكور الأدوات قصد جناب الملك الناصر صلاح الدين ، تغمده الله برحمته ، في شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، فوصله القاضي الفاضل لخدمة صلاح الدين في جمادى الآخرة من السنة ، وأقام عنده إلى شوال من السنة ، ثم طلبه ولده الملك الأفضل نور الدين من والده ، فخيره صلاح الدين بين الإقامة[1] في خدمته ، والانتقال إلى ولده ويبقى المعلوم الذي قرره له باقياً عليه ، فاختار ولده ، فمضى إليه ، وكان يومئذ شاباً ، فاستوزره ولده الملك الأفضل نور الدين علي — المقدم ذكره — رحمه الله تعالى ، وحسنت حاله عنده .

ولما توفي السلطان صلاح الدين ، واستقل ولده الملك الأفضل بمملكة دمشق ، استقل ضياء الدين المذكور بالوزارة وردت أمور الناس إليه ، وصار الاعتماد في جميع الأحوال عليه ، ولما أخذت دمشق من الملك الأفضل وانتقل إلى صرخد — حسبما شرحناه في ترجمته — وكان ضياء الدين قد أساء العشرة مع أهلها ، وهموا بقتله ، فأخرجه الحاجب محاسن بن عجم مستخفياً في صندوق مقفل عليه ، ثم صار إليه[2] ، وصحبه إلى مصر لما استدعي لنيابة ابن أخيه الملك المنصور — وقد تقدم ذكر ذلك كله في ترجمة الملك الأفضل فأغنى عن الإعادة .

ولما قصد الملك العادل الديار المصرية ، وأخذها من ابن أخيه — كما ذكرناه هناك — وتعوض الملك الأفضل البلاد الشرقية ، وخرج من مصر ، لم يخرج ضياء الدين في خدمته ، لأنه خاف على نفسه من جماعة كانوا يقصدونه ، فخرج منها

---

١ ر : المقام ؛ ق : بين خدمته والاقامة عنده .

٢ علق ابن المؤلف هنا بقوله : « قلت اعني كاتبها موسى بن أحمد لطف الله به : سمعت والدي رحمه الله تعالى يحكي أن الملك العادل لما تسلم قلعة دمشق من ابن أخيه الأفضل تطلب ضياء الدين كثيراً فلم يظفر به ، فلما حصل الشروع في نقل متاع الأفضل وماله من القلعة قال العادل : ما آمن أن يكون المذكور في بعض الصناديق مستخفياً ، فخرج بنفسه وجلس بدركاه القلعة على صندوق من متاع الأفضل وأمر أن يفتح بين يديه كل صندوق يريدون إخراجه ففعل ذلك ، واتفق جلوسه على الصندوق الذي فيه المذكور فلما تكامل نقلهم الصناديق قام العادل مغضباً لكونه ما ظفر به وغفل عن الصندوق الذي كان جالساً عليه وهذا من غريب الاتفاق » .

مستتراً ، وله في كيفية خروجه مستخفياً رسالة طويلة ، شرح فيها حاله ، وهي موجودة في ديوان رسائله ، وغاب عن مخدومه الملك الأفضل مديدة ، ولما استقر الأفضل في سميساط عاد إلى خدمته وأقام عنده مدة ثم فارقه في ذي القعدة من سنة سبع وستمائة ، واتصل بخدمة أخيه الملك الظاهر صاحب حلب – المقدم ذكره – فلم يطل مقامه عنده ولا انتظم أمره ، وخرج مغضباً وعاد إلى الموصل فلم يستقم حاله ، فورد إرْبلَ فلم يستقم حاله ، فسافر إلى سنجار ثم عاد إلى الموصل واتخذها دار إقامته واستقر ، وكتب الإنشاء لصاحبها ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه – المقدم ذكره في حرف الهمزة – وأتابكه يومئذ الأمير بدر الدين لؤلؤ أبو الفضائل النوري ، وذلك في سنة ثماني عشرة وستمائة .

ولقد ترددتُ إلى الموصل من إربل أكثر من عشر مرات ، وهو مقيم بها ، وكنت أود الاجتماع به لآخذ عنه شيئاً ، ولما كان بينه وبين الوالد ، رحمه الله تعالى ، من المودة الأكيدة ، فلم يتفق ذلك ، ثم فارقت بلاد المشرق وانتقلت إلى الشام وأقمت به[1] مقدار عشر سنين ، ثم انتقلت إلى الديار المصرية وهو في قيد الحياة ، ثم بلغني بعد ذلك خبر وفاته وأنا بالقاهرة ، وسيأتي تاريخه في أواخر الترجمة إن شاء الله تعالى .

ولضياء الدين من التصانيف الدالة على غزارة فضله وتحقيق نبله ، كتابه الذي سماه « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » ، وهو في مجلدين ، جمع فيه فأوعب ، ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره ، ولما فرغ من تصنيفه كتبه الناس عنه ، فوصل إلى بغداد منه نسخة ، فانتدب له الفقيه الأديب عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن حسين بن أبي الحديد المدائني ، وتصدى لمؤاخذته والرد عليه ، وعنته[2] في ذلك ، وجمع هذه المؤاخذات في كتاب سماه « الفلك الدائر على المثل السائر » فلما أكمله وقف عليه أخوه موفق الدين أبو المعالي أحمد ، ويدعى القاسم أيضاً ، فكتب إلى أخيه المذكور قوله :

---

١ ص ر : بها .

٢ ق : وعنفه ؛ ر : وعتبه .

المثـل السائر يا سيدي صنفت فيه الفلك الدائرا
لكن هـذا فلك دائر تصير فيه المثل السائرا

(283) وكانت ولادة عز الدين المذكور بالمدائن يوم السبت مستهل ذي الحجة سنة ست وثمانين وخمسمائة . وتوفي في بغداد سنة خمس وخمسين وستمائة .

(284) وتوفي أخوه موفق الدين المذكور ببغداد ، في سنة ست وخمسين وستمائة ، بعد أن أخذها التتر بقليل . وكانا فقيهين أديبين فاضلين ، لهما أشعار مليحة . ومولد الموفق المذكور في جمادى الآخرة ، وقيل في شهر ربيع الأول ، سنة تسعين وخمسمائة بالمدائن .

وله كتاب « الوشي المرقوم في حل المنظوم » وهو مع وجازته في غاية الحسن والإفادة ، وله كتاب « المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء » ، وهو أيضاً نهاية في بابه ، وله مجموع اختار فيه شعر أبي تمام والبحتري وديك الجن والمتنبي ، وهو في مجلد واحد كبير ، وحفظه مفيد ، وقال أبو البركات ابن المستوفي في « تاريخ إربل » : نقلت من خطه ، في آخر هذا الكتاب المختار ما مثاله :

تمتع به علقاً نفيساً فإنه اخـ تيار بصير بالأمور حكيمِ
أطاعته أنواع البلاغة فاهتدى إلى الشعر من نَـهْجٍ إليه قويم

وله أيضاً ديوان ترسل في عدة مجلدات والمختار منه في مجلد واحد . ومن جملة رسائله ، ما كتبه إلى مخدومه وقد سافر في زمن الشتاء والبرد الشديد : « وينهي أنه سار عن الخدمة ، وقد ضرب الدَّجْنُ فيه مضاربه ، وأسبل عليه ذوائبه ، وجعل كل قرارة حفيراً ، وكل رَبْوة غديراً ، وخط كل أرض خطاً ، وغادر كل جانب شطاً ، كأنـه يوازي يَدَ مولانا في شيمة كرمها ، والتثاث صَوْب ديمها ، والمملوك يستغفر الله من هذا التمثيل ، العاري عن فائدة التحصيل ، وفرق بين ما يملأ الوادي بمائه ، ومن يملأ النادي بنعمائه ، وليس ما ينبت زهراً يذهبه المصيف ، أو تمراً يأكله الخريف ، كمن ينبت ثروة تغوث الأعطاف ، ويأكل المرتبع والمصطاف ، ثم استمر على مسير يقاسي الأرض ووحلها ، والسماء ووبلها ، ولقد جاد حتى أضجر ، وأسرف حتى اتصل بره بالعقوق ، وما خاف

المملوك لمع البوارق كما خاف لمع البروق ، ولم يزل من مواقع قطره في حرب ، ومن شدة برده في كرب ، والسلام » .

ولما سمع صاحبنا الحسام عيسى بن سنجر بن بهرام ، المعروف بالحاجري الإربلي – المقدم ذكره – هذا المعنى ، وهو قوله « ومن شدة برده في كرب » أعجبه ونظم أبياتاً ، ومن جملتها بيت أودعه هذا المعنى ، وهو :

ويلاه من برد رُضابٍ له أشكو إلى العذال منه الحريقْ

ومن وقف على هذا البيت ربما يتشوق[1] إلى الوقوف على بقية الأبيات ، وهي قليلة فلا بأس بذكرها ، وهي[2] :

بين لوي الجزع ووادي العقيق مَن لا إلى السلوان عنه طريقْ
جانٍ جَنى النحلةِ مِنْ ريقه حلو التثني والثنايا رشيق
لو لم تكن وجنته جنةً ما أنبتت ذاك العذارَ الأنيق
ويلاه من بردِ رُضابٍ له أشكو إلى العذال منه الحريق
واعجبا يفعل بي في الهوى ما تفعلُ الأعداء وهو الصديق
روحي فدى الظبي الذي قَدُّهُ يفعلُ فعل السمهريِّ الدقيق

وقد سبق في ترجمة النفيس القُطْرُسي – في حرف الهمزة[3] – بيت من جملة أبياته الكافيّة يتضمن هذا المعنى ، وهو قوله :

أحرقت يا ثغر الحبيب حَشاي لما ذُقْتُ بردك

وأصل هذا المعنى لابن التعاويذي – المقدم ذكره – في بيت من جملة قصيدته النونية المشهورة ، وهو :

يذكي الجوى بارد من ثغره شبمٌ ويوقظ الوجد طرف منه وسنانُ

---

١ ر : تشوف ؛ ق ن : تشوق .
٢ ق : وهي مذكورة فنذكرها الآن .
٣ انظر ج ١ : ١٦٤ .

ومن رسائل ضياء الدين ما كتبه عن مخدومه إلى الديوان العزيز من جملة رسالة، وهي : « ودولته هي الضاحكة ، وإن كان نسَبُها إلى العباس ، فهي خير دولة أخرجت للزمن ، كما أن رعاياها خير أمة أخرجت للناس ، ولم يجعل شعارها من لون الشباب إلا تفاؤلاً بأنها لا تهرم ، وأنها لا تزال محبوة من أبكار السعادة بالحب الذي لا يسلى والوصل الذي لا يصرم ، وهذا معنى اخترعه الخادم للدولة وشعارها، وهو مما لم تخطه الأقلام في صحفها، ولا أجالته الخواطر في أفكارها » .

ولعمري ما أنصف ضياء الدين في دعواه الاختراع لهذا المعنى ، وقد سبقه إليه ابن التعاويذي في قصيدته السينية ، التي مدح بها الإمام الناصر لدين الله أبا العباس أحمد أول يوم جلس في دَسْت الخلافة ، وهو يوم الأحد مستهل ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، وأول القصيدة[1] :

طافَ يَسْعى بها على الجلاس　　كقضيب الأراكِ المَيّـــاسِ

ومنها عند المخلص ، وهو المقصود بالذكر هاهنا :

يا نهارَ المشيب من لي وهيها　　ت بليل الشبيبـــةِ الديماس
حالَ بيني وبين لَـهْوي وأطرا　　بيَ دهرٌ أحال صبغة راسي
ورأى الغانياتُ شيبي فأعرضْـ　　ـنَ وقلن السوادُ خير لباس
كيف لا يفضل السوادُ وقد أضـ　　ـحى شعاراً على بني العباس

ولا شك أن ضياء الدين زاد على هذا المعنى ، لكن ابن التعاويذي هو الذي فتح الباب وأوضح السبيل ، فسهل على ضياء الدين سلوكه .

وله من جملة رسائله في ذكر العصا التي يتوكأ عليها الشيخ الكبير ، وهو معنى غريب : « وهذا[2] لمبتدأ ضعفي خَبَر ، ولقوس ظهري وتَر ، وإن كان إلقاؤها دليلاً على الإقامة فإن حملها دليل على السفر » . وله في وصف المسلوبين من جملة كتاب يتضمن البشرى بهزيمة الكفار وهو : « فسلبوا وعاضتهم الدماء

---

١ ديوانه : ٢٣٦ .

٢ ق ص ن : وهذه .

عن اللباس ، فهم في صورة عار وزيهم زي كاس ، وما أسرع مـــا خِيطَ لهم لباسُها الحمر ، غير أنه لم يُجَبْ عليهم ولم يزر[1] ، وما لبسوه حتى لبس الإسلام شعار النصر ، الباقي على الدهر ، وهو شعار نسجه السنان الحارق ، لا الصنع[2] الحاذق ، ولم يغب عن لابسه إلا ريثما غابت البيض في الطُّلى والهام ، وألف الطعن بين ألف الخط واللام .

وأول هذا الفصل مأخوذ من قول البحتري :

سلبوا وأشرقتِ الدماء عليهمُ محمرة فكأنهـم لم يسلبوا

وله رسالة يصف فيها الديار المصرية ، وهي طويلة ، ومن جملتها فصل في صفة نيلها وقت زيادته ، وهو معنى بديع غريب ، لم أقف لغيره على أسلوبه ، وهو قوله : « وعذُب رضابه فضاهى جَنَى النحل ، واحمر صفيحه فعلمت أنه قد قَتل المحل » . وهذا المعنى نهاية في الحسن ، ثم إني وجدت هذا المعنى لبعض العرب ، وقد أخذ ضياء الدين منه ، وهو قوله :

لله قلب ما يزال يَرُوعُهُ برق الغمامة منجداً أو مغورا

ما احمرَّ في الليل البهيم صفيحهُ متجرداً إلا وقد قتل الكرى

ولقد أحسن في أخذه وتلطف في نقله إلى هذا المعنى ، ومثله قول عبد الله ابن المعتز المقدم ذكره في غلام أرمد :

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم : من كثرة القتل مَسَّها الوَصَبُ

حُمْرَتها من دماء من قتلت والدَّمُ في النَّصل شاهد عَجَبُ[3]

---

١ ق : يجيب ... يزرر .

٢ ص : الصانع .

٣ علق ابن المؤلف عند هذا بقوله : « قلت أعني كاتبها موسى بن احمد لطف الله به : لما أعيد والدي رحمه الله تعالى إلى قضاء دمشق والشام في أول سنة سبع وسبعين وستمائة ورد عليه كتاب السلطان الملك السعيد ابن الملك الظاهر يخبره بوفاء النيل ، وهو أول كتاب ورد عليه وكان من إنشاء تاج الدين أحمد بن الأثير الحلبي رحمه الله وفيه بعد الألقاب المعتادة : لا زالت أيامه =

وله كل معنى مليح في الترسل ، وكان يعارض القاضي الفاضل في رسائله ، فإذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها ، وكان بينهما مكاتبات ومجاوبات ، ولم يكن له في النظم شيء حسن ، وسأذكر منه أنموذجاً وهو :

ثلاثة تعطي الفرح كأس وكوب وقدح
ما ذُبِحَ الزق لها إلا وللهم ذَبَحْ

وكان كثيراً ما ينشد :

قلب كفاه من الصبابة أنه لَبّى دعاء الظاعنين وما دُعي
ومن الظنون الفاسدات توهمي بعد اليقين بقاءَه في أضلعي

وهذان البيتان من جملة أبيات للفقيه عمارة اليمني — المقدم ذكره .

ومحاسنه كثيرة ، وقد طال الشرح .

وذكره أبو البركات ابن المستوفي في «تاريخ إربل» وبالغ في الثناء عليه وقال : ورد إربل في شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة وستمائة ، وكانت ولادته بجزيرة ابني عُمَر في يوم الخميس العشرين من شعبان سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ؛ وتوفي في إحدى الجمادَيَين سنة سبع وثلاثين وستمائة ، ببغداد ، وقد توجه إليها رسولاً من جهة صاحب الموصل ، وصلي عليه من الغد بجامع القصر ودفن بمقابر قريش في الجانب الغربي بمشهد موسى بن جعفر ، رضى الله عنهما .

قال أبو عبد الله محمد بن النجار البغدادي في « تاريخ بغداد » : توفي يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة ، وهو أخبر ، لأنه صاحب هذا الفن ، وقد مات عندهم .

= مستفتحة بالهناء وسعادة الآناء واشادة الثناء إذ كان أمل غيره من دهره اشادة البناء؛ نوضح لعلمكم الكريم أننا سطرناها والنيل المبارك بحمد الله قد وفى، وعفى من آمال القانطة ما عفى، ومرعى البلاد خصيب ، والري قد قتل المحل وكفه من دمه خضيب ، والديار المصرية قد تجمع بها اشتات المحاب وغنيت بمواقع نيلها عن تحمل منة السحاب ؛ وقوله في الدعاء : « واشادة الثناء إذ كان أمله من غيره اشادة البناء » فيه معنى قصده يحتاج إلى إيضاح وهو : أن الحاكم المباشر قبل الوالد كان يكثر في مجالسه القول : عمرت في الأوقات كذا وبنيت للأيتام كذا ، والله أعلم ؛ ا هـ » .

وقد تقدم ذكر أخويه : مجد الدين أبي السعادات المبارك ، وأبي الحسن علي الملقب عز الدين ، وكان الإخوة الثلاثة فضلاء نجباء رؤساء ، لكل واحد منهم تصانيف نافعة ، رحمهم الله تعالى[1] .

(285) وكان لضياء الدين المذكور ولد نبيه له النظم والنثر الحسن، وصنف عدة تصانيف نافعة من مجاميع وغيرها ، ورأيت له مجموعاً جمعه للملك الأشرف ابن الملك العادل بن أيوب، وأحسن فيه وذكر فيه جملة من نظمه ونثره ورسائل أبيه ، ومولده بالموصل في شهر رمضان سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، وتوفي بُكرة نهار الاثنين ثاني جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، واسمه محمد ، ولقبه الشرف ، رحمه الله تعالى .

٧٦٤

النضر بن شميل

أبو الحسن النَّضْر بن شميل بن خَرَشَة بن يزيد بن كُلْثوم بن عبدة بن زهير السَّكب ، الشاعر ، ابن عروة بن حَليمة[2] بن حُجر بن خُزاعِيّ بن مازن ابن مالك بن عمرو بن تميم ، التميمي المازني النحوي البصري ؛ كان عالماً بفنون من العلم صدوقاً ثقة ، صاحب غريب وفقه وشعر ومعرفة بأيام العرب ورواية الحديث ، وهو من أصحاب الخليل بن أحمد ؛ ذكره أبو عبيدة في كتاب «مثالب أهل البصرة»[3] فقال : ضاقت المعيشة على النضر بن شميل البصري

---

١ وقد تقدم... تعالى: تأخرت هذه الفقرة في ر حتى آخر الترجمة، وبها تنتهي الترجمة في: بر من.

٧٦٤ – ترجمته في نور القبس : ٩٩ – ١٠٤ ومعجم الادباء ١٩ : ١٣٨ وجمهرة ابن حزم : ٢١١ وتذكرة الحفاظ : ٣١٤ وعبر الذهبي ١ : ٣٤٢ ومرآة الجنان ٢ : ٨ وانباه الرواة ٣ : ٣٤٨ ومصادر أخرى في الحاشية ؛ وقد جاءت هذه الترجمة شديدة الإيجاز في المختار .

٢ ق ص : حكيمة ؛ وفي التاج (سكب) : حلمة ؛ وفي شرح البكري على الأمالي : ٤٤١ جلهمة مع أنه في أصلي الكتاب «حليمة» .

٣ ق : مثالب العرب من أهل البصرة .

بالبصرة فخرج يريد خراسان ، فشيعه من أهل البصرة نحو من ثلاثة آلاف رجل، ما فيهم إلا محدث أو نحوي أو لغوي أو عروضي أو أخباري ، فلما صار بالمربد جلس فقال : يا أهـل البصرة ، يعز عليّ فراقكم ، ووالله لو وجدت كل يوم كيلجة باقِلـّى ما فارقتكم ، قال : فلم يكن أحد فيهم يتكلف[1] له ذلك ، فسار حتى وصل خراسان فأفاد بها مالاً عظيماً ، وكانت إقامته بمَرْو . وقد سبق في أخبار القاضي عبد الوهاب المالكي نظير هذه الحكاية لما خرج من بغداد[2] .

وسمع من هشام بن عُرْوَة وإسماعيل بن أبي خالد وحُميد الطويل وعبد الله ابن عَون وهشام بن حسان وغيرهم من التابعين ، وروى عنه يحيى بن مَعِين وعلي ابن المديني وكل من أدركه من أئمـة عصره ، ودخل نيسابور غير مرة وأقام بها زماناً وسمع منه أهلها .

وله مع المأمون بن هارون الرشيد لما كان مقيماً بمرو حكايات ونوادر ، لأنه كان يجالسه ، فمن ذلك ما حكاه الحريري في كتاب « درة الغواص في أوهام الخواص » في قوله[3] : ويقولون هو سَداد من عَوَز ، فيلحنون في فتح السين[4] ، والصواب أن يقال بالكسر : وقد جاء في أخبار النحويين أن النضر بن شُميل المازني استفاد بإفادة هذا الحرف ثمانين ألف درهم ، وساق خبره ، وذكر إسناداً انتهى فيه إلى محمد بن ناصح الأهوازي قال : حدثني النضر بن شميل قال : كنت أدخل على المأمون في سَمَره ، فدخلت ذات ليلة وعليّ ثوب[5] مرقوع ، فقال : يا نضر ، ما هذا التقشف حتى تدخل على أمير المؤمنين في هـذه الخُلقان ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، أنا شيخ ضعيف وحَرُّ مَرْو شديد ، فأتبرد بهـذه الخُلقان ، قال : لا ، ولكنك قشف ، ثم أجرينا الحديث ، فأجرى هو ذكر النساء فقال : حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما

---

١ ر : يتكفل ؛ بر من : فلم يكن فيهم من يتكلف .

٢ انظر ج ٣ : ٢١٩ – ٢٢٠ .

٣ درة الغواص : ١٠٥ – ١٠٧ .

٤ ق ص ن : في السين بفتحها .

٥ الدرة : قميص .

قال،قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا تزوّج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سَداد من عوَز » فأورده بفتح السين ، قال : فقلت : صدق يا أمير المؤمنين هشيم ، حدثنا عوف بن أبي جميلة عن الحسن عن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها[1] سِداد من عوَز » قال : وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً[2] ، وقال : يا نضر ، كيف قلت سِداد ؟ قلت : لأن السّداد ها هنا لحن قال : أو تَلحّنني ؟ قلت : إنما لحن هشيم وكان لحّانة فتبع أميرُ المؤمنين لفظه، قال فما الفرق بينهما ؟ قلت : السّداد ، بالفتح ، القصد في الدين والسبيل ، والسِّداد ، بالكسر ، البُلغة ، وكل ما سددت به شيئاً فهو سِداد ، قال : أو تعرف العرب ذلك ؟ قلت : نعم ، هذا العَرْجي يقول :

أضاعوني وأيّ فَتَى أضاعوا ليوم كريهة وسِداد ثَغْرِ

فقال المأمون : قبح الله من لا أدب له ، وأطرق مَلِيّاً ثم قال : ما مالك يا نضر؟ قلت : أُرَيْضة لي بمرو أتصابيها وأتمززها[3]، قال: أفلا نفيدك مالا معها ؟ قلت: إني إلى ذلك لمحتاج ، قال : فأخذ القرطاس وأنا لا أدري ما يكتب . ثم قال : كيف تقول إذا أمرت أن يترب ؟ قلت : أتربه ، قال : فهو مــاذا ، قلت : مُتْرَب ، قال : فمن الطين ؟ قلت : طِنْهُ ، قال : فهو ماذا ؟ قلت: مَطِين ، قال : هذه أحسن من الأولى ، ثم قال : يا غلام ، أتربه وطنْه ، ثم صلى بنا العشاء وقال لخادمه : تبلغ معه إلى الفضل بن سَهْل ؛ قال : فلما قرأ الفضل الكتاب[4] قال: يا نضر، إن أمير المؤمنين قد أمر لك بخمسين ألف درهم، فما كان السبب فيه ؟ فأخبرته ولم أكذبه ، فقال : لحنت أمير المؤمنين ؟ فقلت: كلا إنما لحن هشيم وكان لحانة فتبع أمير المؤمنين لفظه ، وقد تُتُبِّع ألفــاظُ

---

١ ن ر : فيه .

٢ ر : فجلس .

٣ ق : وأتمورها ؛ ص : وأتموزها .

٤ بر من : القرطاس .

الفقهاء ورواة الآثار . ثم أمر لي بثلاثين ألف درهم فأخذت ثمانين ألف درهم بحرف استفيد مني .

والبيت الذي استشهد به هو لعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان الأموي العرجي الشاعر المشهور ، وهو من جملة أبيات له ، وهي هذه الأبيات[1] :

أضاعوني وأيَّ فتَىً أضاعوا ليوم كريهةٍ وسداد ثَغْرِ
وصبر عند مُعْتَرَكِ المنايا[2] وقد شَرعَت أسِنَّتُها لنَحْري
أُجَرَّر في الجوامع كلَّ يوم فيالله مَظْلَمتي وقَسْري[3]
كأني لم أكن فيهم وسيطاً ولم تَكُ نسبتي في آل عمرو
عسى الملك المجيبُ لمن دعاهُ سَيُنجيني فيَعْلَم كيف شكري
فأجزي بالكرامة أهل وُدّي وأجزي بالضغائن أهل وِتْري

[والعرجي : بفتح العين وسكون الراء وفي آخرها جيم ، هذه النسبة إلى العرج ، وهو موضع بمكة سمّي به ؛ وقال ابن الأثير في كتاب «تهذيب النسب»: العرج بين مكة والمدينة ، وليس بمكة ، والله أعلم .

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: لما حبس المنصور عبد الله بن علي كان يكثر التمثل بقول العرجي :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا

فبلغ ذلك المنصور فقال : هو أضاع نفسه بسوء فعله ، فكانت أنفسنا عندنا أبرّ من نفسه . قال إسحاق ، وقال الأصمعي : مررت بكنّاس بالبصرة يكنس كنيفاً ويغني :

أضاعوني وأي فتَى أضاعوا ليوم كريهةٍ وسداد ثغرِ

---

١ ديوان العرجي : ٣٤ .

٢ الديوان : وخلوني لمعترك المنايا ؛ ق : فصبراً ؛ ر : وصبري .

٣ الجوامع : جمع جامعة وهي القيد .

فقلت: أما سداد الكنيف فأنت مليّ به، وأما الثغر فلا علم لنا كيف أنت فيه، وكنت حديث السنّ وأردت العبث به ، فأعرض عني ملياً ، ثم أقبل عليّ متمثلاً يقول :

وأكرمُ نفسي إنني إن أهنتها وحقك لم تكرم على أحد بعدي

فقلت : والله ما يكون من الهوان شيء أكثر مما بذلتها له فقال لي : والله إن من الهوان لشراً مما أنا فيه ، فقلت : وما هو ؟ قال : الحاجة إليك وإلى أمثالك][1] .

وكان سبب عمله هذه الأبيات أن محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي خال هشام بن عبد الملك لما كان والي مكة حبس العرجي المذكور لأنه كان يشبّبُ بأمه جَيْداء ، وهي من بني الحارث بن كعب ، ولم يكن ذلك لمحبته إياها ، بل ليفضح ولدها المذكور ، وأقام في حَبْسِهِ تسع سنين ، ثم مات فيه بعد أن ضربه بالسّياط وشهره بالأسواق ، فعمل هذه الأبيات في السجن[2] .

[قال إسحاق : وكان الوليد بن يزيد مضطغناً على محمد بن هشام أشياء كانت تبلغه عنه في حياة هشام ، فلما ولي الخلافة قبض عليه وعلى أخيه إبراهيم بن هشام وأشخصا إليه إلى الشام ، ثم دعا بالسياط ، فقال له محمد : أسألك بالقرابة ، فقال : وأي قرابة بيني وبينك ، هل أنت إلا من أشجع ؟ قال : فأسألك بصهر عبد الملك ، قال : فلم تحفظه ؛ قال : يا أمير المؤمنين قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تضرب قريش بالسياط إلا في حد ، قال : ففي حدّ أضربك وقود ، [أنت ممن سنّ] ذلك على العرجي وهو ابن عمي وابن أمير المؤمنين عثمان فما راعيت حق جده ولا نسبته إلى هشام ، ولا ذكرت حينئذ هذا الخبر ، وأنا ولي ثأره ، اضرب يا غلام ، فضربهما ضرباً مبرحاً وأثقلا بالحديد ووجهها إلى يوسف بن عمر بالكوفة وأمر باستقصائهما وتعذيبهما حتى يتلفا ،

---

١ زيادة انفردت بها ر ، وانظر الأغاني ١ : ٣٩٠ .

٢ وكان سبب ... السجن : هذه الفقرة وقعت في ر بعد الزيادة التالية ، ولكنا قدمناها ليطرد السياق ؛ وواضح من إيراد الزيادتين معاً أنهما نقل مباشر عن الأغاني .

وكتب إليه : احتبسهما مع ابن النصرانية ، يعني خالداً القسري ، إن عاش أحد منهما ؛ فعذبهما عذاباً شديداً وأخذ منهما مالاً عظيماً ، حتى لم يبق فيهما موضع للضرب ، وكان محمد بن هشام مطروحاً فإذا أرادوا أن يقيموه أخذوا بلحيته فجذبوه بها ، ولما اشتد الحال بهما تحامل إبراهيم لينظر في وجه محمد فوقع عليه فماتا جميعاً ومات خالد القسري معهما في يوم واحد .

قال إسحاق : غنيت الرشيد يوماً في عُرض الغناء :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهةٍ وسداد ثغر

فقال لي: ما كان سبب العرجي حتى قال الشعر ؟ فأخبرته بخبره من أوله إلى آخره إلى أن مات فرأيته يتغير كلما مرّ به شيء ، فأتبعته بحديث مقتل ابني هشام ، فجعل وجهه يسفر وغضبه يسكن ، فلما انقضى الحديث قال : يا إسحاق والله لولا ما حدّثتني بـه من فعـل الوليد لـما تركت أحداً من بني مخزوم إلا قتلته بالعرجي][1] .

وقد خرجنا عن المقصود ، ونرجع الآن إلى تتمة أخبار النضر بن شميل .

فمن ذلك ما حكاه الحريري في « درة الغواص »[2] أيضاً في أوائـل الكتاب في قوله : ويقولون للمريض[3]: مسَحَ الله ما بك، بالسين، والصواب فيه مَصَح ، بالصاد ، فقال : ويحكى أن النضر بن شُمَيل المازني مرض فدخل عليه قوم يعودونه ، فقال له رجل منهم يكنى أبا صالح: مسح الله ما بك ، فقال: لا تقل مسح بالسين ولكن قل مَصَح بالصاد ، أي أذهبه وفرقـه ، أما سمعت قول الأعشى :

وإذا ما الخمر فيها أزبدت أفل الإزباد فيها ومصح

فقال له الرجل : إن السين قد تبدل من الصاد ، كما يقال الصراط والسراط ،

---

١ زيادة انفردت بها ر ، وانظر الأغاني ١ : ٣٩١ – ٣٩٢ .

٢ درة الغواص : ١٤ – ١٥ .

٣ المريض : سقطت من : ق ن ر .

وسقر وصقر ، فقال له النضر : فإذاً أنت أبو سالح ؛ ويُشبه هذه النادرة ما حكي أيضاً : أن بعض الأدباء جوز بحضرة الوزير أبي الحسن بن الفرات : أن تقام السين مقام الصاد في كل موضع ، فقال له الوزير : أتقرأ ﴿ جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ (الرعد : ٢٣) أم من سلح ؟ فخجل الرجل وانقطع ؛ انتهى كلام الحريري .

قلت أنا : والذي ذكره أرباب اللغة في جواز إبدال الصاد من السين : أن كل كلمة كان فيها سين ، وجاء بعدها أحد الحروف الأربعة — وهي الطاء والخاء والغين والقاف — فيجوز إبدال السين بالصاد ، فتقول في « السراط » الصراط ، وفي « سخر لكم » صخر ، وفي « مسغبة » مصغبة ، وفي « سيقل » صيقل ، وقس على هذا كله . ولم أر في شيء من كتب اللغة من ذكر هذا وحكى فيه خلافاً ، سوى الجوهري في كتاب « الصحاح » في لفظة صدغ[1] ، فإنه قال : وربما قالوا السدغ بالسين ، قال قطرب محمد بن المستنير : إن قوماً من بني تميم يقال لهم بَلعَنْبر يقلبون السين صاداً عند أربعة أحرف ، عند الطاء والقاف والغين والخاء ، إذا كنّ بعد السين ، ولا يبالي أثانية كانت أم ثالثة أم رابعة ، بعد أن تكون بعدها ، يقولون : سراط وصراط ، وبسطة وبصطة ، وسيقل وصيقل ، وسرقت وصرقت ، ومسغبة ومصغبة ، ومسدغة ومصدغة ، وسخر لكم وصخر لكم ، والسخب والصخب ؛ انتهى كلامه في هذا الفصل .

وأخبار النضر كثيرة ، والاختصار أولى .

وله تصانيف كثيرة ، فمن ذلك[1] : كتاب في الأجناس على مثال « الغريب » وسماه : « كتاب الصفات » . قال علي بن الكوفي : الجزء الأول منه يحتوي على خلق الإنسان والجود والكرم وصفات النساء . والجزء الثاني يحتوي على الأخبية والبيوت وصفة الجبال والشعاب . والجزء الثالث يحتوي على الإبل فقط والجزء الرابع يحتوي على الغنم والطير والشمس والقمر والليل والنهار والألبان والكمأة والآبـار والحياض والأرْشيَة والدلاء وصفة الخمر[3] . والجزء الخامس

---

١ الصحاح ٤ : ١٣٢٣ .

٢ انظر انباه الرواة ٣ : ٣٥٢ .

٣ ص ن : الحمر .

يحتوي على الزرع والكرم والعنب[1] وأسماء البقول والأشجار والرياح والسحاب والأمطار. وله كتاب « السلاح » ، وكتاب « خلق الفرس » وكتاب « الأنواء » وكتاب « المعاني » وكتاب « غريب الحديث » وكتاب « المصادر » وكتاب « المدخل إلى كتاب العين للخليل بن أحمد » ، وغير ذلك من التصانيف .

وتوفي في سلخ ذي الحجة سنة أربع ومائتين ، وقيل في أولها ، وقيل سنة ثلاث ومائتين بمدينة مرو من بلاد خراسان ، وبها ولد ، ونشأ بالبصرة فلذلك نسب إليها ، رحمه الله تعالى .

والنَّضْر : بفتح النون وسكون الضاد المعجمة وبعدها راء .

وشميل : بضم الشين المعجمة وفتح الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها لام .

وخَرَشة : بفتح الخاء المعجمة والراء والشين المعجمة .

وكُلْثُوم : بضم الكاف والثاء المثلثة وبينهما لام ساكنة .

وعبدة : بفتح العين والدال المهملة وبينهما باء موحدة وهاء ساكنة .

والسكب : بفتح السين المهملة وسكون الكاف وبعدها باء موحدة، وإنما قيل له « سكب » لقوله[2] :

برقٌ يضيء خلال البيتِ أسكوب

وحليمة : بفتح الحاء المهملة وكسر اللام وسكون الياء المثناة من تحتها .
وقال ابن الجوزي في كتاب « الألقاب » في ترجمة السكب : هو زهير بن عروة ابن جُلْهُمة ، والله أعلم بالصواب .

وجُلْهُمة : بضم الجيم والهاء وبينهما لام ساكنة ، وهو في الأصل : اسم لجنب الوادي ، يقال له : جُلْهمة ، وجَلَهَة : بفتح الجيم والهاء بغير ميم ، وبه سمي الرجل .

وحُجْر : بضم الحاء المهملة وبعدها جيم ساكنة ثم راء .

---

١ والعنب : سقطت من ق : وفي الانباه : والغيث .

٢ انظر التاج (سكب) والسمط : ٤٤١ .

وخُزاعيّ : بضم الخاء المعجمة وفتح الزاي وبعد الألف عين مهملة مكسورة ثم ياء مشددة تشبه ياء النسب .

والباقي معروف فلا حاجة إلى ضبطه .

٧٦٥

الإمام أبو حنيفة

أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زُوطى بن ماه الفقيه الكوفي ، مولى تيم الله ابن ثعلبة ، وهو من رهط حمزة الزيات ؛ كان خزازاً يبيع الخز ، وجدُّه زوطى من أهل كابُل ، وقيل من أهل بابل ، وقيل من أهل الأنبار ، وقيل من أهل نَسا ، وقيل من أهل ترمذ ، وهو الذي مَسَّه الرق فأعتق ، وولد ثابت على الإسلام .

وقال إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة : أنا إسماعيل بن حماد بن النعمان بن ثابت بن النعمان بن المرزُبان ، من أبناء فارس من الأحرار ، والله ما وقع علينا رق قط . ولد جدي[1] سنة ثمانين ، وذهب ثابت إلى علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وهو صغير ، فدعا له بالبركة فيه وفي ذريته ، ونحن نرجو أن يكون الله تعالى قد استجاب ذلك لعلي فينا ، والنعمان بن المرزبان أبو ثابت هو الذي أهدى لعلي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، الفالوذج في يوم المهرجان النيروز[2] ،

---

٧٦٥ – مصادر ترجمته اكثر من أن يحاط بها ولكنا نشير إلى تذكرة الحفاظ : ١٦٨ وتاريخ بغداد ١٣ : ٣٢٣ والجواهر المضية ١ : ٢٦ – ٣٢ ومرآة الجنان ١ : ٣٠٩ وعبر الذهبي ١ : ٢١٤ والشذرات ١ : ٢٢٧ والبداية والنهاية ١٠ : ١٠٧ والنجوم الزاهرة ٢ : ١٢ وانظر بروكلمان (الترجمة العربية) ٣ : ٢٣٦ – ٢٤٥ وبهذه الترجمة تبدأ (ع) .

١ ر : جدي ثابت .

٢ ق ن ع ص : مهرجان النيروز ؛ قلت والمهرجان غير النيروز ؛ وسبب الاضطراب في النسخ وجود الروايتين في تاريخ بغداد .

فقال : مَهْرجُونا[1] كل يوم ، هكذا قال الخطيب في تاريخه ، والله تعالى أعلم .

وأدرك أبو حنيفة أربعة من الصحابة ، رضوان الله عليهم وهم : أنس بن مالك وعبد الله بن أبي أوفى بالكوفة ، وسهل بن سعد الساعدي بالمدينة ، وأبو الطفيل عامر بن واثلة بمكة ، ولم يلق أحداً منهم ولا أخذ عنه[2] ، وأصحابه يقولون : لقي جماعة من الصحابة وروى عنهم ، ولم يثبت ذلك عند أهل النقل . وذكر الخطيب في « تاريخ بغداد »[3] أنه رأى أنس بن مالك ، رضي الله عنه . وأخذ الفقه عن حماد بن أبي سليمان وسمع عطاء بن أبي رباح وأبا إسحاق السبيعي ومحارب بن دثار والهيثم بن حبيب الصوّاف ومحمد بن المنكدر ونافعاً مولى عبد الله بن عمر ، رضي الله عنهما ، وهشام بن عروة وسماك بن حرب ؛ وروى عنه عبيد الله بن المبارك ووكيع بن الجراح والقاضي أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني وغيرهم .

وكان عالماً عاملاً زاهداً عابداً ورعاً تقياً كثير الخشوع دائم التضرع إلى الله تعالى ، ونقله أبو جعفر المنصور من الكوفة إلى بغداد ، فأراده على أن يوليه القضاء فأبى ، فحلف عليه ليفعَلنّ ، فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل [فحلف المنصور ليفعلن ، فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل ، وقال : إني لن أصلح إلى قضاء][4] فقال الربيع بن يونس الحاجب : ألا ترى أمير المؤمنين يحلف ؟ فقال أبو حنيفة : أميرُ المؤمنين على كفارة أيمانه أقدرُ مني على كفارة أيماني ، وأبى أن يلي ، فأمر به إلى الحبس في الوقت ، والعوام يدعون أنه تولى عدد اللبن أياماً ليكفر بذلك عن يمنه ، ولم يصح هذا من جهة النقل . وقال الربيع : رأيت المنصور ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء ، وهو يقول : اتق الله ، ولا ترعي[5]

---

١ زاد في ع وهامش ص : نيرزونا ، وفي بر من : مهرجونا أي نيرزونا ، وفي تاريخ بغداد — في احدى الروايتين : نورزونا .

٢ ر ص : إلا وأخذ عنه .

٣ ١٣ : ٣٢٤ .

٤ زيادة من المطبوعة المصرية لم ترد في المخطوطات المعتمدة، وهي واردة في تاريخ بغداد: ٣٢٨ .

٥ هكذا في تاريخ بغداد والنسخ .

أمانتك إلا من يخاف الله ، والله مـا أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب ؟.ولو اتجه الحكم عليك، ثم تهددتني أن تغرقني في الفرات أو تلي[1] الحكم لاخترت أن أغرق ، ولك حاشية يحتاجون إلى مَنْ يكرمهم[2] لك ، ولا أصلح لذلك ، فقال له : كذبت أنت تصلح ، فقال له : قد حكمت لي على نفسك ، كيف يحل لك أن تولي قاضياً على أمانتك وهو كذاب ؟

وحكى الخطيب أيضاً في بعض الروايات[3] : أن المنصور لمـا بنى مدينته ونزلها ، ونزل المهدي في الجانب الشرقي وبنى مسجد الرصافة ، أرسل إلى أبي حنيفة فجيء به ، فعرض عليه قضاء الرصافـة فأبى ، فقال له : إن لم تفعل ضربتك بالسياط ، قال : أو تفعل ؟ قال : نعم ، فقعد في القضاء يومين فلم يأته أحد ، فلما كان في اليوم الثالث أتاه رجل صَفّـار ومعه آخر ، فقال الصفار : لي على هذا درهمان وأربعة دوانيق ثمن تور صُفر[4] ، فقال أبو حنيفة : اتق الله وانظر فيما يقول الصفّـار ، قال : ليس له عليّ شيء ، فقال أبو حنيفة للصفار : ما تقول ؟ فقال : استحلفه لي ، فقال أبو حنيفة للرجل : قل والله الذي لا إله إلا هو ، فجعل يقول ، فلمـا رآه أبو حنيفة معتمداً على أن يقول قطع عليه وضرب بيده إلى كمه ، فحلّ صرة وأخرج درهمين ثقيلين وقال للصفار : هذان الدرهمان عوض عـــن باقي تَـوْرِكَ ، فنظر الصفار إليهما وقال : نعم ، فأخذ الدرهمين ، فلما كان بعد يومين اشتكى أبو حنيفة فمرض ستة أيام ثم مات .

وكان[5] يزيد بن عمر بن هُبَيْرة الفَزاري أمير العراقين أراده أن يلي القضاء بالكوفة أيام مروان بن محمد ، آخر ملوك بني أمية ، فأبى عليه فضربه مائـة سوط وعشرة أسواط ، كل يوم عشرة أسواط ، وهو على الامتناع ، فلما رأى ذلك خلّـى سبيله . وكان أحمد بن حنبل ، رضي الله عنه ، إذا ذكر ذلك بكى وترحم على أبي حنيفة ، وذلك بعد أن ضرب أحمد على القول بخلق القرآن .

---

١ ن ر ص : ألي .

٢ ق : إلى أن يكرموا .

٣ تاريخ بغداد ١٣ : ٣٢٩ .

٤ تور صفر : وعاء نحاس .

٥ تاريخ بغداد ١٣ : ٣٢٧ .

وقال إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة : مررت مع أبي بالكُناسة فبكى ، فقلت له : يا أبت ما يبكيك ؟ فقال : يابني ، في هذا الموضع ضرب ابن هُبيرة أبي عشرة أيام ، في كل يوم عشرة أسواط ، على أن يلي القضاء ، فلم يفعل .

والكُناسة ، بضم الكاف ، موضع بالكوفة .

[قال الفضل بن غانم : كان أبو يوسف مريضاً شديد المرض فعاده أبو حنيفة مراراً ، فصار إلى آخر مرة ، فرآه ثقيلاً فاسترجع ثم قال : لقد كنت أؤملك بعدي للمسلمين ولئن أصيب الناس بك ليموتن معك علم كثير . ثم رزق العافية وخرج من الغد فأخبر أبو يوسف بقول أبي حنيفة فيه فارتفعت نفسه وانصرفت وجوه الناس إليه فعقد لنفسه مجلساً في الفقه ، وقصر عن لزوم مجلس أبي حنيفة فسأل عنه فأخبر أنه عقد لنفسه مجلساً وأنه يلقي كلامك فيه ، فدعا رجلاً كان له عنده قدر فقال : سر إلى مجلس يعقوب فقل له : ما تقول في رجل دفع إلى قصار ثوباً ليقصره بدرهم فصار إليه بعد أيام في طلب الثوب ، فقال له القصار : ما لك عندي شيء وأنكره ، ثم إن رب الثوب رجع إليه فدفع له الثوب مقصوراً ، أله أجرة ؟ فإن قال لك : له أجرة فقل له أخطأت ، وإن قال : لا أجرة له فقل : أخطأت ؛ فسار إليه وسأله ، فقال أبو يوسف : له أجرة ، فقال : أخطأت ، فنظر ساعة ثم قال : لا أجرة له ، فقال له : أخطأت ، فقام أبو يوسف من ساعته فأتى أبا حنيفة فقال : ما جاء بك إلا مسألة القصار ، قال : أجل ، قال : سبحان الله ، من قعد يفتي الناس وعقد مجلساً يتكلم في دين الله وهذا قدره ، لا يحسن أن يجيب في مسألة من الاجارات ؟ فقال : يا أبا حنيفة ، علمني ، فقال : إن كان قصره بعد ما غصبه فلا أجرة لأنه قصر لصاحبه ؛ ثم قال : من ظن أنه يستغني عن التعلم فليبك على نفسه][1] .

وكان أبو حنيفة حسن الوجه حسن المجلس ، شديد الكرم حسن المواساة لإخوانه ، وكان رَبْعة من الرجال ، وقيل كان طُوالا تعلوه سمرة ، أحسن

---

١ زيادة من ر ، ويبدو أنها مقحمة ، لأن سياق الترجمة حتى هذا الحد كان تلخيصاً مرتباً عن تاريخ بغداد ، وهذه الحكاية تجيء في ص : ٣٤٩ من تاريخ الخطيب .

الناس منطقاً وأحلامهم نغمة .

وذكر الخطيب في تاريخه[1] أن أبا حنيفة رأى في المنام كأنه ينبش قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث مَنْ سأل ابن سيرين ، فقال ابن سيرين : صاحب هذه الرؤيا يثور[2] علماً ، لم يسبقه إليه أحد قبله .

قال الشافعي[3] ، رضي الله عنه ، قيل لمالك : هل رأيت أبا حنيفة ؟ فقال : نعم ، رأيت رجلاً لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته .

وروى حَرْمَلة بن يحيى عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال[4] : الناس عيال على هؤلاء الخمسة ، من أراد أن يتبحر في الفقه فهو عيال على أبي حنيفة ، وكان أبو حنيفة ممن وفق له الفقه ، ومن أراد أن يتبحر في الشعر فهو عيال على زهير ابن أبي سلمى ، ومن أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق ، ومن أراد أن يتبحر في النحو فهو عيال على الكسائي ، ومن أراد أن يتبحر في التفسير فهو عيال على مُقاتل بن سليمان ، هكذا نقله الخطيب في تاريخه .

وقال يحيى بن مَعين : القراءة عندي قراءة حمزة ، والفقه فقه أبي حنيفة ، على هذا أدركت الناس . وقال جعفر بن ربيع : أقمت على أبي حنيفة خمس سنين ، فما رأيت أطول صَمْتاً منه ، فإذا سئل عن الفقه تفتح وسال كالوادي ، وسمعت له دَوِيّاً وجَهارة في الكلام .

وكان إماماً في القياس ؛ قال علي بن عاصم[5] : دخلت على أبي حنيفة وعنده حجام يأخذ من شعره ، فقال للحجام : تَتَبَّع مواضع البياض ، فقال الحجام : لا تزد ، فقال : ولم ؟ قال : لأنه يكثر ، قال : فتتبع مواضع السواد لعله يكثر ، وحكيت لشريك هذه الحكاية فضحك وقال : لو ترك أبو حنيفة قياسه لتركه مع الحجام .

---

١ تاريخ بغداد ١٣ : ٣٣٥ .

٢ ق : يثير .

٣ تاريخ بغداد ١٣ : ٣٣٧ – ٣٣٨ .

٤ تاريخ بغداد ١٣ : ٣٤٦ .

٥ تاريخ بغداد ١٣ : ٧٤٧ .

وقال عبد الله بن رجاء[1] : كان لأبي حنيفة جار بالكوفة إسكاف ، يعمل نهاره أجمع ، حتى إذا جنّه الليل رجع إلى منزله ، وقد حمل لحماً فطبخه أو سمكة فيشويها ثم لا يزال يشرب ، حتى إذا دب الشراب فيه غَرَّد بصوت ، وهو يقول :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فلا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم ، وكان أبو حنيفة يسمع جَلَبته كل ليلة ، وأبو حنيفة كان يصلي الليل كله ، ففقد أبو حنيفة صوته فسأل عنه ، فقيل : أخذه العَسَسُ منذ ليال وهو محبوس ، فصلى أبو حنيفة صلاة الفجر من غدٍ ، وركب بغلته ، واستأذن على الأمير ، فقال الأمير : ايذنوا له وأقبلوا به راكباً ولا تَدَعُوه ينزل حتى يطأ البساط ببغلته[2] ، ففعل ، ولم يزل الأمير يوسع له في مجلسه ، وقال : ما حاجتك ؟ فقال : لي جار إسكاف أخذه العسس منذ ليال ، يأمر الأمير بتخليته ، فقال : نعم ، وكل من أخذ في تلك الليلة إلى يومنا هذا ، فأمر بتخليتهم أجمعين ، فركب أبو حنيفة والإسكاف يمشي وراءه ، فلما نزل أبو حنيفة مضى إليه وقال : يا فتى أضعناك ؟ فقال : لا ، بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً عن حرمة الجوار ورعاية الحق ، وتاب الرجل ولم يَعُدْ إلى ما كان عليه .

وقال ابن المبارك[3] : رأيت أبا حنيفة في طريق مكة ، وشوي لهم فصيل سمين ، فاشتهوا أن يأكلوه بخلّ فلم يجدوا شيئاً يصبون فيه الخل ، فتحيروا ، فرأيت أبا حنيفة وقد حفر في الرمل[4] حُفْرة وبَسَط عليها السفرة ، وسكب الخل على ذلك الموضع ، فأكلوا الشّواء بالخل ، فقالوا : تحسن كل شيء ، فقال: عليكم بالشكر ، فإن هذا شيء ألهمته لكم فضلاً من الله عليكم .

---

١ انظر القصة في تاريخ بغداد ١٣ : ٣٦٢ والأغاني ١ : ٣٨٩ .

٢ ببغلته : سقطت من ع ر والمختار وتاريخ بغداد .

٣ تاريخ بغداد ١٣ : ٣٦٥ .

٤ ع : الأرض .

[وحكى الحسن بن زياد قال : دفن رجل مالاً في موضع ، ثم نسي في أي موضع دفنه فلم يقع عليه ، فجاء إلى أبي حنيفة فشكا إليه فقال له أبو حنيفة : ما هذا فقه فأحتال لك ، ولكن اذهب فصلّ الليلة ، ففعل الرجل ، ولم يقم إلا أقلّ من ربع الليل حتى ذكر الموضع ، فجاء إلى أبي حنيفة فأخبره ، فقال له : قد علمت أن الشيطان لا يدعك تصلي حتى يذكرك ، فهلا أتممت ليلتك شكراً لله عز وجل .

وقال ابن شبرمة : كنت شديد الازراء على أبي حنيفة ، فحضر الموسم وكنت حاجاً يومئذ ، فاجتمع إليه قوم يسألونه ، فوقفت من حيث لا يعلم من أنا ، فجاءه رجل فقال : يا أبا حنيفة : قصدتك أسألك عن أمر أهمني وأزعجني قال : وما هو ؟ قال : لي ولد وليس لي غيره ، فإن زوّجته طلق ، وإن سرّيته أعتق ، وقد عجزت عن هذا فهل من حيلة ؟ قال له : نعم اشتر الجارية التي يرضاها لنفسه ثم زوجها منه ، فإن طلق رجعت إليك مملوكتك وإن أعتق أعتق ما لا يملك ، وإن ولدت ثبت نسبه لك ، فعلمت أن الرجل فقيه من يومئذ وكففت عن ذكره إلا بخير][1] .

وقال ابن المبارك أيضاً : قلت لسفيان الثوري : يا أبا عبد الله ، ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة ، ما سمعته يغتاب عدوّاً له قط ، فقال : هو أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهبها[2] .

وقال أبو يوسف[3] : دعا أبو جعفر المنصور أبا حنيفة ، فقال الربيع صاحب المنصور ، وكان يُعادي أبا حنيفة : يا أمير المؤمنين ، هذا أبو حنيفة يخالف جَدّك ، كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول : إذا حلف على اليمين ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو بيومين جاز الإستثناء ، وقال أبو حنيفة : لا يجوز الاستثناء إلا متصلاً باليمين ، فقال أبو حنيفة : يا أمير المؤمنين ، إن الربيع يزعم أنه ليس لك في رقاب جُنْدك بَيْعة ، قال : وكيف ؟ قال : يحلفون لك

---

١ زيادة انفردت بها ر .

٢ وقال ابن المبارك . . . يذهبها : سقط من ع .

٣ تاريخ بغداد : ٣٦٥ .

ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم ، فضحك المنصور وقال : يا ربيع ، لا تتعرّض لأبي حنيفة ، فلما خرج أبو حنيفة قال له الربيع : أردت أن تشيط بدمي ، قال : لا ، ولكنك أردت أن تشيط بدمي فخلصتك وخلصت نفسي .

وكان أبو العباس[1] الطوسي سيء الرأي في أبي حنيفة ، وكان أبو حنيفة يعرف ذلك ، فدخل أبو حنيفة على المنصور ، وكثر الناس ، فقال الطوسي : اليوم أقتل أبا حنيفة ، فأقبل عليه فقال : يا أبا حنيفة ، إن أمير المؤمنين يدعو الرجل فيأمره بضرب عنق الرجل لا يدري ما هو ، أيسعه أن يضرب عنقه ؟ فقال : يا أبا العباس أمير المؤمنين يأمر بالحق أم بالباطل ؟ فقال : بالحق ، قال: أنفذ الحق حيث كان ولا تسأل عنه ؛ ثم قال أبو حنيفة لمن قرب منه : إن هذا أراد أن يُوثِقني[2] فربطته .

وقال يزيد بن الكميت[3] : كان أبو حنيفة شديد الخوف من الله تعالى ، فقرأ بنا علي بن الحسين[4] المؤذن ليلة في العشاء الأخيرة سورة ﴿ إذا زلزلت ﴾ وأبو حنيفة خلفه ، فلما قضى الصلاة وخرج الناس نظرت إلى أبي حنيفة وهو جالس يتفكر ويتنفس ، فقلت : أقوم لا يشتغل قلبه بي ، فلما خرجت تركت القنديل ولم يكن فيه إلا زيت قليل ، فجئت وقد طلع الفجر وهو قائم وقد أخذ بلحية نفسه، وهو يقول : يا من يجزي بمثقال ذرة خير خيراً، ويا من يجزي بمثقال ذرة شر شراً ، أجِـرِ النعمانَ عبدَكَ من النار، ومما يقرب منها من السوء، وأدخله في سَعَة رحمتك ، قال : فأذنت[5] وإذا القنديل يزهر وهو قائم ، فلما دخلت قال لي : تريد أن تأخذ القنديل ، قلت : قد أذنت لصلاة الغداة ، فقال: اكتم علي ما رأيت ، وركع ركعتين وجلس حتى أقمت الصلاة وصلى معنا الغداة على وضوء أوّل الليل .

---

١ المصدر السابق نفسه .
٢ ن ص : يوبقني .
٣ تاريخ بغداد : ٣٥٧ .
٤ ع ر ن ق : الحسن .
٥ ر : فدنوت .

وقال أسد بن عمرو[1] : صلى أبو حنيفة فيما حُفظ عليه صلاة الفجر بوضوء صلاة العشاء أربعين سنة ، وكان عامة ليلة يقرأ جميع القرآن في ركعة واحدة وكان يُسمَع بكاؤه في الليل حتى يرحمه جيرانه ، وحفظ عليه أنه ختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعة آلاف مرة .

وقال إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة عن أبيه[2] : لما مات أبي سألنا الحسن ابن عمارة أن يتولى غسله ففعل ، فلما غسله قال : رحمك الله وغفر لك ! لم تفطر منذ ثلاثين سنة ، ولم تتوسَّد يمينك في الليل منذ أربعين سنة ، وقد أتعبت مَنْ بعدك ، وفَضحْت القراء .

ومناقبه وفضائله كثيرة ، وقد ذكر الخطيب في تاريخه منها شيئاً كثيراً ، ثم أعقب ذلك بذكر ما كان الأليق في تركه والإضراب عنه ، فمثل هذا الإمام لا يشك في دينه ، ولا في وَرَعه وتحفظه[3] ، ولم يكن يُعاب بشيء سوى قلة العربية ، فمن ذلك ما روي أن أبا عمرو بن العلاء المقرىء النحوي – المقدم ذكره – سأله عن القتل بالمثل: هل يوجب القود أم لا ؟ فقال: لا، كما هو قاعدة مذهبه خلافاً للإمام الشافعي رضي الله عنه ، فقال له أبو عمرو : ولو قتله بحجر المنجنيق ، فقال : ولو قتله بأبا قُبَيس ، يعني الجبل المطل على مكة حرسها الله تعالى . وقد اعتذروا عن أبي حنيفة بأنه قال ذلك على لغة من يقول : إن الكلمات الست المعرَبة بالحروف – وهي أبوه وأخوه وحموه وهنوه وفوهُ وذو مال – أن إعرابها يكون في الأحوال الثلاث بالألف ، وأنشدوا في ذلك :

إن أباها وأبا أباها   قد بلغا في المجد غايتاها

وهي لغة الكوفيين ، وأبو حنيفة من أهل الكوفة ، فهي لغته ، والله أعلم . وهذا وإن كان خروجاً عن المقصود لكن الكلام ارتبط بعضه ببعض فانتشر. وكانت ولادة أبي حنيفة سنة ثمانين للهجرة[4] ، وقيل سنة إحدى وستين ،

---

١ تاريخ بغداد : ٣٥٤ .
٢ المصدر نفسه .
٣ ص ن : ولا في تحفظه .
٤ زاد في ر : وقيل سنة سبعين .

والأول أصح . وتوفي في رجب ، وقيـل في شعبان سنة خمسين ومائة ، وقيل لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى من السنة ، وقيل سنة احدى وخمسين وقيل ثلاث وخمسين ، والأول أصح ؛ وكانت وفاته ببغداد في السجن ليلي القضاء فلم يفعل ، هذا هو الصحيح ، وقيل إنه لم يمت في السجن ، وقيل توفي في اليوم الذي ولد فيه الإمام الشافعي رضي الله عنهما ، ودفن بمقبرة الخيزران ، وقبره هناك مشهور يزار .

وزُوْطَى : بضم الزاي وسكون الواو وفتح الطاء المهملة وبعدها ألف مقصورة ، وهو اسم نبطي .

وكابُل : بفتح الكاف وضم الباء الموحدة بعد الألف وبعدها لام ، وهي ناحية معروفة من بلاد الهند ينسب إليها جماعة من العلماء وغيرهم .

وأما بابل والأنبار فهما معروفان فلا حاجة إلى الكلام عليهما .

(286) وبنى شرف الملك أبو سعد[1] محمد بن منصور الخوارزمي مستوفي مملكة السلطان ملك شاه السلجوقي على قبر الإمام أبي حنيفة مشهداً وقبة ، وبنى عنده مدرسة كبيرة للحنفية ، ولما فرغ من عمارة ذلك ركب إليها في جماعة من الأعيان ليشاهدوها ، فبيناهم هناك إذ دخل عليهمُ الشريف أبو جعفر مسعود المعروف بالبياضي الشاعر — المقدم ذكره — وأنشده :

ألم تر أن العلم كان مُبَدَّدا فجمَّعه هذا المغيَّبُ في اللحدِ
كذلك كانت هذه الأرض مَيْتَةً فأنشرها فعلُ العميد أبي سعدِ

فأجازه أبو سعد جائزة سنية .

ولهذا أبي سعد مدرسة بمدينة مرو ، وله عدة رُبُط وخانات في المفاوز ، وكان كثير الخير وعمل المعروف ، وانقطع في آخر عمره عن الخدمة ولزم بيته ، وكانوا يراجعونه في الأمور ، وتوفي في المحرم سنة أربع وستين وأربعمائة بأصبهان ، رحمه الله تعالى .

وكان بناء المشهد والقبة في سنة تسع وخمسين وأربعمائة ، وقد تقدم في ترجمة

---

[1] ر : أبو سعيد ، وقد وقع كذلك أحياناً في ق ؛ والشعر يضبطه « أبو سعد » انظر البيتين التاليين .

ألب أرسلان محمد والد السلطان ملك شاه أنه بنى مشهداً على قبر الإمام أبي حنيفة، وكذلك وجدته في بعض التواريخ، وقد غاب عني الآن من أين نقلته، ثم وجدت بعد ذلك أن الذي بنى المشهد والقبة أبو سعد المذكور، والظاهر أن أبا سعد بناهما نيابة عن ألب أرسلان المذكور، وهو كان المباشر كما جرت عادة النواب مع ملوكهم، فتسبت العمارة إليه بهذه الطريق، ويدل على ذلك أن تاريخ العمارة في أيام ألب أرسلان، وأبو سعد كان مستوفياً في أيامه، ثم استمر على وظيفته في أيام ولده ملك شاه، وهذا إنما ذكرته لنجمع بين النقلين، والله أعلم.

٧٦٦

القاضي النعمان

أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله محمد بن منصور بن أحمد بن حيون[١]، أحد الأئمة الفضلاء المشار إليهم، ذكره الأمير المختار المسبّحي في تاريخه فقال: كان من أهل العلم والفقه والدين والنبل على ما لا مزيد عليه، وله عدة تصانيف: منها كتاب «اختلاف أصول المذاهب» وغيره، انتهى كلام المسبحي في هذا الموضع.

وكان مالكي المذهب ثم انتقل إلى مذهب الإمامية، وصنف كتاب «ابتداء

---

٧٦٦ – ترجمته وأخباره في اتعاظ الحنفا: ١٤٩ ولسان الميزان ٦: ١٦٧ والنجوم الزاهرة ٤: ١٠٦ والكندي: ٢٨٦ ومرآة الجنان ٢: ٣٧٩ والشذرات ٣: ٤٧ وروضات الجنات: ٧٢٧ ومقدمة كتاب «الهمة في آداب أتباع الأئمة» وكتاب «دعائم الإسلام» وبروكلمان (الترجمة العربية) ٣: ٣٤١ – ٣٤٢ و Ivanov : A Guide to Ismaili Literature وقد أوجز صاحب المختار فيما اختاره من هذه الترجمة كثيراً.

١ ق ر ن: حيوان.

٢ اختلاف: سقطت من ق ن.

الدعوة للعُبَيديين »[1] وكتاب « الأخبار » في الفقه ، وكتاب « الاقتصار »[2] في الفقه أيضاً .

وقال ابن زولاق في كتاب « أخبار قضاة مصر » في ترجمة أبي الحسن علي بن النعمان المذكور، ما مثاله : وكان أبوه النعمان بن محمد القاضي في غاية الفضل، من أهل القرآن والعلم بمعانيه ، وعالماً بوجوه الفقه وعلم اختلاف الفقهاء واللغة والشعر الفَحْل والمعرفة بأيام الناس ، مع عقل وإنصاف[3] ، وألف لأهل البيت من الكتب آلاف أوراق بأحسن تأليف وأملح سجع ، وعمل في المناقب والمثالب كتاباً حسناً، وله ردود على المخالفين: له رد على أبي حنيفة وعلى مالك والشافعي وعلى ابن سُرَيج ، وكتاب « اختلاف الفقهاء » ينتصر فيه لأهل البيت رضي الله عنهم ، وله القصيدة الفقهية لقبها بالمنتخبة .

وكان أبو حنيفة المذكور ملازماً صحبة المعز أبي تميم معَد بن منصور – المقدم ذكره – ولما وصل من إفريقية إلى الديار المصرية كان معه ، ولم تطل مدته ، ومات في مستهل رجب سنة ثلاث وستين وثلثمائة بمصر . وذكر أحمد بن محمد بن عبد الله الفرغاني في « سيرة القائد جوهر » أنه توفي في ليلة الجمعة سلخ جمادى الآخرة من السنة[4]، وصلى عليه المعز، وذكر ابن زولاق في تاريخه بعد ذكر وفاة المعز وذكر أولاده وقضاة المعز فقال : قاضيه الواصل معه من المغرب أبو حنيفة النعمان بن محمد الداعي ، ولما وصل إلى مصر وجد جوهراً قد استخلف على القضاء أبا طاهر الذهلي البغدادي فأقره ، انتهى كلام ابن زولاق .

(287) وكان والده أبو عبد الله محمد قد عُمّر ، ويحكي أخباراً كثيرة نفيسة حفظها وعمره أربع سنين ، وتوفي في رجب سنة إحدى وخمسين وثلثمائة ، وصلى عليه ولده أبو حنيفة المذكور ، ودفن في باب سلم ، وهو أحد أبواب القيروان ، وكان عمره مائة وأربع سنين .

---

١ نشر باسم « رسالة افتتاح الدعوة » تحقيق الآنسة وداد القاضي (دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٠) .

٢ ع : الانتصار .

٣ ر : مع العقل والإنصاف .

٤ وذكر أحمد ... السنة : سقط من ع .

(288) وكان لأبي حنيفة أولاد نجباء سروات ، فمنهم أبو الحسن علي بن النعمان[1] ، أشرك المعز المذكور بينه وبين أبي طاهر محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن بجير بن صالح بن أسامة الذهلي قاضي مصر في الحكم، ولم يزالا مشتركين فيه إلى أن توفي المعز، وقام بالأمر ولده العزيز نزار – وقد تقدم ذكره أيضاً – فرد إلى القاضي أبي الحسن المذكور أمر الجامعين ودار الضرب ، وهما على الاشتراك في الحكم ، واستمرا على ذلك إلى أن لحقت القاضي أبا طاهر المذكور رطوبة عطلت شقه ومنعته من الحركة والسعي إلا محمولاً ، فركب العزيز المذكور إلى الجزيرة التي بين مصر والجيزة في مستهل صفر سنة ست وستين وثلثمائة ، فحمل أبو طاهر إليه ، فلقيه والشهود معه عند باب الصناعة، فرآه نحيلاً، وسأله استخلاف ولده أبي العلاء بسبب ما يجده من الضعف ، فحكي عن العزيز أنه قال : ما بقي إلا أن تقددوه . ثم قلد العزيز ثالث هذا اليوم القاضي أبا الحسن علي بن النعمان المذكور القضاء مستقلاً فركب إلى جامع القاهرة، وقرىء سجله، ثم عاد إلى الجامع العتيق بمصر وقرىء سجله، وكان القارىء أخاه أبا عبد الله محمد ابن النعمان ، وكان في سجله القضاء بالديار المصرية والشام والحرمين والمغرب وجميع مملكة العزيز والخطابة والإمامة والعيار في الذهب والفضة ، والموازين والمكاييل ، ثم انصرف إلى داره في جمع عظيم ، ولم يتأخر عنه أحد ، وأقام القاضي أبو طاهر المذكور منقطعاً في بيته عليلاً ، وأصحاب الحديث يترددون إليه ويسمعون عليه ، إلى أن توفي سلخ ذي القعدة سنة سبع وستين وثلثمائة ، وسنه ثمان وثمانون سنة ، ومدة ولايته ست عشرة سنة وسبعة عشر يوماً ، وأذن له العزيز أيضاً أن ينظر في الأحكام في هذه المدة ، فلم يكن فيه فضل ، وكان قد حكم في الجانب الغربي ببغداد أيضاً مدة ثم انتقل إلى مصر .

ثم إن القاضي أبا الحسن استخلف في الحكم أخاه أبا عبد الله محمداً ، وفوض إليه الحكم بدمياط وتنيس والفرما والجفار، فخرج إليها واستخلف بها ثم عاد ، ثم سافر العزيز إلى الشام في سنة سبع وستين ، وسافر معه القاضي أبو الحسن المذكور ، وجلس أخوه محمد مكانه للحكم بين الناس .

---

[1] انظر ترجمته في رفع الاصر : ٤٠٧ .

وكان القاضي أبو الحسن المذكور مفنناً في عدة فنون، منها علم القضاء والقيام به بوقار وسكينة، وعلم الفقه والعربية والأدب والشعر وأيام الناس، وكان شاعراً مجيداً في الطبقة العليا، ومن شعره ما رواه له أبو منصور الثعالبي في كتاب «يتيمة الدهر»[1] وهو قوله:

ولي صديقٌ ما مسني عدم ... مذ وقعَتْ عينُه على عدمي
أغْنى وأقنى وما يُكلفُني ... تَقبيلَ كف له ولا قَدَم
قام بأمري لما قعدتُ به ... ونمت عن حاجتي ولم ينَم

وأورد له الثعالبي أيضاً في المعنى[2]:

صديقٌ لي له أدب ... صداقةُ مثلِهِ نَسَبُ
رعى لي فوق ما يُرْعى ... وأوجب فوق ما يجب
فلو نُقِدَتْ خلائقه ... لبُهْرِجَ عندها الذهب

وأورد له أبو الحسن الباخرزي –المقدم ذكره– في كتاب «دمية القصر»[3] وأوردها أيضاً أبو محمد ابن زولاق في كتاب «أخبار قضاة مصر» في ترجمة أبي الحسن المذكور، أبياتاً أحسن فيها كل الإحسان، وهي:

رب خَوْدٍ عرفت في عرفات ... سلَبَتْني بحُسْنها حسناتي
حَرَّمَتْ حين أحْرَمَتْ نوم عيني ... واستباحت حِمايَ باللحظات
وأفاضَت معَ الحجيج ففاضَتْ ... من جُفوني سوابقُ العَبَرات
ولقد أضْرَمَتْ على القلب جَمراً ... محرقاً إذ مشت إلى الجَمَرات
لم أنل من مِنى مُنى النفس حتى[4] ... خِفْتُ بالخَيْف أن تكون وفاتي

---

١ اليتيمة ١ : ٤٠٠ .
٢ المصدر السابق : ٤٠١ .
٣ لم ترد في المطبوعة .
٤ بر ص : لكن .

ولم يزل أبو الحسن المذكور مستمراً على أحكامه ، وافر الحرمة عند العزيز ، حتى أصابته الحمى وهو بالجامع ينظر في الأحكام ، فقام من وقته ومضى إلى داره، وأقام عليلاً أربعة عشر يوماً، وتوفي في يوم الاثنين لست خلون من رجب[1] سنة أربع وسبعين وثلثمائة ، وأخرج تابوته من الغد إلى العزيز وهو معسكر بسطح الجب عند الموضع المعروف الآن بالبركة ، فوضع التابوت بالمسجد المعروف بالبئر والجميزة ، وسار العزيز إليه من مُخَيَّمِهِ حتى صلى عليه في المسجد ، وردت الجنازة إلى داره بالحمراء فدفن فيها .

والحمراء : محلة بمصر ، وهي ثلاث حمراوات ، وإنما قيل لها الحمراء لنزول الروم بها .

وأرسل العزيز إلى أخيه أبي عبد الله محمد –المذكور في هذه الترجمة– وكان ينوب عن أخيه أبي الحسن كما ذكرنا ، فقال له: إن القضاء لك من بعد أخيك، ولا تخرجه عن هذا البيت .

وكانت مدة ولاية أبي الحسن تسع سنين وخمسة أشهر وأربعة أيام . وكانت ولادته بالمغرب، في شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلثمائة، رحمه الله تعالى.

(289) وأقامت مصر بغير قاض ينظر فيها ثمانية عشر يوماً لأن أبا عبد الله كان مريضاً، ثم خف عنه المرض فركب في وقته إلى معسكر العزيز يوم الخميس لثمان بقين من رجب، ثم عاد من عنده إلى الجامع العتيق بمصر في يوم الجمعة وقد قلده العزيز القضاء وخلع عليه وقلده سيفاً، فلم يقدر على النزول في الجامع لضعفه من العلة ، فسار إلى داره ، ونزل ولده وجماعة من أهل بيته إلى الجامع العتيق بمصر ، وقرىء سجله بعد صلاة الجمعة ، وكان مثل سجل أخيه أبي الحسن في جميع ولايته .

وفي ذي القعدة سنة أربع وسبعين وثلثمائة استخلف ولده أبا القاسم عبد العزيز على القضاء بالإسكندرية بأمر العزيز ، وخلع عليه العزيز .

وفي يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى سنة خمس وسبعين عقد القاضي محمد بن النعمان المذكور نكاح ولده أبي القاسم عبد العزيز المذكور على ابنة القائد أبي

---

[1] بر : سادس شهر رجب .

الحسن جوهر – المقدم ذكره في حرف الجيم – وكان العقد في مجلس العزيز ولم يحضره إلا خواصه ، وكان الصداق ثلاثة آلاف دينار، والكتاب ثوباً مصمتاً .

وكان المعز أبو تميم معد والد العزيز المذكور قد تقدم وهو بالمغرب إلى القاضي أبي حنيفة النعمان المذكور في أول الترجمة بعمل اسطرلاب فضة ، وأن يُجْلِس مع الصائغ أحد ثقاته ، فأجلس أبو حنيفة ولده المذكور محمداً ، فلما فرغ الاسطرلاب حمله أبو حنيفة إلى المعز، فقال له : من أجلست معه ؟ فقال: ولدي محمداً ، فقال : هو قاضي مصر ، فكان كما قال ، لأن المعز كانت تحدثه نفسه أبداً بأخذ مصر ، فلهذا تلفظ بهذا الكلام ، ووافقته السعادة مع المقادير .

وقال القاضي محمد المذكور: كان المعز إذا رآني وأنا صبي بالمغرب يقول لولده العزيز: هذا قاضيك . وكان محمد جيد المعرفة بالأحكام مفنناً في علوم كثيرة حسن الأدب والدراية بالأخبار والشعر وأيام الناس ، وله شعر ، فمن ذلك قوله :

أيا مُشْبِهَ البدرِ بدرِ السماء لسبعٍ وخمسٍ مضتْ واثنتينِ
ويا كاملَ الحسنِ في نعته شَغَلْتَ فؤادي وأسهرت عيني
فهل ليَ من مَطْمعٍ أرتجيه وإلا انصرفتُ بخفّيْ حُنَين
ويشمتُ بي شامتٌ في هواك ويفصح لي ظلت صفر اليدين
فإما مننت وإما قتلت فأنت القديرُ على الحالتين

وكتب إليه عبد الله بن الحسن الجعفري السمرقندي :

تعادلَتِ القضاة علا فأما أبو عبد الإله فلا عديلُ
وحيدٌ في فضائله غريبٌ خطيرٌ في مفاخره جليل
تألق بهجةً ومضى اعتزاماً كما يتألقُ السيفُ الصقيل
فيقضي والسدادُ له حليفٌ ويعطي والغمام له رَسيل
لو اختبرتْ قضاياه لقالوا يؤيده عليها جبْرَئيل
إذا رقيَ المنابرَ فهو قسٌ وإن حضر المشاهد فالخليل

فكتب إليه القاضي محمد المذكور :

قرأنا من قريضك ما يروقُ   بدائعَ حاكها طبعٌ رقيقُ
كأن سطورها روضٌ أنيقٌ   تضوّعَ بينها مسكٌ فتيق
إذا ما أنشدت أرِجَت وطابت   منازلها بها حتى الطريق
وإنا تائقون إليك فاعلمْ   وأنت إلى زيارتنا تتوق
فواصِلنا بها في كلّ يومٍ   فأنت بكلّ مكرمةٍ حقيق

وقال ابن زولاق في « أخبار قضاة مصر » : ولم نشاهد بمصر لقاض من القضاة من الرياسة ما شاهدناه[1] لمحمد بن النعمان ، ولا بلغنا ذلك عن قاض بالعراق ، ووافق ذلك استحقاقاً ، لما فيه من العلم والصيانة والتحفظ وإقامة الحق والهيبة .

وفي المحرم سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة استخلف ولده أبا القاسم عبد العزيز المذكور في الأحكام بالقاهرة ومصر على الدوام ، بعد أن كان ينظر فيها يوم الاثنين والخميس لا غير ، فصار يسمع البينات ويحكم ويسجل ، وكان يخلفه أولاً ولد أخيه ، وهو أبو عبد الله الحسين بن علي بن النعمان ، فصرفه لعشر خلون من جمادى الأولى سنة سبع وسبعين، واستخلف ولده أبا القاسم عبد العزيز المذكور في الاثنين والخميس خاصة .

وارتفعت رتبة القاضي محمد عند العزيز حتى أصعده معه إلى المنبر يوم عيد النحر سنة خمس وثمانين ، ولما توفي العزيز في التاريخ المذكور في ترجمته تولى غسله القاضي محمد المذكور ، وقام بالأمر من بعده ولده الحاكم – المقدم ذكره – فأقر القاضي محمداً على أشغاله ، وزادت منزلته عنده رفعة وبسط يده .

ولما حصلت له المنزلة والمكنة من الدولة كثرت علله ولازمه النقرس والقولنج، فكان أكثر أوقاته عليلاً ، والأستاذ أبو الفتوح برجوان – المقدم ذكره – على جلالته وعظم شأنه يعوده كل وقت ، ثم تزايدت علته وتوفي ليلة الثلاثاء بعد العشاء الآخرة رابع صفر سنة تسع وثمانين وثلثمائة ، وركب الحاكم إلى داره بالقاهرة ، وصلى عليه فيها ووقف على دفنه ثم انصرف إلى قصره .

---

١ ق ر : ما شهدناه .

وكانت ولادته يوم الأحد لثلاث خلون من صفر سنة أربعين وثلثمائة بالمغرب.

ووهب الحاكم داره لبعض أصحابه ، فنقل القاضي محمد المذكور إلى داره التي بمصر يوم الأربعاء لتسع خلون من شهر رمضان من هذه السنة ، ثم نقل عشية الجمعة لعشر خلون من شهر رمضان المذكور إلى مقبرة أخيه وأبيه بالقرافة ، رحمهم الله تعالى .

(290) ولما مات القاضي محمد أبو عبد الله المذكور أقامت مصر بغير قاض أكثر من شهر، ثم قلد الحاكم صاحب مصر القضاء أبا عبد الله الحسين بن علي بن النعمان[1] الذي كان ينوب عن عمه القاضي محمد أبي عبد الله المذكور وصرفه واستخلف ولده أبا القاسم عبد العزيز – وقد تقدم ذكر ذلك في هذه الترجمة – وكانت ولاية الحسين المذكور لست خلون من شهر ربيع الأول سنة تسع وثمانين وثلثمائة ، واستمر في الحكم إلى يوم الخميس سادس عشر شهر رمضان سنة أربع وتسعين ، فصرف بابن عمه أبي القاسم عبد العزيز بن محمد – المقدم ذكره – ثم ضربت عنق الحسين بن علي بن النعمان المذكور يوم الأحد سادس المحرم سنة خمس وتسعين في حجرته ، وأحرقت جثته ، وذلك بأمر الحاكم ، لقصة يطول شرحها[2].

(291) واستقل أبو القاسم[3] في الأحكام ، وضم إليه الحاكم النظر في المظالم ، ولم يجتمعا قبله لأحد من أهله ، وعلت رتبته عند الحاكم وأصعده معه على المنبر يوم عيد الفطر بعد قائد القواد ، وكذلك في عيد النحر ، وتصلب في الأحكام ، وتشدد على من عانده[4] من رؤساء الدولة ، ورسم على جماعة ممن وجب عليه حق فامتنع من الخروج منه . ولم يزل قاضياً في جميع ما فوضه إليه الحاكم ، إلى أن صرفه عن ذلك جميعه يوم الجمعة سادس عشر رجب سنة ثمان وتسعين وثلثمائة .

وفوض القضاء إلى أبي الحسن مالك بن سعيد بن مالك الفارقي ، وأخرجه عن أهل بيت النعمان .

---

١ انظر ترجمة الحسين بن علي في رفع الاصر : ٢٠٧ .

٢ راجع أسباب مقتله في رفع الاصر : ٢١١ .

٣ انظر ترجمة عبد العزيز في رفع الاصر : ٣٥٩ .

٤ ق ع : عازه .

ثم إن الحاكم أمر الأتراك بقتل القاضي أبي القاسم عبد العزيز المذكور والقائد أبي عبد الله الحسين بن جوهر وأبي علي إسماعيل أخي القائد فضل بن صالح، فقتلوهم ضرباً بالسيوف في ساعة واحدة، لأمر يطول شرحه، وذلك يوم الجمعة الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وأربعمائة، رحمهم الله تعالى؛ وكانت ولادة أبي القاسم عبد العزيز المذكور يوم الاثنين مستهل ربيع الأول سنة أربع وخمسين وثلثمائة.

(292) وأما القاضي أبو طاهر المذكور، فقال أبو منصور أحمد بن عبد الله ابن أحمد الفرغاني المصري في تاريخه: إنه كان كثير الرواية حسن المجالسة، شيخ مع الشيوخ، كهل مع الكهول، شاب مع الشباب. وتوفي لليلة بقيت من ذي القعدة سنة سبع وستين وثلثمائة، رحمهم الله تعالى.

٧٦٧

السيدة نفيسة

السيدة نفيسة ابنة أبي محمد الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين؛ دخلت مصر مع زوجها إسحاق بن جعفر الصادق رضي الله عنه، وقيل بل دخلت مع أبيها الحسن وإن قبره بمصر لكنه غير مشهور، وإنه كان والياً على المدينة من قبل أبي جعفر المنصور، وأقام بالولاية مدة خمس سنين، ثم غضب عليه فعزله واستصفى كل شيء له وحبسه ببغداد، فلم يزل محبوساً حتى مات المنصور وولي المهدي فأخرجه من محبسه ورد عليه كل شيء ذهب له، ولم يزل معه.

فلما حج المهدي كان في جملته، فلما انتهى إلى الحاجر مات هناك، وذلك

---

٧٦٧ - ترجمتها في الفوات ٢ : ٦٠٧ والنجوم الزاهرة ٢ : ١٨٥ ومرآة الجنان ٢ : ٤٣ وعبر الذهبي ١ : ٣٥٥ والشذرات ٢ : ٢١ وخطط مبارك ٥ : ١٣٥ وحسن المحاضرة ١ : ٢١٨ .

في سنة ثمان وستين ومائة ، وهو ابن خمس وثمانين سنة ، وصلى عليه علي بن المهدي . — والحاجر على خمسة أميال من المدينة — وقيل إنه توفي ببغداد ودفن بمقبرة الخيزُران ، والصحيح أنه مات بالحاجر ، هكذا قاله الخطيب في تاريخه ، والله أعلم .

وكانت نفيسة من النساء الصالحات التقيات ، ويروى أن الإمام الشافعي ، رضي الله عنه ، لمـــا دخل مصر في التاريخ المذكور في ترجمته حضر إليها ، وسمع عليها الحديث وكان للمصريين فيها اعتقاد عظيم ، وهو إلى الآن باق كما كان. ولما توفي الإمام الشافعي ، رضي الله عنه ، أدخلت جنازته إليها وصلت عليه في دارها ، وكانت [مقيمة][1] في موضع مشهدها اليوم ، ولم تزل به إلى أن توفيت في شهر رمضان سنة ثمان ومائتين . ولما ماتت عزم زوجها المؤتمن إسحاق بن جعفر الصادق على حملها إلى المدينة ليدفنها هناك ، فسأله المصريون بقاءها عندهم ، فدفنت في الموضع المعروف بها الآن بين القاهرة ومصر عند المشاهـــد ، وهذا الموضع كان يعرف يومذاك بدرب السباع ، فخرب الدرب ولم يبق هناك سوى المشهد ، وقبرها معروف بإجابة الدعاء عنده ، وهو مجرب ، رضي الله عنها[2] .

---

١ زيادة من المختار .

٢ هنا ينتهي الجزء الثالث من النسخة ن ويليه الرابع .

تذييــل

استمرّ الاعتماد في هذا الجزء على المخطوطات التي ذكرت في مقدمة الجزء الرابع ولكنا زدنا عليها مخطوطتين وهما :

(١) مخطوطة آيا صوفيا (رقم : ٣٥٣٣) وقد رمزت لها بالحرف (ص) على أن يتذكر القارىء أنها ليست هي (ص) المذكورة في الجزءين الأول والثاني ، كما أنها ليست من أسرتها، وإنّما الشركة بينهما انتماؤهما إلى مكتبة واحدة وحسب ؛ وتبدأ (ص) بترجمة أبي تميم معدّ (رقم ٧٢٧ ، الصفحة : ٢٢٤ من هذا الجزء) وتقع في ١٩٣ ورقة ، وفي كل صفحة من صفحاتها ٢١ سطراً ، ومعدل الكلمات في السطر الواحد١٢ كلمة ، وخطها نسخي واضح لا بأس بالضبط فيه ، وميزتها الكبرى أنها تمثل الدور الأول من عمل المؤلف . وتنتهي بتلك الخاتمة التي يعلن فيها أنّه توقف عن عمله دون أن يتمّ حرف الياء وأن لديه مسودات أخرى أعدّها لكتاب مطوّل يكون في أكثر من عشرة أسفار ، وهذا يعني أن آخر ترجمة فيها هي ترجمة يحيى بن خالد البرمكي ؛ والنسخة ليست مؤرخة وعلى الورقة الأولى أنها الجزء الرابع من الوفيات ، وقد كتب عليها تملك واحد « تملكه الفقير إلى الله تعالى محمد بن علي بن عمر الصفدي الحنفي عفا الله عنه بالشراء الشرعي من القاضي بهاء الدين بن أبي سالم الحموى » .

(٢) مخطوطة نور عثمانية (رقم : ٣٠٧٦) ورمزها (ع) وتبدأ بترجمة الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت (رقم : ٧٦٥ ، الصفحة : ٤٠٥

من هذا الجزء) وهي في ٣٠٨ ورقات ، في كل صفحة من صفحاتها ٢٥ سطراً ، ومعدل الكلمات في السطر الواحد ١١ كلمة ؛ والخط أيضاً نسخي واضح ، ونسبة الضبط حسنة ؛ وهي تحوي تراجم الكتاب حتى آخره حسب الشكل الأخير الذي وضعه فيه مؤلفه ، وقد نسخت سنة ٧٢٥ على يد علي بن جمعة بن أبي الحسن بن حسان، ثم بخط مختلف أنها قوبلت بالنسخة التي في الخزانة العالية المولوية السلطانية الملكية المؤيدية في أوقاتٍ آخرها العشرين (؟) من ذي القعدة سنة ثماني وعشرين وسبعمائة بحسب الطاقة .

محتويات الكتاب

تتمة حرف الميم

حرف النون

فهرست التراجم العارضة

١ سقط الرقم 272 من موضعه .

Ibn Khallikān

WAFAYĀT EL - A'YĀN

(Biographies of Illustrious Men)

Edited by

Ihsān Abbās, Ph. D.

Vol V

Dar SADER, publishers

P. O. B. 10

BEIRUT, Lebanon